من أكثر الكتب **مبيعًا في العالم**

"لقد انضمت وولز إلى زمرة من الكتاب مثل ماري كار وفرانك ماكروت الذين تمكنوا من تحويل ذكرياتهم الحزينة إلى فن رفيع".

- بيبول

القلعة الزجاجية

مذكرات

جينيت وولز

مؤلفة كتاب HALF BROKE HORSES و THE SILVER STAR

مكتبة جرير
JARIR BOOKSTORE
... ليست مجرد مكتبة
... not just a Bookstore

القلعة الزجاجية

مذكرات

جينيت وولز

مكتبة جرير
JARIR BOOKSTORE
... not just a Bookstore
...ليست مجرد مكتبة

للتعرف على فروعنا

نرجو زيارة موقعنا على الإنترنت **www.jarir.com**

للمزيد من المعلومات الرجاء مراسلتنا على: **jbpublications@jarirbookstore.com**

تحديد مسئولية / إخلاء مسئولية من أي ضمان

هذه ترجمة عربية لطبعة اللغة الإنجليزية. لقد بذلنا قصارى جهدنا في ترجمة هذا الكتاب، ولكن بسبب القيود المتأصلة في طبيعة الترجمة، والناتجة عن تعقيدات اللغة، واحتمال وجود عدد من الترجمات والتفسيرات المختلفة لكلمات وعبارات معينة، فإننا نعلن وبكل وضوح أننا لا نتحمل أي مسئولية ونُخلي مسئوليتنا بخاصة عن أي ضمانات ضمنية متعلقة بملاءمة الكتاب لأغراض شرائه العادية أو ملاءمته لغرض معين. كما أننا لن نتحمّل أي مسئولية عن أي خسائر في الأرباح أو أي خسائر تجارية أخرى، بما في ذلك على سبيل المثال لا الحصر، الخسائر العرضية، أو المترتبة، أو غيرها من الخسائر.

الطبعة الأولى ٢٠٢٥

حقوق الترجمة العربية والنشر والتوزيع محفوظة لمكتبة جرير

ARABIC edition published by JARIR BOOKSTORE.
Copyright © 2025. All rights reserved.

لا يجوز إعادة إنتاج أو تخزين هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي نظام لتخزين المعلومات أو استرجاعها أو نقله بأية وسيلة إلكترونية أو آلية أو من خلال التصوير أو التسجيل أو بأية وسيلة أخرى .

إن المسح الضوئي أو التحميل أو التوزيع لهذا الكتاب من خلال الإنترنت أو أية وسيلة أخرى بدون موافقة صريحة من الناشر هو عمل غير قانوني. رجاءً شراء النسخ الإلكترونية المعتمدة فقط لهذا العمل، وعدم المشاركة في قرصنة المواد المحمية بموجب حقوق النشر والتأليف سواء بوسيلة إلكترونية أو بأية وسيلة أخرى أو التشجيع على ذلك. ونحن نقدر دعمك لحقوق المؤلفين والناشرين.

رجاءً عدم المشاركة في سرقة المواد المحمية بموجب حقوق النشر والتأليف أو التشجيع على ذلك.
نقدر دعمك لحقوق المؤلفين والناشرين.

إخلاء المسئولية:
تم تغيير أسماء وبعض التفاصيل التي يمكن أن تساعد في التعرف على الشخصيات في هذا الكتاب.

Copyright © 2005 by Jeannette Walls
All rights reserved, including the right of reproduction
in whole or in part in any form.

The Glass Castle

a memoir

Jeannette Walls

JARIR BOOKSTORE
... not just a Bookstore

أمي روز ماري، وأبي ريكس وولز،
في يوم زفافهما، عام 1956

إلى جون،
لإقناعي بأن كل شخص
مثير للاهتمام له تاريخ

شكر وتقدير

أود أن أشكر أخي، براين، على وقوفه بجانبي في أثناء نشأتنا، وفي أثناء كتابتي هذا العمل. كما أعبر عن امتناني لوالدتي، لإيمانها بالفن والحقيقة ودعمها فكرة هذا الكتاب، ولأختي الكبرى العبقرية الموهوبة، لوري، لتقبلها الفكرة، ولأختي الصغرى، مورين، التي سأحبها دائمًا. وأيضًا لوالدي، ريكس إس. وولز، لكونه حالمًا بتلك الأحلام الكبيرة.

شكر خاص جدًا لوكيلتي، جينيفر رودولف والش، على تعاطفها وذكائها وإصرارها ودعمها المتحمس، ولمحررتي، نان جراهام، لحسها المرهف بمعرفة القدر الكافي من الكلمات وعنايتها العميقة بالنص، ولألكسيس جارجاليانو لقراءاتها المتأنية والحساسة.

كما أتوجه بخالص امتناني إلى جاي وبيتسي تايلور، ولوري بيك، وسينثيا وديفيد يونج، وآيمي وجيم سكالي، وآشلي بيرسون، ودان ماثيوز، وسوزان واتسون، وجيسيكا تايلور، وأليكس جيريوس لدعمهم المبكر والمستمر.

لا يسعني أبدًا أن أشكر زوجي، جون تايلور، بما يكفي لإقناعه لي بأن الوقت قد حان لرواية قصتي، ولأنه ساعدني على استخراجها من أعماقي.

"الظلام سبيلنا، والنور مسعانا،
والجنة، التي لم تكن لنا من قبل
ولن تكون أبدًا، هي الحقيقة الدائمة".

-ديلان توماس،
Poem on His Birthday

1

امرأة في الشارع

كنت أجلس في سيارة أجرة، أتساءل إن كنت قد بالغت في أناقتي لهذه الأمسية، عندما نظرت من النافذة، ورأيت أمي تنبش في حاوية قمامة. كان الوقت قد تجاوز الغروب بقليل. كانت رياح مارس العاتية تذرو البخار المتصاعد من فتحات الصرف الصحي، بينما كان المارة يسرعون على الأرصفة، وهم يرفعون ياقات معاطفهم. كنت عالقة في الزحام المروري على بُعد مبنيين من الحفلة التي كنت في طريقي إليها.

كانت أمي تقف على بُعد خمسة عشر قدمًا. لقد ربطت خرقًا حول كتفيها لتحمي نفسها من برودة الربيع، وكانت تبحث في القمامة بينما كان كلبها -كلب هجين من سلالة التيرير ذو لونين أبيض وأسود- يلهو عند قدميها. كانت حركات أمي مألوفة تمامًا، الطريقة التي تميل بها رأسها وشفتها السفلى التي تبرز عند تفحصها للأشياء التي قد تكون ذات قيمة والتي تستخرجها من الحاوية، والطريقة التي تتسع بها عيناها بابتهاج طفولي عندما تجد شيئًا يعجبها. كان شعرها الطويل مغطى بخصلات رمادية متشابكة ومشعثة، وعيناها غائرتين في محجريهما، لكنها رغم ذلك ذكرتني بالأم التي عرفتها وأنا طفلة، تلك التي كانت تقفز من فوق المنحدرات، وترسم في الصحراء، وتقرأ شكسبير بصوت عالٍ. كانت عظام وجنتيها لا تزال مرتفعة وقوية، لكن بشرتها كانت متشققة ومحمرّة من قسوة الفصول. بالنسبة إلى المارة، بدت لهم على الأرجح كأي من آلاف المشردين في مدينة نيويورك.

مرّت شهور منذ أن رأيت أمي آخر مرة، وعندما رفعت رأسها، غمرني شعور بالذعر. كنت خائفة أن تراني وتنادي باسمي، ومن أن يرى أحد في طريقه إلى الحفلة نفسها هذا المشهد، فتكشف أمي عن نفسها، ويُفضح سرّي.

انكمشت في المقعد، وطلبت من السائق أن يعيدني إلى منزلي في شارع بارك أفينيو.

توقفت سيارة الأجرة أمام بنايتي، ففتح البواب الباب لي، وصعد بي عامل المصعد إلى طابقي. كان زوجي يعمل حتى وقت متأخر، كما يفعل في معظم الليالي، وكانت الشقة صامتة إلا من صوت خطواتي العالي على أرضية الخشب المصقولة. ما زلت مضطربة لرؤية أمي، فاجأني الموقف ووقع رؤيتها تبحث ببهجة في القمامة. وضعت مقطوعة لفيفالدي على أمل أن تهدئ الموسيقى من روعي.

نظرتُ حول الغرفة. كانت هناك المزهريات البرونزية والفضية من أوائل القرن العشرين، والكتب القديمة ذات الأغلفة الجلدية البالية التي جمعتها من أسواق السلع المستعملة. وخرائط جورجية مؤطرة، وسجاد فارسي، وكرسي من الجلد مبطن كنت أحب الاسترخاء عليه في نهاية اليوم. حاولت أن أصنع منزلًا لنفسي هنا، حاولت أن أحول الشقة إلى نوع المكان الذي تعيش فيه الشخصية التي أردت أن أكونها. لكنني لم أستطِع أبدًا الاستمتاع بالغرفة، دون أن أقلق بشأن أمي وأبي، ربما كانا متكورين على شبكة تهوية في أحد الشوارع، يبحثان عن الدفء والطعام. كنت أشعر بالقلق عليهما، لكنني كنت أخجل منهما أيضًا، وأشعر بالخزي من نفسي لارتدائي اللآلئ والعيش في بارك أفينيو، بينما والداي منهمكان في البحث عن الدفء والطعام.

ماذا يمكنني أن أفعل؟ حاولت مساعدتهما مرات لا تُحصى، لكن والدي كان يصر على أنهما ليسا بحاجة إلى شيء، بينما طلبت والدتي أحيانًا أشياء تافهةً كزجاجة عطرٍ صغيرة أو عضوية في نادٍ صحي. كانا يقولان إنهما يعيشان بالطريقة التي يريدانها.

بعد أن انكمشت في المقعد الخلفي لسيارة الأجرة حتى لا تراني أمي، كرهت نفسي، كرهت أشيائي، وملابسي، وشقتي. كان عليّ فعل شيءٍ ما، لذا اتصلت بصديقة لأمي، وتركت لها رسالة. كان هذا نظامنا للبقاء على تواصل. كانت أمي دائمًا ما تحتاج إلى بضعة أيام لتعاود الاتصال بي، لكنها حين تفعل، كانت تبدو، كعادتها، مبتهجةً وعفوية، كأننا تناولنا الغداء معًا أمس. أخبرتها أنني أرغب في رؤيتها، واقترحت أن تأتي إلى شقتي، لكنها فضلت الذهاب

إلى مطعم. كانت تحب تناول الطعام في الخارج، لذلك اتفقنا على اللقاء لتناول الغداء في مطعمها الصيني المفضل.

كانت أمي جالسة في أحد الأكشاك تتأمل قائمة الطعام عندما وصلت. بذلت مجهودًا لتعتني بمظهرها. ارتدت سترة رمادية ضخمة بها عدد قليل من البقع الخفيفة، وحذاءً رجاليًا أسود من الجلد. غسلت وجهها، لكن عنقها وجانبي رأسها كانا لا يزالان مظلمين بالاتساخ.

لوحت لي بحماس عندما رأتني. وصاحت: "إنها طفلتي الصغيرة!". قبّلت خدها. كانت أمي قد جمعت كل أكياس صلصة الصويا والصلصة الحارة وصلصة البط من الطاولة في حقيبتها. والآن أفرغت وعاءً خشبيًا من النودلز المجففة داخلها أيضًا. وبررت فعلتها بقولها: "وجبة خفيفة لوقت لاحق".

طلبنا الطعام. اختارت أمي طبق "مأكولات بحرية فاخرة". قائلة: "أنتِ تعرفين كم أحب المأكولات البحرية".

بدأت تتحدث عن بيكاسو. كانت قد حضرت معرضًا استعاديًا لأعماله، وقررت أنه مُبالغ في تقديره. كل تلك الأعمال التكعيبية كانت مجرد خدعة، من وجهة نظرها. لم يُنجز أعمالًا فنية تُضاهي قيمة ما قدمه في مرحلته الوردية.

قلت: "أنا قلقة عليكِ، أخبريني بما يمكنني فعله لمساعدتكِ".

تلاشت ابتسامتها قائلة: "وما الذي يجعلكِ تظنين أنني بحاجة إلى مساعدتكِ؟".

قلت: "لست ثرية، لكن لديَّ بعض المال. أخبريني بما تحتاجين إليه".

فكرت للحظة وقالت: "أحتاج إلى جلسة ليزر لإزالة الشعر".

"كوني جادة".

"أنا جادة. إذا بدت المرأة بمظهر جيد، تشعر بالسعادة".

شعرت بأن كتفيّ تتوتران، كما يحدث دائمًا خلال هذا النوع من المحادثات، وقلت: "بربكِ يا أمي! أنا أتحدث عن شيء يمكن أن يساعدكِ على تغيير حياتكِ، لجعلها أفضل".

سألت أمي: "هل تريدين مساعدتي لتغيير حياتي؟ أنا بخير. أنتِ من تحتاجين إلى المساعدة. قيمكِ مختلّة تمامًا".

"أمي، رأيتكِ تنبشين في القمامة في شارع إيست فيليدج قبل أيام".

"حسنًا، الناس في هذا البلد مسرفون جدًا. إنها طريقتي لإعادة التدوير". تناولت لقمة من طبق المأكولات البحرية الفاخرة خاصتها ثم قالت: "لماذا لم تلقي عليَّ التحية؟".

"شعرت بالخجل يا أمي، فاختبأت".

أشارت أمي إليّ بعيدان الطعام. "هل ترين؟ هذا ما أتحدث عنه بالضبط. أنتِ سريعة الخجل على نحو مبالغ فيه. بينما أنا ووالدكِ نظل على طبيعتنا. تقبّلي ذلك".

"وماذا من المفترض أن أخبر الناس عن والديّ؟".

قالت أمي: "فقط قولي الحقيقة، الأمر سهل".

2

الصحراء

كنت في قمة تألقي.

هذه أقدم ذكرى لي. كنت في الثالثة من عمري، وكنا نعيش في منتزه للمقطورات ببلدة في جنوب أريزونا لم أعرف اسمها قط. كنت أقف على كرسي أمام الموقد، أرتدي فستانًا ورديًا اشترته لي جدتي. كان اللون الوردي لوني المفضل. وكانت تنورة الفستان مُنتفخة ومنفوشة كالتنورة القصيرة التي ترتديها راقصات الباليه، وكنتُ أُحب الدوران أمام المرآة، غارقةً في تخيل أنني راقصة باليه. لكن في تلك اللحظة، كنت أرتدي الفستان لطهو النقانق، أراقبها تنتفخ وتتراقص في الماء المغلي، بينما يتسلل ضوء شمس الظهيرة عبر نافذة المطبخ الصغيرة للمقطورة.

كنت أسمع أمي في الغرفة المجاورة تغني، بينما تعمل على إحدى لوحاتها. كان "جوجو"، كلبنا الأسود الشارد، يراقبني. غرزت شوكة في أحد أصابع النقانق، وانحنيت لأقدمها له. كانت النقانق ساخنة، لذا كان "جوجو" يلعقها بحذر. لكن عندما عدت للوقوف وبدأت تحريك النقانق مرة أخرى، شعرت بموجة حارقة على جانبي الأيمن. التفت لأرى مصدرها، وأدركت أن فستاني اشتعلت فيه النيران. تجمدت من الرعب وأنا أشاهد اللهب الأصفر والأبيض وهو يرسم خطًا بنيًا متعرجًا على قماش التنورة الوردي، ويتسلق نحو بطني. ثم قفزت النيران لتصل إلى وجهي.

صرخت. شممت رائحة الاحتراق، وسمعت صوت طقطقة مروعًا، بينما كانت النيران تلتهم شعري ورموشي. كان "جوجو" ينبح. صرخت مرة أخرى.

ركضت أمي إلى الغرفة.

صرخت قائلة: "أمي، ساعديني!". كنت لا أزال أقف على الكرسي، ألوّح بالشوكة التي كنت أستخدمها لتحريك النقانق، محاولة إخماد النيران.

ركضت أمي خارج الغرفة، وعادت بأحد الأغطية العسكرية الخشنة التي كنت أكرهها بسبب خشونة الصوف. لفّت الغطاء حولي لإخماد النيران. كان أبي قد غادر بالسيارة، لذا حملتني أمي، وأخذت أخي الصغير براين، وهرعت بنا إلى المقطورة المجاورة. كانت المرأة التي تعيش هناك تنشر غسيلها على الحبل، وكانت تمسك مشابك غسيل بين أسنانها. بصوت هادئ على نحو غير طبيعي، شرحت أمي ما حدث وطلبت منها توصيلنا إلى المستشفى. أسقطت المرأة المشابك والغسيل على الأرض، ودون أن تنطق بأي كلمة، ركضت نحو سيارتها.

عندما وصلنا إلى المستشفى، وضعتني الممرضات على نقالة. تحدثن بهمساتٍ قلقة بصوت عالٍ، بينما قطعن ما تبقى من فستاني الوردي الفاخر بمقص لامع. ثم رفعنني ومدّدنني على سرير معدني كبير مغطى بمكعبات الثلج، ونثرن بعضًا من الثلج على جسمي. أخذ طبيب، ذو شعر فضي ونظارة ذات إطار أسود، أمي إلى خارج الغرفة. بينما كانا يغادران، سمعت الطبيب يخبرها أن الوضع خطير جدًا. بقيت الممرضات خلفه يَحُمنَ حولي. كنت أدرك أنني أسبب لهن قلقًا كبيرًا، لذا بقيت صامتة. ضغطت إحداهن على يدي، وقالت لي إنني سأكون بخير.

قلت: "أعلم ذلك. لكن إذا لم أكن كذلك، فلا بأس بذلك أيضًا".

ضغطت الممرضة على يدي مجددًا، وعضت شفتها السفلى.

كانت الغرفة صغيرة وبيضاء، تضيئها مصابيح ساطعة، وتحوي خزانات معدنية. حدقت لوهلة بصفوف النقاط الصغيرة على ألواح السقف. كانت مكعبات الثلج تغطي بطني وضلوعي، وتضغط على وجنتيّ. من زاوية عيني، رأيت يدًا صغيرة متسخة تمتد لبضع

بوصات من وجهي، وتلتقط حفنة من مكعبات الثلج. سمعت صوت قضم عالٍ ونظرت إلى أسفل. كان براين يأكل الثلج.

قال الأطباء إنني كنت محظوظة، لأنني ما زلت على قيد الحياة. أخذوا رقعًا جلدية من فخذي، ووضعوها على المناطق الأكثر احتراقًا في بطني وضلوعي وصدري. قالوا إن هذا يُسمى ترقيع الجلد. عندما انتهوا، لفّوا جانبي الأيمن بالكامل بضمادات.

قلت لإحدى الممرضات: "انظري، أنا نصف مومياء". ابتسمت ووضعت ذراعي اليمنى في حمالة، وعلقتها على لوح الرأس، حتى لا أتمكن من تحريكها.

واصل الأطباء والممرضات طرح الأسئلة عليّ: كيف تعرضتِ للاحتراق؟ هل سبق أن آذاكِ والداكِ؟ لماذا لديكِ كل هذه الكدمات والجروح؟ أجبتهم بأن والديّ لم يؤذياني قط. كنت أصاب بالجروح والكدمات في أثناء اللعب في الخارج، أما الاحتراق فمن طهو النقانق. سألوا ما الذي جعلني أطبخ النقانق بمفردي وأنا في سن الثالثة، فقلت: "الأمر سهل، ما عليك سوى وضع النقانق في الماء وغليها. الأمر ليس وصفة معقدة تحتاج إلى سن معينة لفهمها". كانت القدر ثقيلة جدًا بالنسبة إليّ لرفعها عندما تكون ممتلئة بالماء، لذا كنت أضع كرسيًا بجانب الحوض، أصعد عليه وأملأ كوبًا بالماء، ثم أقف على كرسي بجانب الموقد، وأفرغ الماء في القدر. كنت أكرر ذلك مرارًا حتى تمتلئ القدر بالماء. ثم كنت أشعل الموقد، وعندما يغلي الماء، أضع النقانق فيه. وأضفت إلى قولي لهم: "كانت أمي تقول إنني ناضجة مقارنةً بسني، وكانت تسمح لي بالطهو كثيرًا".

نظرت ممرضتان إلى بعضهما، وكتبت إحداهما شيئًا على لوح الكتابة. سألتُ: "ما الخطب؟". ردتا باستخفاف: "لا شيء، لا شيء".

كل بضعة أيام، كانت الممرضات يغيرن الضمادات. كُن يضعن الضمادة المستخدمة جانبًا، مكرمشة ومغطاة بآثار دماء وإفرازات صفراء وقطع صغيرة من الجلد المحترق. ثم يضعن ضمادة جديدة، قطعة قماش كبيرة وشفافة، على الحروق. في الليل، كنت أتحسس بيدي

اليسرى سطح الجلد الخشن المتقشر غير المغطى بالضمادة. أحيانًا كنت أزيل القشور، بالرغم من تحذير الممرضات لي ألا أفعل ذلك، لكنني لم أستطِع مقاومة شدها ببطء لمعرفة مدى كبر القشرة التي يمكنني نزعها. وبمجرد أن أحرر بضعًا منها، كنتُ أتصورُها تزقزق بأصوات خافتة كالعصافير.

كان المستشفى نظيفًا ولامعًا. كل شيء كان أبيض -الجدران والملاءات وزي الممرضات- أو فضيًا، الأسِرّة والأواني والأدوات الطبية. كان الجميع يتحدثون بأصوات مهذبة وهادئة. كان المكان هادئًا لدرجة أنك تستطيع سماع صوت أحذية الممرضات المطاطية تصدر صريرًا على طول الممر. لم أكن معتادة الهدوء والنظام، وأحببت ذلك الأمر.

كما أحببت أن لديَّ غرفة خاصة بي، إذ كنت في المنزل أشارك الغرفة مع أخي وأختي. حتى إن غرفتي بالمستشفى كانت تحتوي على جهاز تلفاز خاص بها مثبت على الحائط. لم يكن لدينا تلفاز في المنزل، لذا كنت أشاهده كثيرًا. كان الممثلان "ريد بوتنز" و"لوسيل بول" من بين المفضلين لديّ.

كان الأطباء والممرضات يسألونني دائمًا كيف أشعر، وما إذا كنت جائعة، أو أحتاج إلى شيء ما. وكانت الممرضات يجلبن إليَّ وجبات لذيذة ثلاث مرات يوميًا، مع كوكتيل الفواكه أو الجيلي للتحلية، ويغيرن الملاءات وإن كانت لا تزال نظيفة. أحيانًا كنت أقرأ لهن، وكنّ يقلن لي إنني ذكية جدًا، وأقرأ على نحو جيد كما لو كنت في السادسة من عمري.

في أحد الأيام، كانت ممرضة، بشعر أشقر مموج وماكياج أعين أزرق، تمضغ شيئًا ما. سألتها عما كانت تمضغه، فأخبرتني أنها علكة. لم أسمع قط عن العلكة، فذهبت وأحضرت لي علبة كاملة. أخرجت قطعة، وأزلت الورقة البيضاء والرقاقة الفضية اللامعة تحتها، وتأملت تلك العلكة ذات اللون الباهت الذي يشبه لون معجون التلوين. وضعتها في فمي، ودُهشت من حلاوتها اللاذعة. قلت: "إنها لذيذة جدًا!".

قالت الممرضة وهي تضحك: "امضغيها، لكن لا تبتلعيها"، وابتسمت ابتسامة عريضة، وجلبت ممرضات أخريات ليشاهدنني وأنا أمضغ أول قطعة من العلكة في حياتي. وعندما أحضرت لي الغداء، قالت لي إن عليَّ إخراج العلكة من فمي، لكنها طمأنتني بأنه يمكنني الحصول على قطعة جديدة بعد تناول الطعام. وإذا أنهيت العلبة، فستشتري لي واحدة أخرى. هذا هو الشيء الذي كان يميز المستشفى. لم يكن عليك القلق بشأن نفاد الأشياء مثل الطعام أو الثلج أو حتى العلكة. كنت سأكون سعيدة بالبقاء هناك إلى الأبد.

عندما جاءت عائلتي لزيارتي، كانت أصوات جدالهم وضحكهم وغنائهم وصراخهم تتردد في الممرات الهادئة. كانت الممرضات يطلبن منهم خفض أصواتهم، فتخفض أمي وأبي ولوري وبراين أصواتهم لدقائق، ثم يعود الصخب تدريجيًا. كان الجميع دائمًا ينظرون إلى أبي. لم أستطِع أن أقرر ما إذا كان ذلك بسبب وسامته أو لأنه كان ينادي الناس بـ"رفيقي" أو "صاحبي" ويومئ برأسه إلى الوراء عندما يضحك.

في أحد الأيام، انحنى أبي فوق سريري، وسألني إذا كان الأطباء والممرضات يعاملونني على نحو جيد. قال إنه إذا لم يكونوا كذلك، فسيركل مؤخرتهم. أخبرت أبي كم أن الجميع لطيفون وودودون. فقال لي: "حسنًا، بالطبع يعاملونكِ على هذا النحو، فهم يعرفون أنكِ ابنة ريكس وولز".

عندما أرادت أمي أن تعرف عن لطف معاملة الأطباء والممرضات لي، أخبرتها عن العلكة. قالت: "أُفٍّ". لم تكن أمي توافق على مضغ العلكة، واستطردت قائلة إنها عادة مقززة، ومن طبقة متدنية، وكان يجب على الممرضة أن تستشيرها قبل أن تشجعني على مثل هذا السلوك الفظ. وأضافت أنها ستلقن تلك المرأة درسًا بلا شك. وأضافت أمي: "على كل حال، أنا والدتكِ، ويجب أن يكون لي رأي في كيفية تربيتكِ".

سألت أختي الكبرى لوري خلال إحدى الزيارات: "هل تفتقدوني يا شباب؟".

أجابت: "ليس حقًا، حدثت أشياء كثيرة".

"مثل ماذا؟".

"أشياء عادية فقط".

قال أبي: "ربما لا تفتقدكِ لوري يا حلوتي، لكنني أفتقدكِ كثيرًا، ما كان يجب أن تكوني في هذا المكان الخاص بالمرضى".

جلس على سريري، وبدأ يروي لي قصة المرة التي لدغ فيها عقرب سام أختي لوري. كنت قد سمعت القصة عشرات المرات، لكني ما زلت أحب طريقة أبي في السرد. كان أبي وأمي يستكشفان الصحراء عندما كانت لوري، التي كانت في الرابعة من عمرها، قد قلبت صخرة، ولدغها العقرب، الذي كان يختبئ تحتها، في ساقها. أصيبت بتشنجات، وأصبح جسمها متيبسًا ومبللًا بالعرق. لكن أبي لم يكن يثق بالمستشفيات، لذا أخذها إلى طبيب ساحر من قبيلة "نافاجو" شقّ الجرح، ووضع عليه معجونًا بنيًا داكنًا، وردد بعض التعاويذ، وما لبثت لوري أن تعافت. قال أبي: "كان يجب على والدتكِ أن تأخذكِ إلى ذلك الساحر في اليوم الذي احترقتِ فيه، وليس إلى هؤلاء الأطباء الحمقى المتخرجين في كليات الطب".

في المرة التالية التي زاروني فيها، كان رأس براين ملفوفًا بضمادة بيضاء ملطخة ببقع دم جافة. قالت أمي إنه سقط من فوق ظهر الأريكة، وشج رأسه على الأرض، لكنها وأبي قررا عدم أخذه إلى المستشفى.

قالت أمي: "كان يوجد دم في كل مكان، لكن يكفي وجود طفل واحد في المستشفى".

أضاف أبي: "علاوة على أن رأس براين صلب جدًا، فأعتقد أن الأرض هي التي تضررت أكثر منه".

ضحك براين على ذلك كثيرًا، وظل يضحك مقهقهًا.

أخبرتني أمي أنها سجلت اسمي في سحب في أحد المعارض، وفزت بجولة في طائرة مروحية. كنت متحمسة للغاية، فلم أكن قد اختبرت تجربة ركوب طائرة، سواء كانت مروحية أم تقليدية.

سألت: "متى سأقوم بالرحلة؟".

قالت أمي: "أوه، لقد قمنا بها بالفعل، وقد كانت ممتعة".

ثم دخل أبي في جدال مع الطبيب. بدأ الأمر لأن أبي اعتقد أنه لا يجب عليَّ ارتداء الضمادات. وقال للطبيب: "الحروق تحتاج إلى التهوية".

قال الطبيب إن الضمادات ضرورية لمنع العدوى. حدق أبي بالطبيب وقال: "اللعنة على العدوى!". وأخبر الطبيب أنني سأظل أحمل ندبة مدى الحياة بسببه، لكنه أقسم أنني لن أكون الوحيدة التي ستخرج من هنا مجروحة.

رفع أبي قبضته كأنه سيضرب الطبيب، الذي رفع يديه، وتراجع إلى الوراء. وقبل أن يتصاعد الموقف، ظهر حارس بزيٍّ رسمي، وأخبر أمي وأبي ولوري وبراين أنه يتعين عليهم المغادرة.

لاحقًا، سألتني إحدى الممرضات إذا كنت بخير. أجبتها: "بالطبع"، وأخبرتها أنني لا أهتم إذا كانت لديَّ ندبة تافهة. فقالت إن هذا لأمر جيد، لأن منظري يوحي بأن لديّ ما هو أهم لأقلق بشأنه.

بعد بضعة أيام، حين مضى على مكوثي في المستشفى حوالي ستة أسابيع، ظهر أبي وحده في مدخل غرفتي، وأخبرني أننا سنغادر المستشفى على طريقة ريكس وولز.

سألته: "هل أنت متأكد أن هذا الأمر مسموح به؟".

أخبرني: "فقط ثقي بوالدكِ العجوز".

فكّ ذراعي اليمنى من الحمالة فوق رأسي. وبينما كان يحتضنني، استنشقتُ رائحته المألوفة، التي كانت تحمل أثر مُثبّت الشعر مع رائحة خفيفة أخرى، ذكرتني بالبيت.

أسرع أبي في السير عبر الممر وأنا بين ذراعيه. صاحت إحدى الممرضات تطلب منا التوقف، لكن أبي ركض مسرعًا. فتح باب مخرج الطوارئ، واندفع عبر السلالم إلى الشارع. كانت سيارتنا العتيقة -سيارة "بليموث" أطلقنا عليها "الإوزة الزرقاء"- متوقفة في زاوية شارع، والمحرّك يعمل. كانت أمي تجلس في المقعد الأمامي، ولوري وبراين في المقعد الخلفي مع جوجو. وضعني أبي بجانب أمي وتولى القيادة.

قال أبي: "لا داعي إلى القلق من الآن فصاعدًا يا صغيرتي، أنتِ بأمان الآن".

بعد بضعة أيام من عودة أمي وأبي بي إلى المنزل، طهوت بعض النقانق بنفسي. كنت جائعة، وكانت أمي منشغلة برسم لوحة، ولم يكن هناك أحد ليعدّ لي الطعام.

قالت أمي عندما رأتني أطهو: "أحسنتِ صنعًا. يجب أن تعودي مباشرة إلى السرج. لا يمكنكِ أن تعيشي في خوف من شيء أساسي مثل النار".

لم أكن خائفة. بل أصبحت مفتونة بها. كان أبي أيضًا يرى أنه يجب أن أواجه عدوي، وعلّمني كيف أُمرر إصبعي خلال لهب شمعة. فعلت ذلك مرارًا، أُبطئ حركة إصبعي مع كل مرة، وأراقب كيف بدا كأنه يقطع اللهب إلى نصفين، وأختبر مدى تحمل إصبعي للحرارة، دون أن يحترق فعليًا. كنت دائمًا أبحث عن نيران أكبر. في كل مرة يحرق الجيران القمامة، كنت أركض لمشاهدة اللهب يحاول الإفلات من صندوق القمامة. كنت أتقدم أكثر فأكثر، أشعر بحرارة النيران على وجهي، حتى أصل إلى نقطة لا أتحملها، ثم أتراجع قليلًا بما يكفي لتحملها.

كانت السيدة الجارة التي أوصلتني إلى المستشفى مندهشة من أنني لم أهرب من أي نار أراها. زمجر أبي بفخر وهو يبتسم: "ولماذا قد تهرب من ذلك؟ لقد واجهت النار مرة

وفازت".

بدأت أسرق أعواد الثقاب من أبي. كنت أذهب خلف المقطورة وأشعلها. أحببت صوت الاحتكاك بين العود والشريط البني الرملي عند إشعاله، والطريقة التي تقفز بها الشعلة من رأس العود المغطى بالطلاء الأحمر مع صوت فرقعة وهسهسة. كنت أشعر بحرارتها بالقرب من أطراف أصابعي، ثم ألوح بها لأطفئها بانتصار. كنت أشعل قطعًا من الورق وأكوامًا صغيرة من الأغصان الجافة، وأحبس أنفاسي حتى تصل النيران إلى نقطة تبدو فيها على وشك الخروج عن السيطرة. ثم أطفئها بقدمي، وأردد الشتائم التي يستخدمها أبي مثل: "يا لك من وغد!"، و"يا لك من لعين!".

في أحد الأيام، أخذتُ لعبتي المفضلة، وهي دمية شخصية تينكربيل البلاستيكية، وذهبتُ للعب في الفناء الخلفي. كانت بطول بوصتين، بشعر أصفر مربوط كذيل حصان عالٍ، ويدين على وركيها على نحو واثق ومغرور أثار إعجابي. أشعلت عود ثقاب، واقتربت به من وجه تينكربيل لأجعلها تجرّب الإحساس. بدت أكثر جمالًا في وهج اللهب. وعندما انطفأ العود، أشعلت عودًا آخر، وهذه المرة قربته كثيرًا من وجهها. وفجأة، اتسعت عيناها كما لو أنها خائفة؛ أدركت برعب أن وجهها بدأ يذوب. أطفأت العود بسرعة، لكن الأوان كان قد فات. كان أنف تينكربيل الصغير المثالي قد اختفى تمامًا، وحلّت محل شفتيها الحمراوين الجريئتين لطخة قبيحة ومشوهة. حاولت إعادة ملامحها إلى ما كانت عليه، لكنني جعلت الأمر أسوأ. وبعد لحظات فقط، برد وجهها وتصلبت ملامحها مجددًا. وضعت ضمادات عليه. تمنيت لو أستطيع إجراء عملية ترقيع جلد لتينكربيل، لكن ذلك كان يعني تقطيعها إلى أجزاء. وعلى الرغم من تشوه وجهها، ظلت لعبتي المفضلة.

عاد أبي إلى المنزل في منتصف الليل بعد بضعة أشهر، وأيقظنا جميعًا من أسرّتنا.

صاح قائلًا: "حان الوقت لجمع الأمتعة، وترك هذا المكان الملعون خلفنا!".

كان لدينا خمس عشرة دقيقة لجمع ما نحتاج إليه والصعود إلى السيارة.

سألته: "أبي، أكلُّ شيء على ما يرام؟ أهناك من يطاردنا؟".

أجابني: "لا تقلقي بشأن ذلك. اتركي الأمر لي. ألم أعتنِ بكم دائمًا؟".

أجبته: "بلى بالطبع، لطالما فعلت".

قال أبي وهو يعانقني: "هذه فتاتي الشجاعة!"، ثم بدأ يطلق الأوامر علينا جميعًا لنسرع الخُطا. جمع أبي الضروريات -مقلاة كبيرة من الحديد الزهر، ووعاء الطهو الهولندي، وأطباقًا معدنية من فائض الجيش، وبعض السكاكين، ومسدسه، ومعدات الرماية الخاصة بأمي- وحزمها في صندوق سيارة "الإوزة الزرقاء". قال إنه لا ينبغي لنا أخذ الكثير، فقط ما نحتاج إليه للبقاء على قيد الحياة. خرجت أمي إلى الفناء، وبدأت تحفر في الأرض تحت ضوء القمر، تبحث عن جرّتنا المليئة بالنقود. كانت قد نسيت المكان الذي دفنتها فيه.

بعد ساعة، ربطنا لوحات أمي على سقف السيارة، وحشرنا ما يمكن في الصندوق، ووضعنا الفائض في المقعد الخلفي وأرضية السيارة. قاد أبي "الإوزة الزرقاء" ببطء عبر الظلام، حتى لا يثير انتباه أحد في الحي السكني أننا، كما كان أبي يقول دائمًا، "نقوم بالفرار الكبير". كان يتمتم بأنه لا يفهم لماذا استغرق الأمر وقتًا طويلًا لجمع ما نحتاج إليه وحشر أنفسنا في السيارة.

قلت: "أبي! لقد نسيت تينكربيل!".

أجابني أبي: "تينكربيل تستطيع أن تتدبر أمرها، إنها مثل فتاتي الشجاعة الصغيرة. أليس كذلك؟ أنتِ شجاعة ومستعدة للمغامرة، أليس كذلك؟".

أجبته: "أظن ذلك". تمنيتُ أن يعتني من يعثر على تينكربيل بها، ويحبها رغم وجهها المشوه. لجأتُ إلى كويخوتي، قطنا ذي اللونين الرمادي والأبيض الذي تنقصه أذن، لأحظى ببعض المواساة، لكنه لم يستجِب وبدأ بالزمجرة وخدش وجهي. فقلتُ له: "كويخوتي، اهدأ!".

أوضحت أمي: "القطط لا تحب السفر".

أما أبي فقال: "من لا يحب السفر فهو غير مدعو إلى مغامرتنا". توقف بالسيارة، أمسك كويخوتي من مؤخرة رقبته، وألقى به خارج النافذة. هبط كويخوتي بصوت مواء صاخب وارتطام، ثم ضغط أبي على دواسة الوقود، وانطلقت السيارة، وانفجرت بالبكاء.

قالت أمي: "لا تكوني عاطفية هكذا". وأخبرتني أننا نستطيع دائمًا اقتناء قطة جديدة، وأن كويخوتي الآن سيصبح قطًا بريًا، وهو أمر أكثر متعة من كونه حيوانًا منزليًا. بينما ضم براين الكلب جوجو خوفًا من أن يلقيه أبي أيضًا خارج النافذة.

ولإلهائنا، بدأت أمي تغني أغاني مثل Don’t Fence Me In، و This Land Is Your Land، بينما قادنا أبي في أداء حماسي لأغنيتي Old Man River وأغنيته المفضلة Swing Low, Sweet Chariot. بعد فترة، نسيت أمر كويخوتي وتينكربيل والأصدقاء الذين تركتهم خلفي في الحي السكني. بدأ أبي يخبرنا عن كل الأشياء المثيرة التي سنفعلها وكيف سنصبح أثرياء عندما نصل إلى المكان الجديد الذي سنعيش فيه.

سألته: "أبي، إلى أين نحن ذاهبون؟".

أجابني: "إلى حيث ينتهي بنا المطاف".

في وقت لاحق من تلك الليلة، أوقف أبي السيارة في وسط الصحراء، ونمنا تحت النجوم. لم تكن لدينا وسائد، لكن أبي طمأننا بأن ذلك كان جزءًا من خطته. كان يهدف إلى تعليمنا الوضعية السليمة للجسم. وأشار إلى أن الهنود الحمر لم يستخدموا الوسائد قط، وانظروا كيف كانت قامتهم منتصبة. كنا نملك بطانيات خشنة من فائض الجيش، فبسطناها واستلقينا، نحدق بسقف السماء المرصع بالنجوم. أخبرتُ لوري كم نحن محظوظون لأننا ننام في العراء مثل الهنود.

قلتُ: "يمكننا أن نعيش هكذا إلى الأبد".

قالت لوري: "أعتقد أننا سنفعل ذلك".

كنا نضطر دائمًا إلى الفرار، وعادةً ما يكون ذلك في الظلام الدامس. كنت أسمع أحيانًا أمي وأبي يتحدثان عن الأشخاص الذين كانوا يطاردوننا. كان أبي يصفهم بالأتباع، ومصاصي الدماء، والجستابو (الشرطة السرية). أحيانًا كان يشير بغموض إلى المديرين التنفيذيين لشركة "ستاندرد أويل" الذين كانوا يحاولون سرقة الأرض التي تملكها عائلة أمي في تكساس، وإلى عملاء مكتب التحقيقات الفيدرالي الذين كانوا يلاحقونه بسبب حادثة مظلمة لم يخبرنا بها أبدًا، لأنه لم يرغب في تعريضنا للخطر أيضًا.

كان أبي مقتنعًا جدًا بأن مجموعة من المحققين الفيدراليين كانوا يتعقبوننا لدرجة أنه كان يدخن سجائره غير المفلترة من الطرف الخطأ. كان يشرح لنا أنه بهذه الطريقة يحرق اسم العلامة التجارية، وإذا نظر الأشخاص الذين يتعقبوننا إلى منفضة سجائره، فسيجدون أعقابًا من السجائر غير المعروفة بدلًا من سجائر "بال مال" التي قد تُدينه. لكن أمي أخبرتنا أن مكتب التحقيقات الفيدرالي لم يكن يلاحق أبي فعليًا، إنه فقط يحب ادعاء ذلك لأن مطاردة مكتب التحقيقات الفيدرالي له تبدو أكثر إثارة من مطاردة جامعي الديون.

كنا نتنقل مثل البدو. استقررنا في بلدات صغيرة نائية تعتمد على التعدين في نيفادا، وأريزونا، وكاليفورنيا. عادة ما كانت هذه البلدات تتكون فقط من مجموعة صغيرة من الأكواخ البائسة الغارقة، ومحطة وقود، ومتجر للبقالة، وحانة أو اثنتين. كانت تحمل أسماءً غريبة مثل نيدلز، وباوس، وباي، وجوفز، وواي، وتقع بالقرب من أماكن مثل جبال الأساطير، وبحيرة الصودا الجافة، وجبل المرأة العجوز. وكلما كان المكان أكثر قفرًا وعزلة، زاد إعجاب أمي وأبي به.

كان أبي يحصل على وظيفة كمهندس كهربائي أو فني في مناجم الجبس أو النحاس. وكانت أمي تُعلق ضاحكةً بأن أبي يستطيع تأليف القصص بطلاقة، فينسج حكايات عن وظائف لم يشغلها قط وشهادات جامعية لم يحصل عليها. كان بإمكانه الحصول على أي وظيفة يريدها تقريبًا، لكنه ببساطة لا يحب الاستقرار فيها طويلًا. أحيانًا كان يكسب المال

من الرهان، أو من الأعمال المؤقتة. وعندما يشعر بالملل، أو يُطرد، أو تتراكم الفواتير غير المدفوعة، أو يكتشف فني شركة الكهرباء أنه قد وصّل المقطورة بخطوط الكهرباء بصورة غير قانونية -أو عندما يكون مكتب التحقيقات الفيدرالي على وشك الإمساك بنا- كنا نحزم أمتعتنا ليلًا ونفر هاربين. كنا نقود السيارة حتى يجد أبي وأمي بلدة صغيرة أخرى تعجبهما. ثم ندور حولها بحثًا عن منازل عليها لافتات "للإيجار" في الفناء الأمامي.

بين الحين والآخر، كنا نذهب للإقامة عند الجدة سميث، والدة أمي، التي كانت تعيش في منزل أبيض كبير في فينيكس. كانت الجدة سميث امرأةً متمردة من غرب تكساس، تحب الرقص والشتم والخيول. كانت معروفة بقدرتها على ترويض أشرس الخيول البرية، وقد ساعدت الجد على إدارة المزرعة العائلية قرب وادي فيش كريك بأريزونا، التي كانت تقع غرب مدينة بول هيد، وليست بعيدة عن جراند كانيون. كنت أعتقد أن الجدة سميث امرأةٌ رائعة. لكن بعد بضعة أسابيع، كانت دائمًا تنشب مشاجرة صاخبة بينها وبين أبي. ربما تبدأ عندما تذكر أمي كم نحن مفلسون، فترد الجدة بتعليق لاذع عن أن أبي كسول، ولا يعرف الاستقرار. فيرد أبي بشيء عن العجائز الأنانيات اللواتي يملكن مالًا أكثر مما يعرفن كيف يستخدمنه، وما إن يشتعل الجدال بينهما حتى ينخرطا في معركة شتائم كاملة.

كانت الجدة تصرخ: "يا لك من سكير!".

وكان أبي يرد: "يا لكِ من عجوز قاسيةٍ بلا قلب!".

"أيها الوغد التافه الذي لا يساوي فلسًا!".

"أيتها الساحرة اللعينة المعدومة الرحمة!".

كان أبي يتمتع بمفردات أكثر إبداعًا، لكن الجدة سميث كانت تستطيع أن تتفوق عليه في الصراخ، بالإضافة إلى ذلك، كانت تتمتع بميزة اللعب على أرضها. وفي نهاية المطاف، يصل الأمر إلى أن يفقد أبي صبره، ويطلب منا الركوب في السيارة، فتصرخ الجدة في وجه أمي

ألا تسمح لهذا الأحمق العديم القيمة باختطاف أحفادها. كانت أمي تهز كتفيها، وتقول إنها عاجزةٌ عن منعه، فهو زوجها. وحينها ننطلق عبر الصحراء، بحثًا عن منزل آخر لنستأجره في بلدة تعدينية صغيرة أخرى.

كان بعض سكان تلك البلدات يقيمون فيها منذ سنوات، بينما كان آخرون بلا جذورٍ مثلنا، مجرد عابري سبيل. كانوا مقامرين أو مدانين سابقين أو محاربين مخضرمين أو كما كانت تسميهم أمي "نساءً متحررات". كان هناك أيضًا عجائز، بوجوهٍ مُجعدةٍ وسمراء من الشمس تشبه التفاح المُجفف، وأطفالٌ نحيلون أشداء، ببثورٍ على الأيدي والأقدام. كنا نصادقهم، لكنها صداقات سطحية، لأننا كنا نعلم أننا سنغادر عاجلًا أم آجلًا.

كان الذهاب إلى المدرسة أمرًا واردًا، لكنه لم يكن منتظمًا. إذ كان والداي هما من يتوليان تعليمنا في المقام الأول. قبل أن نبلغ سن الخامسة، كانت أمي قد علمتنا القراءة، وكنا نقرأ كتبًا بلا صور، بينما كان أبي يتولى تدريسنا الرياضيات. بالإضافة إلى ذلك، كان يعلمنا الأمور ذات الأهمية والفائدة الحقيقية في الحياة، مثل تعلم كيفية فك شفرة مورس، والتنبه لخطورة تناول كبد الدب القطبي لاحتوائه على كمية مميتة من فيتامين أ. علّمنا كيفية التصويب وإطلاق النار من مسدسه، وكيفية استخدام قوس وسهام أمي، بالإضافة إلى طريقة رمي السكين من نصله ليصيب مركز الهدف بدقة، ويُحدث صوتًا مُرضيًا. بحلول الرابعة من عمري، كنت بارعة في استخدام مسدس أبي، وهو مسدس كبير بست طلقات، وكنت أصيب خمس زجاجات فارغة من أصل سِتٍّ على بعد ثلاثين خطوة. كنت أمسك المسدس بكلتا يدي، أوجه النظر أسفل ماسورته، وأضغط على الزناد ببطء وسلاسة، حتى ينطلق الرصاص بفرقعةٍ تهز كفي، بينما تتناثر شظايا الزجاج. كان الأمر ممتعًا. قال أبي إن دِقتي في التصويب ستنفعنا إذا حاصرنا العملاء الفيدراليون يومًا ما.

نشأت أمي في الصحراء. أحبت حرارتها الجافة القاسية، والطريقة التي يبدو بها الأفق عند غروب الشمس كأنه ورقة مشتعلة، والشعور الشامل بالفراغ وقسوة الأراضي المفتوحة التي كانت يومًا قاع محيط شاسع. وبينما كان معظم الناس يجدون صعوبة في البقاء على

قيد الحياة في الصحراء، كانت أمي تزدهر هناك. كانت تعرف كيف تعيش على أقل القليل. علّمتنا أي النباتات صالحة للأكل وأيها سام. كانت تكتشف الماء حيث لا يراه أحد، وتُظهر أن حاجة الإنسان إليه أقل مما يتصور. علّمتنا أنه بإمكانك تنظيف نفسك جيدًا باستخدام كوب ماء واحد فقط. وقالت إن شرب المياه غير النقية، حتى مياه الخنادق، صحيٌّ ما دامت الحيوانات تشربه. أما مياه المدينة المعالجة بالكلور، فكانت تعتبرها مخصصة للضعفاء. كانت أمي تعتقد أن مياه الطبيعة تُعزز المناعة، وأن معجون الأسنان للضعفاء المُتأنقين. قبل النوم، كنا ننثر قليلًا من صودا الخبز في كف اليد، ونخلطها بقطرات من ماء الأكسجين، ثم ننظف أسناننا بأصابعنا باستخدام ذلك المعجون الفوار.

أنا أيضًا أحببت الصحراء. في أيام الشمس الحارقة، كان الرمل يشتعل حتى يكاد يحرق أقدام الأطفال الذين يرتدون الأحذية. أما نحن، فبسبب سيرنا حفاةً دومًا، كانت أقدامنا قوية وسميكة كجلد البقر. كنا نصطاد العقارب والأفاعي والضفادع الشائكة، وننقب عن الذهب. وإن لم نعثر عليه، نجمع أحجارًا كريمةً كالفيروز والعقيق. ومع غروب الشمس، يهب نسيمٌ باردٌ تُحجب معه السماء بسحب البعوض، ثم يتحول الليل إلى قارسٍ نلجأ فيه إلى البطانيات.

كانت هناك عواصف رملية شرسة. أحيانًا تضرب فجأة، وأحيانًا كانت تُنذر بقدومها عندما كنا نرى دوامات الغبار تتراقص في الأفق. وعندما كانت الرياح تبدأ إثارة الرمال، لم يكن بإمكانك رؤية أكثر من قدم أمامك. إذا لم تجد منزلًا أو سيارة أو مخبأً لتحتمي به عندما تبدأ العاصفة الرملية، كان عليك أن تجلس القرفصاء، وتغلق عينيك وفمك بإحكام، وتغطي أذنيك وتدفن وجهك في حضنك حتى تمر، وإلا فستتسرب الرمال إلى تجاويف جسمك. أحيانًا كانت تصدمنا حشيشة متدحرجة كبيرة، لكنها كانت خفيفة الوزن ومرنة، فلا تؤذي. أما إذا اشتدت العاصفة الرملية، فكانت تُسقطنا أرضًا، وتُدحرجنا مثل الحشيشة الكبيرة نفسها.

عندما هطلت الأمطار أخيرًا، أظلمت السماء وأصبح الهواء ثقيلًا. أخذت قطرات مطر بحجم الكرات تتساقط بغزارة من السماء. كان بعض الآباء قلقين من أن يصيب البرق أطفالهم، لكن أمي وأبي لم يقلقا أبدًا، وسمحا لنا بالخروج واللعب تحت المطر الغزير الدافئ. كنا نركض ونغني ونرقص. انطلقت صواعق البرق الكبيرة من السحب المنخفضة، واهتزت الأرض بصوت الرعد. كنا نحبس أنفاسنا إعجابًا بأكثر الصواعق روعة، كأننا نشاهد عرضًا للألعاب النارية. بعد انتهاء العاصفة، أخذنا أبي إلى الوديان الجافة (الأرويو)، لنشاهد مياه السيول، وهي تتدفق بغزارة. في اليوم التالي، كانت صبّارات الساجوارو والتين الشوكي ممتلئة بالماء بعد أن شربت بقدر ما تستطيع، لأنها تعلم أن الأمطار قد لا تهطل لفترة طويلة.

كنا أشبه بالصبار في طريقة أكلنا. كنا نأكل بشكل متقطع وغير منتظم، وعندما كانت تتاح لنا فرصة الأكل، كنا نلتهم الطعام بشراهة. في إحدى المرات، كنا نعيش في نيفادا عندما خرج قطار محمّل بالشمام عن مساره. لم أكن قد تذوقت الشمام من قبل، لكن أبي أحضر لنا صناديق لا تُحصى منه. أكلنا شمامًا طازجًا، ومطبوخًا، وحتى مقليًا. وفي إحدى المرات في كاليفورنيا، أضرب عمال قطف العنب عن العمل، فسمح أصحاب مزارع الكروم للناس بالقدوم، وقطف العنب بأنفسهم مقابل خمسة سنتات للرطل الواحد. فقُدنا السيارة لمسافة تقارب المئة ميل حتى وصلنا إلى مزارع الكروم حيث كان العنب الناضج يكاد ينفجر من شدة امتلائه، متدليًا في عناقيد أكبر من رأسي. ملأنا السيارة بأكملها بعناقيد العنب الخضراء، في الصندوق الخلفي، وحتى درج القفازات. ووضع أبي أكوامًا من العنب في أحضاننا، حتى أصبحنا لا نرى الطريق. لأسبوع كامل بعد ذلك، كنا نأكل العنب الأخضر على الإفطار والغداء والعشاء.

كل هذا التنقل والترحال كان مؤقتًا، كما أوضح أبي. كانت لديه خطة تتمثل في اعتزامه العثور على الذهب.

الجميع كان يقول إن أبي كان عبقريًا. كان يستطيع أن يبني أو يصلح أي شيء. في إحدى المرات، عندما تعطل تلفاز أحد الجيران، فتح أبي ظهر الجهاز، واستخدم قطعة من المعكرونة لعزل بعض الأسلاك المتشابكة. انبهر الجار بهذا الأمر، وظل يخبر الجميع في البلدة كيف أن أبي يعرف حقًا كيف "يستخدم عقله". كان أبي خبيرًا في الرياضيات والفيزياء والكهرباء. كان يقرأ كتبًا عن التفاضل والجبر اللوغاريتمي، وكان يحب ما يسميه "شعر الرياضيات وتناغمها". كان يحدثنا عن الخواص السحرية لكل رقم، وكيف أن الأرقام يمكنها كشف أسرار الكون. لكن شغف أبي الرئيسي كان بالطاقة: الطاقة الحرارية، والطاقة النووية، والطاقة الشمسية، وطاقة الكهرباء، وطاقة الرياح. كان يقول إن هناك مصادر طاقة كثيرة غير المستغلة في العالم، وإنه من السخيف الاعتماد على إحراق الوقود الأحفوري.

كان أبي لا يتوقف عن اختراع الأشياء أيضًا. وكان أحدَ أهم اختراعاته جهاز معقد أسماه "المُنقب". كان الهدف من المُنقب هو مساعدتنا على التنقيب عن الذهب. كان للجهاز سطح كبير مسطح يبلغ ارتفاعه حوالي أربعة أقدام وعرضه ستة أقدام، ويميل بزاوية إلى الأعلى. كان السطح مغطى بألواح خشبية أفقية تفصل بينها فراغات. كان المُنقب يجرف التراب والصخور، ويصفيها عبر هذه المتاهة الخشبية. وكان بإمكان الجهاز اكتشاف إذا كانت الصخرة تحتوي على ذهب أم لا عن طريق وزنها. كان يطرد الأشياء العديمة القيمة، ويضع قطع الذهب في كومة، فكلما احتجنا إلى شراء مستلزمات، خرجنا إلى الفناء الخلفي، وأخذنا قطعة ذهبية. على الأقل هذا ما كان سيحدث عندما ينتهي أبي من ابتكار الجهاز.

سمح لي أبي ولبراين بمساعدته في العمل على "المُنقب". كنا نخرج إلى خلف المنزل، وأمسك بالمسامير بينما كان أبي يدقها. أحيانًا كان يسمح لي ببدء تثبيت المسامير، فيدقها بضربةٍ واحدةٍ من المطرقة. كان الهواء مملوءًا بالغبار ورائحة نشارة الخشب، وصوت الطرق وصَفير الأب الذي كان يُغرِّد دائمًا في أثناء العمل.

في نظري، كان والدي شخصًا مثاليًا، على الرغم من أنه كان يعاني مما كانت تُسمّيه أمي "مشكلة بسيطة مع الشراب". كانت هناك ما تُطلق عليه أمي "مرحلة تناول المشروبات". كنا جميعًا نستطيع التعامل مع هذه المرحلة. كان والدي يقود بسرعة، ويُغنّي بصوت مرتفع، وكانت خصلات شعره تتساقط على وجهه، وكانت الحياة مُخيفة بعض الشيء، لكنها ممتعة في أغلب الأحيان. لكن عندما كان والدي يُخرج زجاجة مما كانت تُسمّيه أمي "المشروبات الروحية المركزة"، كانت تشعر بقلق شديد، فبعد احتساء كمية منها، كان والدي يتحول إلى شخص غريب ذي نظرات غاضبة، يرمي الأثاث ويُهدد بضرب أمي أو أي شخص يعترض طريقه. وعندما ينتهي من الشتائم والصراخ وتكسير الأشياء، ينهار ويسقط. لكن والدي لم يكن يشرب المشروبات الروحية إلا عندما يتوافر لدينا المال، وهو ما لم يكن يحدث كثيرًا، لذا كانت حياتنا في تلك الأيام جيدة في مُجملها.

عندما كنت أنا ولوري وبراين نستعد للنوم في كل ليلة، كان أبي يقص علينا حكايات ما قبل النوم، ودائمًا ما كانت تتمحور حوله. كنا نتغطى في أسرتنا، أو نستلقي تحت البطانيات في الصحراء، وكان العالم مظلمًا ما عدا التوهج البرتقالي من سيجارته. عندما يأخذ نفسًا طويلًا، كان يضيء وجهه بما يكفي لنراه.

كنا نتوسل إليه: "احكِ لنا قصة عنك يا أبي!".

كان يقول: "أوه، لا أريد أن أثقل عليكم بقصصي".

كنا نُصرّ على ذلك: "بلى، نريد! نريد!".

كان يقول: "حسنًا، إذًا". ثم يتوقف للحظة، ويضحك بخفة على شيء يتذكره ويقول: "هناك أشياء حمقاء كثيرة فعلها والدكم العجوز، لكن هذه كانت أشدها حماقة حتى بالنسبة إلى مجنون مثل ريكسوولز".

ثم كان يبدأ سرد كيف أنه في أثناء خدمته في القوات الجوية، واجه عطلًا في محرك طائرته، فهبط هبوطًا اضطراريًا في مرعى ماشية، وتمكن من إنقاذ نفسه وجميع من معه. أو عن الوقت الذي تصارع فيه مع مجموعة من الكلاب البرية التي كانت تحاصر حصانًا أعزل. ثم عن المرة التي أصلح فيها بوابة مكسورة في سدّ هوفر، وأنقذ أرواح الآلاف من الناس الذين كانوا سيغرقون لو انفجر السد. وكانت هناك أيضًا قصةُ ذلك اليوم الذي تغيب فيه عن خدمته في القوات الجوية ليجلب بعض المشروبات. وبينما كان في الحانة، قبض على شخص مختل كان يخطط لتفجير القاعدة الجوية، مما يثبت أنه في بعض الأحيان، قد يكون كسر القواعد مُجديًا.

كان أبي ينسج القصص بدراميةٍ مذهلة، وكان يبدأ ببطءٍ بفواصل مثيرة. كنا نسأل: "ماذا حدث بعد ذلك؟"، حتى لو كنا قد سمعنا تلك القصة من قبل. كانت أمي تضحك أو تتدحرج عيناها ساخرةً عندما كان أبي يروي قصصه، فيعبس أبي مُنزعجًا. إذا قاطع أحد قصصه، كان يغضب، وكان علينا التوسل إليه لكي يكمل ونتعهد بعدم المقاطعة مرة أخرى.

كان أبي في حكاياته يقاتل بعنفٍ أكبر، ويطير أسرع، ويراهن بدهاءٍ يفوق الجميع. وخلال مغامراته، كان ينقذ النساء والأطفال وحتى الرجال الذين لم يكونوا أقوى أو أذكى. علمنا أبي أسرار بطولاته، علمنا كيف نُثبِّت كلبًا شرسًا بكسر عُنقه، وأين نضرب الرجل في حلقه لكي نقتله بضربة قوية واحدة. لكن أبي كان يطمئننا دائمًا أنه ما دام موجودًا، فلن نحتاج إلى الدفاع عن أنفسنا، لأنه، بحق الله، أي شخص يجرؤ على أن يضع يده على أي من أطفال ريكس وولز، كان سيُركل بقوة تجعل مقاس حذاء أبي مطبوعًا على مؤخرته.

وعندما لم يكن أبي يروي لنا قصصًا عن الأشياء المدهشة التي فعلها، كان يخبرنا عن الأشياء العجيبة التي كان ينوي فعلها، مثل بناء "القلعة الزجاجية". كانت جميع مهارات أبي الهندسية وعبقريته الرياضية ستصب في مشروع واحد مميز: منزل كبير سيبنيه لنا في الصحراء. كان سيحتوي على سقف زجاجي وجدران زجاجية سميكة وحتى درج زجاجي. كانت القلعة الزجاجية ستحتوي على خلايا شمسية في الأعلى تلتقط أشعة

الشمس، وتحولها إلى كهرباء للتدفئة والتبريد وتشغيل الأجهزة جميعها. بل وكانت ستحتوي على نظام لتنقية المياه. كان أبي قد وضع تصميم الهندسة المعمارية وخطط الطوابق ومعظم الحسابات الرياضية. كان يحمل معه المخططات الخاصة بالقلعة الزجاجية أينما ذهبنا، وأحيانًا كان يخرجها ويجعلنا نعمل على تصميم غرفنا.

كل ما كان علينا فعله هو العثور على الذهب، كما قال أبي، وكنا على وشك تحقيق ذلك. بمجرد أن ينتهي من ابتكار جهاز "المُنقب" ونصبح أثرياء، سيشرع في بناء قلعتنا الزجاجية.

على الرغم من حب أبي لسرد القصص عن نفسه، فقد كان من المستحيل تقريبًا أن نجعله يتحدث عن والديه أو مسقط رأسه. كنا نعرف أنه جاء من بلدة تدعى "ويلش"، في ولاية فرجينيا الغربية، حيث يُعدَّن الفحم بكثرة، وأن والده كان يعمل كاتبًا في السكك الحديدية، يجلس يوميًا في محطةٍ صغيرةٍ يكتب رسائل على أوراق يرفعها بِعصا لسائقي القطارات العابرة. لم يكن لدى أبي أي اهتمام بحياة كهذه، لذا غادر ويلش عندما كان في السابعة عشرة من عمره لينضم إلى سلاح القوات الجوية ويصبح طيارًا.

كانت إحدى قصصه المفضلة، التي رواها لنا مئات المرات، عن كيفية لقائه بوالدتي ووقوعه في حبها. حينها كان أبي في سلاح القوات الجوية، وكانت أمي تعمل في منظمة الخدمات الترفيهية للجيش الأمريكي (USO). لكنهما التقيا في أثناء إجازتها عند والديها في مزرعة ماشية قرب "وادي فيش كريك".

كان أبي وبعض رفاقه من القوات الجوية يقفون على جرف الوادي، يحاولون تجميع شجاعتهم للقفز في البحيرة التي تقع على ارتفاع أربعين قدمًا أدناهم، عندما قادت أمي وصديقتها السيارة إلى المكان. كانت أمي ترتدي ثوب سباحة أبيض أظهر رشاقتها وبشرتها السمراء التي اكتسبتها من شمس أريزونا. كان شعرها بنيًا فاتحًا يتحول إلى الأشقر في الصيف، ولم تكن تضع أي مكياج سوى أحمر شفاه قرمزي غامق. كانت تبدو مثل نجمة سينمائية، كما كان أبي يقول باستمرار، لكن فلنكن صادقين، لقد التقى كثيرًا من النساء

الجميلات، ولم يجد بينهن من تثير إعجابه. كانت أمي مختلفة. رأى منذ اللحظة الأولى أنها تملك روحًا حقيقية. وقع في حبها في اللحظة التي نظر فيها إليها.

اقتربت أمي من رجال القوات الجوية، وقالت لهم إن القفز من الجرف ليس أمرًا كبيرًا، فقد اعتادت فعل ذلك منذ طفولتها. لم يصدق الرجال كلامها، لذا اقتربت أمي من حافة الجرف، ثم قفزت برشاقة في الماء، كغطسة بجعة لا تشوبها شائبة.

قفز أبي خلفها مباشرة. وكان يقول دائمًا: "لم يكن هناك أي احتمال أن أترك امرأة بهذا الجمال تهرب مني".

كنت أسأله كلما روى القصة: "أي نوع من القفزات فعلتَ يا أبي؟".

كان يجيب دائمًا: "قفزة مظلية، لكن من دون مظلة".

سبح أبي خلف أمي، وفي الماء هناك، أخبرها بأنه سيتزوجها. قالت أمي لأبي إن ثلاثة وعشرين رجلًا قد تقدموا لخطبتها من قبل، لكنها رفضتهم جميعًا. فسألته: "ما الذي يجعلك تظن أنني سأقبل عرضك؟".

رد أبي: "أنا لم أطلب منكِ الزواج، بل قلت إنني سأتزوجكِ".

وبعد ستة أشهر تزوجا. كنت أعتقد دائمًا أن هذه القصة هي أكثر قصة رومانسية سمعتها في حياتي، لكن أمي لم تكن ترى ذلك. لم تعتقد أنها رومانسية على الإطلاق.

قالت أمي: "اضطررت إلى الموافقة، فوالدكِ لم يقبل الرفض كإجابة". وأضافت أنها كانت بحاجة إلى الهروب من والدتها، التي لم تكن تسمح لها باتخاذ حتى أصغر القرارات بنفسها. وعقبت: "لم أكن أدرك أن والدكِ سيكون أسوأ".

ترك أبي القوات الجوية بعد الزواج، لأنه أراد أن يجني ثروة لعائلته، وقال إنه لا يمكنه تحقيق ذلك وهو في الجيش. وبعد بضعة أشهر، حملت أمي. عندما ولدت لوري، وحتى

بلغت ثلاث سنوات من عمرها، كانت صامتة تمامًا وصلعاء، مثل البيضة. ثم فجأة نبت شعرها النحاسي المتجعد، وبدأت تتكلم بلا توقف. لكن كلامها كان يبدو بلا معنى، وكان الجميع يظن أنها متخلفة عقليًا باستثناء أمي، التي كانت تفهمها تمامًا، وتقول إنها تملك مفردات ممتازة.

بعد عام من ولادة لوري، أنجبت أمي وأبي ابنتهما الثانية، ماري تشارلين، التي كان لديها شعر أسود كالفحم وعينان بنيتان بلون الشكولاتة، تمامًا كأبي. لكن ماري تشارلين توفيت ذات ليلة عندما كانت تبلغ من العمر تسعة أشهر. كما كانت أمي تقول دائمًا: "وفاة المهد". بعد ذلك بعامين، وُلدت أنا. وأخبرتني أمي: "جئتِ لتعوضي مكان ماري تشارلين". وأخبرتني أنها طلبت طفلة أخرى بشعر أحمر، حتى لا تشعر لوري بالوحدة والاختلاف. كانت أمي تحكي لي: "كنتِ طفلة نحيلة! أطول وأعظم هيكل عظمي رأته الممرضات في حياتهن!".

وُلِدَ براين بعد أن بلغت عامًا واحدًا. كانت أمي تصفه بـ"الطفل الأزرق"، لأنه وُلد وهو يُعاني نوبة اختناقٍ لم تسمح له حتّى بأخذ نَفَسه الأول. كلما روت أمي القصة، كانت تُشدِّد ذراعيها، وتصرخ بأسنانٍ مُطبقة وعينين جاحظتين لتُقلِّد هيئته. تقول أمي إنها حين رأته هكذا، فكرت: "يا إلهي! يبدو أن هذا الصغير سيلحق بأخته أيضًا". لكن براين نجا. خلال السنة الأولى من حياته، كان يعاني من تلك النوبات على نحو متكرر، ثم توقفت فجأة في يوم من الأيام. تحول بعدها إلى طفل قوي لا يتذمر أو يبكي أبدًا، حتى عندما دفعته عن طريق الخطأ من فوق السرير العلوي وكُسر أنفه.

كانت أمي تقول دائمًا إن الناس يُبالغون في القلق بشأن أطفالهم. وكانت تقول إن المعاناة في الصغر مفيدة، فهي تُحصّن الجسم والروح، ولهذا السبب كانت تتجاهلنا عندما نبكي. كانت تقول أيضًا إن الاهتمام بالأطفال الذين يبكون يشجعهم على ذلك، فهذا بمثابة تعزيز إيجابي لسلوك سلبي.

لم تبدُ أمي مستاءة قط من وفاة ماري تشارلين. كانت تقول: "الله له حكمة في فعله. لقد أكرمني بأطفال مثاليين، لكن كان هناك طفل مختلف، فكأنه قال: من الأفضل أن أستعيد هذا الطفل". ومع ذلك، لم يكن أبي يتحدث عن ماري تشارلين. إذا ذُكر اسمها، كان وجهه يتصلب، ويغادر الغرفة. كان هو من وجد جثتها في المهد، ولم تستطِع أمي تصديق مدى تأثير ذلك فيه. قالت لنا: "عندما وجدها، وقف هناك كالمصعوق أو شيء من هذا القبيل، محتضنًا جسدها الصغير المتصلب بين ذراعيه، ثم صرخ كأنه حيوان جريح. لم أسمع يومًا صوتًا بهذه الفظاعة".

قالت أمي إن أبي لم يعد كما كان بعد وفاة ماري تشارلين. بدأت تنتابه حالات مزاجية سوداوية، وظل يسهر خارج المنزل حتى وقت متأخر، ويعود مخمورًا، ويفقد وظيفته. بعد فترة قصيرة من ولادة براين، كنا نعاني ضائقة مالية، لذا رهن أبي خاتم زفاف أمي الألماسي الكبير الذي دفعت ثمنه جدتي، وكان ذلك أمرًا أزعج أمي بشدة. بعد ذلك، كلما تشاجرت أمي وأبي، كانت أمي تذكر الخاتم، وكان أبي يطلب منها أن تكف عن الشكوى. كان يقول لها إنه سيشتري لها خاتمًا أفخم من الذي رهنه. ولهذا كان علينا أن نجد الذهب. لنشتري لأمي خاتم زفاف جديدًا. وأيضًا لكي نبني القلعة الزجاجية.

سألتني لوري: "أتحبين الترحال الدائم؟".

أجبت: "بالطبع! وأنتِ؟".

أجابت: "بالطبع".

كان الوقت في أواخر فترة الظهيرة، وكنا متوقفين خارج حانة في صحراء نيفادا يُدعى "بار نون". كنت في الرابعة من عمري ولوري كانت في السابعة. كنا في طريقنا إلى لاس فيجاس. قرر أبي أن الطريقة الأسهل، كما وصفها، لجمع رأس المال اللازم لتمويل جهاز "المُنقب" هي زيارة الكازينوهات لفترة من الوقت. كنا نقود السيارة لساعات، وعندما رأى أبي "بار نون"، أوقف سيارتنا "الذيل الأخضر" -بعد أن تعطلت "الإوزة الزرقاء" أصبحت

لدينا سيارة أخرى، سيارة ستيشن واجن أطلق عليها أبي اسم "الذيل الأخضر"- وأعلن أنه سيدخل لتناول مشروب سريع. وضعت أمي أحمر شفاهها القرمزي وانضمت إليه، رغم أنها لا تشرب سوى الشاي. بقيا في الداخل لساعات. كانت الشمس تُلقي بلهيبها على صحراء نيفادا، دون نسمة هواءٍ واحدة. لم يكن شيء يتحرك سوى بعض النسور التي كانت تلتهم جيفةً غير واضحة المعالم على جانب الطريق، وكان براين يقلب صفحات مجلة هزلية بالية.

سألتُ لوري: "كم منزلًا عشنا فيه؟".

أجابت: "يعتمد ذلك على ما تعنينه بكلمة ‹عشنا›. إذا قضيتِ ليلة واحدة في بلدة ما، فهل يعني ذلك أنكِ عشتِ فيها؟ ماذا عن ليلتين؟ أو أسبوع كامل؟".

فكرت قليلًا، وقلت: "عندما تنتهين من إفراغ كل ما في حقائبكِ".

حاولنا عد المنازل التي عشنا فيها، وتوقفنا عند المنزل الحادي عشر، ثم ضاعت منا الخيوط. لم نعد نتذكر أسماء بعض المدن، أو كيف كانت تبدو المنازل التي سكناها. في الغالب، كل ما كنت أتذكره هو مقاعد السيارات الضيقة.

سألتها: "ماذا تعتقدين أنه سيحدث لو أننا لم نكن دائمًا ننتقل من مكان إلى آخر؟".

أجابت لوري: "ربما سيُكشف أمرنا".

عندما خرج أبي وأمي من "بار نون"، جلبا لكلٍّ منا قطعة طويلة من اللحم المقدد وشريط حلوى. أكلت اللحم المقدد أولًا، وبحلول الوقت الذي فتحت فيه قطعة حلوى "ماوندز"، كانت قد ذابت إلى كتلة بنية لزجة، لذا قررت أن أحتفظ بها حتى المساء، حين تبرد الصحراء، وتعود قطعة الحلوى صلبة من جديد.

بحلول ذلك الوقت، كنا قد مررنا بالبلدة الصغيرة خلف "بار نون". كان أبي يقود السيارة بيد واحدة ويدخن، بينما يمسك بيده الأخرى زجاجة بنية من المشروب. كانت لوري جالسة في المقعد الأمامي بينه وبين أمي، وكان براين، الذي يجلس في المقعد الخلفي معي، يحاول مقايضتي بنصف قطعة من شكولاتة "ثري ماسكيتيرز" مقابل نصف قطعة من شكولاتة "ماوندز" خاصتي. وفجأة، انعطفنا بحدة فوق قضبان السكة الحديدية، فانفتح الباب وسقطت من السيارة.

تدحرجت على طول السفح لمسافة عدة أمتار، وعندما توقفت، كنت مصدومة للغاية بحيث لم أستطِع البكاء، إذ انقطعت أنفاسي وامتلأ فمي وعيناي بالحصى والرمال. رفعت رأسي في الوقت الملائم لأرى سيارة "الذيل الأخضر" تبتعد وتصغر رويدًا رويدًا حتى اختفت حول منعطف الطريق.

كان الدم يتدفق من جبيني، وينهمر من أنفي. وكانت ركبتاي ومرفقاي مجروحين بشكل بالغ ومغطّيين بالرمال. رغم ذلك، كنت لا أزال ممسكة بقطعة شكولاتة "ماوندز"، لكنها كانت مهروسة بفعل السقوط، وغطت الرمالُ حشو جوز الهند الأبيض الذي خرج من الغلاف الممزق.

عندما استعدت أنفاسي، زحفت على طول السفح حتى وصلت إلى الطريق، وجلست أنتظر عودة أمي وأبي. شعرت بالألم في كل جزء من جسمي. كانت الشمس صغيرة وبيضاء، وتبث حرارة حارقة. بدأت الرياح تعصف بالغبار على جانب الطريق. انتظرت لفترة بدت طويلة، حتى بدأت أفكر في أن أمي وأبي قد لا يعودان من أجلي. ربما لم يلاحظا أنني سقطت. وربما قررا أن العودة لإنقاذي لا تستحق العناء، فكما تخليا عن القط "كويخوتي"، قد يريانني عبئًا يُستغنى عنه.

كانت البلدة الصغيرة خلفي هادئة، ولم تكن هناك سيارات أخرى على الطريق. بدأت أبكي، لكن ذلك جعلني أشعر بمزيد من الألم. وقفت وبدأت أسير عائدة نحو البيوت، ثم فكرت أنه إذا عاد أبي وأمي، فلن يتمكنا من إيجادي، فعدت إلى السكة الحديدية وجلست مجددًا.

كنت أكشط الدم المتجلط عن ساقيّ عندما رفعت رأسي، ورأيت سيارة "الذيل الأخضر" تظهر مجددًا من حول المنعطف. اندفع أبي نحو الطريق حتى توقف أمامي مباشرةً، وخرج من السيارة، وركع بجانبي وحاول معانقتي.

أبعدت نفسي عنه وقلت: "ظننت أنك ستتركني".

أجاب: "بحقكِ، لن أفعل ذلك أبدًا". ثم أضاف: "كان أخوكِ يحاول إخبارنا أنكِ سقطتِ، لكنه كان يبكي بشدة لدرجة أننا لم نفهم شيئًا مما يقوله".

بدأ أبي يزيل الحصى من وجهي. بعضها كان مغروزًا بعمق في جلدي، لذلك مد يده إلى صندوق القفازات، وأخرج كماشة ذات أنف مدبب. وبعد أن أزال الحصى كلها من خدي وجبهتي، أخرج منديله وحاول أن يوقف نزيف أنفي. كان ينزف مثل صنبور مكسور. قال: "يا بنيتي، لقد آذيتِ خزان مخاطكِ بشدة".

انفجرتُ ضحكًا. لم أسمع قط اسمًا أكثر طرافة للأنف من "خزان المخاط". بعد أن انتهى أبي من تنظيفي وعدتُ إلى السيارة، شاركتُ الكلمة مع براين ولوري وأمي، فبدءوا جميعًا يشاركونني الضحك. يا له من اسم مضحك! "خزان المخاط".

عشنا في لاس فيجاس لمدة شهر تقريبًا، في غرفة فندق بجدران حمراء قانية وسريرين ضيقين. كنا نحن الأطفال الثلاثة ننام على أحدهما، وأمي وأبي على الآخر. خلال النهار، كنا نذهب إلى الكازينوهات، حيث قال أبي إنه يملك خطةً لا تُخفق للكسب من الكازينو. كنت وبراين نلعب لعبة "الاختباء والبحث" بين الآلات المزعجة، ونبحث في الصواني عن قطع نقدية مُهملة، بينما كان أبي يلعب على طاولة البلاك جاك. كنت أحدق بالفتيات ذوات الأرجل الطويلة عندما يعبرن أرض الكازينو، مرتديات الريش الضخم على رءوسهن وخلفياتهن، وكانت أجسامهن تتلألأ بالترتر، وتحاط أعينهن باللمعان. عندما حاولت تقليد مشيتهن، قال براين إنني أبدو مثل نعامة تتهادى.

في نهاية اليوم، كان أبي يأتي إلينا وجيوبه ممتلئة بالنقود. اشترى لنا قبعات رعاة بقر وسترات مزينة بالشراريب، وأكلنا شرائح اللحم المقلية في مطاعم مكيفة الهواء، بها مشغلات موسيقى صغيرة على كل طاولة. ذات ليلة، بعدما حقق أبي مكسبًا كبيرًا، قال إنه حان الوقت لنعيش مثل كبار اللاعبين الذين أصبحنا مثلهم. أخذنا إلى مطعم بأبواب متأرجحة كحانات الغرب القديم. في الداخل، كانت الجدران مزينة بأدوات التنقيب الحقيقية. كان هناك رجل بأشرطة على أكمامه يعزف على البيانو، وامرأة ترتدي قفازات تصل إلى ما بعد مرفقيها تسارع إلى إشعال سجائر أبي.

أخبرنا أبي أننا سنتناول شيئًا مميزًا كحلوى، كعكة أيس كريم مشتعلة. جاء النادل بعربةٍ تحمل الكعكة، وأضرمت المرأة ذات القفازات النار فيها باستخدام شمعة صغيرة. توقف الجميع عن تناول الطعام لمشاهدة المشهد. كانت النيران تتحرك ببطء، كأنها أشرطة مائية تتصاعد في الهواء. بدأ الجميع بالتصفيق، فقفز أبي وأمسك بيد النادل، ورفعها فوق رأسه كأنه فاز بالجائزة الأولى.

بعد بضعة أيام، ذهب أبي وأمي إلى طاولة البلاك جاك، لكنهما عادا إلينا بسرعة. قال أبي إن أحد المُتلاعبين اكتشف خطته، وحذّر الكازينو منه، وأخبرنا أن الوقت حان "للهروب السريع".

قال أبي إن علينا الابتعاد عن لاس فيجاس بأسرع ما يمكن، لأن المافيا، التي تملك الكازينوهات، أصبحت تلاحقه. توجهنا غربًا، عبر الصحراء ثم الجبال. قالت أمي إنه يجب علينا أن نعيش بالقرب من المحيط الهادئ مرة واحدة على الأقل في حياتنا، لذلك واصلنا السير حتى وصلنا إلى سان فرانسيسكو.

لم تكن أمي تريدنا أن نقيم في أحد تلك الفنادق السياحية بالقرب من "فيشرمانز وارف"، التي وصفَتها بـ"المزيفة المنعزلة عن روح المدينة". لذا وجدنا فندقًا أكثر تميزًا، في مكان يسمى حي "تيندرلوين". كان البحارة والنساء ذوات المكياج الكثيف يقيمون هناك أيضًا. أطلق أبي عليه اسم "مأوى المتشردين"، لكن أمي أصرت على أنه من نوع إس آر أو،

وعندما سألتها عن معنى ذلك، أوضحت لي أن هذا الفندق مخصصٌ فقط للأشخاص الذين يتمتعون بوضع خاص.

بينما خرج أبي وأمي للبحث عن مستثمرين لتمويل مشروع جهاز "المُنقب"، كنا نحن الأطفال نلعب في الفندق. وفي أحد الأيام، وجدت علبة نصف ممتلئة بأعواد الثقاب. شعرت ببهجة غامرة، لأنني كنت أفضل أعواد الثقاب الخشبية التي تأتي في علب على تلك الرقيقة الموجودة في كتيبات الكرتون. أخذتها إلى الطابق العلوي، وأغلقت باب الحمام على نفسي. مزقت بعض ورق الحمام وأشعلته، وعندما بدأ يحترق، ألقيته في المرحاض. كنت أمارس تعذيب النار، أعطيها الحياة وأخمدها. ثم جاءتني فكرة أفضل. صنعت كومة من ورق الحمام في المرحاض، وأشعلتها، وعندما بدأت تحترق، صعد اللهب بصمت من حوض المرحاض، فشددت السيفون لإطفائها.

بعد بضعة أيام، استيقظت فجأة في منتصف الليل. كان الهواء ساخنًا وخانقًا. شممت رائحة الدخان، ثم رأيت ألسنة اللهب تتصاعد من النافذة المفتوحة. في البداية لم أتمكن من تحديد ما إذا كان الحريق داخل الغرفة أم خارجها، لكنني لاحظت أن إحدى الستائر، التي لم تكن بعيدة عن السرير، كانت مشتعلة.

لم يكن أبي وأمي في الغرفة، وكان كل من لوري وبراين لا يزالان نائمين. حاولت الصراخ لتحذيرهما، لكن لم يخرج أي صوت من حلقي. أردت أن أصل إليهما وأوقظهما، لكنني لم أستطِع التحرك. كانت النيران تكبر وتصير أكثر شراسةً وغضبًا.

فجأة، انفتح الباب بقوة. كان هناك من ينادي بأسمائنا. إنه أبي. استيقظت لوري وبراين وركضا نحوه، وهما يسعلان بسبب الدخان. أما أنا فما زلتُ لا أستطيع الحراك. كنت أراقب النيران، وأتوقع أن تشتعل بطانيتي في أي لحظة. لف أبي البطانية حولي وحملني، ثم هرع إلى أسفل الدرج، يقود لوري وبراين بيد ويحملني بالأخرى.

أخذنا أبي عبر الشارع إلى حانة، ثم عاد لمساعدة الآخرين في إطفاء الحريق. كانت هناك نادلة بأظفار حمراء وشعر أسود مائل إلى الأزرق سألتنا إن كنا نريد كولا أو أي مشروب آخر، لأنها قالت إننا مررنا بالكثير تلك الليلة. طلب براين ولوري كولا، أما أنا فطلبت مشروب "شيرلي تمبل"، وهو ما كان أبي يشتريه لي دائمًا عندما يأخذني إلى حانة، ولسبب ما، ضحكت النادلة.

كان رواد البار يستهزئون بالنساء اللاتي يهربن بدون ملابس من الفندق المحترق. لم أكن أرتدي سوى ملابسي الداخلية، لذلك أبقيت البطانية ملفوفة بإحكام حولي. بعد أن أنهيت مشروب "شيرلي تمبل"، حاولت العودة عبر الشارع لمشاهدة الحريق، لكن النادلة منعتني، فصعدت على كرسي لأشاهده من النافذة. وصلت سيارات الإطفاء. كانت الأضواء الوامضة تملأ المكان، والرجال بملابسهم السوداء المطاطية يمسكون خراطيم المياه القماشية التي تنطلق منها نفاثات الماء القوية.

تساءلت إن كانت النار قد خرجت للانتقام مني. وتساءلت إن كانت النيران جميعها مرتبطة ببعضها، كما قال أبي إن البشر جميعهم مرتبطون ببعضهم. هل كانت النار التي أحرقتني ذات يوم في أثناء إعداد النقانق مرتبطة بالنار التي أشعلتها في المرحاض والنار التي كانت تحترق في الفندق؟ لم أكن أملك إجابات لهذه الأسئلة، لكنني كنت أعرف أنني أعيش في عالم قد ينفجر في أي لحظة بالنار. كان هذا النوع من المعرفة يبقيك في حالة تأهب دائم.

بعد أن احترق الفندق، عشنا لبضعة أيام على الشاطئ. عندما خفضنا المقاعد الخلفية لسيارتنا "الذيل الأخضر"، كان هناك مكان يسع الجميع للنوم، رغم أن قدمَي أحدهم كانت أحيانًا تصل إلى وجهي. في إحدى الليالي، طرق شرطي نافذة سيارتنا، وقال إنه علينا المغادرة؛ كان النوم على الشاطئ أمرًا غير قانوني. كان لطيفًا وكان ينادينا بلطف بـ"رفاق"، حتى إنه رسم لنا خريطة لمكان يمكننا النوم فيه، دون أن نتعرض للاعتقال.

لكن ما إن غادر حتى نعته أبي بـ"الجستابو اللعين"، وقال إن أمثاله يستمتعون باستعراض قوتهم على أمثالنا. كان أبي قد ضاق ذرعًا بالحياة في المدن، فقرر مع أمي أن نعود إلى

الصحراء لنستأنف البحث عن الذهب، رغم أننا لم نعد نملك المال الذي بدأنا به. قال أبي: "هذه المدن ستودي بحياتكم".

بعد أن جمعنا أمتعتنا، وغادرنا سان فرانسيسكو، توجهنا إلى صحراء موهافي. وقرب جبال إيجل، طلبت أمي من أبي التوقف. كانت قد رأت شجرة على جانب الطريق جذبت انتباهها.

لم تكن مجرد شجرة عادية، بل كانت شجرة جوشوا عتيقة. وقفت الشجرة في فجوة بين الصحراء والجبل، حيث تشكل الرياح نفقًا عاصفًا. منذ أن كانت الشجرة شتلة صغيرة، كانت الرياح العاتية تضربها بعنف لدرجة أنها ظلت تنحني تحت ضربات الرياح، فلم تنمُ عموديًا، بل مع اتجاه الريح. أصبحت الآن في حالة دائمة من الانحناء بفعل الرياح، منحنيةً بشدة حتى أنها بدت على وشك السقوط، رغم أن جذورها كانت تتشبث بإحكام بالأرض.

وجدت شجرة الجوشوا قبيحة. كانت تبدو متشابكة وغريبة، كأنها عالقة على نحو دائم في وضعية ملتوية ومعذبة. ذكّرتني بما يقوله بعض الكبار عندما يحذرونك من صنع وجوه غريبة، لأن ملامحك قد تتجمد على تلك الهيئة. لكن أمي، على العكس، رأتها من أجمل الأشجار التي رأتها في حياتها. قالت لنا إنها يجب أن ترسمها. وبينما كانت تجهز حامل اللوحات الخاص بها، قاد أبي السيارة قليلًا لاستكشاف ما يوجد في المنطقة. وقد وجد مجموعة متناثرة من المنازل الصغيرة المتشققة، وعربات متنقلة غارقة في الرمال، وأكواخًا بأسقف من الصفيح الصدئ. كان المكان يسمى "ميدلاند". وكان أحد المنازل الصغيرة عليه لافتة "للإيجار". قال أبي: "ما المشكلة؟ هذا المكان جيد كأي مكان آخر".

كان المنزل الذي استأجرناه قد بُني من قبل شركة تعدين. كان أبيض، وبه غرفتان وسقف متقوس. لم تكن هناك أشجار، وكانت الرمال الصحراوية تزحف مباشرة إلى الباب الخلفي. في الليل، كان يمكنك سماع عواء ذئاب البراري.

عندما وصلنا إلى ميدلاند لأول مرة، كانت تلك الذئاب تبقيني مستيقظة، وكنت أسمع في أثناء استلقائي على السرير أصواتًا أخرى، زواحف جيلا تتحرك في الشجيرات، وفراشات تضرب النوافذ، وصوت تكسر القطران في مهبِّ الريح. ذات ليلة، عندما كانت الأضواء مطفأة، وكان بإمكاني رؤية شظية من القمر عبر النافذة، سمعت صوتًا زاحفًا على الأرض.

همستُ للوري: "أعتقد أن هناك شيئًا تحت سريرنا".

ردت لوري، وهي تتحدث بلهجة الكبار عندما تكون منزعجة: "هذا محض خيال من نسج أفكاركِ المضطربة".

حاولتُ أن أتحلى بالشجاعة، لكنني سمعتُ شيئًا. تحت ضوء القمر، خُيِّل إليّ أنني رأيته يتحرك.

همست: "هناك شيء ما".

قالت لوري: "اخلدي إلى النوم".

وضعت وسادتي فوق رأسي كدرع حماية، وركضت إلى غرفة المعيشة، حيث كان أبي يقرأ. سألني: "ما الخطب يا عنزة الجبل؟". كان يناديني بهذا الاسم، لأنني لم أكن أسقط أبدًا في أثناء تسلق الجبال، كان يقول دائمًا إنني رشيقة كعنزة جبلية.

قلت له: "لا شيء، ربما. فقط أعتقد أنني رأيت شيئًا في غرفة النوم". رفع أبي حاجبيه وقال: "لكن ربما كان ذلك محض خيال من نسج أفكاركِ المضطربة".

سألني: "هل رأيتِه بوضوح؟".

قلت: "ليس حقًا".

قال: "لا بد أنك رأيته. هل كان وحشًا ضخمًا ومشعرًا على نحو مرعب بأسنان ومخالب غريبة المنظر؟".

قلت "أجل، هذا هو!".

سألني: "هل كانت له أذنان مدببتان وعينان شريرتان مليئتان بالنار، وكان ينظر إليكِ نظرات خبيثة؟".

قلت: "نعم! نعم! أرأيته أنت أيضًا؟".

قال: "أجل صدقتِ! لقد رأيته بالتأكيد. إنه ذلك الوغد الشرس العجوز الشيطان بنفسه".

كان أبي يقول إنه كان يطارد الشيطان لسنوات. وبحلول ذلك الوقت، قال أبي، لقد أدرك ذلك الشيطان العجوز جيدًا أنه من الأفضل له ألا يعبث مع ريكس وولز. لكن إذا كان ذلك اللعين الماكر يظن أنه سيروع ابنة ريكس وولز الصغيرة، فقد أخطأ في الحساب، وعليه أن يعيد التفكير في الأمر حتمًا. قال أبي: "اذهبي وأحضري لي سكين الصيد خاصتي".

أحضرت لأبي سكينه ذات المقبض العظمي المنحوت والنصل الأزرق المصنوع من الفولاذ الألماني، فأعطاني مفتاح ربط، ثم خرجنا نبحث عن الشيطان. بحثنا تحت سريري، حيث رأيته، لكنه اختفى. بحثنا في جميع أرجاء المنزل، تحت الطاولة، وفي الزوايا المظلمة من الخزائن، وفي صندوق الأدوات، وحتى في الخارج داخل صناديق القمامة.

صرخ أبي في ظلام الليل الصحراوي: "اخرج أيها الشيطان العجوز البائس! اخرج وأرِنا وجهك القبيح أيها الوحش الجبان!".

قلت وأنا ألوّح بمفتاح الربط في الهواء:"أجل، هيا أيها الشيطان الشرير العجوز! نحن لسنا خائفين منك!".

لم يكن هناك سوى صوت ذئاب البراري تعوي في الأفق. قال أبي: "هذا بالضبط هو أسلوب ذلك الشيطان الجبان". ثم جلس على العتبة الأمامية وأشعل سيجارة، وبدأ يحكي لي قصة عن المرة التي كان يرهب فيها الشيطان بلدة بأكملها، وكيف تصدى له أبي في قتال مباشر، حين عض أذنيه، وغرز أصابعه في عينيه. كان الشيطان العجوز مرعوبًا، لأن هذه كانت المرة الأولى التي يواجه فيها شخصًا لا يخافه. قال أبي وهو يهز رأسه بضحكة مكتومة: "لم يعرف ذلك الشيطان اللعين ماذا يفعل". كما أضاف أبي: "هذا ما يجب تذكره عن الوحوش كلها، إنها تحب إخافة الناس، لكن بمجرد أن تواجهها، تولي الأدبار وتهرب. كل ما عليكِ فعله، يا عنزة الجبل، هو أن تري ذلك الشيطان العجوز أنكِ لستِ خائفة منه".

لم يكن هناك الكثير مما ينمو في ميدلاند سوى شجرة الجوشوا، والصبار، وشجيرات القطران الصغيرة المتدلية، التي قال أبي إنها من أقدم النباتات على هذا الكوكب. كانت شجيرات القطران العتيقة تعيش لآلاف السنين. وعندما تمطر السماء، تنبعث منها رائحة عفنة مقززة، حتى لا تأكلها الحيوانات. لم يكن يهطل على ميدلاند سوى أربع بوصات من المطر سنويًا -وهو نفس معدل الهطول في شمال الصحراء الكبرى الشمالية- وكانت مياه الشرب تصل إلى البشر عبر القطار مرة يوميًا في حاويات خاصة. أما الحيوانات الوحيدة التي استطاعت العيش في ميدلاند، فكانت تلك المخلوقات العديمة الشفاه ذات الحراشف، مثل وحوش الجيلا والعقارب، وأناس مثلنا.

بعد شهر من انتقالنا إلى ميدلاند، تعرض جوجو للدغة أفعى جرسية ومات. دفناه بالقرب من شجرة جوشوا. كانت تلك إحدى المرات القليلة التي رأيت فيها براين يبكي. لكن كان لدينا كثير من القطط لنبقى برفقتها، أكثر مما ينبغي في الواقع. لقد أنقذنا عديدًا من القطط منذ أن ألقينا كويخوتي من النافذة، وكثير منها أنجب صغارًا، ووصل الأمر إلى النقطة التي كان علينا فيها التخلص من بعضها. لم يكن لدينا كثير من الجيران لنمنحهم بعضًا منها، لذلك وضعها أبي في كيس من الخيش، وقاد السيارة إلى بركة صنعتها شركة التعدين لتبريد المعدات. راقبتُه وهو يُحمّل الجزء الخلفي من السيارة بأكياس تتحرك وتصدر مواءً خافتًا.

قلتُ لأمي:"هذا ليس صوابًا، لقد أنقذناها. والآن سنقتلها!".

قالت أمي: "لقد منحناها فرصة إضافية للحياة على الأرض. يجب أن تكون ممتنة لذلك".

حصل أبي أخيرًا على وظيفة في منجم الجبس، حيث يكدح لاستخراج الصخور البيضاء التي تُطحَن لإنتاج مسحوق الجبس المستخدم في أعمال البناء والديكور. عندما يعود إلى المنزل، يكون مغطى بمسحوق الجبس الأبيض، وأحيانًا كنا نلعب معًا، كان يطاردنا متظاهرًا بأنه شبح. كما كان يحضر معه أكياسًا من الجبس، وكانت أمي تخلطها بالماء لتصنع تماثيل فينوس دي ميلو باستخدام قالب مطاطي كانت قد طلبته عبر البريد. كان يحزن أمي أن المنجم كان يُدمر كثيرًا من الصخور البيضاء، قالت إنها كانت رخامًا حقيقيًا، وتستحق مصيرًا أفضل، وإنها، من خلال صنع تماثيلها، كانت تُخلد بعضًا منها على الأقل.

كانت أمي حاملًا. وكان الجميع يأمل أن يكون الجنين صبيًا حتى يجد براين من يلعب معه غيري. وعندما اقترب موعد ولادتها، كانت خطة أبي أن ننتقل إلى بليث، على بُعد عشرين ميلًا جنوبًا، وهي بلدة كبيرة لدرجة أنها كانت تضم دارين للسينما وسجنين حكوميين.

وفي هذه الأثناء، كرست أمي نفسها لفنها. كانت تقضي يومها بالكامل تعمل على لوحات زيتية، وألوان مائية، ورسومات بالفحم، ورسومات بالقلم والحبر، ومنحوتات من الطين والأسلاك، وشاشات حريرية، ونقوش على الخشب. لم يكن لها أي أسلوب محدد، فبعض لوحاتها كانت ما أسمته بدائية، وبعضها انطباعية وتجريدية، وبعضها واقعية. كانت أمي تحب أن تقول: "لا أريد أن أصنف في خانة واحدة". كانت أمي أيضًا كاتبة، ودائمًا ما كانت تكتب روايات، وقصصًا قصيرة، ومسرحيات، وشعرًا، وحكايات، وكتبًا للأطفال، وكانت ترسمها بنفسها. كان أسلوبها في الكتابة إبداعيًا للغاية، وكذلك كان أسلوبها في التهجئة. كانت تحتاج إلى مدقق لغوي، وحين كانت لوري في السابعة من عمرها فقط، كانت تراجع مخطوطات أمي، وتتحقق من الأخطاء.

في أثناء وجودنا في ميدلاند، رسمت أمي عشرات التنويعات والدراسات لشجرة جوشوا. كنا نذهب معها، وكانت تعطينا دروسًا في الرسم. ذات مرة، رأيت شتلة صغيرة لشجرة جوشوا تنمو على بُعد مسافة قصيرة من الشجرة القديمة. أردت أن أقتلعها وأعيد زراعتها بالقرب من منزلنا. أخبرت أمي أنني سأحميها من الرياح، وسأسقيها كل يوم حتى تنمو طويلة مستقيمة.

عبست أمي في وجهي وقالت: "أنتِ بذلك تدمرين ما يجعلها مميزة. إن صراع شجرة جوشوا هو ما يمنحها جمالها".

لم أومن يومًا ببابا نويل.

لم يؤمن أي منا نحن الأطفال بوجوده، فقد رفض أبي وأمي أن يدعانا نؤمن بذلك. لم يتمكنا من تحمل تكلفة الهدايا الباهظة الثمن، ولم يريدا أن نظن أننا أقل شأنًا من الأطفال الآخرين الذين كانوا يجدون صباح عيد الميلاد تحت الشجرة كل أنواع الألعاب الجميلة التي كان من المفترض أن بابا نويل قد تركها لهم. لذا، شرحا لنا كيف أن الأطفال الآخرين مخدوعون من قبل آبائهم، وكيف أن الألعاب التي ادعى الكبار أنها صُنعت على يدِ جِنّ صغار يرتدون قبعاتٍ مُزينة بأجراس في ورشة عملهم في القطب الشمالي، كانت تحمل ملصقاتٍ واضحة كُتب عليها "صُنع في اليابان".

قالت أمي: "حاولوا ألا تحتقروا هؤلاء الأطفال الآخرين. ليس ذنبهم أنهم تعرضوا لغسيل دماغ ليؤمنوا بأساطير سخيفة".

كنا نحتفل بعيد الميلاد، لكن عادةً بعد حوالي أسبوع من 25 ديسمبر، عندما يمكنك العثور على أشرطة الزينة وأوراق التغليف التي تخلص منها الناس، وأشجار عيد الميلاد الملقاة على جوانب الطرق، التي لا تزال تحتفظ بمعظم إبرها وحتى ببعض الزينة الفضية المتدلية عليها. كان أبي وأمي يمنحاننا كيسًا من الكرات الزجاجية، أو دمية، أو مقلاعًا كان سعره قد انخفض كثيرًا في تخفيضات ما بعد عيد الميلاد.

فقد أبي وظيفته في منجم الجبس بعد شجار مع المشرف، وعندما جاء عيد الميلاد في ذلك العام، لم يكن لدينا أي مال على الإطلاق. في ليلة عيد الميلاد، أخذ أبي كل واحد منا على انفراد إلى الخارج في ظلام الليل الصحراوي. كنت ملفوفة ببطانية، وعندما حان دوري، عرضتُ أن أشاركها مع أبي، لكنه قال: "لا شكرًا". لم يكن البرد يزعجه أبدًا. كنت في الخامسة من عمري حينها، وجلست بجوار أبي، ونظرنا معًا إلى السماء. كان أبي يحب التحدث عن النجوم، وشرح لنا كيف تدور عبر سماء الليل، بينما كانت الأرض تدور. علمنا كيف نحدد الكويكبات وكيف نستخدم نجم الشمال للملاحة. كان يحب أن يشير إلى أن تلك النجوم اللامعة كانت إحدى الهدايا الخاصة التي يحصل عليها أناس مثلنا، الذين يعيشون في البرية. قال إن الأثرياء في المدن يعيشون في شقق فاخرة، لكن هواءهم ملوث لدرجة أنهم لا يستطيعون حتى رؤية النجوم.

قال أبي تلك الليلة: "اختاري نجمكِ المفضل". ثم أخبرني أن بإمكاني الاحتفاظ به إلى الأبد. ثم قال: "إنه هديتكِ في عيد الميلاد".

قلت: "لا يمكنك أن تهديني نجمًا! لا أحد يملك النجوم".

قال أبي: "هذا صحيح. لا أحد يمتلكها غيركِ. عليكِ فقط أن تُطالبي بها قبل أي شخص آخر، مثل ذلك الزميل الإيطالي كولومبوس الذي ادعى أن أمريكا للملكة إيزابيلا. إن ادعاء ملكية نجمة يحمل القدر نفسه من المنطق".

فكرت في الأمر، وأدركت أن أبي كان على حق. كان دائمًا ما يكتشف أشياء من هذا القبيل.

أخبرني أبي أنه بإمكاني اختيار أي نجمة في السماء، ما عدا "منكب الجوزاء" و"رجل الجبار"، لأن لوري وبراين قد سبقاني إلى ذلك.

نظرتُ إلى النجوم، وحاولتُ أن أُحدد أيها الأفضل. كان بإمكانك رؤية المئات، وربما الآلاف، أو حتى الملايين، وهي تتلألأ في سماء الصحراء الصافية. وكلما نظرت لفترة أطول، وكلما

اعتادت عيناك الظلام، رأيت مزيدًا ومزيدًا من النجوم، طبقة تلو أخرى، وهي تظهر تدريجيًا. كان هناك نجم واحد على وجه الخصوص، في الغرب فوق الجبال، لكنه منخفض في السماء، يضيء أكثر من جميع النجوم الأخرى.

قلت: "أريد ذلك النجم".

ابتسم أبي وقال: "ذلك كوكب الزهرة". ثم أوضح أن الزهرة ليس سوى كوكب، وهو ضئيل مقارنة بالنجوم الحقيقية. قال إنه يبدو أكبر وأكثر سطوعًا، لأنه أقرب بكثير من النجوم. قال أبي إن كوكب الزهرة المسكين لا ينتج ضوءه الخاص حتى، بل يلمع فقط من خلال انعكاس الضوء. وشرح لي أن الكواكب تتوهج لأن الضوء المنعكس ثابت، بينما النجوم تتلألأ لأن ضوءها ينبض.

قلت: "لكنني أحبه على أي حال". لطالما كنت معجبة بالزهرة، حتى قبل عيد الميلاد ذلك. كان بإمكانك رؤيته في وقت مبكر من المساء، وهو يتوهج في الأفق الغربي، وإذا استيقظت مبكرًا، فستظل تراه في الصباح، بعد أن تختفي النجوم جميعًا.

قال أبي: "ما المشكلة؟ إنه عيد الميلاد. يمكنكِ الحصول على كوكب إذا أردتِ".

وهكذا أهداني كوكب الزهرة.

تحدثنا جميعًا في ذلك المساء، في أثناء عشاء عيد الميلاد، عن الفضاء الخارجي. شرح لنا أبي عن السنين الضوئية، والثقوب السوداء، والنجوم الزائفة، وأخبرنا عن الخصائص المميزة لمنكب الجوزاء، ورجل الجبار، والزهرة.

كان منكب الجوزاء نجمًا أحمر في كتف كوكبة الجبار، وكان أحد أكبر النجوم التي يمكنك رؤيتها في السماء، أكبر بمئات المرات من الشمس. كان قد احترق بشدة لملايين السنين، وسرعان ما سيصبح مستعرًا أعظم وينطفئ. انزعجت لأن لوري اختارت نجمًا خاملًا، لكن أبي أوضح لي أن "سرعان ما" تعني مئات الآلاف من السنين عندما يتعلق الأمر بالنجوم.

أما رجل الجبار، فقد كان نجمًا أزرق، أصغر من منكب الجوزاء، كما قال أبي، لكنه كان أكثر إشراقًا. وكان أيضًا في كوكبة الجبار، كان يمثل قدمه اليسرى، مما بدا مناسبًا، لأن براين كان عدّاءً سريعًا للغاية.

لم يكن للزهرة أي أقمار أو توابع أو حتى مجال مغناطيسي، لكنه كان يمتلك غلافًا جويًا يشبه إلى حد ما غلاف الأرض، باستثناء أنه كان شديد الحرارة، حوالي خمسمئة درجة أو أكثر. قال أبي: "إذًا، عندما تبدأ الشمس بالانطفاء، وتصبح الأرض باردة، قد يرغب الجميع هنا في الانتقال إلى الزهرة ليشعروا بالدفء. وسيتعين عليهم الحصول على إذن من أحفادكِ أولًا".

ضحكنا من الأطفال كلهم الذين كانوا يؤمنون بأسطورة سانتا، وحصلوا على عيد ميلاد مليء بألعاب بلاستيكية رخيصة. قال أبي: "بعد سنوات من الآن، عندما تتحطم كل الأشياء التافهة التي حصلوا عليها وتُنسى تمامًا، ستظل نجومكم موجودة".

عند الغسق، بعد أن انزلق قرص الشمس خلف جبال بالين، خرجت الخفافيش وبدأت تحلّق في السماء فوق أكواخ ميدلاند. حذرتنا العجوز التي كانت تعيش بجوارنا من الخفافيش. كانت تسميها "الفئران الطائرة"، وقالت إن أحدها علق في شعرها ذات مرة، وأصابها الهلع، وهي تحاول تخليص نفسها منه. لكنني كنتُ أجد في تلك المخلوقات الصغيرة، رغم قبحها، سحرًا خاصًا، خصوصًا طريقة تحليقها السريع وانقضاضها بأجنحتها التي تكاد لا تُرى من سرعتها. شرح لنا أبي أنها تمتلك أجهزة سونار، تشبه إلى حد كبير تلك الموجودة في الغواصات النووية. كنت أنا وبراين نرمي الحصى في الهواء، على أمل أن تظن الخفافيش أنها حشرات وتحاول التقاطها، مما يجعل وزن الحصى يسحبها إلى أسفل، فنتمكن من الاحتفاظ بها كحيوانات أليفة، ونربط خيطًا طويلًا بمخالبها حتى تظل قادرة على الطيران. كنت أرغب في تدريب أحدها على أن يتدلى رأسًا على عقب من إصبعي. لكن تلك الخفافيش الماكرة لم تكن لتقع في حيلتنا.

كانت الخفافيش تحلق وتصرخ عندما غادرنا ميدلاند متجهين إلى بليث. في وقت سابق من ذلك اليوم، أخبرتنا أمي أن الطفل قد حان وقت ولادته، وأنه سيأتي قريبًا لينضم إلى العائلة. بمجرد أن انطلقنا على الطريق، دخل أبي وأمي في شجار كبير حول عدد الأشهر التي قضتها أمي في الحمل. قالت أمي إنها كانت حاملًا منذ عشرة أشهر. أما أبي، الذي كان قد أصلح ناقل حركة أحدهم في وقت سابق من ذلك اليوم، واستخدم المال الذي حصل عليه لشراء زجاجة من الشراب، فقال إنها ربما فقدت العدّ في مكان ما.

قالت أمي: "أنا دائمًا أحمل أطفالي لفترة أطول من معظم النساء. كانت لوري في رحمي لأربعة عشر شهرًا".

قال أبي: "هراء! إلا إذا كانت لوري جزءًا من فيل!".

صرخت أمي: "لا تجرؤ على السخرية مني، أو من أطفالي!". وأضافت: "بعض الأطفال يولدون قبل أوانهم. أما أطفالي، فجميعهم تأخروا. لهذا السبب هم أذكياء جدًا. فقد أتيحت لأدمغتهم فرصة أطول لتتطور".

قال أبي شيئًا عن "الظواهر الشاذة"، فردت عليه أمي واصفة إياه بأنه "السيد المتحذلق المتعالم" الذي يرفض الاعتراف بأنها شخص مميز. قال أبي شيئًا فيه استخفاف، فاستشاطت أمي غضبًا من كلامه، فوجهت قدمها نحو دواسة المكابح في جهة السائق، وضغطت عليها بعنف. كان الوقت منتصف الليل، فخرجت أمي من السيارة مسرعة، واختفت في الظلام.

صرخ أبي بغضب: "يا لكِ من مجنونة! عودي فورًا إلى السيارة!".

صرخت أمي وهي تواصل الركض مبتعدة: "أجبرني إن استطعت أيها الرجل القوي!".

انتفض أبي، وأدار المقود إلى أحد الجانبين، وانحرف بالسيارة عن الطريق متجهًا إلى الصحراء خلفها. تشبثنا، أنا ولوري وبراين، بعضنا بأذرع بعض، كما كنا نفعل دائمًا عندما كان

أبي يدخل في واحدة من تلك المطاردات الجنونية التي كنا نعرف أنها ستصبح وعرة.

بينما كان يقود السيارة، أخرج أبي رأسه من النافذة، يصرخ على أمي، وينعتها بـ"الغبية" و"المتخلفة"، ويأمرها بالعودة إلى السيارة. رفضت أمي. كانت تسبقنا، وتتمايل داخل وخارج شجيرات الصحراء. ولأنها لم تستخدم أبدًا كلمات نابية، فقد كانت تصف أبي بكلمات مثل "الفلان الفلاني" و"السكير العديم الفائدة". توقف أبي بالسيارة، ثم ضغط بقوة على دواسة الوقود وأفلت القابض. اندفعنا إلى الأمام نحو أمي، التي صرخت وقفزت مبتعدة عن الطريق. استدار أبي واندفع نحوها مرة أخرى.

كانت الليلة بلا قمر، فلم نتمكن من رؤية أمي إلا عندما ركضت داخل مجال ضوء المصابيح الأمامية. استمرت في النظر خلفها، وعيناها متسعتان كعيني حيوان مطارد. كنا نحن الأطفال نبكي ونتوسل إلى أبي أن يتوقف، لكنه تجاهلنا تمامًا. كنت أكثر قلقًا بشأن الطفل في بطن أمي المنتفخ أكثر من قلقي عليها نفسها. كانت السيارة تهتز فوق الحفر والصخور، والأغصان تخدش جانبيها، بينما يتسلل الغبار عبر النوافذ المفتوحة. أخيرًا، حاصر أبي أمي عند بعض الصخور. خشيت أن يسحقها بالسيارة، لكنه بدلًا من ذلك خرج وجرّها عائدةً، وساقاها تتخبطان، وألقى بها في السيارة. انطلقنا مجددًا عبر الصحراء حتى وصلنا إلى الطريق. ساد الصمت بين الجميع باستثناء أمي، التي كانت تبكي وتردد أنها بالفعل حملت بلوري لمدة أربعة عشر شهرًا.

تصالح أبي وأمي في اليوم التالي، وبحلول أواخر الظهيرة كانت أمي تقص شعر أبي في غرفة المعيشة بالشقة التي استأجرناها في بليث. خلع أبي قميصه، وجلس معكوسًا على الكرسي برأسه منحنيًا إلى الأمام وشعره ممشط نحو الأسفل. كانت أمي تقص أطرافه، بينما كان أبي يشير إلى الأجزاء التي لا تزال طويلة جدًا. وعندما انتهيا، مشَّط أبي شعره إلى الخلف، وأعلن أن أمي قامت بعمل رائع في قص شعره.

كانت شقتنا في مبنى مكوّن من طابق واحد مصنوع من كتل الإسمنت، يطل على مشارف المدينة. كانت للمبنى لافتة بلاستيكية كبيرة باللونين الأزرق والأبيض، على شكل بيضاوي

وعليها علامة على شكل عصا معقوفة مكتوب عليها: شقق LBJ. اعتقدت أن الأحرف ترمز إلى "لوري، براين، وجانيت"، لكن أمي أوضحت أن LBJ هي الأحرف الأولى من اسم الرئيس، مضيفة أنه كان محتالًا ومؤيدًا للحروب. كان بعض سكان شقق LBJ من سائقي الشاحنات ورعاة البقر، لكن معظمهم كانوا من العمال المهاجرين وعائلاتهم، وكنا نسمعهم يتحدثون من خلال الجدران الرقيقة المصنوعة من ألواح الجبس. قالت أمي إنها كانت إحدى الميزات الإضافية للعيش هناك، لأننا سنتمكن من اكتساب بعض من اللغة الإسبانية دون الحاجة إلى دراستها.

رغم أن بليث كانت في كاليفورنيا، فإن حدود أريزونا كانت قريبة جدًا لدرجة أن الناس كانوا يقولون إن المدينة تبعد 150 ميلًا غرب فينيكس، و250 ميلًا شرق لوس أنجلوس، وتقع في مكان ناءٍ تمامًا. لكنهم كانوا يقولون ذلك دائمًا كأنهم يتباهون.

لم يكن أبي وأمي معجبين ببليث كثيرًا. كانا يعتبرانها متحضرة أكثر مما ينبغي، بل وغير طبيعية، لأن مدينة بهذا الحجم لا ينبغي أن تكون موجودة في وسط صحراء موهافي. كانت المدينة تقع بالقرب من نهر كولورادو، وقد تأسست في القرن التاسع عشر على يد رجل اعتقد أنه يمكنه تحقيق الثراء من تحويل الصحراء إلى أراضٍ زراعية. حفر عدة قنوات ريّ تسحب المياه من نهر كولورادو لزراعة الخس والعنب والبروكلي في قلب منطقة مليئة بالصبار وشجيرات الشيح. كان أبي يشعر بالاشمئزاز في كل مرة نمر فيها بجانب تلك الحقول الزراعية، حيث كانت قنوات الريّ واسعة كأنها خنادق دفاعية. قال أبي: "هذا تحريف تام للطبيعة. إذا كنت تريد العيش في أرض زراعية، فاجمع أمتعتك وارحل إلى بنسلفانيا. وإذا كنت تريد العيش في الصحراء، فتناول التين الشوكي بدلًا من خس الجبناء العديمي الشخصية".

قالت أمي: "هذا صحيح. التين الشوكي يحتوي على مزيد من الفيتامينات على أي حال".

كان العيش في مدينة كبيرة مثل بليث يعني أنه يتعين عليّ ارتداء الأحذية. كما كان يعني أيضًا أنه يتعين عليّ الذهاب إلى المدرسة.

لم تكن المدرسة سيئة للغاية. كنت في الصف الأول، وكانت معلمتي، الآنسة كوك، تختارني دائمًا للقراءة بصوت عالٍ عندما يدخل المدير إلى الفصل. لم يكن باقي الطلاب يحبونني كثيرًا، لأنني كنت طويلة القامة، وشاحبة، ونحيفة، وأرفع يدي بسرعة، وألوح بها بحماس كلما طرحت الآنسة كوك سؤالًا. بعد بضعة أيام من بدء الدراسة، تبعتني أربع فتيات مكسيكيات إلى المنزل وهاجمنني في أحد الأزقة القريبة من شقق LBJ. ضربنني بشدة، وجذبن شعري، ومزّقن ملابسي، وأطلقن عليّ لقبَي "محبوبة المعلمة" و"عود الثقاب".

عندما عدت إلى المنزل تلك الليلة، كانت ركبتاي وكوعاي مخدوشين، وشفتاي متورمتين ومتشققتين. قال لي أبي: "يبدو لي أنكِ أقحمتِ نفسكِ في شجار". كان جالسًا على الطاولة، يُفكك ساعة منبه قديمة مع براين.

قلت: "مجرد مشادة صغيرة". كان هذا هو التعبير الذي كان يستخدمه أبي بعد كل شجار يخوضه.

قال: "كم كان عددهم؟".

كذبت وقلت: "ستة".

قال: "هل شفتكِ المشقوقة بخير؟".

قلت: "أتعني هذه الخدشة الصغيرة؟ كان يجب أن ترى ما فعلته بهم".

قال: "هذه هي فتاتي!"، ثم عاد إلى تفكيك المنبه، لكن براين ظل يحدق بي.

في اليوم التالي، عندما وصلت إلى الزقاق، كانت الفتيات المكسيكيات في انتظاري. وقبل أن يتمكنّ من مهاجمتي، قفز براين من خلف شجيرة من نبات الشيح، وهو يلوّح بغصن من نبتة اليكة. كان براين أقصر مني ونحيفًا مثلي تمامًا، بنمش يتناثر عبر أنفه وشعر أحمر

رملي يتدلى على عينيه. كان يرتدي بنطالي القديم الذي ورثته عن لوري، ثم ورّثته له، وكان دائمًا ينزلق عن خصره النحيل.

قال براين: "تراجعن الآن، ويمكن للجميع المغادرة بأطرافه سليمة"، كانت تلك إحدى العبارات التي يرددها أبي.

حدقت الفتيات المكسيكيات به للحظة، ثم انفجرن ضاحكات. ثم أحطن به من كل جانب. قاوم براين على نحو جيد حتى انكسر غصن نبتة اليكة، ثم اختفى وسط وابل من اللكمات المتأرجحة والأقدام الراكلة. أمسكت بأكبر صخرة تمكنت من العثور عليها، وضربت بها إحدى الفتيات على رأسها. ظننت أنني هشمت جمجمتها، من الارتجاج الذي شعرت به في ذراعي. سقطت على ركبتيها. دفعتني إحدى صديقاتها إلى الأرض، وركلتني في وجهي، ثم فررن جميعًا، بينما كانت الفتاة التي ضربتها تمسك برأسها، وتترنح في سيرها.

نهضتُ أنا وبراين. كان وجهه مغطى بالرمل، ولم يكن يمكنني رؤية شيء سوى عينيه الزرقاوين وبعض بقع الدم التي بدأت تتسرب من خدوشه. رغبت في معانقته، لكن ذلك كان سيبدو غريبًا للغاية. وقف براين ولوّح لي بيده لأتبعه. تسللنا عبر ثغرة في السياج الشبكي كان قد اكتشفها في الصباح، وركضنا نحو مزرعة خس الأيسبيرج المجاورة للمبنى الذي نسكن فيه. تبعته عبر صفوف الأوراق الخضراء العريضة، إلى أن استقررنا في نهاية المطاف لتناول وليمة، ودفنّا وجهينا في رءوس الخس الرطبة الضخمة، وأكلنا حتى آلمتنا بطوننا.

قلت لبراين: "أعتقد أننا أفزعناهن جيدًا".

قال: "أعتقد ذلك".

لم يكن يحب التباهي، لكنني شعرت بأنه فخور لأنه واجه أربع فتيات أكبر وأقوى منه، حتى لو كنّ مجرد فتيات.

صرخ براين: "حرب الخس!"، ثم رمى نحوي رأس خس نصف مأكول كأنه قنبلة يدوية. ركضنا بين الصفوف، نقتلع الرءوس ونقذفها بعضنا على بعض. حلّقت طائرة رش محاصيل فوقنا. لوّحنا لها بينما كانت تقوم بدورة فوق الحقل. انطلقت سحابة من خلف الطائرة، وبدأ مسحوق أبيض ناعم يتناثر فوق رأسينا.

بعد شهرين من انتقالنا إلى بليث، عندما قالت أمي إنها في شهرها الثاني عشر من الحمل، أخيرًا أنجبت. بعد أن قضت يومين في المستشفى، ذهبنا جميعًا لاصطحابها. تركنا أبي ننتظر في السيارة والمحرك يعمل، وذهب لإحضار أمي. خرج أبي وأمي راكضين، وذراعه يحيط بكتفيها. كانت أمي تحتضن طفلها بحنانٍ بالغٍ، وتضحك بخجلٍ وسرورٍ، كأنها قد ارتكبت فعلًا مرحًا أو مزحة لذيذة. أدركت حينها أنهما خرجا من المستشفى على طريقة ريكس وولز.

سألت لوري، بينما كنا ننطلق بسرعة: "ما جنسه؟".

قالت أمي: "بنت!".

ناولَتني أمي الطفلة. كنتُ سأبلغ السادسة من عمري في غضون بضعة أشهر، وقالت إنني ناضجة بما يكفي لحملها طوال الطريق إلى المنزل. كانت الطفلة وردية، ومتغضنة، لكنها كانت جميلة للغاية، بعينين زرقاوين كبيرتين، وخصلات ناعمة من الشعر الأشقر، وأظفار صغيرة، كانت هي الأصغر مِن بين مَن رأيت في حياتي. كانت تتحرك بحركات متشنجة مرتبكة، كأنها لم تفهم بعد لماذا لم تعد بطن أمي تحيط بها. وعدتها أنني سأعتني بها دائمًا.

ظلت الطفلة بلا اسم لأسابيع. قالت أمي إنها تريد أن تدرسها أولًا، بالطريقة التي تدرس بها موضوع لوحة ما. نشبت بيننا خلافات كثيرة حول الاسم الذي يجب أن تحمله. أردت أن أسميها "روزيتا"، على اسم أجمل فتاة في صفي، لكن أمي قالت إن هذا الاسم مكسيكي أكثر مما ينبغي.

قلت: "ظننت أننا لا ينبغي أن نكون متحيزين".

قالت أمي: "هذا ليس تحيزًا، إنه مسألة دقة في التسمية".

أخبرتنا أن جدتينا كانتا غاضبتين، لأن لا أحد منّا، لا لوري ولا أنا، سُمّينا تيمّنًا بهما، لذا قررت تسمية الطفلة ليلي روث مورين. كان ليلي اسم والدة أمي، وإيرما روث كان اسم والدة أبي. لكننا سنناديها مورين، وهو اسم أحبته أمي، لأنه تصغير لماري، مما يعني أنها أيضًا أسمت الطفلة على اسمها، لكن دون أن يدرك أحد ذلك تقريبًا. قال أبي إن ذلك سيجعل الجميع سعداء، باستثناء والدته، التي كانت تكره اسم روث، وأرادت أن تُسمى الطفلة إيرما، ووالدة أمي، التي ستكره مشاركة اسمها مع والدة أبي.

بعد بضعة أشهر من ولادة مورين، حاولت دورية شرطة إيقافنا، لأن مصابيح المكابح في سيارتنا "الذيل الأخضر" لم تكن تعمل. انطلق أبي بسرعة. قال إنهم إذا أوقفونا، فسيكتشفون أننا لا نملك تسجيلًا أو تأمينًا، وأن لوحة السيارة مأخوذة من سيارة أخرى، وسينتهي الأمر باعتقالنا جميعًا. بعد أن انطلق بسرعة على الطريق السريع، انعطف انعطافًا حادًا جدًا، جعلنا نحن الأطفال نشعر كأن السيارة ستنقلب على جانبها، لكن سيارة الشرطة فعلت الشيء نفسه. اندفع أبي عبر شوارع بليث بسرعة مئة ميل في الساعة، واجتاز إشارة حمراء، وانطلق عكس السير في شارع باتجاه واحد، حينما كانت السيارات الأخرى تطلق أبواقها وتتزحزح جانبًا. ثم انعطف بضعة انعطافات أخرى، واندفع نحو زقاق، ووجد مرآبًا فارغًا للاختباء فيه.

سمعنا صوت صفارة الإنذار على بُعد بضعة مبانٍ ثم خفت. قال أبي بما أن "الشرطة السرية" ستكون أعينها مُسلّطة على سيارتنا "الذيل الأخضر"، فسيتعيّن علينا تركها في المرآب والعودة إلى المنزل سيرًا على الأقدام.

في اليوم التالي، أعلن أن "بليث" قد أصبحت مُراقبةً بشكل مُلِحٍّ، وأننا سننطلق في رحلة أخرى. لكن هذه المرة، كان يعرف وجهتنا. كان أبي يُجري بعض الأبحاث، واستقر على بلدة

في شمال نيفادا تُسمى "باتل ماونتن". قال أبي إن الذهب موجود في باتل ماونتن، وإنه يخطط للبحث عنه باستخدام جهاز التنقيب الخاص به. أخيرًا، كنا على وشك أن نصبح أثرياء.

استأجر أبي وأمي شاحنة كبيرة من نوع "يو-هول". أوضحت أمي أنه بما أن المقعدين الأماميين في الشاحنة لا يتسعان إلا لها ولأبي، فإن الأطفال -لوري، وبراين، ومورين، وأنا- كانوا على وشك خوض مغامرة شيقة: سنسافر في الجزء الخلفي من الشاحنة. قالت إنها ستكون تجربة ممتعة، مغامرة حقيقية، لكن لن يكون هناك أي ضوء، لذا علينا أن نستخدم كل مواردنا ليُسلّي بعضنا بعضًا. بالإضافة إلى ذلك، لم يكن مسموحًا لنا بالكلام، لأن ركوب أشخاص في الخلف أمر غير قانوني، وإذا سمعنا أحد فقد يستدعي الشرطة. أخبرتنا أمي أن الرحلة ستستغرق نحو أربع عشرة ساعة إذا سلكنا الطريق السريع، لكن علينا إضافة بضع ساعات، لأننا قد نقوم ببعض المنعطفات ذات المناظر الخلابة.

جمعنا ما تبقى لدينا من أثاث. لم يكن هناك الكثير، مجرد بعض قطع من جهاز التنقيب، وعدد قليل من الكراسي، ولوحات أمي الزيتية وأدوات الرسم الخاصة بها. وعندما حان وقت المغادرة، لفت أمي مورين ببطانية بلون الخزامى ومررتها إليّ، ثم تسلقنا جميعًا أنا وإخوتي إلى الجزء الخلفي من الشاحنة، ثم أغلق أبي الأبواب. ساد ظلام دامس، وكانت رائحة الهواء قديمة ومغبرة. جلسنا على الأرض الخشبية المضلعة، فوق بطانيات مهترئة وملطخة كانت تُستخدم لتغطية الأثاث، وتحسس بعضنا بعضًا بأيدينا.

همست: "وهكذا تبدأ المغامرة!".

قالت لوري: "ششش!".

تحركت الشاحنة وانطلقت فجأة. أطلقت مورين صرخة حادة مدوية. حاولت تهدئتها، هدهدتها وربّتُّ على ظهرها، لكنها استمرت في البكاء، فناولتها إلى لوري، التي بدأت تهمس

في أذنها بنبرة غنائية، وتحكي لها نكاتًا، لكن ذلك لم يجدِ نفعًا أيضًا، فبدأنا نتوسل إلى مورين أن تتوقف عن البكاء. وعندما لم يفلح شيء، وضعنا أيدينا على آذاننا.

بعد فترة، بدأنا نشعر بالبرد وعدم الراحة في الجزء الخلفي المظلم من الشاحنة. كانت اهتزازات المحرك تنتقل إلى الأرضية، وكلما اصطدمنا بمطب، تدحرج بعضنا على بعض. مرّت ساعات طويلة، وبحلول ذلك الوقت، كنا جميعًا على وشك الانفجار من حاجتنا إلى التبول، ونتساءل إذا كان أبي سيتوقف في استراحة. وفجأة، مع ضربة قوية، ارتطمت الشاحنة بحفرة ضخمة، وانفتحت الأبواب الخلفية للشاحنة بعنف. اندفعت الرياح إلى الداخل بعواء مرعب. شعرنا كأننا سنُسحب إلى الخارج، فتراجعنا جميعًا مذعورين نحو جهاز التنقيب الذي كان أبي قد ثبّته بالحبال جيدًا. كان القمر ساطعًا، وتمكنا من رؤية وهج المصابيح الخلفية للشاحنة والطريق الذي قطعناه، ممتدًا عبر الصحراء الفضية. كانت الأبواب غير المثبتة تتأرجح جيئة وذهابًا، تصطدم بجوانب الشاحنة بأصوات مدوية.

بما أن الأثاث كان مُخزّنًا بيننا وبين المقصورة الأمامية، لم نتمكن من الطرق على الجدار لجذب انتباه أمي وأبي. ضربنا على جوانب شاحنة الـ"يو-هول" وصرخنا بأعلى صوتنا، لكن ضجيج المحرك كان عاليًا جدًا ولم يسمعانا.

زحف براين إلى مؤخرة الشاحنة. وعندما انفتح أحد الأبواب إلى الداخل، حاول الإمساك به، لكنه اندفع مجددًا، ساحبًا إياه معه. للحظة، ظننت أن الباب سيجرف براين إلى الخارج، لكنه قفز إلى الخلف في اللحظة الأخيرة، ثم زحف عائدًا على الأرضية الخشبية نحوي أنا ولوري.

تمسّك براين ولوري بجهاز التنقيب الذي كان مربوطًا بإحكام، بينما كنت أحتضن مورين، التي -لسبب غريب- توقفت عن البكاء. حشرت نفسي في زاوية. بدا أنه ليس أمامنا خيار سوى تحمل الوضع، حتى يلاحظ والداي ما يحدث.

بعد لحظات، ظهرت أضواء سيارة قادمة من بعيد خلفنا. شاهدنا السيارة وهي تقترب ببطء من شاحنة اليو-هول. وبعد بضع دقائق، توقفت السيارة خلفنا تمامًا، وأضاءت مصابيحها الأمامية، كاشفة عنّا في الجزء الخلفي من المقصورة. بدأت السيارة تطلق أبواقها، وتومض بأضوائها العالية. ثم تجاوزتنا، ويبدو أن السائق أشار لأمي وأبي، لأن الشاحنة بدأت تبطئ حتى توقفت تمامًا. ركض أبي نحونا ومعه مصباح يدوي.

سأل بغضبٍ شديد: "ما الذي يحدث هنا؟". حاولنا أن نوضح له أن الأمر لم يكن خطأنا، وأن الأبواب انفتحت بفعل الرياح، لكنه ظل غاضبًا. كنت أعلم أنه كان خائفًا أيضًا، ربما كان خوفه أكبر من غضبه.

سأل براين: "هل كانت تلك سيارة شرطة؟".

قال أبي: "لا". وأضاف: "وأنتم محظوظون للغاية أنها لم تكن كذلك، وإلا كان سيُلقى بكم في السجن".

بعد أن تبولنا، صعدنا مجددًا إلى الشاحنة، وشاهدنا أبي وهو يغلق الأبواب. غمرنا الظلام مرة أخرى. سمعنا صوت أبي وهو يقفل الأبواب، ويتأكد من إحكام إغلاقها مرتين. أعاد تشغيل المحرك، وواصلنا طريقنا.

كانت باتل ماونتن في بداياتها مجرد مركز للتعدين، استوطنه الباحثون عن الثراء قبل مئة عام، لكن إن كان أحدهم قد عثر بالفعل على الذهب هناك، فلا بد أنه انتقل إلى مكان آخر لينفق ثروته. لم يكن في البلدة شيء عظيم سوى السماء الشاسعة الفارغة، وفي الأفق، جبال توسكارورا الأرجوانية الصخرية التي تمتد حتى تلتقي الصحراء المسطحة.

كان الشارع الرئيسي فسيحًا، تصطف على جانبيه سيارات وشاحنات صغيرة باهتة اللون بفعل الشمس، متوقفة بزاوية على جانب الطريق. لم يكن الشارع طويلًا، فقط بضعة مبانٍ، وكانت المباني على كلا الجانبين منخفضة ومسطحة، مبنية من الطوب أو الطين اللَّبِن. كان

هناك مصباح شارع وحيد يومض باللون الأحمر ليلًا ونهارًا. على امتداد الشارع الرئيسي، كان هناك متجر بقالة، وصيدلية، ووكالة لسيارات فورد، ومحطة حافلات تابعة لشركة Greyhound، وكازينوهان كبيران، هما نادي البومة وفندق نيفادا. كانت المباني، التي بدت ضئيلة تحت السماء المترامية، تحمل لافتات نيون بالكاد يمكن رؤيتها خلال النهار بسبب شدة أشعة الشمس.

انتقلنا إلى مبنى خشبي قديم على أطراف البلدة، كان قديمًا لدرجة أنه كان يستخدم سابقًا كإحدى محطات السكك الحديدية. كان المبنى مكونًا من طابقين ومطليًا بلون أخضر صناعي، وكان قريبًا جدًا من قضبان السكك الحديدية لدرجة أنه كان بإمكاننا التلويح لمهندس القطار من نافذتنا الأمامية. قالت أمي بفخر إن منزلنا الجديد كان أحد أقدم المباني في البلدة، وله طابع حدودي حقيقي.

كانت غرفة نوم أمي وأبي في الطابق العلوي، حيث كان مكتب مدير المحطة سابقًا. أما نحن الأطفال، فكان نصيبنا الطابق السفلي، حيث كانت قاعة الانتظار في السابق. كانت الحمامات القديمة لا تزال موجودة، لكن المرحاض في أحدها استُبدل به حوض استحمام. أما كشك بيع التذاكر، فقد تحول إلى مطبخ. وكانت بعض المقاعد الأصلية لا تزال مثبتة على الجدران الخشبية غير المطلية، وبدا واضحًا كيف كان المنقبون وعمال المناجم وزوجاتهم وأطفالهم يجلسون هناك في انتظار القطار، تاركين بقعًا داكنة مصقولة حيث جلسوا لسنوات طويلة.

لم يكن لدينا المال لشراء أثاث، لذا ارتجلنا. وجدنا بالقرب من السكة الحديدية مجموعة من البكرات الخشبية الضخمة التي تُستخدم في حمل الأسلاك الصناعية، فدحرجناها إلى المنزل واستخدمناها كطاولات. قال أبي، وهو يطرق على سطح إحدى البكرات ليؤكد مدى متانتها: "أي أحمق قد يهدر أمواله على طاولات مُشتراة من المتجر، بينما يمكنه الحصول على هذه مجانًا؟".

أما الكراسي، فقد استخدمنا بعض البكرات الصغيرة وعددًا قليلًا من الصناديق الخشبية. وأما الأسِرَّة، فقد كان لكل واحد منا صندوق كرتوني ضخم، مثل تلك التي تُنقل فيها الثلاجات. وبعد فترة قصيرة من انتقالنا إلى المستودع، سمعنا أمي وأبي يتحدثان عن شراء أسِرَّة حقيقية لنا، لكننا أخبرناهما ألا يفعلا ذلك. كنا نحب صناديقنا، فقد كانت تجعل الذهاب إلى الفراش أشبه بمغامرة.

بعد فترة قصيرة من انتقالنا إلى المستودع، قررت أمي أن ما كنا بحاجة إليه فعلًا هو بيانو. عثر أبي على بيانو مستعمل ورخيص عندما أفلست إحدى الحانات في البلدة المجاورة، واستعار شاحنة صغيرة من أحد الجيران لإحضاره إلى المنزل. أنزلناه من الشاحنة على منحدر، لكنه كان ثقيلًا جدًا بحيث لا يمكن حمله. ولإدخاله إلى المنزل، ابتكر أبي نظامًا من الحبال والبكرات، ثبّته بالبيانو في الساحة الأمامية، ومدّه عبر المنزل ليخرج من الباب الخلفي، حيث كان مربوطًا بالشاحنة الصغيرة. كانت الخطة أن تقود أمي الشاحنة إلى الأمام ببطء، فتسحب البيانو إلى داخل المنزل بينما نوجهه نحن برفقة أبي عبر منحدر خشبي نحو الباب الأمامي.

صاح أبي عندما كنا جميعًا في مواقعنا: "جاهزون!".

صاحت أمي: "حسنًا، حسنًا!". لكن بدلًا من أن تتحرك الشاحنة ببطء، ضغطت أمي على دواسة الوقود بقوة، إذ لم تكن قد أتقنت القيادة تمامًا بعد، فانطلقت الشاحنة فجأة إلى الأمام. انفلت البيانو من أيدينا، مما جعلنا نترنح معه، ثم اندفع عبر الباب الأمامي محطمًا إطاره الخشبي. صرخ أبي طالبًا من أمي أن تبطئ، لكنها استمرت في التقدم، ساحبةً البيانو الذي كان يعزف نغمات مشوهة، بينما انزلق على أرضية المستودع، ثم شق طريقه عبر الباب الخلفي محطمًا إطاره أيضًا، حتى انتهى به المطاف في الفناء الخلفي، واستقر بجانب شجيرة شائكة.

ركض أبي عبر المنزل، وصرخ في وجه أمي مشتعلًا بالغضب: "ما الذي فعلتِه؟ أخبرتكِ أن تقودي ببطء!".

قالت أمي: "كنتُ أسير بسرعة خمسة وعشرين ميلًا فقط!"، ثم أضافت: "أنت تغضب مني عندما أسير بهذه السرعة البطيئة على الطريق السريع"، ثم نظرت خلفها، ورأت البيانو جالسًا في الفناء الخلفي وقالت: "يا إلهي!".

أرادت أمي أن تستدير وتسحبه إلى داخل المنزل من الاتجاه الآخر، لكن أبي قال إن ذلك مستحيل، لأن قضبان السكك الحديدية كانت قريبة جدًا من الباب الأمامي بحيث لا يمكن إدخال الشاحنة في وضع يسمح بذلك. وهكذا، بقي البيانو في مكانه. وفي الأيام التي كانت تشعر فيها أمي بالإلهام، كانت تأخذ نوتاتها الموسيقية وأحد كراسينا الصغيرة إلى الخارج، وتبدأ بالعزف عليه بحماس. قالت: "معظم عازفي البيانو لا تسنح لهم الفرصة للعزف في الهواء الطلق"، ثم أضافت: "والآن، يمكن للحي بأكمله الاستمتاع بالموسيقى أيضًا".

بعد ذلك حصل أبي على وظيفة كهربائي في منجم باريت. كان يغادر للعمل باكرًا ويعود باكرًا، وفي فترات بعد الظهر كنا جميعًا نقضي أوقاتًا ممتعة في اللعب معًا. علّمنا أبي لعب الورق. وقد حاول أن يعلّمنا كيف نلعب بوجوه خالية من التعبير، لكنني لم أكن جيدة في ذلك الأمر، فقد قال أبي إن وجهي كان كتابًا مفتوحًا. ورغم أنني لم أكن جيدة في الخداع، فقد كنتُ أحيانًا أفوز في بعض الجولات، لأنني كنتُ أتحمس حتى للبطاقات العادية، مثل زوج من الخمسات، مما يجعل براين ولوري يعتقدان أنني حصلتُ على بطاقات آس رابحة. وقد ابتكر أبي لنا ألعابًا مسلية، مثل لعبة "إرجو"، وفيها يطرح حقيقتين، ويجب علينا الإجابة عن سؤال اعتمادًا عليهما، أو الاعتراف بعدم وجود معلومات كافية لإنتاج إجابة معقولة مع التوضيح.

وعندما لم يكن أبي موجودًا، كنا نبتكر ألعابنا الخاصة. لم تكن لدينا ألعاب كثيرة، لكنك لم تكن بحاجة إلى ألعاب في مكان مثل باتل ماونتن. كنا نستخدم قطعة كرتون للتزلج على الدرج الضيق في المستودع. كما كنا نقفز من السطح مستخدمين بطانية عسكرية كمظلة، ونهبط على الأرض مع ثني أرجلنا، تمامًا كما علمنا أبي. كما كنا نضع قطعة من المعدن الخردة -أو حتى قرشًا إذا كنا مبذرين- على قضبان السكة الحديدية قبل مرور القطار

مباشرةً. وبعد أن يمضي القطار بصوته الهادر وعجلاته الضخمة، كنا نركض لنحصل على قطعتنا المعدنية المسطّحة، التي أصبحت ساخنة ولامعة.

كانت طلعاتنا الاستكشافية للصحراء أكثر ما يمتعنا. كنا نستيقظ عند الفجر، وهو وقتي المفضل، حين تتمدد الظلال بلون أرجواني، ويكون أمامنا يوم كامل لنحياه. أحيانًا كان أبي ينضم إلينا، وكنا نسير عبر الأراضي المغطاة بشجيرات الشيح على طريقة عسكرية، وكان أبي يُصدر الأوامر بترنيمٍ غنائيّ -"هُب، اثنان، ثلاثة، أربعة"- ثم نتوقف لنؤدي تمارين الضغط، أو كان أبي يمد ذراعه لنتمكن من التعلّق بها وأداء تمارين السحب. لكن في معظم الأوقات، كنتُ أنا وبراين نذهب للاستكشاف وحدنا. كانت تلك الصحراء مليئة بكل أنواع الكنوز المدهشة.

انتقلنا إلى باتل ماونتن طمعًا في الذهب الذي اشتهرت به المنطقة، لكن الصحراء كانت غنية أيضًا بكثير من المعادن الأخرى. كان هناك الفضة والنحاس واليورانيوم والباريت، الذي قال أبي إن منصات حفر النفط تستخدمه. كان بإمكان أمي وأبي معرفة نوع المعادن والخامات الموجودة في الأرض من لون الصخور والتربة، وعلّمانا كيفية التعرّف عليها. كان الحديد موجودًا في الصخور الحمراء، والنحاس في الصخور الخضراء. كان هناك كثير من أحجار الفيروز -قطع صغيرة وحتى كتل كبيرة منها ملقاة على أرض الصحراء- لدرجة أنني وبراين كنا نملأ جيوبنا بها حتى يكاد ثقلها يسحب سراويلنا إلى أسفل. يمكنك أيضًا العثور على رءوس سهام وحفريات وزجاجات قديمة تحوّلت إلى اللون الأرجواني الداكن من البقاء تحت الشمس الحارقة لسنوات. كانت الصحراء مليئة بجماجم ذئاب القيوط المتيبسة، وأصداف السلاحف الخالية، وأجراس وحراشف أفاعي الجرس المتساقطة. كما كان من الممكن أن تصادف ضفادع ثور عملاقة بقيت في الشمس لفترة طويلة، حتى جفّت تمامًا، وأصبحت خفيفة مثل الورق.

في ليالي الآحاد، عندما كان أبي ميسور الحال، كنا نذهب لتناول العشاء في مطعم نادي البومة. كان نادي البومة يحمل لافتة تقول "مشهور عالميًا"، مع صورة بومة تصيح وهي

ترتدي قبعة طاهٍ، وتدل على المدخل. وإلى جانب المطعم، كانت هناك غرفة مليئة بصفوف من آلات اللعب التي لم تتوقف عن الرنين والوميض. قالت أمي إن لاعبي الورق كانوا مسحورين. وقال أبي إنهم "حمقى بائسون". وأضاف لنا: "لا تلعبوا الورق أبدًا، إنه للمغفلين الذين يعتمدون على الحظ". كان أبي يعرف كل شيء عن الإحصاءات، وشرح لنا كيف أن الكازينوهات تكدّس الاحتمالات ضد اللاعبين. عندما كان أبي يلعب، كان يفضل البوكر والبلياردو، ألعاب المهارة، لا الحظ. وقال: "من صاغ عبارة ‹على المرء أن يلعب بالورق الذي يُوزَّع عليه› كان بالتأكيد مُخادعًا بائسًا".

كان نادي البومة يحتوي على بارٍ تجمّع فيه رجالٌ برقابٍ لفحتها الشمس، يحتسون المشروبات ويدخّنون السجائر. كانوا جميعًا يعرفون أبي، وكلما دخل، قذفوه بوابلٍ من الإهانات الصاخبة المضحكة التي كانت تُقال بروحٍ ودّية. قال أحدهم: "يبدو أن هذا المكان في طريقه إلى الجحيم إن كانوا يسمحون بدخول شخصٍ بائسٍ مثلك!".

فردّ أبي بصوت عالٍ: "وجودي هنا يرفع من مستواه مقارنةً بكم، أيتها الذئاب اللعينة!"، ثم يضحكون جميعًا، ويربّت بعضهم على أكتاف بعض.

دائمًا ما كنا نختار الجلوس في إحدى المقصورات الحمراء، وكانت النادلة تُعجب بأدبنا قائلةً: "يا لهم من أطفالٍ مهذبين!"، فقد كان أبي وأمي يُلزماننا أن نقول "سيدي"، و"سيدتي"، و"نعم، من فضلك"، و"شكرًا لك".

قال أبي بفخر: "إنهم أذكياء أيضًا! أروع أطفالٍ ساروا على سطح الأرض!" فابتسمنا جميعًا وطلبنا الهامبرجر والنقانق مع الفلفل الحار ومخفوق الحليب وأطباقًا كبيرة من حلقات البصل التي تتلألأ بالدهون الساخنة. عندما أحضرت النادلة الطعام، سكبت مخفوق الحليب من وعاءٍ معدني بارد متعرّق في أكوابنا. كان دائمًا ما يتبقى بعضٌ منه، لذا كانت تُبقي الوعاء على الطاولة لنُنهيه. وكانت تقول لنا بابتسامةٍ ماكرة: "أعتقد أنكم وجدتم كنزًا في أطباقكم". كنا نغادر نادي البومة ونحن ممتلئون لدرجة أننا نشعر بالتخمة. كان أبي يقول: "هيا بنا نتمشى على مهل إلى البيت يا أولادا!".

كان منجم "الباريت"، حيث يعمل أبي، يضم متجرًا للبقالة، وكان مالك المنجم يقتطع من راتب أبي شهريًا تكلفة الفواتير وإيجار المستودع. وفي بداية كل أسبوع، كنا نذهب إلى المتجر، ونعود بأكياسٍ ممتلئة بالطعام. وكانت أمي ترى أن الإقبال على الأطعمة الجاهزة، كالمعكرونة الاسباجيتي المعلبة، هو نتيجة حتمية لغسيل الدماغ الذي تمارسه الإعلانات. لذا كانت تشتري الأساسيات: أكياسًا من الدقيق أو دقيق الذرة، والحليب المجفف، والبصل، والبطاطس، وأكياسًا تزن عشرين رطلًا من الأرز أو الفاصولياء، والملح، والسكر، والخميرة لصنع الخبز، وعلبًا من سمك الماكريل، وقطعةً من اللحم المعلّب أو شريحةً سميكة من البولونيا، وللتحلية، علبًا من الخوخ المعلّب.

لم تكن أمي تحبّ الطهو كثيرًا. قالت لنا ذات مرة: "لماذا أضيّع وقتي في إعداد وجبةٍ ستختفي خلال ساعة، بينما يمكنني في الوقت ذاته رسم لوحةٍ ستبقى إلى الأبد؟". لذا كانت تُعدّ وجبة شهية في قدرها المصنوع من الحديد الزهر، تتنوع بين السمك والأرز أو طبق من الفاصولياء الشهية في بعض الأحيان. كنا جميعًا ننتقي الحصى من الفاصولياء معًا، ثم تنقعها أمي طوال الليل، وتسلقها في اليوم التالي مع عظمة لحم قديمة لإضفاء النكهة عليها، وخلال الأسبوع بأكمله، كنا نتناول الفاصولياء على الإفطار والغداء والعشاء. وإذا بدأت الفاصولياء تفسد، كنا نضيف إليها مزيدًا من التوابل، تمامًا كما يفعل المكسيكيون في مجمع LBJ السكني.

كنا نصرف كثيرًا من المال على الطعام، مما لم يكن يترك لنا كثيرًا من المال عند قبض رواتبنا. في أحد الأشهر، كان أبي مدينًا لشركة التعدين بأحد عشر سنتًا. وقد وجد الأمر مضحكًا، وقال لهم أن يضيفوها إلى حسابه. لم يكن أبي يخرج كثيرًا للشرب في الليل كما اعتاد، بل كان يبقى معنا في المنزل. وبعد العشاء، كنا نتمدّد جميعًا على المقاعد وأرضية المستودع ونقرأ، مع وضع القاموس في منتصف الغرفة، حتى نتمكن نحن الأطفال من البحث عن الكلمات التي لم نعرفها. في بعض الأحيان، كنت أناقش مع أبي معاني الكلمات، وإذا لم نتفق مع ما كتبه مؤلفو القاموس، كنا نجلس ونكتب رسالةً إلى الناشرين. كانوا

يردّون مدافعين عن موقفهم، مما كان يدفع أبي إلى كتابة رسالةٍ أطول، وإذا ردّوا مجددًا، كان يرسل إليهم رسالةً أخرى، إلى أن يتوقفوا عن الرد علينا.

كانت أمي تقرأ في كل شيء: "تشارلز ديكنز"، و"ويليام فوكنر"، و"هنري ميلر"، و"بيرل باك". حتى إنها كانت تقرأ أعمال جيمس ميشنر -وإن كانت تعتذر عن ذلك- موضحةً أنها تدرك أن كتاباته لا تُعتبر من الأدب الراقي، لكنها لم تستطِع مقاومته. أما أبي، فقد فضّل كتب العلوم والرياضيات، والسير الذاتية، والتاريخ. كنا نحن الأطفال نقرأ أي شيءٍ تجلبه أمي من رحلاتها الأسبوعية إلى المكتبة.

كان براين يستمتع بقراءة كتب المغامرات الشيقة ذات الصفحات الكثيرة، تلك التي كتبها رجالٌ مثل "زين جراي". أما "لوري"، فقد عشقت كتب "فريدي ذا بيج" وكل قصص "أوز". أما أنا، فكنت أحبّ قصص "لورا إنجالز وايلدر" وسلسلة We Were There، التي تتناول أطفالًا عاشوا لحظات تاريخية عظيمة، لكن الكتاب الذي كنت أحبه أكثر من أي شيءٍ آخر كان Black Beauty. بين الحين والآخر، عندما كنا نقرأ جميعًا معًا، كان قطارٌ يمرّ مسرعًا بجانبنا، مزلزلًا المنزل وراجًا النوافذ. كان الضجيج يصمّ الآذان، لكن بعد أن مكثنا هناك لفترة، كنا قد اعتدنا سماعه.

سجلنا والداي في مدرسة ماري إس. بلاك الابتدائية، وهي عبارة عن مبنى طويل منخفض ذي ساحة لعب أسفلتية تتحول إلى مادة لزجة تحت لهيب الشمس الحارقة. كان الفصل الثاني الابتدائي مكتظًا بأبناء عمال المناجم ولاعبي الورق، الذين كانت رُكبهم تحمل آثار الخدوش والغبار من اللعب في الصحراء، وقصّات شعرٍ غير متساوية قُصّت بمقصات المنزل. كانت معلمتنا، الآنسة بيج، امرأة نحيلة الجسم، بملامح متجهمة، تميل إلى نوباتٍ مفاجئة من الغضب وعقوباتٍ قاسية بعصا المسطرة.

كان أبي وأمي قد علّماني تقريبًا كل شيء كانت الآنسة "بيج" تدرّسه في الصف. ولأنني أردت أن يحبني الأطفال الآخرون، لم أرفع يدي طوال الوقت كما كنت أفعل في "بليث". اتهمني أبي بأنني أتكاسل. أحيانًا كان يجبرني على حلّ واجباتي الحسابية بالأرقام الثنائية،

لأنه قال إنني بحاجة إلى تحدٍّ. كنتُ أعيد كتابة الأرقام من النظام الثنائي إلى النظام العشري قبل الحصة، لكن ذات يوم لم يسعفني الوقت، فسلمت الواجب كما هو، مكتوبًا بالنظام الثنائي.

قالت الآنسة "بيج" وهي ترفع الورقة بحدة: "ما هذا؟". عقدت شفتيها وهي تحدق بالخطوط والدوائر التي تملأ الورقة، ثم نظرت إليّ بريبة. قالت: "هل هذه مزحة؟".

حاولت أن أشرح لها عن الأرقام الثنائية، وكيف أنها النظام الذي تستخدمه أجهزة الحاسوب، وكيف أن أبي قال إنها متفوقة على غيرها من الأنظمة العددية، فحدّقت بي الآنسة "بيج".

قالت بنفاد صبر: "لكنها لم تكن المهمة المطلوبة". جعلتني أبقى بعد المدرسة لأعيد كتابة الواجب. لم أخبر أبي، لأنني كنت أعلم أنه سيأتي إلى المدرسة ليجادل الآنسة "بيج" حول مزايا الأنظمة العددية المختلفة.

كان هناك كثير من الأطفال في حيّنا، الذي كان يُعرف باسم "المسارات"، وكنا جميعًا نلعب معًا بعد المدرسة. لعبنا "الضوء الأحمر، والضوء الأخضر"، و"الغُمّيضة"، وكرة القدم، و"ريد روفر"، وألعابًا أخرى لا اسم لها، تتضمن الركض بقوة، ومواكبة المجموعة، وعدم البكاء عند السقوط. كان الفقر يخيم على جميع البيوت المحيطة بـ"المسارات". صحيح أن درجة الفقر تفاوتت بين عائلة وأخرى، لكننا كأطفال كنا نشترك في المظهر نفسه: أجسام نحيلة، بشرة سمراء بفعل الشمس، ملابس رثة، سراويل قصيرة باهتة وقمصان ممزقة، ونرتدي أحذية رياضية بالية، أو لم نكن نرتدي أي أحذية.

لم يكن يهمنا سوى معرفة من الأسرع بيننا، ومن كان والده يتمتع بالجرأة والشجاعة الكافية. لم يكن أبي جبانًا على الإطلاق، بل كان ينضم إلينا في اللعب، يركض معنا، ويرفعنا عاليًا في الهواء، ثم يصارعنا جميعًا، دون أن يُصاب بخدش. كان أطفال "المسارات" يأتون إلى بيتنا، فإذا فتحتُ الباب، سألوني: "هل يمكن لأبيك أن يخرج ليلعب معنا؟".

كنت أنا و"لوري" و"براين"، وحتى "مورين"، أحرارًا تقريبًا في الذهاب إلى أي مكان، وفعل أي شيء نريده. كانت أمي تؤمن بأن الأطفال لا ينبغي أن يُرهقوا بكثير من القواعد والقيود. كان أبي يضربنا بحزامه، لكن ليس بدافع الغضب، بل فقط إذا تجرأنا على الرد عليه، أو عصينا أمرًا مباشرًا له، وهو ما كان نادرًا حدوثه. كانت القاعدة الوحيدة هي أن نعود أدراجنا إلى البيت عندما تُضاء مصابيح الشوارع. أما أمي فكانت توصينا قائلةً: "لا تنسوا أن تتصرفوا بحكمة". كانت ترى أنه من الجيد أن يفعل الأطفال ما يريدون، لأنهم يتعلمون كثيرًا من أخطائهم. لم تكن أمي من النوع الذي ينزعج إذا عدت إلى المنزل متسخًا، أو لعبت في الوحل، أو وقعت وجرحت نفسك. قالت إن الناس يجب أن يمرّوا بهذه التجارب عندما يكونون صغارًا. ذات مرة، مزّق مسمارٌ صدئ فخذي، بينما كنت أتسلق سياجًا في منزل صديقتي "كارلا". رأت والدة "كارلا" أنه يجب أن أذهب إلى المستشفى لأحصل على غرز وحقنة تيتانوس. قالت أمي بعد أن فحصت الجرح العميق: "لا شيء سوى جرح سطحي بسيط"، وأضافت: "الناس هذه الأيام يركضون إلى المستشفى في كل مرة يخدشون فيها ركبهم. نحن نتحول إلى أمةٍ من الجبناء"، ثم أرسلتني إلى الخارج مجددًا لأكمل اللعب.

كانت بعض الصخور التي كنت أجدها في أثناء استكشافي للصحراء جميلة جدًا لدرجة أنني لم أستطِع احتمال تركها هناك. لذا بدأت بجمعها. كان براين يساعدني، ومعًا، وجدنا أحجار العقيق والجرانيت والزجاج البركاني والدانتيل المكسيكي المُجنّن، بالإضافة إلى كثير من الفيروز. وبفضل الفيروز الذي جمعناه، تمكن أبي من صنع قلادات أنيقة لأمي. اكتشفنا أيضًا صفائح كبيرة من الميكا، التي يمكنك طحنها إلى مسحوق، ثم فركها على جسمك بالكامل، حتى تتلألأ تحت شمس نيفادا كما لو كنت مغطى بالألماس. في كثير من الأحيان، كنت أنا وبراين نعتقد أننا عثرنا على ذهب، وكنا نعود إلى المنزل بدلو كامل من القطع الذهبية المتلألئة، لكنه كان دائمًا ذهبًا كاذبًا، ذهب الحمقى. قال أبي إن بعضه علينا الاحتفاظ به، لأنه كان من أجود أنواع ذهب الحمقى.

كانت الأحجار الكريمة (الجيود) من أكثر الصخور التي أحببتُ العثور عليها. كانت أمي تقول إنها تشكلت بفعل البراكين التي ثارت لتكوين جبال توسكارورا منذ ملايين السنين، خلال عصر الميوسين. كانت الجيود تبدو من الخارج كصخور دائرية مملة، لكن عندما كنتُ أكسرها بمطرقة وإزميل، كنتُ أجد داخلها مجوفًا، أشبه بكهف صغير، وكانت جدرانها مغطاة ببلورات الكوارتز البيضاء المتلألئة أو بلورات الجمشت الأرجوانية البراقة.

كنت أحتفظ بمجموعتي من الصخور خلف المنزل، بجوار بيانو أمي، الذي بدأ يتعرض لعوامل الطقس. كنت أنا ولوري وبراين نستخدم الصخور لتزيين قبور حيواناتنا الأليفة التي نفقت، أو تلك الحيوانات النافقة التي كنا نعثر عليها، ونقرر أن من اللائق أن تحظى بدفن مناسب. كنت أيضًا أقيم معارض لبيع الصخور، لكنني لم أكن أجد كثيرًا من الزبائن، لأنني كنت أفرض أسعارًا خيالية، مئات الدولارات مقابل قطعة من الصوان. في الواقع، كان الزبون الوحيد الذي اشترى مني إحدى صخوري هو أبي. خرج ذات يوم إلى الفناء الخلفي للمنزل، وفي جيبه حفنة من العملات المعدنية، لكنه تفاجأ عندما رأى البطاقات السعرية التي ألصقتها على كل صخرة.

قال: "حبيبتي، ربما تباع بضاعتك بسرعة أكبر لو خفضتِ الأسعار".

أوضحت له أن جميع صخوري ثمينة للغاية، وأنني أفضل الاحتفاظ بها على أن أبيعها بأقل من قيمتها الحقيقية.

ابتسم أبي ابتسامته الملتوية وقال: "يبدو أنكِ فكرتِ في هذا الأمر جيدًا". أخبرني أنه معجب بقطعة معينة من الكوارتز الوردي، لكنه لا يملك ستمئة دولار لشرائها، فخفضت له السعر إلى خمسمئة دولار وسمحت له بأخذها على الحساب.

كنت أنا وبراين نعشق الذهاب إلى مكب النفايات. كنا نبحث عن الكنوز بين المواقد والثلاجات المهملة، والأثاث المكسور، وأكوام الإطارات المهترئة. كنا نطارد جرذان الصحراء التي تعيش في السيارات المحطمة، أو نصطاد الشراغيف والضفادع من البركة المغطاة

بطبقة من الطحالب. كانت النسور تحلق فوقنا، والهواء يعج بحشرات اليعسوب الضخمة التي بحجم الطيور الصغيرة. لم تكن في باتل ماونتن أشجار تذكر، لكن إحدى زوايا المكب كانت مليئة بأكوام هائلة من روابط السكك الحديدية وأخشاب متعفنة، كانت مثالية للتسلق وحفر الأحرف الأولى من أسمائنا عليها. أطلقنا عليها اسم "الغابة".

في زاوية أخرى من المكب، كانت النفايات السامة والخطرة تُخزَّن، حيث يمكنك العثور على بطاريات قديمة، وبراميل زيت، وعلب طلاء، وزجاجات تحمل رسومات لجماجم وعظام متقاطعة. قررتُ وبراين، أن بعض هذه الأشياء ستكون مناسبة لتجربة علمية رائعة، فملأنا صندوقين بزجاجات وبرطمانات مختلفة، وأخذناها إلى كوخ مهجور أطلقنا عليه اسم "مختبرنا". في البداية، كنا نمزج المواد معًا على أمل أن تنفجر، لكن لم يحدث شيء. عندها قررت أننا يجب أن نجري تجربة لمعرفة ما إذا كانت أي من هذه المواد قابلة للاشتعال.

في اليوم التالي بعد المدرسة، عدنا إلى المختبر ومعنا علبة من أعواد الثقاب أخذناها من أبي. فتحنا أغطية بعض البرطمانات، وألقيت أعواد ثقاب داخلها، لكن لم يحدث شيء أيضًا. فخلطنا مجموعة من السوائل وأسماها براين "الوقود النووي"، وسكبناها في علبة. وعندما رميت عود ثقاب داخلها، اندلع لسان من اللهب صاعدًا بصوت يشبه عادم طائرة نفاثة.

قُذفنا نحن الاثنان إلى الأرض من قوة الانفجار. وحين نهضنا، كانت إحدى الجدران تشتعل بالنيران. صرخت لبراين أننا يجب أن نخرج من هناك، لكنه كان يرمي الرمل على النار، مصممًا على إطفائها حتى لا نقع في ورطة. كانت ألسنة اللهب تمتد بسرعة نحو الباب، وتلتهم ذلك الخشب العتيق الجاف كأنه قطعة من الورق. ركضت نحو الجدار الخلفي، وركلت إحدى الألواح حتى انخلعت، ثم زحفت عبر الفتحة. لكن براين لم يتبعني، فركضت إلى الشارع أصرخ طلبًا للمساعدة. رأيت أبي عائدًا من العمل، فركضنا معًا إلى الكوخ المشتعل. ركل أبي الجدار بقوة، فوسع الفتحة وسحب براين إلى الخارج، وهو يسعل بشدة.

ظننت أن أبي سيكون غاضبًا، لكنه لم يكن كذلك. كان صامتًا نوعًا ما. وقفنا جميعًا في الشارع نراقب ألسنة اللهب تلتهم الكوخ. وضع أبي ذراعيه حولنا، وقال إنه من العجيب أنه كان يمر من هنا في هذه اللحظة بالذات. ثم أشار إلى قمة النار، حيث تلاشت ألسنة اللهب الصفراء المتراقصة إلى حرارة لامعة غير مرئية جعلت الصحراء خلفها تبدو كأنها تلوح مثل سراب. قال لنا أبي: "تلك المنطقة تُعرف في الفيزياء بأنها الحد الفاصل بين الاضطراب والنظام. إنه مكان لا تنطبق عليه أي قوانين... أو على الأقل، لم يتمكنوا بعد من اكتشافها". وأضاف: "لقد اقتربتم منه أكثر مما ينبغي اليوم".

لم يكن أي منا كأطفال يحصل على مصروف شخصي. عندما كنا نحتاج إلى المال، كنا نسير على جانب الطريق، نجمع علب وزجاجات المشروبات التي يمكننا استبدالها مقابل سِنتَين لكل واحدة. كما كنت وبراين، نجمع قطع الخردة المعدنية، ونبيعها لتاجر الخردة بسعر سنت واحد للرطل، وثلاثة سنتات للرطل الواحد من النحاس. بعد أن نبيع الزجاجات أو الخردة، كنا نسير إلى وسط المدينة، إلى صيدلية مجاورة لنادي البومة. كان هناك عديد من صفوف الحلوى اللذيذة، مما يجعلنا نقضي ساعة كاملة، ونحن نحاول تقرير كيف ننفق السنتات العشرة التي كسبها كل منا. كنا نختار قطعة من الحلوى، ثم، ونحن على وشك دفع ثمنها، نغيّر رأينا ونختار قطعة أخرى، إلى أن يغضب صاحب المتجر، ويأمرنا بالكف عن العبث بحلواه واتخاذ قرار سريع ثم الرحيل.

كانت الحلوى المفضلة لدى براين هي أقراص "سويت تارت" العملاقة، التي كان يلعقها حتى يصبح لسانه متورمًا وينزف. أما أنا، فكنت أحب الشكولاتة، لكنها كانت تنتهي بسرعة كبيرة، لذلك كنت أفضّل الحصول على حلوى "شوجر دادي"، لأنها كانت تستمر عمليًا لنصف اليوم، ودائمًا ما كانت على عصاها قصيدة طريفة مطبوعة بحروف وردية، مثل: "لتحافظ على قدميك / من النوم العميق / ارتدِ جواربَ صاخبة / لا يُضاهيها رفيق".

في طريق عودتنا من متجر الحلوى، كنت وبراين نستمتع بالتجسس على فندق "جرين لانترن"، ذلك المنزل الأخضر الداكن الكبير بشرفته المتدلية بالقرب من الطريق السريع.

قالت أمي إنه "بيت للقطط" (بيت دعارة)، لكنني لم أرَ أي قطط هناك قط، فقط نساء يرتدين ملابس السباحة أو فساتين قصيرة يجلسن أو يتمددن على الشرفة، يلوحن للسيارات العابرة. كانت أضواء عيد الميلاد معلقة فوق الباب طوال العام، وقالت أمي إن هذا هو ما يميز هذا النوع من البيوت. كانت السيارات تتوقف أمامه، فيترجل الرجال ويدخلون مسرعين. لم أستطع فهم ما كان يحدث داخل فندق جرين لانترن، ورفضت أمي مناقشة الأمر. كل ما كانت تقوله هو أن "أشياء سيئة تحدث هناك"، مما جعل فندق جرين لانترن مكانًا يغري فضولنا بشدة.

كنت وبراين، نختبئ خلف شجيرات الشيح عبر الطريق السريع، نحاول التلصص عبر الباب الأمامي كلما دخل أو خرج أحد، لكننا لم نتمكن أبدًا من رؤية ما كان يحدث. أحيانًا كنا نتسلل إلى قرب البيت، ونحاول النظر من النوافذ، لكنها كانت مطلية باللون الأسود. ذات مرة، رأتنا إحدى النساء على الشرفة ونحن مختبئان بين الشجيرات، فلوّحت لنا، فهربنا صارخين.

في أحد الأيام، بينما كنا متخفين خلف شجيرات الشيح، نتجسس، تحديت براين أن يذهب ويتحدث مع المرأة المستلقية على الشرفة. كان براين قد بلغ السادسة تقريبًا حينها، أي أصغر مني بعام واحد، ولم يكن يخاف شيئًا. شدّ بنطاله، وناولني قطعة من حلوى "سويت تارت" التي كان قد أكل بعضها لأحتفظ بها، ثم عبر الشارع متجهًا نحو المرأة. كانت تتميز بشعرها الأسود الطويل، وعينيها المحددتين بالكحل الأسود الكثيف الذي يشبه القطران، وكانت ترتدي فستانًا قصيرًا باللون الأزرق مطبوعًا بالزهور السوداء. كانت مستلقية على جانبها على أرضية الشرفة، ورأسها مسند إلى أحد أذرعها، لكنها حين اقترب براين، استدارت واستلقت على بطنها، ساندة ذقنها إلى يدها.

من مخبئي، استطعت رؤية أن براين كان يتحدث معها، لكنني لم أستطِع سماع ما كانا يقولانه. بعد ذلك، مدّت يدها نحو براين. حبست أنفاسي، متوجسة مما ستفعله به تلك المرأة التي قيل لنا إنها تفعل أشياء سيئة داخل فندق جرين لانترن. وضعت يدها على

رأسه وعبثت بشعره. كانت النساء البالغات يفعلن ذلك دائمًا مع براين، لأنه كان ذا شعر أحمر ووجه مرصع بالنمش. كان الأمر يزعجه، وعادة ما كان يبعد أيديهن، لكنه لم يفعل هذه المرة. بقي يتحدث معها لبعض الوقت، ثم عاد يعبر الطريق نحوي، دون أن يبدو عليه أي خوف على الإطلاق.

سألت براين: "ماذا حدث؟".

أجاب: "لا شيء مهم".

سألت: "عن ماذا تحدثتما؟".

أجاب: "سألتها عما يجري داخل فندق جرين لانترن".

قلت، مندهشة: "حقًا؟ وماذا قالت؟".

قال: "لا شيء مهم، أخبرتني أن الرجال يأتون إلى هناك، وأن النساء يكنّ لطيفات معهم".

قلت: "آه". ثم أضفت: "أي شيء آخر؟".

قال: "لا". ثم بدأ يركل التراب، كأنه لم يعد يريد الحديث عن الأمر. وأضاف: "لقد كانت لطيفة نوعًا ما".

بعد ذلك، صار براين يلوّح للنساء الجالسات على شرفة فندق "جرين لانترن"، فكنّ يبتسمن ابتسامات عريضة ويبادلنه التحية، لكني كنت لا أزال أشعر ببعض الخوف منهن.

كان منزلنا في باتل ماونتن يعج بالحيوانات. كانت تأتي وتذهب، كلاب وقطط ضالة، وجراؤها وهررها الصغيرة، وأفاعٍ غير سامة، وسَحَالٍ وسلاحف كنا نصطادها في الصحراء. عاش معنا ذات مرة ذئب بري بدا مستأنسًا نوعًا ما، كما أحضر أبي ذات يوم نسرًا جارحًا أسميناه "باستر". كان أبشع حيوان امتلكناه على الإطلاق. كلما أطعمناه قطعًا من اللحم،

كان يدير رأسه جانبًا، ويحدق بنا بإحدى عينيه الصفراوين الغاضبتين، ثم يطلق صرخة حادة، وهو يرفرف بجناحه السليم بجنون. في داخلي، كنت سعيدة سرًا حين شُفي جناحه المصاب وطار بعيدًا. في كل مرة كنا نرى نسورًا تحوم في السماء، كان أبي يقول إنه يتعرف على "باستر" من بينها، وأنه عائد ليشكرنا. لكني كنت أعلم أن "باستر" لن يفكر حتى في العودة. لم يكن هذا النسر يحمل ذرة امتنان واحدة في قلبه.

لم نكن نستطيع تحمل تكلفة طعام الحيوانات الأليفة، لذا كان عليها أن تقتات على بقايا طعامنا، التي لم تكن كثيرة أصلًا. قالت أمي: "إذا لم يعجبها، يمكنها الرحيل. مجرد كونها تعيش هنا لا يعني أنني سأدللها وأخدمها طوال الوقت". كانت أمي تقول لنا إننا في الواقع نحسن إلى الحيوانات بعدم السماح لها بالاعتماد علينا. فبهذه الطريقة، إذا اضطررنا إلى الرحيل يومًا ما، فستكون قادرة على الاعتماد على نفسها. لطالما شجعت أمي كل الكائنات الحية على الاكتفاء الذاتي.

كانت أمي تؤمن أيضًا بترك الطبيعة تأخذ مجراها. كانت ترفض قتل الذباب الذي كان يملأ المنزل دائمًا، فقد كانت ترى أنه غذاء طبيعي للطيور والسحالي. وكانت الطيور والسحالي غذاءً للقطط. قالت أمي: "إذا قتلت الذباب، فأنت تحرم القطط طعامها". وبالنسبة إليها، كان ترك الذباب حيًا يعادل شراء طعام القطط، لكنه أرخص ثمنًا.

ذات يوم، كنت أزور صديقتي كارلا، ولاحظت أن منزلها لا يوجد فيه ذباب. فسألت والدتها عن السبب.

أشارت إلى شيء ذهبي لامع يتدلى من السقف، وأخبرتني بفخر أنه "شريط طارد للحشرات" من ماركة شل. قالت إنه يباع في محطات الوقود، وإن لديهم واحدًا في كل غرفة. وأوضحت أن هذه الأشرطة تطلق سمًا يقضي على الذباب تمامًا.

سألتها: "وماذا تأكل سحاليكم إذًا؟".

أجابت: "ليست لدينا أي سحالٍ".

عدت إلى المنزل، وأخبرت أمي أننا بحاجة إلى شراء شريط مثل الذي تملكه عائلة كارلا، لكنها رفضت قائلة: "إذا كان يقتل الذباب، فلا يمكن أن يكون جيدًا لنا أيضًا".

في ذلك الشتاء، اشترى أبي سيارة فورد فايرلاين قديمة مُعدَّلة ومجهزة على نحو خاص. وفي إحدى عطلات نهاية الأسبوع عندما اشتد البرد، أعلن أننا سنذهب للسباحة في "الحوض الساخن". كان "الحوض الساخن" عبارة عن ينبوع كبريتي طبيعي في الصحراء شمال المدينة، مُحاط بصخور وعرة ورمال مُتحركة. كانت المياه دافئة الملمس، وتفوح منها رائحة البيض الفاسد. وكانت غنية بالمعادن لدرجة أن قشورًا خشنة وطباشيرية قد تشكلت على طول حوافها، مثل الشعاب المرجانية. لطالما كان أبي يقول إن علينا شراء الحوض الساخن وتطويره إلى منتجع صحي.

كلما تعمقت في الماء، زادت حرارته. كان عميقًا جدًا في المنتصف. كان بعض الناس في باتل ماونتن يقولون إن الحوض الساخن ليس له قاع على الإطلاق، وإنه يمتد حتى يصل مباشرة إلى مركز الأرض. وكان قد غرق فيه بعض السكارى والمراهقين الجامحين، وكان رواد نادي البومة يقولون إنه عندما طفت جثثهم على السطح، كانوا قد سُلقوا حرفيًا.

كان كل من براين ولوري سباحين ماهرين، لكنني لم أتعلمها قط. كنت أخشى المسطحات المائية الكبيرة، فقد بدت لي غير طبيعية، شيئًا غريبًا في مدن الصحراء التي عشنا فيها. كنا قد أقمنا ذات مرة في فندق به مسبح، وبالكاد تمكنت من جمع ما يكفي من الشجاعة لشق طريقي حول حافة المسبح بأكمله، مُتشبثةً بالحافة. لكن الحوض الساخن لم يكن يحتوي على حواف منظمة كتلك التي في المسبح. لم يكن هناك ما يمكنني التشبث به.

نزلت إلى الماء حتى وصل إلى كتفي. كانت المياه حول صدري دافئة، وشعرت بأن الصخور التي كنت أقف عليها ساخنة جدًا لدرجة أنني أردت الاستمرار في الحركة. نظرتُ إلى الخلف نحو أبي، الذي كان يشاهدني، دون أن يبتسم. حاولت التقدم نحو المياه الأعمق،

لكن شيئًا ما أوقفني. قفز أبي في الماء، واتجه نحوي وهو يرش الماء من حوله وقال: "اليوم ستتعلمين السباحة".

وضع ذراعه حولي، وبدأنا نعبر الماء. كان أبي يجرني خلفه. شعرت برعب شديد، فتشبثت بعنقه بإحكام شديد حتى شحبت بشرته. وعندما وصلنا إلى الجهة الأخرى، قال أبي: "أرأيتِ؟ لم يكن الأمر بهذا السوء، أليس كذلك؟".

بدأنا العودة، وهذه المرة، عندما وصلنا إلى المنتصف، فكّ أبي أصابعي عن عنقه ودفعني بعيدًا. أخذت ألوّح بذراعي، ثم غرقت في الماء الساخن ذي الرائحة النفاذة. تنفستُ لاإراديًا، واندفعت المياه إلى أنفي وفمي، وسرت في حلقي فاحترقت رئتاي. كانت عيناي مفتوحتين، وكان الكبريت يلسعهما، لكن الماء كان داكنًا وشعري التف حول وجهي، فلم أستطِع رؤية أي شيء. شعرت بيدين تمسكان بخصري. سحبني أبي إلى المياه الضحلة. كنت أسعل وألهث وأتنفس على نحو متقطع، محاولة استعادة أنفاسي.

قال أبي: "لا بأس، التقطي أنفاسكِ".

وما إن التقطت أنفاسي، حتى التقطني أبي مرة أخرى وألقاني في وسط الحوض الساخن، وصرخ قائلًا: "إما أن تغرقي وإما أن تسبحي!". وللمرة الثانية، غمرني الماء، وملأ أنفي ورئتي من جديد. ركلت وصرخت ورفرفتُ حتى وصلت إلى السطح، وأنا ألهث بحثًا عن الهواء، ومددت يدي نحو أبي. لكنه تراجع، ولم أشعر بيديه تمسكان بي إلا بعدما غصت مرة أخرى.

كرر ذلك مرة بعد أخرى، حتى أدركت أنه كان ينقذني فقط ليعيد إغراقي. عندها، بدلًا من مد يدي نحوه، بدأت أحاول الهروب منه. ركلته ودفعت نفسي عبر الماء بذراعي، وأخيرًا تمكنت من دفع نفسي بعيدًا عن متناول يديه.

صرخ أبي: "أنت تفعلينها يا صغيرتي! أنتِ تسبحين!".

خرجت مترنحة من الماء، وجلست على الصخور المتكلسة، أتنفس بصعوبة. خرج أبي من الماء أيضًا، وحاول أن يعانقني، لكنني رفضتُ أن أتعامل معه، أو مع أمي التي كانت تطفو على ظهرها كأن شيئًا لم يكن يحدث، أو حتى مع براين ولوري اللذين تجمعا حولي وشرعا في تهنئتي. كان أبي يكرر لي أنه يحبني، وأنه لم يكن ليدعني أغرق أبدًا، لكنه قال إن على كل والد أن يعلّم طفله درسًا واحدًا لا غنى عنه: "لا يمكنكِ أن تظلي متشبثة بالحافة طوال حياتك. إن لم تريدي أن تغرقي، فعليكِ أن تتعلمي كيف تسبحين". وسألني: "ما السبب الآخر الذي قد يدفعني إلى فعل هذا؟".

بمجرد أن استعدت أنفاسي، أدركت أنه لا بد أنه كان محقًا. لم يكن هناك تفسير آخر.

ذات يوم عندما عدت إلى المنزل بعد جولة استكشافية قالت لوري: "خبر سيئ... فقد أبي وظيفته".

كان أبي قد احتفظ بهذه الوظيفة لما يقارب ستة أشهر، وهي مدة أطول من أي وظيفة أخرى كان قد شغلها من قبل. كنت أعتقد أن ذلك يعني أننا انتهينا من باتل ماونتن، وأنه في غضون أيام سننتقل إلى مكان آخر من جديد.

قلت: "أتساءل أين سنعيش بعد ذلك".

قالت لوري، وهي تهز رأسها: "لن نغادر. سنبقى هنا". كان أبي مُصرًا على أنه لم يفقد وظيفته تمامًا، بل رتب الأمر ليُفصَل بنفسه، لأنه أراد أن يقضي وقتًا أطول في البحث عن الذهب. وأضافت لوري أنه كان لديه كثير من الخطط لجني المال، من الاختراعات التي كان يعمل عليها إلى الوظائف الغريبة التي كان قد حصل عليها. لكن في الوقت الحالي، قد تصبح الأمور صعبة بعض الشيء في المنزل. وأكدت لوري: "علينا جميعًا المساعدة".

فكرت في ما يمكنني فعله للإسهام، إلى جانب جمع الزجاجات والخردة المعدنية. قلت: "سأخفض أسعار الصخور التي أبيعها".

توقفت لوري، ونظرت إلى الأرض وقالت: "لا أظن أن ذلك سيكون كافيًا".

قلت: "أعتقد أنه يمكننا أن نأكل بكميات أقل".

قالت لوري: "لقد فعلنا ذلك من قبل".

أكلنا أقل بالفعل. بمجرد أن فقدنا رصيدنا في المتجر التعاوني، نفد الطعام سريعًا. أحيانًا كان أبي يحصل على عمل مؤقت، أو يفوز ببعض المال من اللعب، فنأكل لبضعة أيام. ثم يختفي المال مرة أخرى، وتعود الثلاجة إلى فراغها المعتاد.

في السابق، عندما كان ينفد الطعام لدينا، كان أبي موجودًا دائمًا، مليئًا بالأفكار والحلول. كان يجد علبة طماطم على رف مهمل لم يلاحظها أحد، أو يختفي لبعض الوقت، ثم يعود محملًا بالخضراوات -دون أن يخبرنا أبدًا من أين حصل عليها- ثم يعد لنا حساءً. لكن هذه المرة، بدأ يختفي كثيرًا.

كانت مورين تسأل طوال الوقت: "أين أبي؟". حينها كانت تبلغ من العمر عامًا ونصف العام، وكانت هذه تقريبًا كلماتها الأولى.

كنت أجيبها: "إنه في الخارج يبحث عن طعام لنا وعن عمل". لكنني كنت أتساءل في داخلي إذا كان يفضل الابتعاد عنا عندما لا يستطيع إعالتنا، وحاولتُ ألا أتذمر أبدًا.

إذا سألنا أمي عن الطعام -بطريقة غير مباشرة، حتى لا نسبب أي مشكلة- كانت تكتفي بهز كتفيها قائلة إنها لا تستطيع صنع شيء من العدم. نادرًا ما كنا نشكو جوعنا، لكننا كنا نفكر دائمًا في الطعام وكيف نحصل عليه. في وقت الاستراحة في المدرسة، كنت أتسلل عائدة إلى الفصل، وأبحث في حقائب الغداء الخاصة بزملائي عن شيء صغير لن يفتقدوه -كيس بسكويت، أو تفاحة- وكنتُ ألتهمه بسرعة لدرجة أنني بالكاد أستطيع تذوقه. وإذا كنت ألعب في فناء أحد الأصدقاء، كنت أطلب استخدام الحمام، وإذا لم يكن أحد في المطبخ،

كنت أسرق شيئًا من الثلاجة أو الخزانة، وآخذه إلى الحمام وأتناوله هناك، مع الحرص دائمًا على سحب المرحاض قبل المغادرة.

كان براين أيضًا يبحث عن أي شيء يأكله. ذات يوم، وجدته يتقيأ خلف منزلنا. أردت أن أعرف كيف يمكنه أن يتقيأ، رغم أننا لم نأكل منذ أيام. أخبرني أنه اقتحم منزل أحد الجيران، وسرق برطمانًا كبيرًا من المخللات. أمسك به الجار، لكنه لم يبلغ الشرطة، بل عاقبه بإجباره على تناول البرطمان بالكامل دفعة واحدة. اضطررت إلى أن أقسم بأني لن أخبر أبي.

بعد شهرين من فقدان أبي وظيفته، عاد ذات يوم إلى المنزل يحمل كيسًا من البقالة: علبة ذرة، ونصف جالون من الحليب، ورغيف خبز، وعلبتين من اللحم المعلب، وكيس سكر، وقطعة من السمن. اختفت علبة الذرة في غضون دقائق. سرقها أحد أفراد العائلة، ولم يعرف أحد من هو سوى السارق نفسه. لكن أبي كان منشغلًا بتحضير شطائر اللحم المعلب لدرجة أنه لم يكلف نفسه عناء التحقيق في الأمر. في تلك الليلة، أكلنا حتى شبعنا، وشربنا الحليب بكميات كبيرة. عندما عدت من المدرسة في اليوم التالي، وجدت لوري في المطبخ تأكل شيئًا من كوب بملعقة. فتحت الثلاجة. لم يكن بداخلها سوى نصف قطعة متبقية من السمن.

قلت: "لوري، ماذا تأكلين؟".

أجابت: "السمن".

عبست وقلت: "حقًا؟".

قالت: "نعم. اخلطيه مع السكر، طعمه يصبح مثل كريمة التزيين تمامًا".

صنعت بعضًا منه. لم يكن طعمه مثل كريمة التزيين. كان مقرمشًا نوعًا ما لأن السكر لم يذُب، وكان قوامه دهنيًا، وترك طبقة دهنية في فمي. لكنني أكلته كله على أي حال.

عندما عادت أمي إلى المنزل في المساء، فتحت الثلاجة. قالت: "ماذا حدث لقطعة السمن؟".

قلت: "أكلناها".

غضبت أمي، وقالت إنها كانت تحتفظ بها لدهن الخبز. قلت: "لقد أكلنا الخبز كله بالفعل". قالت أمي إنها كانت تفكر في خَبز بعض الخبز إذا وافق أحد الجيران على إعارتها بعض الدقيق، ولكني ذكّرتها بأن شركة الغاز قد قطعت عنا إمداد الغاز.

قالت أمي: "حسنًا، كان يجب أن نوفر السمن تحسبًا لإعادة تشغيل الغاز، فالمعجزات تحدث، كما تعلمين". وأضافت أنني ولوري كنا أنانيتين، ولهذا السبب، إذا كان لدينا أي خبز، فسيجب علينا أكله دون الزبد.

لم أستطِع فَهم منطق أمي. تساءلت إذا كانت تتطلع إلى تناول السمن بنفسها. وجعلني ذلك أتساءل أيضًا إن كانت هي التي سرقت علبة الذرة في الليلة السابقة، وهو ما أغضبني قليلًا. قلت: "لقد كان الشيء الوحيد الذي يمكن أكله في المنزل كله". ثم رفعت صوتي وأضفت: "كنت جائعة".

نظرت إليّ أمي بدهشة. كنت قد خرقت إحدى قواعدنا غير المعلنة: كان علينا دائمًا التظاهر بأن حياتنا مجرد مغامرة طويلة وممتعة على نحو لا يصدق. رفعت يدها، وظننت أنها ستضربني، لكنها جلست على طاولة البكرة، وأسندت رأسها إلى ذراعيها. بدأت كتفاها تهتزان. اقتربت منها ولمست ذراعها وقلت: "أمي؟".

أزاحت يدي عنها، وعندما رفعت رأسها، كان وجهها متورمًا وأحمر. صرخت: "ليس ذنبي أنكِ جائعة! لا تلوميني! هل تظنين أنني أحب العيش بهذه الطريقة؟ هل تظنين ذلك؟".

في تلك الليلة، عندما عاد أبي إلى المنزل، تشاجر مع أمي شجارًا كبيرًا. كانت أمي تصرخ قائلة إنها تعبت من أن تُلقى عليها اللائمة في كل شيء يسوء. صرخت: "كيف أصبحت هذه

مشكلتي؟ لماذا لا تساعد؟ أنت تقضي يومك كله في نادي البومة، تتصرف كأنها ليست مسئوليتك".

أوضح أبي أنه كان في الخارج يحاول كسب المال، وأنه كان لديه عديد من الفرص التي كان على وشك تحقيقها، لكنه كان بحاجة إلى المال لتنفيذها. قال إن هناك كثيرًا من الذهب في باتل ماونتن، لكنه كان محبوسًا في الخام. لم تكن هناك شذرات ذهبية متناثرة يمكن لمنقّب أن يجمعها ببساطة. كان يعمل على تطوير تقنية لاستخلاص الذهب من الصخور عن طريق معالجته بمحلول السيانيد. لكن ذلك الأمر كان يتطلب مالًا. قال أبي لأمي إنها بحاجة إلى طلب المال من والدتها لتمويل عملية الاستخلاص بالسيانيد التي كان يطورها.

قالت أمي: "تريدني أن أتوسل إلى أمي مجددًا؟".

صرخ أبي: "تبًا لكِ يا روز ماري! ليس الأمر كما لو أننا نطلب إحسانًا. إنها ستقدم استثمارًا".

قالت أمي إن جدتي كانت دائمًا تقرضنا المال، وإنها سئمت ذلك. أخبرت أمي أبي أن جدتي قالت إنه إذا لم نتمكن من إعالة أنفسنا، يمكننا الذهاب للعيش في فينيكس، في منزلها.

قالت: "ربما ينبغي لنا ذلك".

غضب أبي بشدة، وقال: "هل تقولين إنني لا أستطيع إعالة أسرتي؟".

قالت أمي بغضب: "اسألهم".

كنا نحن الأطفال جالسين على المقاعد القديمة. استدار أبي نحوي. تظاهرت بأنني منشغلة بالنظر إلى الخدوش على الأرض.

استمر الجدال في الصباح التالي. كنا نحن الأطفال في الطابق السفلي، ممددين في صناديقنا، نستمع إليهما يتشاجران في الطابق العلوي. كانت أمي تصرخ بأن الأمور أصبحت

يائسة للغاية لدرجة أنه لم يكن لدينا شيء نأكله سوى السمن، والآن اختفى هو الآخر. قالت إنها سئمت أحلام أبي السخيفة، وخططه الغبية، ووعوده الفارغة.

التفتُّ إلى لوري، التي كانت تقرأ كتابًا. قلت: "قولي لهما إننا نحب أكل السمن. ربما يتوقفان عن الشجار".

هزت لوري رأسها، وقالت: "سيجعل ذلك أمي تعتقد أننا نقف في صف أبي، ولن يؤدي إلا إلى تفاقم الأمور. دعيهما يحلا الأمر بينهما".

كنت أعلم أن لوري محقة. فالشيء الوحيد الذي يمكن فعله عندما يتشاجر أبي وأمي هو التظاهر بأنه لم يحدث، أو التصرف كأنه لا يهم. فقريبًا، سيعودان أصدقاء مجددًا، يتبادلان القبلات ويرقصان في أحضان بعضهما. لكن هذا الشجار بالتحديد لم تكن له نهاية. بعد أن أنهت أمي حديثها عن السمن، بدءا الجدال حول ما إذا كانت إحدى لوحات أمي قبيحة أم لا. ثم تشاجرا حول من كان المسئول عن حياتنا بهذه الطريقة. قالت أمي لأبي إنه يجب أن يبحث عن وظيفة أخرى. قال أبي إنه إذا كانت أمي تريد أن يكون هناك من يعمل في العائلة وفقًا لجدول زمني، فعليها أن تبحث عن وظيفة بنفسها. وأشار إلى أنها حاصلة على شهادة في التدريس. قال أبي: "يمكنها العمل بدلًا من الجلوس طوال اليوم ترسم لوحات لا يريد أحد شراءها".

قالت أمي: "فان جوخ لم يبِع أي لوحات أيضًا. أنا فنانة!".

قال أبي: "حسنًا، إذًا توقفي عن هذا التذمر اللعين. أو اذهبي لبيع نفسك في فندق جرين لانترن".

كان صراخ أمي وأبي عاليًا لدرجة أنك تستطيع سماعه في جميع أنحاء الحي. نظرتُ أنا ولوري وبراين بعضنا إلى بعض. أومأ براين نحو الباب الأمامي، وخرجنا جميعًا وبدأنا صنع قلاع رملية للعقارب. اعتقدنا أنه إذا كنا جميعًا في الفناء نتصرف كما لو أن الشجار لم يكن شيئًا مهمًا، فربما يشعر الجيران بالشيء نفسه.

لكن مع استمرار الصراخ المدوّي، بدأ الجيران بالتوافد إلى الشارع. وكان الفضول هو الدافع وراء تجمع بعضهم. لم يكن شجار الآباء والأمهات أمرًا غريبًا في باتل ماونتن، لذا لم يكن الأمر يستدعي الاهتمام، لكن هذا الشجار كان صاخبًا حتى بمعايير البلدة، لدرجة أن بعضهم اعتقد أنه يجب التدخل لفَضّه. قال أحد الرجال: "دعوهما يحلا خلافاتهما. لا يحق لأحد التدخل". فتراجعوا بظهورهم مستندين إلى رفارف السيارات ودعامات الأسيجة، أو جلسوا على الأبواب الخلفية لشاحنات النقل، كأنهم في مدرج مشاهدة عرض ما.

فجأة، طارت إحدى لوحات أمي الزيتية من نافذة الطابق العلوي. ثم تبعها حامل الرسم. فتراجع الحشد إلى الخلف لتفادي سقوط أي شيء عليهم. وبعد لحظات، ظهرت قدما أمي في النافذة، ثم تبعها باقي جسمها. كانت متدلية من الطابق الثاني، وساقاها تتأرجحان بجنون. كان أبي يمسكها من ذراعيها، بينما تحاول ضربه في وجهه.

صرخت أمي: "النجدة! إنه يحاول قتلي!".

قال أبي: "تبًا لكِ يا روز ماري، عودي إلى الداخل!".

صرخت لوري: "لا تؤذِها!".

كانت أمي تتأرجح ذهابًا وإيابًا. فقد انكمش فستانها القطني الأصفر، وارتفع متجمعًا حول خصرها، وبات بوسع الحشد رؤية ملابسها الداخلية البيضاء. كانت تبدو قديمة وفضفاضة إلى حد ما، وكنت أخشى أن تسقط بالكامل. نادى بعض الكبار معبرين عن قلقهم من احتمال سقوط أمي، لكن مجموعة من الأطفال ظنوا أن أمي تبدو كقرد شمبانزي يتأرجح

من شجرة، فأخذوا يُصدرون أصوات القرود، ويَحُكّون آباطهم ويضحكون. تغير وجه براين وأصبح قاتمًا، وانقبضت قبضتا يديه. شعرت برغبة في لكمهم أنا أيضًا، لكني جذبت براين إلى الوراء.

كانت أمي تتلوى بعنف لدرجة أن حذاءها سقط. بدا الأمر كأنها قد تفلت من قبضة أبي، أو تسحبه معها من النافذة. استدارت لوري نحونا وقالت: "هيا". ركضنا إلى الداخل، وصعدنا الدرج، وأمسكنا بساقي أبي حتى لا يسحبه وزن أمي عبر النافذة أيضًا. وأخيرًا، تمكن من سحبها إلى الداخل، وانهارت على الأرض.

أجهشت أمي بالبكاء قائلة: "لقد كاد يقتلني. يريد والدكم أن يراني أحتضر".

احتج أبي قائلًا: "لم أدفعها، أقسم بالله إنني لم أفعل. لقد قفزت بنفسها!". كان يقف فوقها، يمد يديه إلى الأمام، وراحتاه مرفوعتان، ويتوسل براءته.

بدأت لوري تمسح على شعر أمي، وتجفف دموعها واستند براين إلى الحائط وهز رأسه.

قلت مرارًا: "كل شيء على ما يرام الآن".

في صباح اليوم التالي، بدلًا من أن تنام لوقت متأخر كما كانت تفعل عادة، استيقظت أمي معنا، وذهبت إلى مدرسة باتل ماونتن الإعدادية، التي كانت تقع عبر شارع أمام مدرسة ماري إس. بلاك الابتدائية. تقدمت بطلب للحصول على وظيفة، وعُيِّنت على الفور، لأنها كانت حاصلة على شهادة تدريس، ولم يكن هناك عدد كافٍ من المعلمين في باتل ماونتن. كان المعلمون القلائل الموجودون في البلدة ليسوا الأفضل كما كان أبي يقول دائمًا، وعلى الرغم من النقص الحاد، فقد كان أحدهم يُفصل من وقت لآخر. قبل أسابيع قليلة، فُصلت الآنسة بيج عندما ضبطها المدير وهي تتجول في أروقة المدرسة ببندقية محشوة بالرصاص. قالت إنها أرادت فقط تحفيز طلابها على أداء واجباتهم المنزلية.

في الفترة نفسها تقريبًا، توقفت معلمة لوري عن الحضور إلى المدرسة، لذلك كُلِّفت أمي بتدريس فصلها. أحبها الطلاب كثيرًا. كانت لديها الفلسفة نفسها في التعليم التي كانت تتبعها في تربية أطفالها. كانت ترى أن القواعد والانضباط يقيدان الإنسان، وكانت تؤمن بأن أفضل طريقة لمساعدة الأطفال على تحقيق إمكاناتهم هي منحهم الحرية. لم تهتم إن تأخر طلابها عن الحضور، أو لم ينجزوا واجباتهم المنزلية. إذا أرادوا التصرف كما يحلو لهم، فلم تكن تمانع، ما داموا لا يؤذون أحدًا.

كانت تحتضن طلابها دائمًا، وتخبرهم كم هم رائعون ومميزون. كانت تخبر الأطفال المكسيكيين ألّا يسمحوا لأحد بأن يقول إنهم أقل شأنًا من الأطفال البيض. وكانت تخبر الأطفال من قبائل نافاجو وأباتشي أن يفخروا بتراثهم الهندي النبيل. بدأ الطلاب الذين كانوا يُعتبرون مشاغبين أو بطيئي فَهمٍ يتحسنون، وبعضهم أصبح يتبع أمي كالجِراء الضالة.

وعلى الرغم من أن طلابها أحبّوها، فإن أمي كانت تكره التدريس. كان عليها أن تترك مورين، التي لم تكن قد بلغت الثانية من عمرها بعد، مع امرأة كان زوجها تاجر مخدرات يقضي عقوبة في سجن الولاية. لكن ما كان يزعج أمي حقًا هو أن والدتها كانت معلمة، وأنها دفعتها للحصول على شهادة تدريس، حتى تكون لديها وظيفة تعتمد عليها في حال لم تنجح أحلامها في أن تصبح فنانة. شعرت أمي بأن جدتي كانت تفتقر إلى الإيمان بموهبتها الفنية، وبقبولها التدريس الآن، كانت تعترف بأن والدتها كانت على حق طوال الوقت. في الليل، كانت تتذمر وتتمتم لنفسها، وفي الصباح كانت تنام حتى وقت متأخر وتتظاهر بالمرض. وكان الأمر يقع على عاتقي أنا ولوري وبراين لإيقاظها والتأكد من أنها ترتدي ملابسها، وتذهب إلى المدرسة في الوقت المحدد.

كانت أمي تقول في كل صباح تقريبًا: "أنا امرأة راشدة الآن، لماذا لا يمكنني فعل ما أريد؟".

وكانت لوري تقول: "التدريس ممتع ومجزٍ، ستعتادينه مع الوقت".

كان جزء من المشكلة أن المعلمين الآخرين ومديرة المدرسة، الآنسة بيتي، كانوا يعتقدون أن أمي معلمة فاشلة. كانوا يلقون نظرة خاطفة داخل فصلها الدراسي، فيرون الطلاب يركضون ويلعبون الغميضة ويقذفون الممحاة، بينما كانت أمي تقف في المقدمة، تدور حول نفسها كالنحلة، وتطلق قطع الطباشير من يديها في الهواء لتوضيح مفهوم القوة الطاردة المركزية.

كانت الآنسة بيتي، التي كانت ترتدي نظارتها بسلسلة تتدلى حول عنقها، وتذهب إلى صالون التجميل في وينيموكا كل أسبوع، تخبر أمي أنها بحاجة إلى فرض الانضباط في صفها. كما طلبت منها تقديم خطط دراسية أسبوعية، والحفاظ على ترتيب الفصل، وتصحيح الواجبات المنزلية بانتظام. لكن أمي كانت دائمًا ما تخلط الأمور، فتضع تواريخ خطأً في الخطط الدراسية، أو تضيّع الواجبات.

وعندما هددتها الآنسة بيتي بالفصل، بدأتُ أنا ولوري وبراين نساعدها في عملها المدرسي. كنت أذهب إلى فصلها بعد انتهاء الدوام لتنظيف السبورة، وإزالة الغبار عن الممحاة، والتقاط الأوراق المبعثرة على الأرض. وفي المساء، كنا نجلس جميعًا لتصحيح واجبات طلابها واختباراتهم. سمحت لنا أمي بتصحيح الأوراق التي تحتوي على أسئلة الاختيار من متعدد، وصواب أم خطأ، وملء الفراغات، أي كل شيء باستثناء الأسئلة المقالية، إذ كانت ترى أنها تحتاج إلى تقييمها بنفسها، لأنها قابلة للإجابة بطرق متعددة ومختلفة. كنت أستمتع بتصحيح الواجبات المدرسية، فقد أحببت الشعور بأنني أؤدي عمل الكبار. أما لوري، فكانت تساعد أمي في إعداد الخطط الدراسية، فتتأكد من أنها تملؤها على نحو صحيح، وتصحح أخطاءها في الإملاء والرياضيات.

قالت لوري وهي تمسك قلم الرصاص وتمحو كتابات أمي: "أمي، كلمة Halloween تُكتب بحرفي L متتاليين"، ثم أضافت: "وحرفي E متتاليين أيضًا، ولا يوجد حرف E صامت في النهاية".

دُهشت أمي بمدى نبوغ لوري، وقالت لي ذات مرة: "لوري تحصل على أعلى الدرجات دائمًا".

قلت: "وأنا كذلك".

قالت أمي: "نعم، لكنكِ تبذلين جهدًا لتحقيق ذلك".

كانت أمي محقة، فقد كانت لوري بالفعل عبقرية. وأعتقد أن مساعدتها لأمي كانت من أكثر الأشياء التي تحبها. لم تكن رياضية بطبعها، ولم تحب المغامرات والاستكشاف مثلي أنا وبراين، لكنها كانت تعشق أي شيء له علاقة بالقلم والورقة. بعد انتهائهما من الخطط الدراسية، كانت تجلس مع أمي حول طاولة البكرة، ترسم كل منهما الأخرى، وتقصّان صورًا من المجلات لحيوانات ومناظر طبيعية وأشخاص ذوي وجوه مجعدة، وتضعانها في مجلد أمي الذي يحتوي على موضوعات مرشحة للوحاتها الفنية.

كانت لوري تفهم أمي أكثر من أي شخص آخر. لم يكن يزعجها حتى عندما كانت الآنسة بيتي تحضر لمراقبة الدرس، فتبدأ أمي بالصراخ على لوري لإثبات أنها قادرة على ضبط الصف. بل وصل الأمر بأمي ذات مرة إلى حد استدعاء لوري إلى مقدمة الفصل، وضربتها بمسطرة خشبية.

سألت لوري عندما سمعت عن تأديبها ضربًا: "هل كنتِ مشاغبة؟".

أجابت لوري: "لا".

قلت: "إذًا لماذا ضربتكِ أمي؟".

قالت لوري: "كان عليها معاقبة أحد، ولم تكن تريد إغضاب الطلاب الآخرين".

بمجرد أن بدأت أمي التدريس، ظننت أننا سنتمكن أخيرًا من شراء ملابس جديدة، وتناول وجبات الغداء في مقصف المدرسة، وربما حتى الحصول على بعض الكماليات مثل صور

الصف التي تلتقطها المدرسة كل عام، إذ لم يكن والداي قادرين على شراء الصور المدرسية لنا من قبل، إلا أنه في بضع مناسبات، التقطت أمي خلسة صورة خاطفة من العلبة قبل إعادتها. وعلى الرغم من أن أمي كانت تتقاضى راتبًا الآن، فإننا لم نشترِ الصور المدرسية ذلك العام، ولم نسرقها حتى، لكن ربما كان ذلك للأفضل. فقد قرأت أمي في مكان ما أن المايونيز مفيد للشعر، وفي صباح اليوم الذي كان المصور سيأتي فيه إلى المدرسة، وضعت ملعقة أو اثنتين منه على رأسي. لم تدرك أنها كانت بحاجة إلى غسل المايونيز، وفي صورة ذلك العام كنت أحدق من تحت خصلة شعر متيبسة.

ومع ذلك، بدأت الأمور تتحسن. فرغم أن أبي قد طُرد من عمله في منجم الباريت، تمكنا من الاستمرار في العيش في محطة القطار من خلال دفع الإيجار لشركة التعدين، إذ لم تكن هناك عائلات كثيرة تتنافس على المكان، وأصبحت ثلاجتنا ممتلئة بالطعام، على الأقل حتى وصلنا إلى نهاية الشهر، فقد كان غالبًا ما ينفد مالنا لأن أمي وأبي لم يتقنا أبدًا فن إدارة الميزانية.

لكن راتب أمي كان قد جلب معه مجموعة جديدة من المشكلات، فعلى الرغم من أن أبي كان يروقه أن أمي تجلب راتبًا للبيت، فقد كان يرى نفسه رب الأسرة، وأصر على أن المال يجب أن يسلم إليه. كانت هذه مسئوليته، كما كان يقول، أن يدير الشئون المالية للعائلة، وكان يحتاج إلى المال لتمويل بحثه في استخلاص الذهب.

قالت أمي: "البحث الوحيد الذي تجريه هو حول قدرة الكبد على امتصاص الكحول". ومع ذلك، وجدت صعوبة في أن تقول له "لا" على نحو مباشر. ولسبب ما، لم يكن في استطاعتها مواجهته بالرفض. فإذا حاولت، كان يجادلها ويلحّ عليها، ويتذمر ويتنمر عليها، حتى يرهقها تمامًا. لذا، فقد لجأت إلى أساليب المراوغة. كانت تخبره أنها لم تصرف راتبها بعد، أو تدّعي أنها نسيته في المدرسة، وتخفيه حتى تتمكن من التسلل إلى البنك. ثم تدّعي لاحقًا أنها فقدت المال كله.

لكن سرعان ما بدأ أبي يحضر إلى المدرسة في يوم دفع الراتب، ينتظر في السيارة، ويأخذنا جميعًا مباشرة إلى وينيموكا، حيث يوجد البنك، حتى تتمكن أمي من صرف شيك راتبها على الفور، وكان يصر على مرافقتها إلى الداخل. أما أمي، فكانت تأخذنا معها حتى تتمكن من تمرير بعض النقود إلينا قبل أن يتمكن أبي من الاستيلاء عليها.

في إحدى المرات، دخلت أمي البنك وحدها، لأن أبي لم يجد مكانًا لركن السيارة. وعندما عادت، كانت دون أحد جَوربيها. قالت أمي: "جانيت، سأعطيكِ جوربًا أريدكِ أن تخبئيه في مكان آمن". ثم رمشت بعينيها لي بإصرار، وهي تسحب جوربها الآخر من داخل ملابسها، وكان معقودًا في منتصفه، ومنتفخًا عند طرفه. وأضافت: "خبئيه في مكان لا يستطيع أحد الوصول إليه، لأنكِ تعلمين كم تصبح الجوارب نادرة في منزلنا".

قال أبي بغضب: "تبًا لكِ يا روز ماري، هل تظنين أنني أبله؟".

قالت أمي وهي ترفع ذراعيها في الهواء: "ماذا؟ ألا يُسمح لي بإعطاء ابنتي جوربًا؟". ثم رمشت لي مجددًا، تحسبًا لأني لم أفهم الرسالة.

عندما عدنا إلى باتل ماونتن، أصر أبي على الذهاب إلى نادي البومة للاحتفال بيوم الراتب، وطلب لنا جميعًا شرائح من اللحم. كان طعمها لذيذًا لدرجة أننا نسينا أننا كنا نلتهم ما يُعادل قيمة مشتريات البقالة لمدة أسبوع. قال أبي في ختام العشاء، بينما كانت أمي تضع بقايا طعام مائدتنا في حقيبتها: "عزيزتي عنزة الجبل، لماذا لا تدعينني أستعير ذلك الجورب للحظة؟".

نظرت حولي. لم أرَ أحدًا سوى أبي، الذي كان يبتسم كتمساح. سلّمته الجورب وتنهدت أمي تنهيدة درامية واستسلمت، وأسندت رأسها إلى الطاولة. ولإثبات أنه المسئول، ترك أبي بقشيشًا قدره عشرة دولارات للنادلة، لكن أمي تسللت وأخذته في حقيبتها قبل أن نغادر.

بعد وقت قصير، نفد المال منا مرة أخرى. عندما أوصلنا أبي إلى المدرسة، لاحظ أننا لم نكن نحمل حقائب الغداء.

قال: "أين غداؤكما؟".

نظرتُ أنا وبراين بعضنا إلى بعض ورفعنا أكتافنا.

قال براين: "لا يوجد طعام في المنزل".

عندما سمع أبي ذلك بدا غاضبًا، كما لو أنه اكتشف لأول مرة أن أطفاله يعانون الجوع.

تمتم لنفسه قائلًا: "اللعنة، لا تزال روز ماري تهدر المال على لوازم الرسم!". ثم أعلن بصوت أعلى: "لن يجوع أي طفل من أطفالي!". وبعد أن أوصلنا، نادانا قائلًا: "لا تقلقوا بشأن أي شيء يا أولاد".

خلال استراحة الغداء، جلست أنا وبراين معًا في مقصف المدرسة. كنت أتظاهر بأنني أساعده في حل واجباته المدرسية لكيلا يسألنا أحد عن سبب عدم تناولنا الطعام، حينها ظهر أبي فجأةً في مدخل الكافتيريا، حاملًا حقيبة تسوق كبيرة. راح يبحث عنا في القاعة حتى وقعت عيناه علينا. قال بصوت عالٍ للحارس المناوب: "نسي طفلاي أخذ غدائهما معهما اليوم". ثم مشى نحونا، ووضع الكيس على الطاولة أمامنا. أخرج منه رغيف خبز، وعلبة كاملة من اللحم البارد، وجرة مايونيز، وإبريقًا من عصير البرتقال بحجم نصف جالون، وتفاحتين، وجرة مخللات، وقطعتين من الحلوى.

سألنا أبي: "أخذلتكما يومًا؟"، ثم استدار ومشى بعيدًا.

قال براين بصوت خافت لم يسمعه أبي: "نعم".

قالت لوري، وهي تحدق بالثلاجة الفارغة: "يجب أن يبدأ أبي بتحمل مسئولياته".

قلت: "إنه يتحملها! إنه يجلب المال من بعض أعماله الغريبة".

قال براين، بينما كان ينحت قطعة صغيرة من الخشب، ناثرًا حوله نشارة الخشب على الأرض خارج المطبخ حيث كنا نقف: "لكنه ينفق أكثر مما يكسب على الشراب". كان براين قد اعتاد حمل سكين جيب معه طوال الوقت، وغالبًا ما كان ينحت قطعًا من الخشب عندما يكون منشغلًا بشيء في ذهنه.

قلت: "ليس كل ما ينفقه على الشراب، معظمه يُصرف على أبحاث استخلاص الذهب بالسيانيد".

قال براين: "لا يحتاج أبي إلى إجراء أبحاث عن الاستخلاص، إنه خبير بالفعل". وانفجر هو ولوري ضاحكين، بينما رمقتهما بنظرة غاضبة. كنت أعرف عن وضع أبي أكثر مما يعرفان، لأنه كان يتحدث معي أكثر من أي فرد آخر في العائلة. كنا لا نزال نخرج معًا لملاحقة "الشيطان" في الصحراء، كنوع من استعادة الذكريات القديمة، رغم أنني كنت في السابعة من عمري آنذاك، ولم أعد أومن بوجود الشياطين. كان أبي يحدثني عن خططه كلها، ويُريني صفحات من الرسوم البيانية والحسابات والخرائط الجيولوجية التي توضح طبقات الرواسب حيث يعتقد أن الذهب مدفون.

أخبرني أبي أنني طفلته المفضلة، لكنه استحلفني ألّا أبوح بذلك للوري أو براين أو مورين. لقد كان سرًا يخصّنا وحدنا. ثم قال: "أقسم لكِ يا عزيزتي، هنالك أوقات أشعر فيها بأنكِ أنتِ الشخص الوحيد من حولي الذي لا يزال يثق بي. لا أدري حقًا ماذا أفعل لو أنكِ فقدتِ هذا الإيمان يومًا. أخبرته أنني لن أفقد إيماني به أبدًا، ووعدت نفسي أنني لن أفعل.

بعد بضعة أشهر من بدء أمي العمل كمعلمة، مررتُ أنا وبراين بجوار فندق "جرين لانترن". كانت الغيوم فوق الشمس الغاربة مخططة باللونين القرمزي والأرجواني. وكانت الحرارة تنخفض سريعًا، من لهيب حارق إلى برودة قاسية في غضون دقائق، كما يحدث دائمًا في

الصحراء عند الغروب. كانت هناك امرأة ترتدي شالًا مزخرفًا على كتفيها، تدخن سيجارة على شرفة فندق "جرين لانترن". لوّحت لبراين، لكنه لم يرد.

هتفت قائلة: "يوهووو! براين، إنه أنا يا حبيبي! جينجر!".

تجاهلها براين.

سألته: "من هذه؟".

قال: "مجرد صديقة لأبي"، ثم أضاف: "إنها فتاة غبية".

سألته: "لماذا هي غبية؟".

أجاب براين: "لأنها لا تفهم حتى الكلمات البسيطة في مجلة Sad Sack الهزلية".

أخبرني أنه منذ فترة ليست بالقصيرة، اصطحبه أبي للاحتفال بعيد ميلاده، وفي المتجر، سمح له أبي بأن ينتقي أي هدية يرغب فيها، لذا وقع اختياره على مجلة Sad Sack الهزلية. بعد ذلك، ذهبا إلى فندق نيفادا، القريب من نادي البومة، وكان على لافتته في الخارج مكتوب: "بار - مشويات - نظيف - عصري". وقد تناولا العشاء مع جينجر، التي كانت تضحك بصوت عالٍ وتتكلم كثيرًا، وتلامس أبي وبراين طوال الوقت. ثم صعد الثلاثة إلى إحدى غرف الفندق. كانت الغرفة عبارة عن جناح صغير، يحتوي على غرفة أمامية وغرفة نوم. دخل أبي وجينجر إلى غرفة النوم، بينما بقي براين في الغرفة الأمامية يقرأ مجلته الهزلية الجديدة. لاحقًا، عندما خرجا من الغرفة، جلست جينجر بجانبه. لم يرفع رأسه، بل ظل يحدق بالمجلة الهزلية، رغم أنه كان قد قرأها بالكامل مرتين، ثم أخبرتهما جينجر أنها تحب مجلة Sad Sack. عندها، أجبر أبي براين على إعطائها المجلة الهزلية، قائلًا له إن هذا هو الشيء المهذب الذي يجب فعله.

صاح براين غاضبًا: "لكنها كانت لي!". ثم أضاف: "وظلت تسألني عن معاني الكلمات الكبيرة. إنها امرأة بالغة، ولا تستطيع حتى قراءة مجلة هزلية!".

كان براين يكره جينجر بشدة، لدرجة أنني أدركت أنها فعلت شيئًا أكثر من مجرد الاستيلاء على قصته الهزلية. تساءلت إذا كان قد فهم شيئًا عن جينجر والنساء الأخريات في فندق "جرين لانترن". ربما عرف لماذا قالت أمي إنهن سيئات. ربما كان هذا سبب غضبه. سألت: "هل عرفتَ ماذا يفعلن داخل فندق جرين لانترن؟".

حدّق براين إلى الأفق أمامه. حاولت رؤية ما كان ينظر إليه، لكن لم يكن هناك شيء سوى جبال توسكارورا التي كانت تعانق السماء المظلمة. ثم هز رأسه وقال: "إنها تجني كثيرًا من المال، وكان ينبغي لها أن تشتري مجلتها الهزلية اللعينة بنفسها".

اعتاد البعض التندر على بلدة "باتل ماونتن". إذ أقامت صحيفة كبرى في الشرق ذات مرة مسابقة للبحث عن المدينة الأبشع والأكثر بؤسًا والأشد هجرانًا في البلاد بأسرها، ثم أعلنت "باتل ماونتن" الفائزة باللقب عن جدارة. ولم يكن سكانها أنفسهم يكنون لها كثيرًا من الاحترام أيضًا. تراهم يشيرون بإصبعهم نحو اللافتة الكبيرة الصفراء والحمراء المعلقة عاليًا على عمود في محطة وقود Shell -تلك التي احترق فيها حرف S- ثم يقولون بنوع من الكبرياء المنحرفة: "أجل، هذا هو المكان الذي نعيش فيه: الجحيم hell!".

لكنني كنت سعيدة في "باتل ماونتن". كنا قد عشنا هناك لما يقرب من عام، واعتبرتها موطني، أول منزل حقيقي يمكنني تذكره. كان أبي على وشك إتقان عملية استخراج الذهب بالسيانيد، وكنت أنا وبراين نستكشف الصحراء، بينما لوري وأمي كانتا تقضيان وقتهما في الرسم والقراءة معًا، وكانت مورين، بشعرها الأبيض الحريري وعصابة أصدقائها الخياليين، سعيدة بالركض في جميع الأنحاء من دون حفاضة. كنت أعتقد أن أيام حزم الأمتعة والانطلاق في منتصف الليل قد انتهت.

بعد عيد ميلادي الثامن بقليل، انتقل بيلي ديل ووالده إلى حيّ "التراكس". كان بيلي يكبرني بثلاث سنوات، وكان طويل القامة ونحيفًا، ذا شعر قصير أشقر مائل إلى الرملي وعينين زرقاوين. لكنه لم يكن وسيمًا. كان الشيء اللافت في بيلي هو أن رأسه كان غير متناسق. قالت بيرثا وايتفوت، وهي امرأة نصف هندية تعيش في كوخ قرب المستودع، وتربي نحو خمسين كلبًا في حديقتها المسيجة، إن السبب هو أن والدة بيلي لم تكن تقلبه أبدًا عندما كان رضيعًا. كان مستلقيًا في الوضع نفسه يومًا بعد يوم، فصار الجانب الذي كان ملتصقًا بالفراش مسطحًا قليلًا. لم يكن ذلك ملحوظًا جدًا إلا إذا نظرت إليه مباشرة، ولم يفعل ذلك كثير من الناس، لأن بيلي كان دائم الحركة كأنه يشعر بالحكة. كان يلف سجائره الـ"مارلبورو" في أحد كُمَّي قميصه، ويشعلها بقداحة "زيبو" عليها صورة امرأة تنحني.

كان يعيش مع والده في بيت مصنوع من ورق القطران وصفائح الحديد المموج، على مسافة قريبة من بيتنا عبر السكك الحديدية. لم يكن يتحدث أبدًا عن أمه، وكان واضحًا أنه لا ينبغي لأحد أن يسأل عنها، لذا لم أعرف أبدًا إن كانت قد هربت أم ماتت. كان والده يعمل في منجم الباريت، ويقضي أمسياته في نادي البومة، مما سمح لبيلي بقضاء كثير من الوقت بلا رقابة.

اعتادت بيرثا وايتفوت أن تنادي بيلي "الشيطان ذا قصة الشعر القصيرة" و"مُرعب حيّ التراكس". كانت تزعم أنه أشعل النار في اثنين من كلابها، وسلخ جلود بعض قطط الحي، وعلّق جثثها الوردية العارية على حبل الغسيل ليصنع منها لحمًا مجففًا. أما بيلي، فكان يقول إن بيرثا كاذبة سمينة. لم أكن أعلم من منهما أصدق. ففي نهاية المطاف، كان بيلي جانح أحداث معتمدًا. لقد أخبرنا بأنه أمضى فترة في مركز لإصلاح الأحداث في رينو بتهمة السرقة من المتاجر وتخريب السيارات. وبعد فترة قصيرة من انتقاله إلى حيّ "التراكس"، بدأ بيلي يتبعني في كل مكان. كان يحدق بي دائمًا، ويخبر الأطفال الآخرين بأنه حبيبي.

كنت أصرخ قائلة: "لا، ليس كذلك!"، رغم أنني كنت في قرارة نفسي مستمتعة بأنه يريد أن يكون كذلك.

بعد بضعة أشهر من قدومه إلى البلدة، قال لي بيلي إنه يريد أن يريني شيئًا "مضحكًا جدًا".

قلت له: "إذا كان قطًا مسلوخًا، فلا أريد رؤيته".

قال بيلي: "لا، ليس شيئًا من هذا القبيل، إنه مضحك جدًا. أعدك بأنكِ ستضحكين وتقهقهين. إلا إذا كنتِ خائفة".

قلت له: "طبعًا لست خائفة".

كان الشيء "المضحك" الذي أراد بيلي أن يريني إياه في منزله، الذي كان مظلمًا في الداخل، وتفوح منه رائحة اليوريا، وكان أكثر فوضوية من منزلنا، لكن بطريقة مختلفة. كان بيتنا دائمًا يعج بالأشياء: الأوراق والكتب والأدوات والأخشاب واللوحات ومستلزمات الرسم، وتماثيل فينوس دي ميلو المطلية بألوان مختلفة. أما بيت بيلي، فكان شبه خالٍ. لم يكن فيه أثاث، ولا حتى طاولات خشبية من بكرات الكابلات. مجرد غرفة واحدة بها فراشان على الأرض بالقرب من التلفاز. لم تكن هناك أي صور أو لوحات على الجدران. فقط مصباح عارٍ يتدلى من السقف، وبجواره، كانت هناك ثلاثة أو أربعة شرائط لاصقة للذباب مُعلّقة، وقد غطّاها الذباب بالكامل بحيث لم يكن بالإمكان رؤية سطحها الأصفر اللزج. كانت الأرض مُغطاة بعلب المشروبات الفارغة وزجاجات الشراب وبعض العلب المفتوحة لنقانق فيينا. على إحدى المراتب، كان والد بيلي نائمًا وشخيره مُتقطع. كان فمه مفتوحًا، وقد حطّ الذباب على ذقنه الخشن. حدقت بصمت، ثم سألت: "ما الشيء المضحك؟".

قال بيلي، وهو يشير إلى والده: "ألا ترين؟ لقد تبول على نفسه!". وبدأ بيلي يضحك.

شعرت بأن حرارة وجهي ترتفع، وقلت له: "لا ينبغي أن تضحك من والدك"، "أبدًا".

قال بيلي: "آه، لا تتصنعي علينا، لا تحاولي أن تتظاهري أنكِ أفضل مني. لأنني أعلم أن والدكِ ليس إلا سكيرًا مثل أبي".

كرهت بيلي في تلك اللحظة، حقًا كرهته. فكرت في أن أخبره عن الأرقام الثنائية و"القلعة الزجاجية" و"فينوس" والأشياء كلها التي تجعل أبي مميزًا ومختلفًا تمامًا عن والده، لكنني كنت أعلم أن بيلي لن يفهم. بدأت أركض خارج المنزل، لكنني توقفت، ثم استدرت.

صرخت قائلة: "إن أبي لا يشبه أباك أبدًا! فعندما يفقد أبي وعيه، لا يبول أبدًا على نفسه!".

في عشاء تلك الليلة، بدأت أخبر الجميع عن والد بيلي ديل المقزز والمكب القبيح الذي يعيشان فيه.

وضعت أمي شوكتها جانبًا وقالت: "جانيت، أنا أشعر بخيبة أمل فيكِ، يجب أن تكوني أكثر تعاطفًا".

قلت: "لماذا؟ إنه سيئ، إنه جانح".

قالت أمي: "لا يولد أي طفل مُنحرفًا بطبعه". وأضافت أنهم يصبحون كذلك فقط إذا لم يحظوا بالحب والرعاية في طفولتهم. فالأطفال الذين لا ينعمون بالحب قد يكبرون ليصبحوا مجرمين أو مدمنين على الشراب. نظرت أمي نظرة ذات مغزى إلى أبي، ثم عادت لتنظر إليّ. طلبت مني أن أحاول أن أكون أكثر لطفًا مع بيلي، قائلة: "إنه لا يتمتع بظروف مثل المتاحة لكم".

في المرة التالية التي رأيت فيها بيلي، أخبرته أنني سأكون صديقته -ليس حبيبته- إذا وعد بألا يسخر من آباء الآخرين. وعدني بيلي بذلك، لكنه استمر في محاولة جعلي حبيبته. قال لي إنه إذا أصبحت حبيبته، فسيحميني دائمًا، ويتأكد من ألا يصيبني أي مكروه، وسيشتري لي هدايا ثمينة. وإذا لم أصبح حبيبته، فسوف أندم. قلت له إنه إن لم يكن يريد أن نكون مجرد أصدقاء، فلا بأس، فأنا لست خائفة منه.

بعد حوالي أسبوع، كنت أقضي الوقت مع بعض الأطفال الآخرين من حيّ "التراكس"، نشاهد القمامة تحترق في برميل قمامة صدئ كبير. كانوا يرمون فيه قطعًا من الأغصان لإبقاء النار مشتعلة، بالإضافة إلى أجزاء من إطارات السيارات، وكنا نهلل عندما يتصاعد الدخان الأسود الكثيف الذي يجعل أنوفنا تحترق وهو يمر بنا متجهًا إلى السماء.

جاء بيلي إليّ، وأمسك بذراعي، مشيرًا لي أن أبتعد عن بقية الأطفال. غاص بيده في جيبه، وأخرج خاتمًا من الفيروز والفضة. قال: "هذا لكِ".

أخذته وقلبته بين يدي. كانت أمي تمتلك مجموعة من المجوهرات الهندية المصنوعة من الفيروز والفضة، وكانت تخزنها في منزل جدتي، حتى لا يرهنها أبي. معظمها كان عتيقًا وقيمًا جدًا -كان هناك رجل من متحف في فينيكس يحاول باستمرار شراء بعض القطع منها- وعندما كنا نزور جدتي، كانت أمي تسمح لي وللوري بارتداء القلائد والأساور الثقيلة والأحزمة المصنوعة من الصدف. كان خاتم بيلي يشبه أحد خواتم أمي. مررته على أسناني ولساني، كما علمتني أمي أن أفعل. ومن الطعم المر الخفيف، أدركت أنه فضة حقيقية.

سألته: "من أين حصلت على هذا؟".

أجابني بيلي: "كان ملكًا لأمي".

كان خاتمًا جميلًا حقًا. حلقته رفيعة وبسيطة، وفي وسطه حجر فيروز بيضاوي غامق، مثبت في مكانه بواسطة خيوط فضية ملتوية. لم أكن أملك أي مجوهرات، ولم أتلقَ هدية منذ فترة طويلة، باستثناء كوكب الزهرة.

جرّبت ارتداء الخاتم. كان فضفاضًا للغاية على إصبعي، إلا أنني استطعت أن ألف خيطًا من الصوف حول حلقة الخاتم، كما تفعل فتيات المرحلة الثانوية حين يرتدين خواتم أحبائهن. لكنني كنت خائفة إذا أخذت الخاتم، أن يعتقد بيلي بأنني وافقت على أن أكون حبيبته. سيخبر جميع الأطفال الآخرين، وإذا أنكرت، فسيشير إلى الخاتم. لكن في المقابل، فكرت

أن أمي قد توافق على ذلك، لأن قبولي بالخاتم قد يجعل بيلي يشعر بالرضا عن نفسه. فقررت أن أتوصل إلى حل وسط.

قلت: "سأحتفظ به، لكنني لن أرتديه".

اتسعت ابتسامة بيلي عبر وجهه بالكامل.

قلت: "لكن لا تظن أن هذا يعني أننا أصبحنا حبيبين، ولا تظن أن هذا يعني أنه يمكنك تقبيلي".

لم أخبر أحدًا عن الخاتم، حتى براين. كنت أحتفظ به في جيب سروالي خلال النهار، وفي الليل أخفيته في أسفل الصندوق الكرتوني حيث أضع ملابسي.

لكن بيلي ديل لم يستطِع أن يغلق فمه بشأن إعطائي الخاتم. بدأ يخبر الأطفال الآخرين كيف أنه بمجرد أن أصبح كبيرة بما يكفي، سأتزوجه. عندما اكتشفت ما كان يقوله، أدركت أن قبول الخاتم كان خطأً كبيرًا. وأدركت أيضًا أنه يجب عليّ إعادته. لكني لم أفعل. كنت أنوي ذلك، وكل صباح كنت أضعه في جيبي بقصد إعادته، لكنني لم أستطِع أن أجبر نفسي على ذلك. فقد كان الخاتم جميلًا للغاية.

بعد بضعة أسابيع، كنت ألعب الغميضة بمحاذاة خطوط السكك الحديدية مع بعض أطفال الحي. وجدتُ مخبأً مثاليًا، كوخًا صغيرًا للأدوات خلف كومة من نبات الشيح، لم يسبق لأحد أن اختبأ فيه من قبل. لكن بينما كان الطفل الذي يقوم بدور "الباحث" ينهي العد، انفتح الباب وحاول شخص آخر الدخول. كان الشخص هو بيلي ديل. لم يكن حتى يشارك في اللعب معنا.

همست إليه قائلة: "لا يمكنك الاختباء معي، من المفترض أن تجد مكانك الخاص".

قال بيلي: "فات الأوان، لقد أوشك على الانتهاء من العد".

زحف بيلي إلى الداخل. كانت السقيفة ضيقة للغاية، بالكاد تتسع لشخص واحد ليجلس القرفصاء بداخلها. لم أكن لأعترف بذلك، لكن وجودي بهذا القرب من بيلي كان يخيفني. همست إليه قائلة: "المكان مزدحم للغاية! عليك أن تخرج".

قال بيلي: "لا، يمكننا أن نتدبر الأمر". ثم أزاح ساقيه ليضغط بهما على ساقي. كنا قريبين جدًا لدرجة أنني شعرت بأنفاسه على وجهي.

قلت مجددًا: "المكان مزدحم للغاية، وأنت تتنفس في وجهي".

تظاهر بأنه لم يسمعني، ثم سألني: "أتعرفين ماذا يفعلون في فندق جرين لانترن؟".

سمعت صيحات مكتومة للأطفال الآخرين، بينما يطاردهم الطفل الذي كان عليه الدور في اللعبة. تمنيت لو أنني لم أختر مخبأً جيدًا لهذه الدرجة. قلت له: "بالطبع أعرف".

"ماذا؟".

"النساء يكنّ لطيفات مع الرجال هناك".

تردد للحظة، ثم قال: "لكن ماذا يفعلن؟ أرأيتِ؟ أنتِ لا تعرفين".

أجبته: "بل أعرف".

قال: "أتريدين أن أخبركِ؟".

قلت: "أريدك أن تجد لك مخبأً آخر".

قال: "تبدأ الأمور بالتقبيل. هل مررت بتجربة كهذه من قبل؟".

في خيوط الضوء الرفيعة التي كانت تتسلل من فجوات جدران الحظيرة، تمكنتُ من رؤية حلقات من الأوساخ حول عنقه النحيل. قلت: "بالطبع، مرات عديدة".

"من؟".

"والدي".

قال: "والدكِ لا يُحسب. يجب أن يكون شخصًا ليس من عائلتكِ. وعليكِ أن تغمضي عينيكِ، لا يُحسب إذا كانت عيناك مفتوحتين".

أخبرتُ بيلي أن هذا الكلام سخيف للغاية. فإذا كانت عيناك مُغمضتين، فلن تتمكن من رؤية من تُقبّل.

ردّ بيلي قائلًا إنني أجهل الكثير عن العلاقات بين الرجال والنساء. وأضاف أن بعض الرجال قد يُقدمون على إيذاء النساء في أثناء محاولتهم التقرّب منهن، خاصةً إذا أبدت النساء رفضًا أو قسوة.

وقال: "أغمضي عينيكِ".

قلت له: "مستحيل".

اقترب بيلي بوجهه من وجهي على نحو مُزعج، ثم جذب شعري بعنف وأمال رأسي، مُقتحمًا فمي. شعرتُ باشمئزاز شديد، وكلما حاولتُ دفعه بعيدًا، كان يزداد إصرارًا. استمرّ في الضغط عليّ حتى أصبح فوقي، وشعرتُ بيده تُحاول الاعتداء عليّ. في الوقت ذاته، كان يُحاول فتح أزرار ملابسه. في محاولة يائسة لوقفه، دفعتُ يده بعيدًا، وشعرتُ بشيء لم أكن أرغب بلمسه أبدًا.

لم أستطِع ركله في مكانه الحساس كما أخبرني والدي أن أفعل إن حاول أحدهم الاعتداء عليّ، لأن ركبتي كانتا خارج ساقيه، لذلك عضضته بشدة في أذنه. لا بد أنه تألم، لأنه صرخ وضربني على وجهي، وبدأ الدم يتدفق من أنفي.

سمع الأطفال الآخرون الضجة وجاءوا يركضون. فتح أحدهم باب السقيفة، واندفعت أنا وبيلي إلى الخارج، ونحن نحاول تعديل ملابسنا.

صرخ بيلي: "لقد قبّلت جانيت!".

صرخت: "لم تفعل! إنه كاذب! لقد تشاجرنا فقط، هذا كل شيء".

ظللت أكرر لنفسي بقية اليوم أنه كان كاذبًا. لم أقبّله حقًا، أو على الأقل لم يكن ذلك يُحسب. فقد كانت عيناي مفتوحتين طوال الوقت.

في اليوم التالي، أخذت الخاتم إلى بيت بيلي ديل. وجدته في الفناء الخلفي، جالسًا في سيارة مهجورة. كان طلاؤها الأحمر قد بهت بفعل شمس الصحراء، وتحول إلى البرتقالي عند الحواف الصدئة. وكانت الإطارات قد تهالكت منذ زمن طويل، وكان سقفها الأسود الممزق يتقشر. كان بيلي جالسًا في مقعد السائق، يصدر أصوات محرك بحنجرته، متظاهرًا بأنه يحرك ناقل السرعة الوهمي.

وقفت بالقرب منه، منتظرة أن يلتفت إليّ. لكنه لم يفعل، لذا تحدثت أولًا. قلت له: "لا أريد أن أكون صديقتك، ولا أريد خاتمك بعد الآن".

قال بيلي: "لا يهمني". وأضاف: "أنا أيضًا لا أريده". ظل يحدق إلى الأمام من خلال الزجاج الأمامي المتصدع. مددت يدي عبر النافذة المفتوحة، وأسقطت الخاتم في حجره، ثم استدرت ومضيت مبتعدة. سمعت صوت طقطقة وخشخشة باب السيارة، وهو يفتح ويغلق خلفي. واصلت المشي. ثم شعرت بوخزة حادة في مؤخرة رأسي، كأن حجرًا صغيرًا أصابني. كان بيلي قد رمى الخاتم عليّ. واصلت المشي.

صرخ بيلي: "تخيلي ماذا؟ لقد اعتديت عليكِ!".

استدرتُ فرأيته واقفًا بجانب السيارة، يبدو عليه الغضب والألم، لكنه لم يبدُ بطوله المعتاد. فتّشتُ ذهني بحثًا عن رد قاطع، لكن لجهلي بمعنى كلمة "اعتداء"، لم يخطر ببالي سوى أن أقول: "وماذا في ذلك؟!".

وعندما عدت إلى المنزل، بحثت عن الكلمة في القاموس. ثم بحثت عن الكلمات التي تشرح معناها، وعلى الرغم من أنني ما زلت لم أتمكن من فهمها تمامًا، فقد عرفت أنها كلمة سيئة. عادةً، عندما كنت لا أفهم كلمة ما، كنت أسأل أبي عنها، فنقرأ التعريف معًا ونناقشه. لكنني لم أرغب في فعل ذلك هذه المرة. كان لديَّ شعور بأنها ستتسبب في حدوث مشكلات.

في اليوم التالي، كنت أنا ولوري وبراين نجلس حول إحدى الطاولات المصنوعة من بكرات الكابلات في المستودع، نلعب "البوكر" ونراقب مورين من كثب، بينما انصرف والداي لقضاء بعض الوقت في نادي البومة للاسترخاء. سمعنا صوت بيلي ديل في الخارج ينادي اسمي. نظرت إليّ لوري، فهززتُ رأسي. عدنا إلى لعبتنا، لكنه لم يتوقف، فخرجت لوري إلى الشرفة، التي كانت في الأصل رصيفًا قديمًا لركوب القطار، وأخبرت بيلي أن يرحل. عادت إلى الداخل وقالت: "إنه يحمل بندقية".

حملت لوري مورين بين ذراعيها، بينما تحطمَت إحدى النوافذ، ثم ظهر بيلي من خلالها. استخدم مؤخرة بندقيته لكسر ما تبقى من الزجاج، ثم وجه فوهتها إلى الداخل.

قال براين: "إنها مجرد بندقية هوائية".

قال بيلي، وهو يحدق بي: "أخبرتكِ أنكِ ستندمين". ثم ضغط على الزناد. شعرتُ كأن زنبورًا لدغني في ضلوعي. بدأ بيلي يطلق النار علينا جميعًا، يعيد ويحرّك آلية البندقية الارتدادية بسرعة قبل كل طلقة. دفع براين طاولة البكرات فأوقعها، وانحنينا جميعًا للاحتماء خلفها.

ارتدّت الخرزات عن سطح الطاولة مُصدرةً رنينًا. كانت مورين تبكي بصوت عالٍ. التفتُّ إلى لوري، فهي الأكبر والمسئولة عنا. كانت تعضّ شفتها السفلى، وتفكر مليًا. أعطتني مورين ثم انطلقت مسرعة عبر الغرفة. أصابها بيلي مرة أو مرتين -نهض براين محاولًا لفت انتباهه بعيدًا عنها- لكنها وصلت إلى الطابق العلوي. ثم عادت وهي تحمل مسدس أبي، ووجهته مباشرة إلى بيلي.

قال بيلي بصوت متردد قليلًا: "هذه مجرد لعبة".

صرختُ: "إنه حقيقي تمامًا! إنه مسدس أبي!".

قال بيلي: "حتى لو كان كذلك، فلن تجرؤ على استخدامه".

قالت لوري: "جربني".

رد بيلي متحديًا: "هيا، أطلقي النار عليّ وانظري ماذا سيحدث".

لم تكن لوري بارعة في التصويب مثلي، لكنها وجهت المسدس نحو بيلي وضغطت الزناد. أغمضت عينيّ مع دويّ الطلقة، وعندما فتحتهما، كان بيلي قد اختفى.

ركضنا جميعًا إلى الخارج، متوقعين أن نجده ممددًا على الأرض ينزف، لكنه كان قد احتمى أسفل النافذة. وبمجرد أن رآنا، فرّ هاربًا في الشارع بمحاذاة قضبان السكة الحديدية. ابتعد مسافة خمسين ياردة قبل أن يبدأ بإطلاق النار علينا مجددًا ببندقيته الهوائية. انتزعتُ المسدس من يد لوري، ووجّهته إلى أسفل، ثم ضغطت على الزناد. كنتُ متحمسة جدًا لدرجة أنني لم أمسكه بالطريقة التي علمني إياها أبي، فارتد المسدس بعنف كاد يخلع كتفي. ارتفعت سحابة من التراب أمام بيلي، فقفز في الهواء مسافة بدت لي كأنها ثلاثة أقدام، ثم انطلق يركض بأقصى سرعته على طول القضبان.

بدأنا جميعًا نضحك، لكن الأمر لم يكن مضحكًا سوى لثوانٍ قليلة، ثم ساد الصمت بيننا، بينما كنا نتبادل النظرات. أدركت أن يدي كانت ترتجف بشدة حتى إنني بالكاد تمكنت من الإمساك بالمسدس.

بعد قليل، توقفت سيارة شرطة أمام المستودع، ونزلت منها أمي وأبي بوجهين متجهمين. تبعهما ضابط واقترب من الباب. كنا نجلس جميعًا على المقاعد بوجوه مهذبة ومطيعة. حدّق الضابط بكل واحد منا كما لو كان يعدّنا. شبكتُ يديّ في حجري لأبدو في قمة الانضباط.

جلس أبي أمامنا، جاثيًا على ركبة واحدة، وذراعه متكئة على الأخرى، على طريقة رعاة البقر. قال: "إذًا، ماذا حدث هنا؟".

قلتُ بسرعة: "لقد كان دفاعًا عن النفس". لطالما قال أبي إن الدفاع عن النفس سبب مشروع لإطلاق النار على شخص ما.

قال أبي: "أفهم ذلك".

أوضح الشرطي أن بعض الجيران أبلغوا عن رؤية أطفال يطلقون النار بعضهم على بعض، وأراد معرفة ما حدث بالضبط. حاولنا شرح أن بيلي هو من بدأ الأمر، وأننا كنا نحمي أنفسنا، ولم نقصد قتله، لكن الشرطي لم يكن مهتمًا بهذه التفاصيل في ذلك الموقف. أخبر أبي أن علينا جميعًا الحضور إلى المحكمة صباح غد لمقابلة القاضي. سيكون بيلي ديل ووالده هناك أيضًا، وسيتم التحقيق في الأمر لاتخاذ القرار المناسب.

سأل براين الضابط: "هل سنُرسَل بعيدًا؟".

قال الضابط: "هذا يعود إلى القاضي".

في تلك الليلة، أمضى أبي وأمي وقتًا طويلًا في الطابق العلوي يتحدثان بأصوات منخفضة، بينما كنا نحن الأطفال مستلقين في صناديقنا. وأخيرًا، في وقت متأخر من المساء، نزلا إلى الأسفل، ووجهاهما لا يزالان متجهمين.

قال أبي: "سنذهب إلى فينيكس".

سألت: "متى؟".

أجاب أبي: "الليلة".

سمح لنا أبي بأخذ شيء واحد فقط لكل منا. ركضتُ إلى الخارج حاملةً كيسًا ورقيًا لأجمع صخوري المفضلة. وعندما عدت، ممسكةً بالكيس من الأسفل حتى لا يتمزق، كان أبي وبراين يتجادلان بشأن فانوس جاك المصنوع من البلاستيك، المليء بالجنود الصغار البلاستيكيين، الذي أراد براين أخذه معه.

سأله أبي: "أتأخذ ألعابًا؟".

أجاب براين: "قلتَ إن بإمكاني أخذ شيء واحد، وهذا هو الشيء الذي اخترته".

قلتُ وأنا أحمل الكيس الورقي: "وهذا هو الشيء الذي اخترته أنا". اعترضت لوري، التي كانت تأخذ معها كتاب The Wizard of Oz، قائلة إن مجموعة الصخور ليست شيئًا واحدًا، بل عدة أشياء، وإن الأمر يشبه أن تأخذ معها كامل مجموعتها من الكتب. أشرتُ إلى أن جنود براين البلاستيكيين أيضًا يشكلون مجموعة. "وعلى أي حال، ليست كل الصخور، بل أفضلها فقط".

كان أبي، الذي عادةً ما يستمتع بمناقشة أسئلة كهذه -مثل إذا ما كان الكيس المليء بالأشياء يعتبر شيئًا واحدًا- في مزاج لا يسمح له بالخوض في مثل هذه الجدالات، فقال لي إن الصخور ثقيلة جدًا. قال: "يمكنكِ أخذ واحدة فقط".

قالت أمي: "هناك كثير من الصخور في فينيكس".

انتقيتُ بلورة جيود فريدة، تتلألأُ داخلها بلورات بيضاء دقيقة، ثم أمسكتُ بها بكلتا يدي. وعندما تحركت السيارة، نظرتُ عبر النافذة الخلفية لألقي نظرة أخيرة على المستودع. كان أبي قد ترك ضوء الطابق العلوي مُضاءً، وكانت النافذة الصغيرة تتوهج. فكرتُ في كل العائلات الأخرى من عمال المناجم والمنقّبين الذين جاءوا إلى "باتل ماونتن" على أمل العثور على الذهب واضطروا إلى الرحيل، مثلنا، عندما نفدت حظوظهم. كان أبي يقول إنه لا يؤمن بالحظ، لكنني كنتُ أومن به. لقد كان لدينا نصيب منه في "باتل ماونتن"، وتمنيتُ لو استمر.

مررنا بفندق جرين لانترن الذي تزين أضواء عيد الميلاد المتلألئة مدخله، ثم بنادي "البومة" الذي يتباهى بتمثال بومة نيون غامزة ترتدي قبعة طاهٍ، وما هي إلا لحظات، حتى وجدنا أنفسنا في قلب الصحراء، وأضواء بلدة "باتل ماونتن" تتلاشى خلفنا تدريجيًا. في ظلمة الليل الدامس، لم يكن هناك ما يقع عليه البصر سوى الطريق الممتد أمامنا، الذي تضيئه مصابيح السيارة الأمامية.

كان بيت الجدة سميث الأبيض الفاخر ذا مصاريع خضراء، وتحيط به أشجار الكينا. أما من الداخل، فقد كان يضم أبوابًا فرنسية عالية وسجادًا فارسيًا فاخرًا وبيانو ضخمًا، يكاد ينتفض رقصًا حين تشنف الآذانَ عزفُ الجدة لموسيقى الهونكي تونك الصاخبة. في كل مرة كنا نقيم فيها عند الجدة سميث، كانت تأخذني إلى غرفتها، وتجلسني أمام منضدة الزينة المغطاة بزجاجات صغيرة ذات ألوان باستيلية من العطور والمساحيق. وبينما كنتُ أفتح الزجاجات وأستنشق روائحها، كانت تحاول تمرير مشطها المعدني الطويل بين خصلات شعري، وكانت تتأفف بصوت خافت بسبب تشابكه الشديد. قالت باستياء: "أما تزال تلك الأم الكسولة العديمة الفائدة لا تمشط لكِ شعركِ؟". أوضحتُ لها أن أمي تؤمن بأن الأطفال يجب أن يكونوا مسئولين عن نظافتهم الشخصية. أخبرتني الجدة أن شعري

طويل أكثر من اللازم. وضعت وعاءً على رأسي، وقصت كل الشعر الذي تحته، ثم قالت لي إنني أبدو كفتاة عصرية.

هذا ما كانت عليه الجدة في شبابها. لكن بعد أن أنجبت طفلين -أمي وخالي جيم- أصبحت معلمة، لأنها لم تكن تثق بأحد غيرها في تعليم أبنائها. كانت تدرّس في مدرسة تتكون من غرفة واحدة في بلدة تدعى "يامبي". كانت أمي تكره كونها ابنة المعلمة. كانت تكره أيضًا الطريقة التي كانت تصحح بها أمها أخطاءها باستمرار، سواء في المنزل والمدرسة. كانت لدى الجدة سميث آراء صارمة حول كل شيء -كيف ترتدي الملابس، كيف تتحدث، كيف تنظم وقتك، كيف تطبخ وتدير المنزل، كيف تدير أموالك- ومنذ البداية، كانت أمي تخوض معها صراعات بلا نهاية. كانت أمي تشعر بأن الجدة سميث لا تفعل شيئًا سوى إزعاجها ومضايقتها، تضع القواعد وتعاقب على الإخلال بها، وكان ذلك يدفعها إلى الجنون. ولهذا السبب، لم تضع لنا أي قواعد.

لكنني أحببت الجدة سميث. كانت امرأة طويلة، صلبة، عريضة المنكبين، ذات عينين خضراوين وفكٍّ قوي. كانت تخبرني أنني حفيدتها المفضلة، وأنني سأكبر لأصبح شخصًا مميزًا. لقد أحببت حقًا جميع قواعدها. أحببت كيف كانت توقظنا كل صباح عند الفجر صائحة: "انهضوا وأشرقوا جميعًا!"، وكيف كانت تصر على غسل أيدينا وتمشيط شعرنا قبل الفطور. كانت تُعد لنا عصيدة القمح الساخنة مع الزبد الحقيقي، ثم تشرف علينا، بينما ننظف الطاولة ونغسل الصحون. بعد ذلك، كانت تأخذنا جميعًا لشراء ملابس جديدة، ثم نذهب إلى السينما لمشاهدة أفلام مثل Mary Poppins.

وبينما نحن في طريقنا إلى فينيكس، وقفتُ في المقعد الخلفي للسيارة، وانحنيتُ فوق المقعد الأمامي بين أمي وأبي. قلتُ: "هل سنذهب للإقامة عند الجدة؟".

قالت أمي: "لا". ثم حدّقت عبر النافذة، لكنها لم تكن تنظر إلى شيء محدد. ثم قالت: "ماتت الجدة".

قلت: "ماذا؟" كنت قد سمعتها، لكن كانت الصدمة كبيرة لدرجة أنني شعرت كأنني لم أسمع شيئًا.

أعادت أمي كلامها، وهي لا تزال مُحدقة عبر النافذة. التفتُّ إلى لوري وبراين، لكنهما كانا غاطّين في النوم. كان أبي يدخن، وعيناه على الطريق. لم أصدق أنني كنت أجلس هناك أفكر في الجدة سميث، وأتطلع إلى تناول عصيدة القمح الساخنة معها، وإلى أن تمشط شعري بينما تَسُب، كل ذلك بينما كانت ميتة طوال هذا الوقت. بدأت أضرب أمي على كتفها بقوة، وأسألها لماذا لم تخبرنا. أخيرًا، أمسك أبي بقبضتيّ بيده الحرة، بينما كان يمسك بالسيجارة وعجلة القيادة باليد الأخرى، وقال: "يكفي أيتها العنزة الجبلية".

بدت أمي مُندهشة من انفعالي.

قلت: "لماذا لم تخبرينا؟".

قالت: "لم يكن هناك داعٍ إلى ذلك".

قلت: "ماذا حدث؟"، كانت الجدة في الستينيات من عمرها فقط، ومعظم أفراد عائلتها عاشوا حتى المئة تقريبًا.

قال الأطباء إنها ماتت بسبب سرطان الدم، لكن أمي اعتقدت أنه كان بسبب التسمم الإشعاعي. قالت أمي إن الحكومة كانت دائمًا تختبر القنابل النووية في الصحراء بالقرب من المزرعة. كانت هي وجيم يخرجان أحيانًا بجهاز عدّاد جايجر ليبحثا عن الصخور التي تصدر طنينًا، ثم يخزّناها في القبو، ويستخدما بعضها لصنع المجوهرات للجدة.

قالت أمي: "لا داعي إلى الحزن، فكلنا سنرحل يومًا ما، والجدة عاشت حياة أطول وأغنى من معظم الناس". توقفت عن الكلام للحظة، ثم أضافت: "والآن أصبح لدينا مكان لنعيش فيه".

أوضحت أمي أن الجدة سميث كانت تمتلك منزلين، البيت الذي كانت تعيش فيه، ذا المصاريع الخضراء والأبواب الفرنسية، ومنزلًا قديمًا مصنوعًا من الطوب اللَّبِن في وسط مدينة فينيكس. وبما أن أمي كانت الابنة الكبرى، فقد سألتها الجدة أي المنزلين تود أن ترث. كان المنزل ذو المصاريع الخضراء أكثر قيمة، لكن أمي اختارت منزل الطوب اللَّبِن. قالت إنه قريب من الحي التجاري في فينيكس، مما يجعله مكانًا مثاليًا لها لافتتاح استوديو فني. كما أنها ورثت بعض المال، مما سيمكنها من التخلي عن التدريس وشراء كل أدوات الفن التي تحتاج إليها.

وأضافت أنها فكرت في الانتقال إلى فينيكس قبل وفاة الجدة ببضعة أشهر، لكن أبي رفض مغادرة "باتل ماونتن" لأنه كان على وشك تحقيق تقدُّم ملحوظ في عملية استخراج الذهب باستخدام السيانيد.

قال أبي: "وكنت كذلك بالفعل".

ضحكت أمي بسخرية خفيفة، ثم قالت: "إذًا، المشكلات التي تسببتم فيها مع بيلي ديل كانت في الواقع نعمة في زيّ نقمة". ثم أضافت بحماس: "مسيرتي الفنية ستزدهر في فينيكس، يمكنني الشعور بذلك!". استدارت نحوي، وقالت: "نحن على وشك خوض مغامرة جديدة يا جينيتّي-كينز! أليس هذا رائعًا؟". كانت عيناها تتلألآن. قالت بابتسامة عريضة: "أنا مدمنة على الإثارة!".

عندما توقفت السيارة أمام المنزل في شارع نورث ثيرد، لم أصدق أننا سنعيش هناك. كان أشبه بقصر، كبيرًا جدًا لدرجة أن الجدة سميث كانت تؤجره لعائلتين، كلتيهما تدفع لها الإيجار، أما الآن فسنحظى به لأنفسنا بالكامل. قالت أمي إن المنزل بُني قبل نحو مئة عام كحصن، وكانت جدرانه الخارجية المغطاة بالجص الأبيض بسُمك ثلاثة أقدام. قلت لبراين: "هذه الجدران كفيلة بإيقاف أي سهام هندية!".

ركضنا عبر أرجاء المنزل، وعددنا أربع عشرة غرفة، بما في ذلك المطابخ والحمامات. كانت الغرف مليئة بالأشياء التي ورثتها أمي عن الجدة سميث: طاولة طعام إسبانية داكنة مع ثمانية كراسي متطابقة، بيانو قائم منحوت يدويًا، خزانة جانبية مزينة بأطقم فضية أثرية، وخزائن زجاجية تحتوي على أوانٍ خزفية فاخرة كانت الجدة تقتنيها. أثبتت لنا أمي جودة تلك الأواني من خلال رفع أحد الأطباق إلى الضوء، حيث رأينا بوضوح ظل يدها من خلاله.

كانت في الفناء الأمامي شجرة نخيل، وفي الخلف شجرتا برتقال تحملان ثمارًا حقيقية. لم نعِش أبدًا في منزل به أشجار من قبل. كنت أحب شجرة النخيل تحديدًا، فقد جعلتني أشعر كأنني وصلت إلى واحة. كما كان هناك نبات الخِطميّ الوردي وشجيرات الدِفْلَى مزينة بأزهار وردية وبيضاء. خلف الفناء، كان هناك مخزن بحجم بعض المنازل التي عشنا فيها، وإلى جانبه موقف سيارات يتسع لسيارتين. بدا الأمر كأننا سنرتقي في حياتنا.

كان معظم سكان شارع نورث ثيرد مكسيكيين وهنودًا، انتقلوا إلى الحي بعد أن غادره البيض إلى الضواحي، حيث حوّلوا تلك المنازل القديمة الكبيرة إلى شقق سكنية. كان يقطن في كل بيت ما يقارب عشرين شخصًا، رجال يحتسون المشروبات من أكياس ورقية، وأمهات شابات يرضعن أطفالهن، وعجائز يجلسن تحت الشمس على شرفات مائلة إلى الانهيار، وحشود من الأطفال.

كل الأطفال في شارع نورث ثيرد كانوا يذهبون إلى المدرسة الكاثوليكية في دار عبادة سانت ماري، على بُعد خمسة مبانٍ تقريبًا. لكن أمي قالت إن الراهبات يفسدن متعة الدين، وأرادت أن نلتحق بمدرسة عامة تُدعى "إيمرسون". ورغم أننا لم نكن ضمن المنطقة التعليمية للمدرسة، توسلت أمي إلى المدير، وألحّت عليه حتى وافق على تسجيلنا.

لم تكن هناك حافلة مدرسية تمر بمكان سكننا، وكان الطريق إلى المدرسة طويلًا بعض الشيء، لكننا لم نعترض على المشي. كانت إيمرسون تقع في حي راقٍ، تصطف أشجار الأوكالبتوس على جانبي شوارعه كأنها مظلة خضراء. أما مبنى المدرسة، فكان يبدو كأنه

مزرعة إسبانية قديمة، بسقف من القرميد الأحمر، تحيط به أشجار النخيل والموز. وعندما كان الموز ينضج، كان الطلاب يحصلون عليه مجانًا في وجبة الغداء. كان ملعب المدرسة مغطى بعشب أخضر ناعم يسقيه نظامٌ من المرشات، وبه من الألعاب أكثر مما رأيته في أي مكان آخر: أراجيح، وأراجيح دوارة، ولعبة خيل خشبية، ومتاهة حديدية للتسلق، وكُرات مربوطة بالحبال، وأيضًا مضمار للجري.

في الصف الثالث، التحقت بفصل تديره الآنسة شو، كانت ذات شعر رمادي حاد ونظارة بإطارات مدببة وفم غليظ. عندما أخبرتها أنني قرأت كل كتب "لورا إنجلس وايلدر"، رفعت حاجبيها بارتياب، لكنها سرعان ما ألحقتني بمجموعة القراءة الخاصة بالطلاب الموهوبين بعد أن قرأت لها بصوت عالٍ من أحد الكتب.

أُدرج كل من لوري وبراين أيضًا في مجموعات القراءة المتقدمة. كره براين ذلك، لأن زملاءه في المجموعة كانوا أكبر سنًا، وكان هو الأصغر في الفصل، لكن أنا ولوري شعرنا بسعادة سرّية لكوننا "مميزتين". لكن بدلًا من إظهار فرحتنا، تعاملنا مع الأمر باستخفاف. عندما أخبرنا أمي وأبي عن مجموعات القراءة التي انضممنا إليها، توقفنا للحظة قبل أن ننطق بكلمة "موهوبين"، ثم ضممنا أيدينا تحت ذقنينا، ورفرفنا بجُفُوننا، متظاهرتين بالبراءة الملائكية.

قال أبي: "لا تسخروا من الأمر... طبعًا أنتم مميزون، ألم أقل لكم ذلك دائمًا؟".

نظر إليه براين باستياء، ثم قال ببطء: "إذا كنا مميزين لهذه الدرجة، فلماذا لا...؟"، ثم تلاشى صوته.

سأل أبي: "ماذا؟ ماذا؟".

هزّ براين رأسه، وقال: "لا شيء".

كانت لدى مدرسة إيمرسون ممرضة خاصة بها، أجرت لنا اختبارات للسمع والبصر، وهي الأولى لنا على الإطلاق. نجحت في الاختبار بسهولة. قالت الممرضة: "عينان كعيني النسر، وأذنان كأذني الفيل!".

لكن لوري واجهت صعوبة في قراءة لوحة فحص النظر، فأعلنت الممرضة أنها تعاني قصر نظر شديدًا، وأرسلت إلى أمي مذكرة تُفيد أنها بحاجة إلى نظارة.

قالت أمي: "مستحيل!"؛ لم تكن تؤمن بارتداء النظارات، إذ كانت تعتقد أن الأعين الضعيفة تحتاج إلى التمارين لتصبح قوية. كانت ترى أن النظارات أشبه بالعكازات، تمنع أصحاب الأعين الضعيفة من تعلّم كيفية رؤية العالم بأنفسهم. قالت إنها طوال حياتها رفضت ارتداء النظارات رغم إلحاح الآخرين عليها. لكن الممرضة أرسلت مذكرة أخرى تفيد أن لوري لن يُسمح لها بحضور المدرسة ما لم ترتدِ نظارة، وأن المدرسة ستتكفل بتكاليفها، فاضطرت أمي إلى الموافقة.

عندما جهزت النظارة، ذهبنا جميعًا إلى طبيب الأعين لاستلامها. كانت العدسات سميكة لدرجة جعلت عيني لوري تبدوان كبيرتين ومنتفختين، كعيني سمكة. راحت تحرّك رأسها يمينًا ويسارًا، وأعلى وأسفل.

قلت: "ما الأمر؟". لم تُجب، بل هرعت إلى الخارج. لحقت بها، فوجدتها واقفة في ساحة الانتظار، تتأمل الأشجار والمنازل والمباني خلفها بدهشة.

قالت، مشيرةً إلى شجرة جميز تبعد نحو مئة قدم: "أترين تلك الشجرة هناك؟".

أومأت برأسي.

قالت: "أنا لا أرى الشجرة فقط، بل أرى أوراقها أيضًا، كل ورقة على حدة!". نظرت إليّ بمُباهاة: "هل ترينها؟".

أومأت ثانية.

لكنها بدت غير مصدقة. قالت: "كل ورقة؟ أعني، ليس الفروع فقط، بل كل ورقة صغيرة؟".

أومأتُ مجددًا. نظرت إليّ، ثم أجهشت بالبكاء.

في طريقنا للعودة، ظلّت ترى للمرة الأولى أشياء لم يكن الآخرون يلاحظونها، لأنها كانت مألوفة لهم. قرأت بصوت عالٍ أسماء الشوارع واللوحات الإعلانية، وأشارت إلى طيور الزرزور الواقفة على أسلاك الهاتف. دخلنا بنكًا، ورفعت رأسها تتأمل السقف المقبب، وراحت تصف الأنماط المثمنة التي تزينه.

في المنزل، أصرت لوري على أن أجرّب نظارتها، قائلة إن تأثيرها العكسي في رؤيتي سيجعلني أرى العالم كما كانت تراه دائمًا. وضعتُ النظارة، فذاب العالم أمامي في أشكال ضبابية مشوشة. خطوت بضع خطوات، فاصطدمت ساقي بطاولة القهوة، وعندها فقط أدركت لماذا لم تكن لوري تحب استكشاف الأماكن كما كنا نفعل أنا وبراين.

أرادت لوري أن ترتدي أمي النظارة أيضًا. ارتدت أمي النظارة، وراحت ترفّ عينيها وهي تتأمل الغرفة. حدّقت بصمت بإحدى لوحاتها، ثم ناولت النظارة إلى لوري.

قالت: "هل ترين على نحو أفضل؟".

قالت أمي: "لا أستطيع أن أقول إنني أرى بشكل أفضل، بل أرى بشكل مختلف".

قلت: "ربما عليكِ أن تقتني نظارة يا أمي".

قالت: "أنا أحب العالم تمامًا كما أراه".

لكن لوري عشقت رؤية العالم بوضوح. بدأت ترسم وتلوّن بجنون كل الأشياء المدهشة التي اكتشفتها، مثل الطريقة التي يلقي بها كل لوح منحنٍ على سطح منزل إيمرسون ظله

المنحني على اللوح الذي تحته، وكيف يلوّن غروب الشمس الجوانب السفلية من الغيوم باللون الوردي، بينما تبقى قممها المتراكمة بلون بنفسجي.

لم يمضِ وقت طويل بعد حصول لوري على نظارتها، حتى قررت أنها تريد أن تصبح فنانة، مثل أمي.

وما إن استقرّت بنا الحال في المنزل، حتى ألقت أمي بنفسها في مسيرتها الفنية. نصبت لافتة بيضاء كبيرة في الفناء الأمامي، كتبت عليها بعناية بحروف سوداء ذات حواف ذهبية: استوديو الفنون - آر. إم. وولز. حولت الغرفتين الأماميتين من المنزل إلى استوديو ومعرض، واستغلت غرفتي نوم في الخلف لتخزين أعمالها الفنية. كان هناك متجر لمستلزمات الرسم على بعد ثلاث بنايات في شارع نورث فيرست، وبفضل ميراث أمي، استطعنا الذهاب في رحلات تسوق دورية، نحمل معنا لفائف القماش التي كان أبي يبسطها ويدبّسها على إطارات خشبية. كما كنا قد اشترينا أيضًا الألوان الزيتية، والألوان المائية، والأكريليك، وجِبْسًا، وإطار الطباعة الحريرية، وحبر الهند، وفرش الرسم، وريش الأقلام، وأقلام الفحم، وأقلام الباستيل، وأوراقًا قطنية فاخرة للرسم بالباستيل، وحتى دمية خشبية بمفاصل متحركة أطلقنا عليها اسم "إدوارد"، وقالت أمي إنه سيكون عارضها عندما نكون نحن في المدرسة.

قررت أمي أنها قبل أن تبدأ أي عمل فني جاد، تحتاج إلى إعداد مكتبة مرجعية فنية شاملة. اشترت عشرات الملفات ذات الأوراق المنفصلة، وحزمًا كثيرة من الورق المسطر. خصصت لكل موضوع ملفًا خاصًا: الكلاب، القطط، الخيول، حيوانات المزرعة، حيوانات الغابات، الأزهار، الفواكه والخضراوات، المناظر الطبيعية الريفية، المناظر الطبيعية الحضرية، وجوه الرجال، وجوه النساء، أجسام الرجال، أجسام النساء، وأخيرًا ملفًا بعنوان "الأيدي - الأقدام - المؤخرات - وأجزاء الجسم المتنوعة الأخرى". قضينا ساعات طويلة نطوي صفحات المجلات القديمة بحثًا عن صور مثيرة للاهتمام، وعندما نجد صورة نعتقد أنها تصلح لأن تكون موضوعًا للوحة، نرفعها لأمي لتحكم عليها. تتأملها لثانية، ثم توافق أو

ترفض. وإذا حازت الصورة رضاها، كنا نقصّها، ونلصقها على ورقة مسطرة، ونعزز ثقوب الورقة بحلقات لاصقة حتى لا تتمزق. بعد ذلك، نحضر الملف المناسب، ونضيف الصورة الجديدة، ونغلق الحلقات المعدنية. في المقابل، منحتنا أمي جميعًا دروسًا في الرسم.

لم يكن الرسم وحده ما شغل أمي، فقد كانت منهمكة أيضًا في الكتابة. اشترت عدة آلات كاتبة -يدوية وكهربائية- كي تكون لديها بدائل في حال تعطلت إحداها. احتفظت بها جميعًا في الاستوديو الخاص بها. لم تبِع أيًا مما كتبته، لكنها كانت تتلقى بين الحين والآخر خطاب رفض لكنه مشجع، وكانت تثبّته على الحائط بدبوس. عندما نعود من المدرسة، كنا غالبًا ما نجدها تعمل في الاستوديو. إذا كان المكان هادئًا، فهذا يعني أنها كانت ترسم أو تتأمل موضوعات محتملة للوحاتها. أما إذا كانت أصوات مفاتيح الآلة الكاتبة تدوي، فهذا يعني أنها تعمل على إحدى رواياتها، أو قصائدها، أو مسرحياتها، أو قصصها القصيرة، أو مجموعتها المصورة من الأقوال الفلسفية، التي كان أحدها: "الحياة وعاء من الكرز، مع بعض المكسرات المتناثرة"، وقد أطلقت عليها عنوان: "فلسفة الحياة - آر. إم. وولز".

انضم أبي إلى نقابة الكهربائيين المحلية. كانت فينيكس تمرّ بمرحلة ازدهار، فحصل على وظيفة بسرعة. كان يغادر المنزل في الصباح مرتديًا خوذة صفراء وحذاءً ضخمًا برأس فولاذي، وهو ما جعله يبدو أكثر وسامة في نظري. وبفضل النقابة، كان يجني مالًا أكثر استقرارًا من أي وقت مضى. في يوم تقاضي راتبه الأول، عاد إلى المنزل ونادانا جميعًا إلى غرفة المعيشة. قال بصوت جاد: "تركتم ألعابكم ملقاة في الفناء".

قلت: "لا، لم نفعل يا أبي".

قال: "أعتقد أنكم فعلتم. اذهبوا وتحققوا بأنفسكم".

ركضنا إلى الباب الأمامي. في الخارج، كانت هناك ثلاث دراجات جديدة تمامًا مصطفة في الفناء، دراجة حمراء كبيرة، وأخرى زرقاء للصبيان، وثالثة بنفسجية للبنات.

في البداية، اعتقدت أنها بالتأكيد تخص بعض الأطفال الآخرين الذين نسوها هناك. لكن لوري أشارت بوضوح إلى أن أبي قد اشتراها لنا. لم أصدقها. لم نمتلك دراجات من قبل -تعلمنا ركوبها على دراجات أطفال الجيران- ولم يخطر لي يومًا أنني قد أمتلك واحدة بنفسي. وخصوصًا دراجة جديدة.

استدرتُ. كان أبي واقفًا في المدخل، عاقدًا ذراعيه وعلى وجهه ابتسامة ماكرة. قلت: "هذه الدراجات ليست لنا، أليست كذلك؟".

قال أبي: "حسنًا، إنها صغيرة جدًا على أمك وعليّ".

كانت لوري وبراين قد امتطيا دراجتيهما، يركبانها جيئة وذهابًا على الرصيف. حدّقت بدراجتي. كانت بلون بنفسجي لامع، بمقعد أبيض طويل على شكل موزة، وسلّتين سلكيتين على الجانبين، ومقود مطليّ بالكروم ممتد إلى الخارج كقرون الثور، ومقابض بلاستيكية بيضاء تتدلى منها شرائط أرجوانية وفضية. ركع أبي بجانبي. قال: "أتعجبك؟".

أومأت برأسي.

قال: "أتعلمين يا عنزة الجبل؟ ما زلت أشعر بالسوء لأنني جعلتكِ تتركين مجموعة الصخور خاصتكِ في باتل ماونتن. لكن كان علينا السفر بخفة".

قلت: "أعلم. لكنها لم تكن شيئًا واحدًا على أية حال".

قال أبي: "لستُ متأكدًا من ذلك. فكل شيء في الكون يمكن تقسيمه إلى أجزاء أصغر، حتى الذرات، وحتى البروتونات، لذا من الناحية النظرية، أظن أن حجتكِ كانت منطقية. مجموعة الأشياء يجب أن تُعتبر شيئًا واحدًا. لكن مع الأسف، النظرية لا تنتصر دائمًا على أرض الواقع".

ركبنا دراجاتنا في كل مكان. أحيانًا كنا نثبّت بطاقات لعب على الشوكات باستخدام مشابك الغسيل، فتصدر صوت خفقان، وهي تضرب الأسلاك عند دوران العجلات. الآن بعد أن أصبحت لوري قادرة على الرؤية، أصبحت قائدة الرحلات. حصلت على خريطة المدينة من محطة وقود، وبدأت تخطط مساراتنا مسبقًا. كنّا نجتاز فندق ويستوارد هو، ونسير في شارع سنترال أفينيو حيث كانت النساء الهنديات بوجوههن الصارمة يبعن القلائد المطرّزة والأخفاف على أغطية صوفية بألوان قوس قزح على امتداد الرصيف. كنا نذهب إلى وولوورث، الذي كان أكبر من متاجر باتل ماونتن مجتمعة، ونلعب الغميضة بين الممرات حتى يطاردنا المدير إلى الخارج. حصلنا على مضارب التنس الخشبية القديمة الخاصة بجدّتنا سميث، وذهبنا إلى جامعة فينيكس لنحاول لعب التنس بالكُرات البالية التي تركها الآخرون وراءهم. كنا نقود دراجاتنا إلى مركز المدينة، حيث كانت هناك مكتبة تعرّف علينا أمناؤها لكثرة زياراتنا. كانوا يساعدوننا على العثور على الكتب التي يعتقدون أنها ستعجبنا، فنملأ سلال دراجاتنا بالسحر المطبوع ونقود عائدين إلى المنزل في وسط الرصيف، كأننا نملك هذا المكان.

بما أن أمي وأبي كانا يملكان المال، حصلنا على هاتف خاص بنا. لم نكن قد امتلكنا هاتفًا من قبل، لذا كلما رنّ، كنا نتسابق إليه بجنون. من يظفر به أولًا، يتحدث بلهجة إنجليزية متعجرفة: "هنا منزل وولز، كبير الخدم يتحدث، كيف يمكنني مساعدتك؟"، بينما ينفجر البقية ضحكًا.

كان لدينا أيضًا جهاز تسجيل ضخم داخل خزانة خشبية قديمة كانت ملكًا لجدّتنا. يمكنك وضع كومة من الأسطوانات، وعندما تنتهي إحداها، تمتد الذراع الآلية، وتسقط الأسطوانة التالية بصوت صفعة خفيفة. كان والداي يعشقان الموسيقى، خصوصًا الصاخبة التي تجعلك ترغب في النهوض والرقص، أو على الأقل هزّ رأسك أو النقر بقدمك. كانت أمي تذهب باستمرار إلى متاجر التوفير، وتعود محمّلة بأسطوانات قديمة لموسيقى البولكا، والترانيم الزنجية، وفرق العزف الألمانية، والأوبرا الإيطالية، وأغاني رعاة البقر. كما كانت تشتري صناديق من الأحذية ذات الكعب العالي المستعملة، التي أطلقت عليها اسم "أحذية

الرقص". كانت ترتدي زوجًا منها، وتضع مجموعة من الأسطوانات في الجهاز، وترفع الصوت إلى أقصى حد. وكان أبي يشاركها الرقص إذا كان في المنزل، وإن لم يكن، كانت ترقص بمفردها، تتهادى في رقصة الفالس، أو تؤدي خطوات الجيتيربج، أو ترقص التكساس ذات الخطوتين من غرفة إلى أخرى، بينما يتردد في أرجاء المنزل صوت ماريو لانزا، أو نفخات الأبواق، أو أغنية راعي بقر شجيّ يغني "شوارع لاريدو".

اشترى والداي أيضًا غسالة كهربائية، احتفظنا بها في الفناء. كانت عبارة عن حوض من الميناء البيضاء مرتفع على أرجل، كنا نملؤه بالماء عبر خرطوم الحديقة. كان بها محرك يحرك أداة تحريك ضخمة تلتف يمينًا ويسارًا، فتجعل الغسالة بأكملها تتمايل وترقص فوق إسمنت الفناء. لم تكن لديها دورات تشغيل، لذا كنا ننتظر حتى يتسخ الماء، ثم ندفع الملابس عبر العصّارة - أسطوانتين مطاطيتين تدوران بمحرك فوق الحوض. لشطف الملابس، كنا نكرِّر العملية نفسها من دون صابون، ثم نصرف الماء في الحديقة ليسقي العشب.

رغم أجهزتنا الرائعة العجيبة، فلم تكن الحياة في فينيكس مترفة تمامًا. كان لدينا عدد مهول من الصراصير، مخلوقات ضخمة ذات أجنحة لامعة وقوية. في البداية، كانت قليلة، لكن بما أن أمي لم تكن بالضبط من النوع المهووس بالنظافة، تضاعف عددها بسرعة. وبمرور الوقت، كانت جيوش منها تزحف عبر الجدران والأرضيات وأسطح المطبخ. في باتل ماونتن، كانت لدينا سحالٍ تلتهم الذباب، وقطط تلتهم السحالي... لم نستطِع التفكير في أي حيوان يحب أكل الصراصير، لذا اقترحت أن نشتري مبيدًا حشريًا، كما فعل جميع جيراننا، لكن أمي كانت تعارض الحرب الكيميائية. قالت إن الأمر يشبه تلك الشرائط الطاردة للحشرات من "شِل"، سننتهي بتسميم أنفسنا أيضًا.

قررت أمي أن القتال اليدوي هو أفضل تكتيك. كنا نشن مذابح ضد الصراصير في المطبخ ليلًا، لأنها كانت تخرج بأعداد هائلة. تسلحنا بالمجلات الملفوفة أو الأحذية -حتى وأنا في التاسعة، كنت أرتدي حذاءً بمقاس عشرة، وكان براين يسميه "قاتل الصراصير"- وتسللنا

إلى المطبخ. ما إن تشعل أمي الضوء، حتى نبدأ بالهجوم. لم نكن بحاجة حتى إلى التصويب. كان لدينا من الصراصير ما يكفي لضمان إصابة بعضها بمجرد ضرب أي سطح مستوٍ.

لم يكن الأمر مقتصرًا على الصراصير، فقد كان المنزل يعج بالنمل الأبيض أيضًا. اكتشفنا ذلك بعد بضعة أشهر من انتقالنا إليه، عندما اخترقت قدم لوري أرضية غرفة المعيشة المتآكلة. وبعد أن فحص أبي المنزل، قرر أن غزو النمل الأبيض كان شديدًا لدرجة أنه لا يمكن فعل أي شيء حياله، وسيتعين علينا التأقلم مع هذه المخلوقات. وهكذا، أصبحنا نتجنب الثقب الذي في الأرضية.

لكن الخشب كان متآكلًا في كل مكان. كنا نستمر في الخَطْو على بقع رخوة في الألواح الخشبية، فننهار من خلالها، ونخلق ثقوبًا جديدة. قال أبي ذات يوم: "تبًا، الأرضية بدأت تبدو كأنها قطعة جبن سويسري". ثم طلب مني أن أحضر له قطاعة الأسلاك، ومطرقة، وبعض مسامير التسقيف. أنهى المشروب الذي كان يشربه، وفتح العلبة بقاطعة الأسلاك، ثم طرقها لتصبح مسطحة، وثبتها فوق الحفرة. قال إنه بحاجة إلى مزيد من الرقع، لذا اضطر إلى الخروج وشراء صندوق آخر به ست علب. وبعد أن شرب كل واحدة منها، استخدم العلبة لإصلاح أحد الثقوب. وكلما ظهر ثقب جديد، كان يخرج مطرقته، ويتناول مشروبًا آخر، ويقوم بعملية الترميم.

كان لدينا في شارع "نورث ثيرد" عديد من الجيران الغريبي الأطوار. كانت هناك عشيرة من الغجر تعيش أسفل الشارع في منزل كبير متداعٍ، مع ألواح خشبية مثبتة بمسمار فوق الشرفة لتحويلها إلى مساحة داخلية إضافية. كانوا يسرقون أغراضنا دائمًا، وذات مرة، بعد أن اختفت عصا القفز الخاصة ببراين، شاهد براين العصا مع امرأة غجرية عجوز تثب بها على الرصيف. رفضت إعادتها، فدخلت أمي في جدال حاد مع زعيم العشيرة، وفي اليوم التالي وجدنا دجاجة مذبوحة على عتبة بابنا. كان ذلك نوعًا من اللعنات الغجرية. قررت أمي، كما قالت، أن تواجه السحر بالسحر. أخذت عظمة لحم من قدر الفاصولياء، وتوجهت

إلى منزل الغجر، تلوح بها في الهواء. وقفت على الرصيف، ورفعت العظمة كأنها صليب في طقوس طرد الأرواح، وألقت عليهم لعنة، متوعدة بأن ينهار منزلهم فوق رءوسهم، وأن تنشق الأرض لتبتلعهم إلى الأبد إن تجرءوا على مضايقتنا مجددًا. في صباح اليوم التالي، وجدنا عصا القفز الخاصة ببراين ملقاة في حديقتنا الأمامية.

كان الحي مليئًا بالمنحرفين أيضًا. معظمهم كانوا رجالًا رثاث الهيئة، محنيي الظهر، يتحدثون بأصوات متوسلة، يتسكعون عند نواصي الشوارع، ويتبعوننا ذهابًا وإيابًا من المدرسة، يعرضون علينا أن يساعدونا في تسلق الأسوار، أو يغروننا بالحلوى والنقود القليلة للعب معهم. كنا نسميهم "المقززين" ونصرخ فيهم ليبتعدوا عنا، لكنني كنت أخشى إيذاء مشاعرهم، فقد كنت أتساءل أحيانًا إن كانوا يقولون الحقيقة، وأن كل ما يريدونه هو أن يكونوا أصدقاء لنا.

في الليل، كان أبي وأمي يتركان الباب الأمامي والخلفي وجميع النوافذ مفتوحة. قالا إننا بحاجة إلى السماح للهواء بالدخول بصفة منتظمة، لأننا لم نملك جهاز تكييف. من حين لآخر، كان أحد المشردين أو السكارى يتجول عبر الباب الأمامي، معتقدًا أن المنزل مهجور. وفي الصباح، كنا نجد أحدهم نائمًا في إحدى الغرف الأمامية. وما إن نوقظه، حتى ينهض مترنحًا ويغادر معتذرًا. كانت أمي تطمئننا دائمًا بأنهم مجرد سكارى لا يشكلون أي خطر.

لكن مورين، التي كانت في الرابعة من عمرها، وتعاني من خوف رهيب من "البعبع"، كانت تحلم باستمرار بأن متسللين يرتدون أقنعة الهالوين يدخلون عبر الأبواب المفتوحة ليأخذونا. وذات ليلة، عندما كنت في التاسعة تقريبًا، استيقظت على شخص يمرر يديه على جسمي. في البداية، كان الأمر مشوشًا. كنت أنام على السرير نفسه مع لوري، وظننت أنها ربما تتحرك في أثناء نومها. دفعت اليد بعيدًا بترنح.

قال صوت رجولي: "أريد فقط أن ألعب معكِ لعبة".

عرفت الصوت. كان لرجل هزيل الوجنتين، مشعث الشعر، ظل يتردد على شارع "نورث ثيرد" مؤخرًا. حاول ملاحقتنا إلى المنزل بعد المدرسة، وأعطى براين مجلة بعنوان Kids on a Farm، كانت تحتوي على صور لصبيان وفتيات لا يرتدون سوى ملابسهم الداخلية.

صرخت: "متسول!"، وركلت يده. اندفع براين إلى الغرفة، وهو يحمل الفأس التي كان يحتفظ بها بجانب سريره، فهرب الرجل من الباب. كان أبي خارج المنزل في تلك الليلة، وأمي حين تنام، تنفصل تمامًا عن العالم، لذا قررت أنا وبراين ملاحقة الرجل بأنفسنا. ما إن وصلنا إلى الرصيف، كان الشارع مضاءً بتلك الإنارة البنفسجية الباهتة، حتى اختفى الرجل عند الزاوية. بحثنا عنه في الأحياء المجاورة، بينما كان براين يضرب الشجيرات بفأسه، لكننا لم نعثر عليه. في طريق عودتنا، كنا نصفق بعضنا لبعض، ونرفع قبضاتنا في الهواء كأننا فزنا بمباراة ملاكمة. قررنا أننا كنا في "صيد المتسولين"، وهو شبيه بصيد الشياطين، لكن العدو في هذه الحالة كان حقيقيًا وخطيرًا، وليس مجرد وهم من خيال طفل مفرط النشاط.

في اليوم التالي، عندما عاد أبي إلى المنزل وأخبرناه بما حدث، قال إنه سيقتل ذلك "الوضيع اللعين". خرجنا معه في حملة جادة لصيد المتسولين. كان الغضب يتصاعد في عروقنا، بحثنا في الشوارع لساعات، لكننا لم نجد الرجل قط. سألت أمي وأبي إن كان علينا إغلاق الأبواب والنوافذ في أثناء النوم. لم يفكرا في الأمر حتى. قالا إننا بحاجة إلى الهواء النقي، وإنه من الضروري ألا نستسلم للخوف.

وهكذا، بقيت النوافذ مفتوحة. كانت مورين تواصل رؤية الكوابيس عن رجال يرتدون أقنعة الهالوين. وبين الحين والآخر، عندما كنا نشعر بالحماس، كان براين يحمل الفأس، وأنا أمسك بمضرب البيسبول، ونخرج في "صيد المتسولين"، لنطهر الشوارع من المتسكعين الذين يتربصون بالأطفال.

كان أبي وأمي يحرصان دائمًا على تأكيد ألا نستسلم للخوف، أو التحيز، أو أولئك المتزمتين المملين الذين يحاولون فرض معاييرهم على الجميع. كان من المفترض أن

نتجاهل هؤلاء الأغبياء، كما كان يسميهم أبي. ذات يوم، ذهبت أمي معنا إلى مكتبة مركز المدينة. كان الطقس شديد الحرارة، فاقترحت أن نبرّد أجسامنا بالقفز في النافورة أمام المبنى. لم يكن الماء عميقًا بما يكفي للسباحة، لكننا سبحنا حولها متظاهرين بأننا تماسيح، إلى أن تجمّع حشد صغير من الناس، وأخذوا يصرون على أن السباحة في النافورة ممنوعة.

قالت أمي: "لا شأن لكم بذلك". شعرتُ ببعض الإحراج، وبدأت أخرج من الماء. قالت أمي: "تجاهلي هؤلاء المتزمتين!"، ولكي تثبت أنها لا تأبه بهم أو بآرائهم، قفزت بنفسها إلى النافورة وجلست بجانبنا، مما أدى إلى تدفق المياه من الجوانب.

لم تكن أمي تكترث لنظرات الناس إليها، حتى في دار العبادة. ورغم أنها كانت ترى الراهبات كئيبات، ولم تلتزم بجميع تعاليم دار العبادة بحذافيرها -إذ كانت تتعامل مع الوصايا العشر كما لو كانت مجرد اقتراحات- فقد كانت تعتبر نفسها كاثوليكية متدينة، وكانت تأخذنا إلى القداس أغلب أيام الأحد. كانت "سانت ماري" أضخم وأجمل دار عبادة رأيتها في حياتي. كان بناؤها من الطين الرملي، تتوسطه نافذة زجاجية دائرية ضخمة، وتتوجها مئذنتان شاهقتان. وكانت هناك سلالم واسعة، تغطيها الحمائم، تؤدي إلى الأبواب الرئيسية. كانت الأمهات الأخريات يرتدين أجمل ما لديهن عند الذهاب إلى القداس، يضعن طرحات الدانتيل السوداء على رءوسهن، ويحملن حقائب خضراء أو حمراء أو صفراء تتناسق مع أحذيتهن. لكن أمي كانت ترى أن الاهتمام بالمظهر أمر سطحي، وكانت تقول إن الرب يعتقد الشيء ذاته، لذا كانت تذهب إلى دار العبادة مرتدية ملابس ممزقة أو ملطخة بالطلاء. كانت تقول إن ما يهم هو روحك الداخلية، وليس مظهرك الخارجي، وكانت تعبّر عن روحها بقوة في أثناء التراتيل، تغني بصوت مرتفع لدرجة أن الناس في المقاعد أمامنا كانوا يلتفتون لينظروا إليها.

لكن القداس كان يصبح أكثر إحراجًا عندما يأتي أبي معنا. كان قد نشأ في عائلة معمدانية، لكنه لم يكن يؤمن بالدين، ولم يعتقد بوجود الرب. كان يقول إنه يؤمن بالعلم والعقل،

وليس بالخرافات والشعوذة. لكن أمي رفضت إنجاب أطفال إلا إذا وافق أبي على تربيتهم ككاثوليكيين، وحضور دار العبادة في الأعياد الدينية.

جلس أبي على مقعد دار العبادة وهو يتململ غاضبًا ويكظم غيظه، بينما واصل الكاهن حديثه عن إحياء العازر من الموت، وتقدم المُصلّون لتناول القربان المقدس. وعندما لا يستطيع الوالد تحمّل الأمر أكثر، ينطق بشيء يتحدى به الكاهن. لم يكن يقصد العداء، بل كان يصرخ برأيه بطريقة ودية. كان يقول: "يا أبتي العزيز"، وعادة ما كان الكاهن يتجاهل أبي ويحاول مواصلة عظته، لكن أبي كان يلح. كان يتحدى الكاهن حول استحالة حدوث المعجزات علميًا، وعندما يواصل الكاهن تجاهله، يغضب ويصرخ بشيء عن أبناء البابا إسكندر السادس غير الشرعيين، أو حياة البذخ التي عاشها البابا ليو العاشر، أو بيع المناصب الكنسية في عهد البابا نيكولاس الثالث، أو جرائم القتل التي ارتُكبت خلال محاكم التفتيش الإسبانية. لكن ماذا تتوقع، كما يقول، من مؤسسة يديرها رجال عزاب يرتدون الفساتين؟ عند هذه النقطة، يخبرنا المنظمون أنه يتعين علينا المغادرة.

قالت أمي: "لا تقلقوا، فالرب يفهم. إنه يعلم أن والدكم هو القدر الذي علينا حمله".

بدأت الحياة في المدينة تؤثر في أبي. قال: "أشعر بأني كالفأر في متاهة". كان يكره كل شيء في فينيكس بسبب التنظيم المبالغ فيه، من بطاقات الدوام إلى الحسابات المصرفية، وفواتير الهاتف، والعدادات، والنماذج الضريبية، والمنبهات، واجتماعات مجلس أولياء الأمور، ومندوبي الاستطلاعات الذين يطرقون الأبواب ويتطفلون على حياة الناس. كان يكره كل من يعيش في المنازل التي بها مكيف الهواء ونوافذها تكاد تكون مغلقة دائمًا، ومن يقود سيارات مكيفة إلى وظائف من التاسعة إلى الخامسة في مبانٍ مكيفة، كان يصفها بأنها ليست سوى سجون مزخرفة. مجرد رؤية هؤلاء الناس في طريقهم إلى العمل كانت تجعله يشعر بالاختناق والضيق. بدأ يشكو من أننا أصبحنا جميعًا مترفين أكثر مما ينبغي، معتمدين على وسائل الراحة، وفاقدين الاتصال بالنظام الطبيعي للعالم.

كان يفتقد البرية. كان بحاجة إلى التجول في الأراضي المفتوحة والعيش بين الحيوانات غير المروّضة. كان يقول إن وجود النسور والذئاب والثعابين حولك مفيد لروحك. قال: "هكذا يجب أن يعيش الإنسان، في تناغم مع الطبيعة، مثل الهنود، وليس بهذا الهراء المتغطرس كأننا أسياد الأرض، نحاول حكم الكوكب اللعين بأسره، نقطع الغابات ونقتل كل مخلوق لا يمكننا تحمله".

ذات يوم، سمعنا في الراديو أن امرأة في الضواحي رأت أسدًا جبليًا خلف منزلها، فاتصلت بالشرطة التي أطلقت النار على الحيوان. غضب أبي بشدة لدرجة أنه لَكَمَ الحائط بقبضته. قال: "ذلك الأسد الجبلي كان له الحق نفسه في الحياة مثل تلك العجوز الحاقدة". وأضاف: "لا يمكنك قتل شيء لمجرد أنه حيوان بري".

ظل متجهّمًا لبعض الوقت، يمتص غيظه بزجاجة مشروب، ثم قال لنا أن نركب السيارة.

سألت: "إلى أين نحن ذاهبون؟"، لم نقم بأي رحلة استكشافية منذ انتقالنا إلى فينيكس. كنت أفتقدها.

قال: "سأريكم أنه لا حيوان، مهما كان كبيرًا أو بريًا، يشكل خطرًا ما دمت تعرف ما تفعله".

ركبنا جميعًا السيارة. كان أبي يقود، ويحتسي مشروبًا آخر، ويسب تحت أنفاسه بسبب ذلك الأسد الجبلي البريء وتلك المتحذلقة من الضواحي. انعطفنا إلى حديقة الحيوانات. لم يزُر أي منا حديقة حيوانات من قبل، ولم أكن أعرف ماذا أتوقع. قالت لوري إنها تعتقد أن حدائق الحيوانات يجب أن تُحظر. أما أمي، التي كانت تحمل مورين بذراعها وكراسة الرسم تحت ذراعها الأخرى، فقد أشارت إلى أن الحيوانات استبدلت الأمان بالحرية. قالت إنه عندما تنظر إليها، تتظاهر بأنها لا ترى القضبان.

عند بوابة الدخول، اشترى أبي التذاكر، متذمرًا من سخافة دفع المال لرؤية الحيوانات، ثم قادنا عبر الممرات. كانت معظم الأقفاص مجرد مساحات ترابية محاطة بقضبان حديدية،

تجلس في زواياها غوريلات كئيبة، أو دببة مضطربة، أو قرود مشاكسة، أو غزلان قلقة. كان كثير من الأطفال يستمتعون، يضحكون ويحدقون ويرمون الفول السوداني على الحيوانات، لكن مشهد تلك الكائنات التعيسة جعل حلقي يضيق.

قال أبي: "أنا على وشك التسلل إلى هنا ليلًا وإطلاق سراح هذه المخلوقات".

قلت: "هل يمكنني المساعدة؟".

عبث بشعري وقال: "أنا وأنتِ يا عنزة الجبل، سننفذ عملية تحرير الحيوانات الخاصة بنا".

توقفنا عند جسر. أسفله، في حفرة عميقة، كانت التماسيح تستلقي تحت الشمس فوق الصخور المحيطة ببركة ماء. قال أبي: "تلك المرأة التي تسببت في مقتل الأسد الجبلي لم تفهم علم نفس الحيوانات". وأضاف: "إذا جعلتها تعرف أنك لست خائفًا، فستتركك وشأنك".

أشار إلى أكبر تمساح وأكثرها خشونة وقال: "أنا وذلك اللعين القبيح سنخوض تحدي التحديق". وقف أبي على الجسر محدقًا بالتمساح. بدا التمساح نائمًا في البداية، لكنه رمش بعينيه ثم نظر إلى أبي. استمر أبي في التحديق، عيناه ضيقتان في تحدٍّ شرس. وبعد دقيقة، ضرب التمساح ذيله، وأدار نظره بعيدًا، وانزلق إلى الماء. قال أبي: "انظر، كل ما عليك فعله هو أن توضح موقفك".

همس براين: "ربما كان سيذهب للسباحة على أي حال".

سألته: "ماذا تعني؟ ألم ترَ كيف بدا ذلك التمساح متوترًا؟ أبي جعله يفعل ذلك".

تبعنا أبي إلى عرين الأسود، لكن الأسود كانت نائمة، فقال أبي إن علينا تركها وشأنها. كان خنزير الأرض منشغلًا بابتلاع النمل كما تفعل المكانس الكهربائية، وقال أبي إنه لا يجب إزعاج الحيوانات في أثناء تناول الطعام، لذلك تجاوزناه وتوجهنا إلى قفص الفهد. كان

القفص بحجم غرفة معيشتنا تقريبًا ومحاطًا بسياج من السلاسل المعدنية. كان الفهد الوحيد يمشي ذهابًا وإيابًا، تتماوج عضلات كتفيه مع كل خطوة. وضع أبي ذراعيه متشابكتين فوق صدره وراح يراقب الفهد. قال: "إنه حيوان رائع، أسرع مخلوق يمشي على أربع على هذا الكوكب. ليس سعيدًا بوجوده في هذا القفص اللعين، لكنه تقبّل الأمر ولم يعد غاضبًا. لنرَ إن كان جائعًا".

أخذني أبي إلى كشك الطعام. أخبر السيدة التي تديره أنه يعاني حالة طبية نادرة ولا يستطيع أكل اللحم المطهو، لذا يريد شراء همبرجر نيء. قالت بلهجة ساخرة: "طبعًا، بالتأكيد". ثم أوضحت أن قوانين الحديقة تمنع بيع اللحم النيء، لأن بعض الحمقى يحاولون إطعامه للحيوانات.

تمتم أبي: "أتمنى لو أُطعم الحيوانات مؤخرتها السمينة". ثم اشترى لي كيسًا من الفشار وعدنا إلى قفص الفهد. جلس أبي القرفصاء خارج السياج، مقابل الفهد. اقترب الحيوان من القضبان، يراقب أبي بفضول. ظل أبي ينظر إليه، لكن ليس بالنظرة الحادة التي استخدمها مع التمساح. تبادل الفهد النظر مع أبي. وأخيرًا، جلس. عندها، عبر أبي السياج المتسلسل وجثا بجانب القضبان حيث كان الفهد جالسًا. بقي الفهد ثابتًا، يحدق بأبي.

رفع أبي يده اليمنى ببطء، ووضعها على السياج. نظر الفهد إلى يد أبي، دون أن يتحرك. عندها، أدخل أبي يده بين القضبان الحديدية، ووضعها على رقبة الفهد. حرك الفهد جانب وجهه نحو يد أبي، كأنه يطلب المداعبة. راح أبي يربّت عليه بحزم، بالطريقة نفسها التي يربّت بها أحدهم على كلب ضخم.

قال أبي: "الوضع تحت السيطرة". وأشار إلينا لنقترب.

زحفنا تحت السياج وجثونا حول أبي، بينما كان يربّت على الفهد. بحلول ذلك الوقت، بدأ بعض الناس بالتجمع. كان هناك رجل ينادينا لنعود خلف السياج. تجاهلناه. كنت جالسة على مقربة من الفهد، يخفق قلبي بسرعة، لكنني لم أكن خائفة، فقط متحمسة. شعرت

بأنفاسه الدافئة تلامس وجهي. نظر إليّ مباشرة، وكانت عيناه اللتان بلون الكهرمان ثابتتين، لكن يخيّم عليهما الحزن، كأنه يدرك أنه لن يرى سهول إفريقيا الشاسعة مرة أخرى أبدًا.

سألت أبي: "هل لي أن أربّت عليه من فضلك؟".

أمسك أبي بيدي، ووجهها برفق نحو جانب عنق الفهد. كان ملمسها ناعمًا، لكن به بعض الخشونة. أدار الفهد رأسه، ووضع أنفه الرطب على يدي، ثم فتح فمه، وأخرج لسانه الوردي الكبير، ولعق يدي. شهقت. فتح أبي كفي وأبعد أصابعي، فلعق الفهد راحتي، وكان لسانه دافئًا وخشنًا، كأنه ورقة صنفرة مغموسة في ماء ساخن. شعرت بقشعريرة تسري في جسمي.

قلت: "أعتقد أنه يحبني".

قال أبي: "بالطبع، كما أنه يعجبه ملح وزبد الفشار التي تضعينها على يدكِ".

كان الحشد حول القفص قد ازداد، وأمسكت امرأة مذعورة بقميصي محاولة سحبي إلى الخلف. قلت لها: "لا تقلقي، أبي يفعل أشياء كهذه طوال الوقت".

صرخت بغضب: "يجب أن يُقبض عليه!".

قال أبي: "حسنًا يا أولاد، المدنيون يثورون، علينا الفرار".

عبرنا السياج، وعندما نظرت خلفي، كان الفهد يتبعنا بمحاذاة القفص. وقبل أن نتمكن من مغادرة الحشد، اندفع رجل ضخم يرتدي زيًا أزرق داكنًا نحونا، ممسكًا بمسدسه وهراوته على حزامه، مما جعله يبدو كأنه يجري ويداه على خصره. كان يصرخ عن القوانين، وكيف أن الحمقى لقوا حتفهم بسبب تسلقهم إلى أقفاص الحيوانات، وأن علينا جميعًا المغادرة

فورًا. أمسك بكتف أبي، لكن أبي دفعه بعيدًا، واتخذ وضعية قتالية. أمسك بعض الرجال من الحشد بذراعي أبي، وتوسلت أمي إليه أن ينفذ أوامر الحارس.

أومأ أبي برأسه، ورفع يديه بإشارة تهدئة. قادنا وسط الحشد باتجاه المخرج، وهو يضحك ويهز رأسه ليخبرنا، نحن أطفاله، أن هؤلاء الحمقى لا يستحقون حتى عناء ضربهم. كنت أسمع همسات الناس من حولنا يتحدثون عن ذلك الرجل السكران المجنون وأطفاله الصغار القذرين، لكن من كان يهتم بما يظنونه؟ لم يسبق لأي منهم أن لعق فهد يده.

كان ذلك تقريبًا في الفترة التي فقد فيها أبي وظيفته. قال إنه لا يوجد ما يدعو إلى القلق، لأن فينيكس كبيرة جدًا، وتنمو بسرعة لدرجة أنه يمكنه العثور على وظيفة أخرى في موقع لم ينشروا فيه الأكاذيب عنه. لكنه فُصل من وظيفته الثانية، ثم من الثالثة، وطُرد من نقابة الكهربائيين، وبدأ شغل أعمال حرة وأشغال يومية. أما المال الذي ورثته أمي عن جدتي سميث فقد اختفى، وعدنا مرة أخرى إلى شظف العيش.

لم أعانِ الجوع قط. كان الغداء الساخن في المدرسة يكلف ربع دولار، وكنا نستطيع تحمّل هذا المبلغ غالبًا. وعندما كانت الظروف لا تسمح بذلك، وأخبر السيدة أليس، معلمة الصف الرابع، أنني نسيتُ ربع الدولار الخاص بي، كانت ترد بأن سجلاتها تُظهر أن شخصًا ما قد دفع عني بالفعل. ورغم أن الأمر بدا مصادفة غريبة للغاية، فإني لم أُرِد المجازفة بإفساد حظي السعيد بطرح كثير من الأسئلة حول هوية هذا الشخص. كنت أتناول الغداء الساخن، وأحيانًا كان ذلك الغداء هو كل ما أتناوله طوال اليوم، لكنني كنت أستطيع أن أتدبر أموري بوجبة واحدة.

ذات مساء، عندما عدتُ أنا وبراين إلى المنزل ووجدنا الثلاجة فارغة، خرجنا إلى الزقاق خلف المنزل نبحث عن زجاجات فارغة يمكن استبدالها مقابل المال. في نهاية الزقاق، كان هناك رصيف تسليم لأحد المستودعات، وفي موقف السيارات التابع له، كانت هناك حاوية قمامة خضراء ضخمة. عندما تأكدنا من عدم وجود أحد يراقب، دفعنا الغطاء، وتسلقنا، وقفزنا إلى الداخل بحثًا عن الزجاجات. كنت أخشى أن تكون ممتلئة بالقمامة المقززة. لكن

بدلًا من ذلك، وجدنا كنزًا مذهلًا: صناديق كرتونية مليئة بقطع الشكولاتة. بعضها كان متصلبًا وذا لون أبيض باهت، وبعضها الآخر مغطى بعفن أخضر غامض، لكن معظمها كان بحالة جيدة. أكلنا من الشكولاتة حتى شبعنا، ومنذ ذلك الحين، كلما كانت أمي مشغولة عن إعداد العشاء، أو كنا بلا طعام، كنا نعود إلى الحاوية لنرى إن كانت هناك دفعة جديدة من الشكولاتة بانتظارنا. وفي بعض الأحيان، كانت موجودة.

لسبب ما، لم يكن هناك أي أطفال في سن مورين في شارع نورث ثيرد. كانت صغيرة جدًا على أن تركض معي أنا وبراين، لذا كانت تقضي معظم وقتها في الركوب صعودًا وهبوطًا على الدراجة الثلاثية العجلات الحمراء التي اشتراها لها أبي، وتلعب مع أصدقائها الخياليين. جميعهم كانت لديهم أسماء، وكانت تتحدث إليهم لساعات. كانوا يضحكون معًا، ويجرون محادثات مفصلة، بل ويتجادلون أحيانًا. ذات يوم، عادت إلى المنزل وهي تبكي، وعندما سألتها عن السبب، قالت إنها تشاجرت مع "سوزي كيو"، إحدى صديقاتها الخياليات.

كانت مورين تصغر براين بخمس سنوات، وكانت أمي تقول إنه بما أنها لم يكن لديها حليف في العائلة في سنها، فهي تحتاج إلى معاملة خاصة. قررت أمي أن مورين يجب أن تلتحق بمرحلة ما قبل المدرسة، لكنها قالت إنها لا تريد أن ترتدي ابنتها الصغرى الملابس المستعملة التي كنا نرتديها. أخبرتنا أمي أنه سيتعين علينا الذهاب للسرقة من المتاجر.

سألت أمي: "أليست تلك خطيئة؟".

أجابت: "ليس تمامًا، فالرب لا يمانع أن تتلاعب بالقواعد قليلًا إذا كان لديك سبب وجيه. إنه يشبه القتل المبرر. وهذه سرقة مبررة".

كانت خطة أمي أن تأخذ مورين إلى غرفة القياس في أحد المتاجر مع ذراع ممتلئة بالفساتين الجديدة لتجربها. وعندما تخرجان، كانت ستخبر البائعة أنها لم تعجب بأي من

الفساتين. عندها، كنت أنا ولوري وبراين نثير ضجة لنشغل البائعة، بينما تخفي أمي فستانًا تحت معطف مطوي على ذراعها.

بهذه الطريقة، حصلنا على ثلاث أو أربع فساتين جميلة لمورين، لكن في إحدى المرات، عندما كنتُ أنا وبراين نتظاهر بالشجار وأمي كانت على وشك إخفاء فستان تحت معطفها، التفتت البائعة نحوها، وسألتها إن كانت تنوي شراء الفستان الذي تحمله. لم يكن أمام أمي خيار سوى دفع ثمنه. قالت أمي وهي تغادر المتجر: "أربعة عشر دولارًا لفستان طفلة! هذه سرقة على قارعة الطريق!".

أما أبي، فقد ابتكر طريقة بارعة للحصول على بعض المال الإضافي. اكتشف أنه عندما تسحب الأموال من نافذة الخدمة المصرفية الآلية في البنك، يستغرق الأمر بضع دقائق حتى تُسجَّل المعاملة في النظام. لذا، كان يفتح حسابًا مصرفيًا، وبعد أسبوع أو نحو ذلك، يسحب المال كله من داخل البنك، وكانت أمي تسحب المبلغ نفسه من نافذة الخدمة المصرفية الآلية. علقت لوري على هذا الأمر بأنه يبدو جنائيًا صريحًا. لكن أبي قد برر فعله بأن كل ما كان يفعله هو التفوق على أصحاب البنوك الجشعين الذين يستغلون الرجل العادي بفوائدهم الربوية الفاحشة.

في أول مرة أنزلنا فيها أبي أمام البنك، أوصتنا أمي قائلة: "تظاهروا بتعابير بريئة".

سألتُ: "هل سيتحتّم علينا الذهاب إلى مركز إيواء الأحداث الجانحين إذا ضُبِطنا؟".

طمأنتني أمي مؤكدةً أن الأمر برمّته قانوني تمامًا. وأردفت قائلة: "الناس يسحبون مبالغ زائدة على أرصدتهم طوال الوقت. وإذا ما انكشف أمرنا، فسوف نكتفي بدفع رسوم سحب بسيطة على المكشوف". ثمّ أوضحت أن الأمر أشبه بأخذ قرض دون كل تلك الإجراءات الورقية المعقدة. لكن بينما كنا نقترب من نافذة الصراف، بدت أمي متوترة، وضحكت بتوتر وهي تمرر إيصال السحب من خلال النافذة المضادة للرصاص. أعتقد أنها كانت تستمتع بإحساس سرقة الأغنياء.

وبعد أن ناولتنا الموظفة النقود، قادت أمي السيارة إلى مقدمة البنك. وبعد لحظات، خرج أبي بخطوات هادئة، وصعد إلى المقعد الأمامي، واستدار إلينا، وبابتسامة ماكرة تعلو وجهه، رفع حزمة من الأوراق النقدية، ومررها بين أصابعه.

كان السبب في أن أبي يواجه صعوبة في الحصول على عمل ثابت -كما كان يحاول دائمًا أن يخبرنا- هو أن نقابة الكهربائيين في فينيكس كانت فاسدة. وكان يقول إن المافيا تسيطر عليها، وتملك كل مشاريع البناء في المدينة، لذا قبل أن يجد وظيفة لائقة، كان يتحتم عليه أن يطرد الجريمة المنظمة من البلدة. وكان ذلك يتطلب، بحسب قوله، كثيرًا من الأبحاث السرية، وكان أفضل مكان لجمع المعلومات هو الحانات التي يملكها رجال العصابات. وهكذا، بدأ أبي يقضي معظم وقته في تلك الأماكن.

كانت أمي تتنهد بعينين مرفوعتين كلما تحدث أبي عن "أبحاثه"، وبدأتُ أنا أيضًا أشك في نواياه. كان يعود ثملًا إلى المنزل في نوبات غضب، فتختبئ أمي بينما نحاول نحن الأطفال تهدئته. كان يحطم النوافذ، ويكسر الأطباق والأثاث حتى ينفد غضبه، ثم ينظر إلى الدمار من حوله وإلينا نحن الأطفال الواقفين هناك. وحين يدرك ما فعله، ينكس رأسه في إنهاك وخزي، ثم ينهار على ركبتيه، ويسقط وجهه على الأرض.

بعد انهيار والدي، كنتُ أحاول ترتيب المنزل، لكن أمي كانت تمنعني دائمًا. كانت تقرأ كتبًا حول كيفية التعامل مع مدمني الشراب، وكانت هذه الكتب تُشير إلى أنهم لا يتذكرون ما فعلوه في أثناء سُكرهم، لذا فإن تنظيف المكان بعدهم يُوحي لهم بأن شيئًا لم يحدث. كانت أمي تقول: "يجب على أبيك أن يرى الفوضى التي يحدثها في حياتنا". لكن عندما كان أبي يفيق، كان يتصرف كما لو أنّ كلّ ذلك الركام لم يكن موجودًا أصلًا، ولم يكن أحدٌ ليجرؤ على مناقشة الأمر معه. أما نحن البقية، فقد كان علينا أن نعتاد تخطّي الأثاث المهشّم والزجاج المتناثر.

علّمتنا أمي كيف ننشل جيوب أبي عندما يغيب عن الوعي. لقد أصبحنا مهرةً في ذلك. ذات مرة، بعد أن سرقت ما في جيوب أبي وهو فاقدٌ الوعي، وجمعتُ حفنةً من النقود المعدنية،

حررتُ أصابعه من الزجاجة التي كانت في يده. كانت ثلاثة أرباعها فارغة. حدقتُ بالسائل العنبري. لم تكن أمي تلمس هذا الشراب أبدًا، وتساءلتُ ما الذي يجده أبي فيه فاتنًا إلى هذا الحد. فتحتُ الزجاجة واستنشقتُ. الرائحة الفظيعة آذت أنفي، لكن بعد أن استجمعت شجاعتي، أخذتُ جرعةً. كان ذا طعم كثيف مقيت، دُخاني، وحار لدرجة أنه أحرق لساني. ركضتُ إلى الحمام، وبصقتُها، ومضمضتُ فمي.

قلت لبراين: "لقد شربت رشفة من الشراب. إنه أسوأ شيء تذوقته في حياتي".

انتزع براين الزجاجة من يدي، وأفرغ محتواها في حوض المطبخ، ثم اصطحبني إلى الحظيرة، وفتح صندوقًا خشبيًا في الخلف كان مُعلّمًا بعبارة "صندوق الألعاب". كان الصندوق مُمتلئًا بزجاجات المشروبات الكحولية الفارغة. أوضح براين أنه كلما فقد والدنا وعيه، كان يأخذ الزجاجة التي كان يشرب منها، ويُفرغها، ويُخفيها في الصندوق. كان ينتظر حتى يجمع عشر أو اثنتي عشرة زجاجة، ثم ينقلها إلى حاوية قمامة على بُعد بضعة مبانٍ، لأنه كان يعلم أن رؤية والدنا للزجاجات الفارغة ستُثير غضبه الشديد.

في أوائل ديسمبر، أعلنت أمي قائلةً: "لديَّ شعور متفائل جدًا بشأن عيد الميلاد هذا". لكن لوري أشارت إلى أن الأشهر القليلة الماضية لم تكن موفقة تمامًا.

قالت أمي: "بالضبط. هذه طريقة الرب ليخبرنا بأن علينا أن نتحكم في مصايرنا بأنفسنا. فالله في عون العبد ما دام العبد في عون نفسه".

كان لديها إحساس جيد إلى درجة أنها قررت أن نحتفل بعيد الميلاد في موعده هذا العام، بدلًا من تأجيله أسبوعًا كما كنا نفعل عادةً.

كانت أمي خبيرةً ماهرةً في التّسوق من متاجر السلع المستعملة. كانت تقرأ العلامات على الملابس، وتقلب الأطباق والمزهريات لتفحص العلامات الموجودة في أسفلها. لم تكن تتردد في إخبار البائعة أن الفستان الذي يباع بخمسة وعشرين سنتًا لا يستحق سوى عشرة

سنتات، وغالبًا ما كانت تحصل عليه بهذا السعر. اصطحبتنا أمي إلى متاجر السلع المستعملة طوال الأسابيع التي سبقت عيد الميلاد، وأعطت كل واحد منا دولارًا واحدًا لإنفاقه على الهدايا. اشتريتُ مزهرية زجاجية حمراء لأمي، ومطفأة سجائر من العقيق اليماني لأبي، ومجسم سيارة لبراين، وكتابًا عن الجان للوري، ونمرًا محشوًا بأذن فضفاضة ساعدتني أمي في إعادة خياطتها لمورين.

في صبيحة عيد الميلاد، اصطحبتنا أمي إلى محطة وقود كانت تبيع أشجار عيد الميلاد. وهناك، انتقَتْ شجرة تنوب دوجلاس طويلةً، داكنة اللون، لكنها ذابلةٌ قليلًا. قالت للرجل الذي يبيع الأشجار: "هذه الشجرة المسكينة لن تُباع بحلول نهاية اليوم، وهي بحاجة إلى من يحبها". ثم عرضت عليه ثلاثة دولارات. نظر الرجل إلى الشجرة، ثم إلى أمي، ثم إلينا نحن الأطفال. كان فستاني يفتقد بعض الأزرار، وكانت الثقوب تظهر عند درزات قميص مورين. قال: "سيدتي، هذه الشجرة مُخفضة إلى دولار واحد فقط".

حملنا الشجرة إلى المنزل، وزيّناها بزخارف جدتي العتيقة: كرات زجاجية مزخرفة بألوان زاهية، وطيور زجاجية هشة، وأضواء بأنابيب طويلة مملوءة بالماء الفائر. لم أكن أستطيع الانتظار لفتح هداياي، لكن أمي أصرت على أن نحتفل بعيد الميلاد على الطريقة الكاثوليكية، فلا نفتح الهدايا إلا بعد حضور قداس منتصف الليل. كان أبي يعلم أن جميع الحانات ومتاجر الشراب ستكون مغلقة في عيد الميلاد، لذا خزن ما يكفي مسبقًا. ما كاد الصباح يهلّ حتى بادر إلى فتح عبوة الشراب الأولى قبل الفطور، ولما حان موعد قداس منتصف الليل، كان يجد صعوبةً في الوقوف على قدميه.

اقترحتُ على أمي أن تتغاضى هذه المرة عن إصرارها على ذهاب أبي إلى القداس، لكنها أوضحت أن التوجه إلى بيت الرب لإلقاء تحية سريعة أمر بالغ الأهمية في أوقات كهذه، فترنّح أبي وتأرجحت خُطاه وهو يدلف معنا إلى دار العبادة. وخلال العظة، تناول الكاهن معجزة الحمل بلا دنس والولادة العذراء.

فجأة، صرخ أبي بعبارات مسيئة.

توقف السير فجأة. كان الجميع شاخصين بأبصارهم. جوقة المرنمين كانوا قد استداروا في انسجام تام، وقد فغروا أفواههم مذهولين. حتى الكاهن أخرسه الذهول.

كان أبي يبتسم في رضا. ثم أضاف المزيد من العبارات المسيئة.

اقتادنا خدام دار العبادة إلى الخارج بوجوه متجهمة. وفي طريق العودة إلى المنزل، وضع أبي ذراعه حول كتفي ليستند إليّ. ثم جلس يشرح لي العبارات المسيئة التي تفوّه بها في دار العبادة.

لم يكن يعجبني أبي عندما يتحدث بهذه الطريقة، وحاولت الابتعاد عنه، لكنه فقط أمسك بي بإحكام أكبر.

عندما عدنا إلى المنزل، حاولنا تهدئة أبي. ناولته أمي إحدى هداياه، ولاعة سجائر نحاسية من عشرينيات القرن الماضي على شكل كلب اسكتلندي. أشعل أبي الولاعة بضع مرات، وهو يترنح ذهابًا وإيابًا، ثم رفعها إلى الضوء وأخذ يتأملها.

قال أبي: "لنُضئ عيد الميلاد هذه المرة حقًا". ثم غرز الولاعة في شجرة التنوب دوجلاس. فاشتعلت الإبر الجافة فورًا، واندلعت ألسنة اللهب بين الأغصان مصحوبة بأزيز مُحرِق. وانفجرت زينة عيد الميلاد بفعل الحرارة.

لبضع لحظات، بقينا مذهولين للغاية وغير قادرين على فعل شيء. صرخت أمي طالبة البطانيات والماء. استطعنا إخماد الحريق، لكن فقط بعد أن أسقطنا الشجرة، محطمين معظم الزخارف ومتلفين الهدايا جميعها. ظل أبي جالسًا على الأريكة طوال الوقت، يضحك ويخبر أمي أنه كان يصنع لها معروفًا، لأن أشجار العيد ليست سوى رموز وثنية للعبادة.

وبعد أن انطفأت النيران، وبقيت الشجرة المحترقة المبللة تتصاعد منها أدخنة خفيفة على الأرض، وقفنا جميعًا هناك صامتين. لم يحاول أحد أن يمسك بتلابيب أبي أو يصرخ في وجهه، أو حتى يشير إلى أنه دمر عيد الميلاد الذي قضت عائلته أسابيع في التحضير له،

العيد الذي كان من المفترض أن يكون الأفضل على الإطلاق. عندما كان يجن جنون أبي، كنا جميعًا لدينا طرقنا الخاصة في الانغلاق والانفصال عن الواقع، وهذا بالضبط ما فعلناه تلك الليلة.

في ذلك الربيع، بلغت العاشرة من عمري، لكن أعياد الميلاد لم تكن شيئًا ذا شأن في بيتنا. في بعض الأحيان، كانت أمي تضع بضع شمعات في كوب من الأيس كريم، ونغني جميعًا "عيد ميلاد سعيدًا". وأحيانًا، قد يشتري لنا أبي وأمي هدية صغيرة -كُتيّبًا مصورًا، أو زوجًا من الأحذية، أو عبوة من الملابس الداخلية- لكن في كثير من الأحيان، كانا ينسَيان أعياد ميلادنا تمامًا.

لذلك، كنت مندهشة عندما أخذني أبي إلى الفناء الخلفي في يوم ميلادي العاشر، وسألني عمّا أريده أكثر من أي شيء آخر في العالم. قال: "إنه يوم مميز، لأنه يدخلك في خانة الأرقام المزدوجة". ثم أكمل: "أنتِ تكبرين بسرعة يا عنزة الجبل! ولن يمر وقت طويل حتى تستقلّي بحياتكِ، وإذا كان هناك أي شيء يمكنني أن أفعله لكِ الآن، قبل أن تكبري وتذهبي لحالكِ، فأنا أريد أن أفعله".

كنت أعلم أن أبي لا يتحدث عن شراء هدية باهظة لي، كحصان صغير أو بيت للدمى. بل كان يسأل عما يمكنه فعله، الآن وقد أصبحتُ على أعتاب النضوج، ليجعل من سنوات طفولتي الأخيرة تلك السنوات التي طالما حلمت بها. كان هناك شيء واحد فقط أردته حقًا -شيء كنت أعلم أنه سيغير حياتنا جميعًا- لكنني كنت خائفة من أن أطلبه. فمجرد التفكير في نطق الكلمات بصوت عالٍ جعلني متوترة.

رأى أبي ترددي. جثا على ركبتيه حتى صار ينظر إليّ من أسفل. قال: "ما الأمر؟ تكلمي بحرية".

قلت: "إنه أمر كبير".

قال: "فقط تكلمي يا صغيرتي".

قلت: "أنا خائفة".

قال: "أنتِ تعلمين أنه إن كان شيئًا ممكنًا، فسأفعله من أجلك. وإن لم يكن ممكنًا، فسأموت وأنا أحاول".

رفعتُ بصري نحو الدوامات الرقيقة من الغيوم العالية في زرقة سماء أريزونا الصافية. شاخصة ببصري نحو تلك الغيوم البعيدة، وأخذتُ نفسًا عميقًا وقلتُ: "أتظن أنك تستطيع أن تتوقف عن الشرب؟".

لم يقل أبي شيئًا. كان يحدق بالفناء الإسمنتي، وعندما التفت إليّ، كانت عيناه تحملان نظرة جريح، ككلبٍ تلقى ركلة. قال: "لا بد أنكِ تشعرين بخزي شديد من والدكِ العجوز".

قلت بسرعة: "لا، ليس كذلك. فقط أعتقد أن أمي ستكون أكثر سعادة. بالإضافة إلى أننا سنوفر المال".

قال: "لستِ بحاجة إلى شرح ذلك". كان صوته بالكاد يُسمع. وقف واتجه إلى الحديقة، وجلس تحت أشجار البرتقال. تبعته وجلست بجانبه. كنت على وشك أن أمسك بيده، لكنه سبقني وقال: "إن لم يكن لديكِ مانع يا عزيزتي، أعتقد أنني أود الجلوس وحدي لبعض الوقت".

في الصباح، أخبرني أبي أنه خلال الأيام القليلة القادمة، سيعزل نفسه في غرفته. أراد منا نحن الأطفال أن نبقى بعيدين عنه، وأن نقضي اليوم كله في اللعب بالخارج. سار كل شيء على ما يرام في اليوم الأول. لكن في اليوم الثاني، عندما عدتُ من المدرسة، سمعت أنينًا رهيبًا قادمًا من غرفة النوم.

ناديت: "أبي؟"، لم يأتِ أي رد. ففتحتُ الباب.

كان أبي مربوطًا إلى السرير بالحبال والأحزمة. لم أعرف إن كان قد فعل ذلك بنفسه أم أن أمي قد ساعدته، لكنه كان يتلوى بعنف، ينتفض ويشد القيود، صارخًا: "لا!"، و"توقفوا!"، و"يا إلهي!"، كان وجهه رماديًا ويتصبب عرقًا. ناديته مجددًا، لكنه لم يرَني ولم يسمعني. ذهبت إلى المطبخ، وملأت إبريق عصير البرتقال الفارغ بالماء. جلستُ قرب باب غرفته، ممسكة بالإبريق، في حال شعر بالعطش. رأتني أمي وأخبرتني أن أذهب للعب في الخارج. أخبرتها أنني أريد مساعدة أبي. قالت: "لا يوجد شيء يمكنكِ فعله"، لكنني بقيتُ بجوار الباب على أي حال.

استمر هذيان أبي لأيام. كلما عدت من المدرسة، كنت أحضر إبريق الماء، وأتخذ مكاني بجوار الباب، وأظل هناك حتى يحين موعد النوم. كان براين وموربن يلعبان في الخارج، وبقيت لوري في الجانب البعيد من المنزل. أما أمي، فكانت ترسم في مرسمها. لم يكن أحد يتحدث كثيرًا عما كان يحدث. وفي إحدى الليالي، بينما كنا نتناول العشاء، انطلقت من غرفة أبي صرخة مرعبة. نظرت إلى أمي، فوجدتها تحرك الحساء كما لو كانت أمسية عادية، عندها فقط فقدت السيطرة على نفسي.

صرخت: "افعلي شيئًا! عليكِ أن تفعلي شيئًا لمساعدة أبي!".

قالت أمي: "والدك هو الوحيد الذي يستطيع مساعدة نفسه. وحده يعرف كيف يقاتل شياطينه".

بعد ما يقارب الأسبوع، توقف هذيان أبي، وطلب منا أن نزوره في غرفته. كان مستندًا إلى وسادة، أكثر نحافة وشحوبًا مما رأيته في حياتي. ناولته إبريق الماء. كانت يداه ترتجفان بشدة لدرجة أنه بالكاد تمكن من الإمساك به، وتقطّرت المياه على ذقنه وهو يشرب.

بعد أيام قليلة، أصبح قادرًا على المشي مجددًا، لكن لم تكن لديه شهية، وكانت يداه لا تزالان ترتجفان. أخبرتُ أمي بأنني ربما ارتكبتُ خطأً فادحًا، لكن أمي قالت إن المرء أحيانًا يجب أن يزداد توعكًا ليتحسن. خلال أيام، بدا أبي طبيعيًا تقريبًا، لكنه أصبح مترددًا،

وخجولًا بعض الشيء. كان يبتسم لنا كثيرًا، ويعصر أكتافنا، وأحيانًا يتكئ علينا ليحافظ على توازنه.

قلتُ للوري: "أتساءل كيف ستكون حياتنا الآن".

قالت: "كما كانت. لقد حاول التوقف من قبل، لكنه لم يستمر".

قلت بإصرار: "هذه المرة سيستمر".

قالت: "وكيف تعرفين ذلك؟".

قلت: "إنها هديته لي".

أمضى أبي الصيف في التعافي. كان يجلس لأيام متواصلة تحت أشجار البرتقال يقرأ. وبحلول أوائل الخريف، كان قد استعاد معظم قوته. قرر أبي الاحتفال بحياته الجديدة دون شراب، ولإبعاد نفسه عن أماكن الشرب، أعلن أن عائلة وولز ستذهب في رحلة تخييم طويلة إلى "جراند كانيون". كنا سنتجنب حراس المنتزه، ونبحث عن كهف بالقرب من النهر، نسبح ونصطاد السمك، ونطهوه على نار مكشوفة. كانت أمي ولوري سترسمان، وكنتُ أنا وأبي وبراين سنصعد المنحدرات، ونستكشف طبقات الصخور الجيولوجية في الوادي. كان يقول إن الأمر سيكون مثل الأيام الخوالي. وأخبرنا أننا نحن الأطفال لا نحتاج إلى الذهاب إلى المدرسة. وأنه وأمي يمكنهما تعليمنا أفضل من أي من هؤلاء المعلمين الحمقى. ثم التفت إليّ وقال: "وأنتِ يا عنزة الجبل، يمكنكِ جمع مجموعة صخور لم يرَ العالم مثلها من قبل!".

أحب الجميع الفكرة. بلغ الحماس بي وببراين مبلغًا جعلنا نؤدي رقصة بهيجة في الحال على أرض غرفة المعيشة. جهزنا الأغطية والطعام والزمزميات وخيط الصيد والبطانية الخزامية التي كانت مورين تأخذها معها في كل مكان، وأوراق لوري وأقلامها، وحامل رسم أمي ولوحاتها وفرشها وألوانها. وما لم يتسع له صندوق السيارة، ربطناه فوق السقف.

وأخذنا معنا أيضًا مجموعة الرماية الفاخرة الخاصة بأمي، المصنوعة من خشب الفاكهة المُطعّم، لأن أبي قال إننا قد نواجه بعض الطرائد البرية في تلك الأخاديد العميقة. ووعدني أبي أنا وبراين بأننا سنصبح محترفين في استخدام القوس والسهام مثل أطفال الهنود الحمر الحقيقيين بحلول عودتنا، هذا إن عدنا أصلًا. فمن يدري؟ ربما نقرر الاستقرار في جراند كانيون إلى الأبد.

انطلقنا في الصباح الباكر في اليوم التالي. بمجرد أن وصلنا إلى شمال فينيكس، وتجاوزنا جميع الضواحي المكونة من البيوت المتلاصقة، قلّ الزحام، وبدأ أبي يقود بشكل أسرع وأسرع. قال: "ما من متعة أسمى من متعة السفر والترحال!".

كنا الآن في قلب الصحراء، وأعمدة الهاتف تتوالى بسرعة خاطفة. صاح أبي: "هاي، يا عنزة الجبل! برأيك ما أقصى سرعة يمكنني بلوغها بهذه السيارة؟".

قلت: "أسرع من سرعة الضوء!". تسلقت إلى الأمام لأراقب عقرب السرعة، وهو يتسلق تدريجيًا. كنا نسير بسرعة تسعين ميلًا في الساعة.

قال أبي: "سترين بنفسك مؤشر السرعة، وهو ينطلق متخطيًا كل الحدود!".

رأيت ساقه تتحرك وهو يضغط على دواسة الوقود. كنا قد فتحنا النوافذ، وأوراق الخرائط، وأوراق الرسم، ورماد السجائر يتطاير من حولنا. تخطى عقرب السرعة رقم المئة، وهو آخر رقم على المقياس، واندفع إلى المساحة الفارغة بعده. بدأت السيارة تهتز، لكن أبي لم يرفع قدمه عن دواسة الوقود. غطت أمي رأسها بذراعيها، وطلبت منه أن يخفف السرعة، لكن ذلك لم يؤدِّ إلا إلى جعله يضغط على دواسة الوقود بقوة أكبر.

فجأة، انبعث صوت ارتطام أسفل السيارة. التفتُّ إلى الخلف لأتأكد من أن شيئًا مهمًا لم يسقط، فرأيت سحابة من الدخان الرمادي تتصاعد خلفنا. ثم بدأ بخار أبيض ذو رائحة معدنية يتسرب من جوانب غطاء المحرك، ويندفع عبر النوافذ. زادت الاهتزازات، ثم

أصدرت السيارة صوتًا أشبه بالسعال والطقطقة قبل أن تبدأ بالتباطؤ. وسرعان ما لم تكن السيارة تتحرك إلا بسرعة الزحف، ثم توقف المحرك تمامًا. انزلقت السيارة لبضع ياردات في صمت قبل أن تتوقف كليًا.

قالت أمي: "الآن أفسدتها تمامًا!".

نزلنا جميعًا، نحن الأطفال وأبي، ودفعنا السيارة إلى جانب الطريق، بينما كانت أمي تتولى القيادة. رفع أبي غطاء المحرك. راقبته هو وبراين، وهما يدرسان المحرك المليء بالشحوم والدخان، ويتحدثان عن أجزائه كأنهما يفهمانها جيدًا. ثم عدتُ إلى داخل السيارة، وجلست مع أمي ولوري وмورين.

نظرت إليّ لوري باشمئزاز، كأنني السبب في تعطل السيارة، وسألت: "لماذا دائمًا تشجعينه؟".

قلت: "لا تقلقي؛ أبي سيصلحها".

انتظرنا طويلًا. كنت أرى النسور تحلق في السماء البعيدة، فتذكرت ذلك الجاحد باستر. ربما كان عليّ أن أكون أكثر لطفًا معه. بجناحه المكسور وحياته التي قضاها يأكل الجيف على الطرقات، لا بد أن لديه أسبابه للامتعاض. فكثير من الحظ العاثر يمكن أن يترك أثرًا دائمًا من القسوة في روح أي مخلوق.

وأخيرًا، أغلق أبي غطاء المحرك.

سألته: "أنت قادر على إصلاحها، ألست كذلك؟".

قال: "بلى، لو كانت لديّ الأدوات المناسبة".

كان علينا تأجيل رحلتنا إلى جراند كانيون مؤقتًا. فكانت أولويتنا الآن هي العودة إلى فينيكس، حتى يتمكن أبي من العثور على الأدوات اللازمة.

سألت لوري: "وكيف سنعود؟".

كان التلويح للسيارات للحصول على توصيلة أحد الخيارات المتاحة، هذا ما ذكره أبي. لكنه استدرك قائلًا إن إيجاد سيارة تتسع لأربعة أطفال وبالغين قد يكون صعبًا بعض الشيء. وبما أننا جميعًا رياضيون وليس فينا مَن يئن أو يتذمر، فالعودة إلى المنزل سيرًا على الأقدام لن تشكل لنا عائقًا.

قالت لوري: "إنها تقريبًا ثمانون ميلًا!".

قال أبي: "بالضبط! إذا مشينا بمعدل ثلاثة أميال في الساعة، لمدة ثماني ساعات يوميًا، فسنصل خلال ثلاثة أيام!". كان علينا أن نترك كل شيء خلفنا باستثناء بطانية مورين الخزامية والزمزميات. حتى مجموعة الرماية الخاصة بأمي، التي أهداها إليها والدها، لم نتمكن من حملها. لذا، طلب أبي مني ومن براين أن نخفيها في مصرف مائي، حتى نعود لاحقًا لاستعادتها.

حمل أبي مورين بين ذراعيه، وحاول أن يرفع من معنوياتنا وهو ينادي: "هُب، اثنان، ثلاثة، أربعة!"، لكن أمي ولوري رفضتا أن تنضما إلى الإيقاع. وأخيرًا، استسلم أبي، وساد الصمت، ولم يكن يُسمع سوى صوت خطواتنا التي تطحن الرمال والحصى، والرياح التي تعصف بالصحراء. بعدما مشينا لما بدا كأنه ساعات، وصلنا إلى لوحة إعلانات لفندق كنا قد مررنا بها قبل دقيقة أو نحو ذلك من تعطل السيارة. كانت السيارات العابرة تمر مسرعة من حين لآخر، وكان أبي يمد إبهامه طلبًا للتوصيل، لكن لم تتوقف أي منها. وعند منتصف النهار تقريبًا، تباطأت سيارة بويك زرقاء كبيرة ذات مصدات كروم لامعة، ووقفت على حافة الطريق أمامنا. خفضت سيدة -ذات تصفيفة شعر مُتقنة من صالون التجميل- نافذة السيارة.

قالت: "يا لكم من مساكين!"، ثم سألت: "هل أنتم بخير؟".

سألتنا عن وجهتنا، وعندما أخبرناها أننا متجهون إلى فينيكس، عرضت علينا أن تقلّنا. كان مكيف الهواء في سيارة البويك شديد البرودة لدرجة أن القشعريرة غطت ذراعيّ وساقيّ. ناولتني المرأة أنا ولوري زجاجات كوكاكولا وسندويشات من مبرد كان موضوعًا في حيز الأقدام. قال أبي إنه ليس جائعًا.

بدأت المرأة تتحدث عن ابنتها، وكيف أنها كانت تقود على الطريق ورأتنا، وعندما وصلت إلى المنزل أخبرتها عن العائلة المسكينة التي كانت تمشي على جانب الطريق. قالت: "فأجبتها قائلة، أي أجبت ابنتي: كيف لي أن أترك هؤلاء الناس المساكين هناك؟ ثم أردفت لابنتي: لا شك في أن هؤلاء الصغار المساكين يتضورون عطشًا، يا لهم من مساكين!".

قلت: "نحن لسنا مساكين"، فقد استخدمت تلك الكلمة أكثر مما ينبغي.

قالت بسرعة: "بالطبع أنتم لستم كذلك، لم أقصد ذلك بهذا الشكل".

لكنني كنت أعرف أنها قصدت تمامًا ما قالته. عندها، ساد الصمت، ولم يتحدث أحد كثيرًا طوال بقية الرحلة. وبمجرد أن أنزلتنا، اختفى أبي. جلست أنتظره على درجات المنزل حتى وقت النوم، لكنه لم يعد إلى المنزل.

بعد ثلاثة أيام، بينما كنتُ أنا ولوري جالستين إلى بيانو جدتي العتيق ذي الطراز القائم، نحاول أن نُعلّم بعضنا العزف، سمعنا وقع خطوات ثقيلة ومتعثرة عند الباب الأمامي. استدرنا ورأينا أبي. تعثر في منضدة القهوة، وعندما حاولنا مساعدته، شتمنا واندفع نحونا، ملوحًا بقبضته. أراد أن يعرف أين كانت "تلك الأم العديمة الفائدة"، وعندما لم نخبره، استشاط غضبًا وأطاح بخزانة جدتي الخزفية، فتحطمت صحونها الفاخرة المصنوعة من البورسلين على الأرض. اندفع براين إلى الغرفة. حاول الإمساك بساق أبي، لكن أبي ركله بعيدًا.

ثم انتزع درج أدوات المائدة، وقذف الشوك والملاعق والسكاكين في أنحاء الغرفة، ثم التقط أحد الكراسي، وحطمه على طاولة جدتي. فصاح قائلًا: "يا روز ماري، أين أنتِ أيتها الخبيثة؟"، ثم أردف سائلًا بنبرة غاضبة: "أين تختبئ تلك الخبيثة؟".

وجد أمي في الحمام، جاثمة في حوض الاستحمام. وعندما حاولت الفرار، أمسك بفستانها، فبدأت تتخبط. تشابكا بالأيدي حتى وصلا إلى غرفة الطعام، حيث دفعها أرضًا. مدت يدها إلى كومة أدوات المطبخ التي كان قد رماها سابقًا، وأمسكت بسكين اللحم، ولوحت به في الهواء أمامه.

ابتسم وقال: "مبارزة بالسكاكين، هاه؟ حسنًا، إن كان هذا ما تريدينه". التقط سكينًا هو الآخر، وقذفه من يد إلى يد. ثم أسقط السكين من يد أمي، وأسقط سكينه، ثم انقض عليها، وثبتها على الأرض. كنا نحن الأطفال نضرب ظهره، ونتوسل إليه أن يتوقف، لكنه تجاهلنا. وأخيرًا، أمسك بمعصمي أمي، وثبتهما فوق رأسها.

قال: "روز ماري، أنتِ امرأة عظيمة بحق". قالت أمي إنه مجرد سكير كريه وعفن. قال أبي: "نعم، لكنكِ تحبين هذا السكير العجوز، ألستِ كذلك؟". في البداية، قالت أمي لا، لا تحبه. لكنه ظل يكرر عليها السؤال مرة بعد مرة، وعندما قالت أخيرًا نعم، اختفى كل ما في الغرفة من توتر، كأن الشجار لم يكن موجودًا أصلًا. بدأ أبي يضحك ويعانق أمي، التي كانت تضحك وتعانقه. كأنهما كانا في قمة السعادة، لأنهما لم يقتلا بعضهما، كأنهما وقعا في الحب من جديد.

لم أشعر بأي رغبة في الاحتفال. بعد كل ما مر به، لم أستطِع أن أصدق أن أبي قد عاد إلى الشراب مرة أخرى.

ومع عودة أبي إلى الشرب، وعدم وجود أي دخل، بدأت أمي تتحدث عن فكرة الانتقال شرقًا، إلى فرجينيا الغربية، حيث يعيش والدا أبي. ربما يمكنهما أن يساعدا في ضبطه. وإن لم يكن ذلك، فقد يساعداننا ماديًا، كما فعلت جدتي سميث بين الحين والآخر.

قالت لنا إننا سنحب العيش في فرجينيا الغربية. سنعيش في الغابة، بين الجبال، برفقة السناجب والسمور. وسنلتقي جدتنا وجدنا وولز، اللذين كانا من سكان التلال الأصليين.

جعلت أمي فكرة العيش في فرجينيا الغربية تبدو كأنها مغامرة أخرى رائعة، وسرعان ما اقتنعنا جميعًا بالرحيل. لكن أبي كره الفكرة، ورفض أن يساعدها، لذا بدأت تخطط وحدها. وبما أننا لم نستعد السيارة -أو أيًا من أغراضنا- من رحلتنا الفاشلة إلى جراند كانيون، كان أول ما تحتاج إليه أمي هو وسيلة نقل. قالت أمي إن تدابير الرب غامضة، ويا لها من مصادفة أنها ورثت أرضًا في تكساس عندما توفيت جدتي! انتظرت أمي حتى وصل إليها شيك ببضع مئات من الدولارات من الشركة التي كانت تستأجر حقوق التنقيب، ثم ذهبت لشراء سيارة مستعملة.

كانت هناك محطة إذاعية محلية تبث برنامجًا ترويجيًا مرة واحدة في الأسبوع من أحد معارض السيارات، الذي كنا نمر به في طريقنا إلى المدرسة. في كل يوم أربعاء، كان مقدمو البرامج الإذاعية وبائعو السيارات المستعملة يتفاخرون عبر الأثير بالصفقات المذهلة والأسعار الزهيدة، ولإثبات وجهة نظرهم، كانوا يعلنون عن عرض "بنك الحصالة المميز": وهي سيارة تُعرض بسعر أقل من ألف دولار تُباع لأول متصل محظوظ. وضعت أمي عرض "بنك الحصالة المميز" نصب عينيها. لم تكن لتجازف بفقدان فرصة أن تكون المتصلة الأولى، لذا ذهبت إلى المعرض ومعها المال، وجلست في المكتب بينما كنا نحن الأطفال ننتظر على مقعد في الحديقة على الجانب الآخر من الشارع، نستمع إلى البث الإذاعي عبر راديو ترانزستور.

كان عرض "بنك الحصالة المميز" يوم الأربعاء عبارة عن سيارة أولدزموبيل طراز عام 1956، التي اشترتها أمي بمئتي دولار فقط. استمعنا إليها وهي تطل عبر الأثير لتخبر جمهور الراديو بأنها خبيرة في اقتناص الصفقات الرابحة.

لم يُسمح لأمي بتجربة قيادة سيارة العرض قبل شرائها. كانت السيارة تتعثر وتتوقف عدة مرات في طريق العودة إلى المنزل. لم يكن بوسعنا أن نعرف إن كان ذلك بسبب قيادة أمي

أم لأننا اشترينا خردة.

لم نكن نحن الأطفال متحمسين للغاية لفكرة قيادة أمي بنا عبر البلاد. لم تكن لديها رخصة قيادة سارية، ناهيك بأنها كانت دائمًا سائقة مروعة. إذا شرب والدي أكثر من اللازم، كانت تتولى القيادة، لكن يبدو أن قيادة السيارات لا تسير على نحو صحيح مع أمي. ذات مرة، كنا نقود السيارة في وسط مدينة فينيكس، ولم تتمكن من جعل المكابح تعمل، فطلبت مني ومن براين أن نخرج رأسينا من النوافذ ونصرخ: "لا توجد مكابح! لا توجد مكابح!"، بينما كنا نندفع عبر التقاطعات، وأمي تبحث عن شيء طري نسبيًا لتصطدم به. وانتهى بنا الأمر بالارتطام بحاوية قمامة خلف سوبر ماركت، ثم عدنا إلى المنزل سيرًا على الأقدام.

علقت والدتي قائلة بأسلوب ساخر إن كل من ينتقد طريقة قيادتها يمكنه المساعدة في إنجاز المهمة. وتابعت قائلة إنه بعد أن أصبحت لدينا سيارة، يمكننا الانطلاق في صباح اليوم التالي. كان ذلك في شهر أكتوبر، وكنا قد أمضينا أكثر من شهر بقليل في المدرسة، لكن أمي قالت إنه ليس لدينا وقت لنخبر معلمينا بأننا سننسحب أو لنحصل على سجلاتنا المدرسية. وعندما نلتحق بالمدرسة في فرجينيا الغربية، ستشهد بنفسها على مستوانا الدراسي، وبمجرد أن يسمعنا معلمونا الجدد نقرأ، سيدركون أننا جميعًا موهوبون.

كان أبي لا يزال يرفض المجيء معنا. قال إنه عندما نرحل، سيذهب إلى الصحراء بمفرده ليصبح منقبًا عن الذهب. سألتُ أمي إذا كنا سنبيع المنزل الذي في شارع نورث ثيرد أو نؤجره. قالت: "لا هذا ولا ذاك. إنه منزلي". وأوضحت أنه من الجيد أن تمتلك شيئًا للمرة الأولى، ولا ترى أي سبب لبيعه لمجرد أننا سننتقل. كما أنها لا تريد تأجيره، لأنها لا تحب أن يعيش أي شخص آخر في منزلها. سنتركه كما هو. ولمنع اللصوص والمخربين من اقتحامه، سننشر الغسيل على الحبل ونترك الأطباق المتسخة في الحوض. وأشارت أمي إلى أنه بهذه الطريقة سيعتقد المتسللون المحتملون أن المنزل مأهول، وسيُخدعون ليظنوا أن سكانه قد يعودون في أي لحظة.

في صباح اليوم التالي، بدأنا بحزم الأمتعة بينما كان أبي جالسًا في غرفة المعيشة عابسًا. ربطنا لوازم الرسم الخاصة بأمي على سقف السيارة وملأنا الصندوق الخلفي بالأواني والمقالي والأغطية. كانت أمي قد اشترت لكل واحد منا معطفًا مُدفئًا من متجر خيري حتى يكون لدينا شيء نرتديه في فرجينيا الغربية، حيث يصبح الجو باردًا جدًا في الشتاء حتى إن الثلج يتساقط. قالت أمي إنه يُسمح لنا بأخذ شيء واحد فقط، تمامًا كما فعلنا عندما غادرنا "باتل ماونتن". أردت أن أحضر دراجتي، لكن أمي قالت إنها كبيرة جدًا، لذلك أحضرت بلورة الجيود الخاصة بي.

ركضت إلى الفناء الخلفي وودعت أشجار البرتقال، ثم خرجت إلى الأمام لأستقل سيارة الأولدزموبيل. اضطررت إلى الزحف فوق براين لأجلس في المنتصف، لأن لوري وبراين كانا قد استوليا بالفعل على المقعدين اللذين بجوار النوافذ. كانت مورين في المقعد الأمامي مع أمي، التي كانت قد شغّلت المحرك وبدأت تتدرب على تغيير التروس. كان أبي لا يزال في المنزل، لذا انحنيت فوق براين وصحت بأعلى صوتي. ظهر أبي في المدخل، عاقدًا ذراعيه على صدره.

صرخت: "أبي، من فضلك، تعالَ، نحن بحاجة إليك!".

وانضم إليّ كل من لوري وبراين ومورين وأمي، وهتفنا معًا: "نحن بحاجة إليك! أنت رب الأسرة! أنت الأب! هيا بنا!".

وقف أبي هناك ينظر إلينا لدقيقة. ثم قذف السيجارة التي كان يدخنها إلى الفناء، وأغلق باب المنزل الأمامي، وسار بخطوات متثاقلة نحو السيارة، ثم قال لأمي أن تنزاح جانبًا، لأنه هو من سيقود.

3

ويلش

في باتل ماونتن، كنا قد توقفنا عن تسمية سيارات عائلة وولز، لأنها أصبحت خردة لدرجة أن أبي قال إنها لا تستحق أسماء. قالت أمي إنه عندما كانت تكبر في المزرعة، لم يسموا المواشي، لأنهم كانوا يعرفون أنهم سيضطرون إلى ذبحها. وإذا لم نطلق اسمًا على السيارة، فلن نشعر بالحزن حين نضطر إلى التخلي عنها.

لذا، لم يكن "عرض الحصالة" سوى الأولدزموبيل، ولم نذكر الاسم قط بأي نوع من العاطفة أو حتى الشفقة. كانت تلك الأولدزموبيل خردة منذ اللحظة التي اشتريناها فيها. في المرة الأولى التي تعطلت فيها، كنا على بُعد ساعة من حدود نيو مكسيكو. أدخل أبي رأسه تحت الغطاء، وعبث بالمحرك، وأعاد تشغيلها، لكنها تعطلت مرة أخرى بعد بضع ساعات. أعاد أبي تشغيلها. قال: "الأمر أشبه بالعرج"، لكنها لم تسِر أبدًا أسرع من خمسة عشر أو عشرين ميلًا في الساعة. أيضًا، كان الغطاء يستمر في الانفتاح، لذا اضطررنا إلى ربطه بحبل.

تجنبنا نقاط الدفع بالمرور عبر الطرق الجانبية ذات المسارين، حيث كنا غالبًا نقود متسببين في طابور طويل من السائقين خلفنا، يطلقون أبواقهم بحَنَق. عندما تعطلت إحدى نوافذ الأولدزموبيل في أوكلاهوما، ولم تعد تُغلق، ألصقنا أكياس القمامة عليها. كنا ننام في السيارة كل ليلة، وعندما وصلنا متأخرًا إلى موسكوجي، وتوقفنا في شارع وسط المدينة الخالية، استيقظنا لنجد مجموعة من الناس يحيطون بالسيارة، أطفالًا صغارًا يضغطون أنوفهم على النوافذ، وكبارًا يلوّحون برءوسهم ويبتسمون.

لوّحت أمي للحشد وقالت: "تعلم أنك في قاع الفقر، حين يضحك منك سكان أوكلاهوما". بنافذتنا المغطاة بأكياس القمامة، وغطاء المحرك المربوط بالحبال، ولوازم الرسم المثبتة

على السقف، كنا قد تفوقنا على أهل أوكلاهوما أنفسهم في البؤس. جعلتها الفكرة تنفجر ضاحكة.

أما أنا، فغطيت رأسي ببطانية، ورفضت الخروج حتى تجاوزنا حدود موسكوجي. قالت أمي: "الحياة مسرحية مليئة بالمآسي والكوميديا. عليكِ أن تتعلمي الاستمتاع بالمشاهد الكوميدية أكثر قليلًا".

استغرقت منا الرحلة شهرًا لعبور البلاد. كان الأمر كما لو كنا نسافر في عربة أمريكية قديمة من أيام المستوطنين الأوائل. كانت أمي تصر أيضًا على أن نقوم بجولات جانبية لمشاهدة المعالم وتوسيع آفاقنا. قادتنا إلى ألامو -قالت: "دايفي كروكيت وجيمس بويي نالا ما يستحقانه، فقد سرقا هذه الأرض من المكسيكيين"- ثم إلى بيومونت، حيث كانت منصات النفط تتحرك كطيور عملاقة. وفي لويزيانا، جعلتنا أمي نصعد إلى سقف السيارة لنجمع حفنات من الطحالب الإسبانية المتدلية من فروع الأشجار.

بعد عبورنا الميسيسيبي، انعطفنا شمالًا نحو كنتاكي، ثم شرقًا. لم يكن المشهد كصحراء الغرب المسطحة المحاطة بالجبال الوعرة، بل كانت الأرض ترتفع وتنخفض كملاءة تهتز عندما تهزها لتنفض عنها الغبار. أخيرًا، ولجنا إلى منطقة التلال، نتسلق أعلى وأعمق داخل جبال الأبلاش، نتوقف بين الحين والآخر لنسمح للأولدزموبيل بالتقاط أنفاسها على الطرق الجبلية الوعرة والمتعرجة. كنا في شهر نوفمبر. تحولت الأوراق إلى اللون البني، وكانت تتساقط من الأشجار، وضباب بارد يلف سفوح الجبال. كانت هناك جداول وأنهار في كل مكان، بدلًا من قنوات الري التي اعتدنا رؤيتها في الغرب، وكان الهواء مختلفًا، هادئًا جدًا، وكثيفًا وثقيلًا، ومظلمًا بطريقة ما. لسبب ما، جعلنا ذلك جميعًا نصبح أكثر صمتًا.

عند الغروب، اقتربنا من منعطف حيث كانت لافتات مكتوبة باليد مُعلنة عن تصليح السيارات وتسليم الفحم، وقد ثُبّتت على جذوع الأشجار على طول الطريق. التففنا حول المنعطف لنجد أنفسنا بوادٍ عميق. كانت المنازل الخشبية والمباني الطوبية الصغيرة مصطفة على طول النهر، وصاعدة في كتل غير متساوية على جانبي التل.

قالت أمي: "مرحبًا بكم في ويلش!".

قدنا السيارة في شوارع ضيقة مظلمة، ثم توقفنا أمام منزل كبير متهالك. كان على الجانب المنخفض من الشارع، وكان علينا النزول عبر درجات من السلالم للوصول إليه. بينما كنا نصعد الدرج الخشبي المتهالك إلى الشرفة، فُتح الباب. كانت المرأة التي وقفت في المدخل ضخمة، ببشرة شاحبة وثلاثة أذقان تقريبًا. دبابيس شعر منعقدة حول شعرها الرمادي الفاتح المتدلي، وسيجارة تتدلى من فمها.

قالت: "أهلًا بك في البيت يا بني"، وعانقت أبي عناقًا طويلًا. ثم استدارت نحو أمي وقالت: "لطيف منكِ أن تجعليني أرى أحفادي قبل أن أموت". لم يكن في صوتها أثر للابتسام.

دون أن تُخرج السيجارة من فمها، منحت كلًا منا عناقًا سريعًا جامدًا متيبسًا. كان خدها لزجًا من العرق.

قلت: "سُررت بلقائكِ يا جدتي".

قالت بغضب: "لا تناديني جدة".

قال الرجل الذي ظهر بجانبها: "إنها تمقت هذه الكلمة، لأنها تجعلها تبدو كأنها عجوز". بدا هشًا، بشعر أبيض قصير منتصب كالأشواك. كان صوته متمتمًا لدرجة أنني بالكاد فهمته. لم أكن أعرف إن كان ذلك بسبب لهجته أم لأنه لم يكن يرتدي طقم أسنانه. قال: "اسمي تيد، لكن يمكنكِ مناداتي بالجد. لا يزعجني كوني جدًا".

خلف الجد كان يقف رجل ذو وجه مُحمرّ وشعر أحمر كثيف يظهر من تحت قبعة بيسبول تحمل شعار Maytag. كان يرتدي معطفًا بنقوش مربعة حمراء وسوداء، دون أن يرتدي قميصًا تحته. ظل يكرر مرارًا أنه عمّنا ستانلي، ولم يكف عن معانقتي وتقبيلي بحماس بالغ، كما لو كنت شخصًا عزيزًا عليه لم يرَه منذ مدة طويلة. كانت رائحة الشراب تفوح من فمه، وعند حديثه، كانت لثته الوردية الخالية من الأسنان ظاهرة.

حدقت بإرما وستانلي والجد، أبحث عن أي قسمة من قسَمات الوجه تذكرني بأبي، لكنني لم أجد شيئًا. فكرت في أن هذا أحد مقالب أبي. لا بد أنه طلب من أغرب أشخاص في البلدة أن يدّعوا أنهم عائلته. بعد لحظات، سيبدأ بالضحك، ويخبرنا بمكان والديه الحقيقيين، وسنذهب إليهما، وستكون هناك امرأة مبتسمة ذات شعر معطر في استقبالنا، تطعمنا أطباقًا ساخنة من العصيدة. نظرت إلى أبي. لم يكن مبتسمًا، وكان يواصل شد جلد عنقه كما لو كان يشعر بالحكة.

دخلنا المنزل برفقة إرما وستانلي والجد. كان الجو باردًا في الداخل، وكانت رائحة العفن والسجائر والملابس المتسخة تفوح في الأجواء. تجمعنا حول موقد فحم حديدي كبير في وسط غرفة المعيشة ومددنا أيدينا لتدفئتها. أخرجت إرما زجاجة شراب من جيب ثوبها المنزلي، وبدت على والدي السعادة للمرة الأولى منذ مغادرتنا فينيكس.

قادتنا إرما إلى المطبخ، حيث كانت تعد العشاء. كان هناك مصباح متدلٍ من السقف، ينشر ضوءًا قاسيًا على الجدران الصفراء المكسوة بطبقة رقيقة من الشحوم. أدخلت إرما مقبضًا فولاذيًا منحنيًا في قرص حديدي أعلى موقد قديم يعمل بالفحم، ورفعته، وبيدها الأخرى أمسكت مدمة من الحائط، وبدأت تحرك الفحم البرتقالي المتوهج في الداخل. حركت قدرًا ممتلئًا بالفاصولياء الخضراء المطبوخة بدهن اللحم، وألقت فيها حفنة كبيرة من الملح. ثم وضعت صينية بسكويت بيلسبري على طاولة المطبخ، وسكبت طبقًا من الفاصولياء لكل واحد منا نحن الأطفال.

كانت الفاصولياء مطهوة لدرجة أنها تفتتت فور أن غرزت شوكتي فيها، ومالحة جدًا حتى إنني بالكاد استطعت أن أبتلعها. أغلقت أنفي بأصابعي، كما علمتنا أمي حين يتعين علينا ابتلاع شيء قد فسد قليلًا. رأتني إرما وضربت يدي بعيدًا. قالت: "المتسولون لا يملكون رفاهية الاختيار".

قالت إرما إن هناك ثلاث غرف نوم في الطابق العلوي، لكن لم يطأها أحد منذ عشر سنوات، لأن ألواح الأرضية الخشبية قد تعفنت تمامًا. تطوع العم ستانلي ليمنحنا غرفته في الطابق

السفلي، وينام على سرير قابل للطي في الردهة خلال إقامتنا هناك. قال أبي: "لن نبقى سوى بضعة أيام، حتى نجد مكانًا خاصًا بنا".

بعد العشاء، نزلنا -أمي ونحن الأطفال- إلى الطابق السفلي. كانت الغرفة كبيرة وشديدة الرطوبة، بجدران من الطوب الإسمنتي وأرضية مغطاة بمشمع أخضر. كان هناك موقد فحمي آخر، وسرير، وأريكة قابلة للطي يمكن أن تنام عليها أمي وأبي، وخزانة أدراج مطلية بلون أحمر ناري. كانت تحتوي على مئات من مجلات القصص المصورة البالية - Little Lulu، وRichie Rich، وBeetle Bailey، وArchie and Jughead- التي جمعها العم ستانلي على مر السنين. تحت الخزانة، كانت هناك أباريق ممتلئة بمشروب حقيقي.

تسلقنا، نحن الأطفال، إلى سرير ستانلي. لتوفير المساحة، استلقيت أنا ولوري برأسينا عند أحد الطرفين، بينما استلقى براين ومورين عند الطرف الآخر. كانت قدما براين في وجهي، فأمسكت كاحليه وبدأت أعض أصابع قدميه. ضحك وركلني، ثم بدأ يعض أصابع قدميّ، مما جعلني أنفجر ضاحكة. سمعنا صوت طنك طنك طنك قويًا قادمًا من الأعلى.

سألت لوري: "ما هذا؟".

قال براين: "ربما الصراصير هنا أكبر من تلك التي في فينكس". ضحكنا جميعًا، ثم تكرر الصوت طنك طنك طنك مرة أخرى. ذهبت أمي إلى الأعلى للتحقق، ثم عادت وأوضحت أن إرما كانت تضرب الأرض بمقبض المكنسة لتخبرنا أننا نُحدث ضجيجًا كبيرًا. قالت أمي: "طلبت منكم ألا تضحكوا في منزلها. الأمر يزعجها".

قلت: "لا أظن أن إرما تحبنا كثيرًا".

قالت أمي: "إنها مجرد امرأة مسنة قد مرت بحياة صعبة".

قالت لوري: "كلهم غريبو الأطوار بطريقة ما".

قالت أمي: "سنتكيّف".

فكرتُ: "أو ننتقل إلى مكان آخر".

في صباح اليوم التالي، وكان يوم الأحد، عندما استيقظنا، كان العم ستانلي متكئًا على الثلاجة، محدقًا بتركيز بالمذياع. كان يصدر أصواتًا غريبة، ليست مجرد تشويش، بل مزيجًا من الصراخ والعويل. قال العم ستانلي: "هذه لغة لا يستطيع فهمها سوى من صنعها".

ثم بدأ الواعظ يتحدث بلغة إنجليزية فعلية، أو شيء قريب منها. كانت له لكنة ريفية ثقيلة جعلت من الصعب فهمه، كأنها لغة غريبة بحد ذاتها. راح يطلب من كل أولئك الصالحين الذين استفادوا من هذه القناة الروحية أن يرسلوا تبرعاتهم. دخل أبي إلى المطبخ واستمع قليلًا، ثم قال: "إنه نوع من الممارسات الروحية المروّعة التي دفعتني إلى الابتعاد عن كل ذلك".

لاحقًا في ذلك اليوم، ركبنا الأولدزموبيل، وأخذتنا أمي وأبي في جولة حول البلدة. كانت ويلش محاطة بجبال شديدة الانحدار من جميع الجهات، لدرجة أنك تشعر كأنك تنظر إلى الأعلى من قاع وعاء عميق. قال أبي إن التلال المحيطة بويلش كانت شديدة الانحدار بحيث يصعب استصلاحها للزراعة. لا يمكن تربية قطيع من الأغنام أو الأبقار، ولا حتى زراعة محاصيل لا تكفي إلا لحاجة عائلتك. ولهذا، ظلت هذه المنطقة نائية حتى مطلع القرن الماضي، حينما شق البارونات الناهبون من الشمال سكة حديد إلى المنطقة، وجلبوا عمالة رخيصة لاستخراج حقول الفحم الهائلة المدفونة في جوف الأرض.

توقفنا تحت جسر للسكك الحديدية، وخرجنا من السيارة لنلقي نظرة على النهر الذي يتدفق عبر البلدة. كان يتحرك ببطء، بالكاد يشكل مُوَيجات على سطحه. قال أبي إن هذا النهر يُدعى "تَج" Tug. قلت: "ربما يمكننا الذهاب للصيد والسباحة في الصيف". هزّ أبي رأسه بالنفي. وأوضح أن البلدة لا تملك نظام صرف صحي، مما يعني أن كل ما يُغسل في

المراحيض يتدفق مباشرة إلى نهر "تَج". وأحيانًا، عندما يفيض النهر، ترتفع مياهه لتصل إلى قمم الأشجار. أشار أبي إلى الأوراق المبللة العالقة بين الأغصان على ضفاف النهر. وقال إن نهر "تَج" يحتوي على أعلى نسبة من بكتيريا الفضلات البشرية مقارنة بأي نهر آخر في أمريكا الشمالية.

سألت: "ما معنى فضلات؟".

أعاد أبي النظر إلى النهر ثم قال: "البراز".

قادنا أبي في جولة عبر الطريق الرئيسي للبلدة. كان ضيقًا، تصطف على جانبيه مبانٍ قديمة من الطوب متراصة بشكل متقارب. كانت المتاجر واللافتات والأرصفة والسيارات كلها مغطاة بطبقة من غبار الفحم الأسود، مما منح البلدة مظهرًا أحادي اللون، كأنها صورة قديمة ملوّنة يدويًا. كانت ويلش رثّة وبالية، لكن كان واضحًا أنها كانت يومًا ما مكانًا واعدًا. على تلّ قريب، كان هناك مبنى محكمة عريق من الحجر الجيري، تتوسطه ساعة برج كبيرة. وفي الجهة المقابلة، كان هناك بنك عريق بنوافذ مقوسة وباب من الحديد المطاوع.

وكان من الواضح أيضًا أن سكان ويلش لا يزالون يحاولون التمسك ببعض الفخر بمكانهم. عند الإشارة الضوئية الوحيدة في البلدة، كانت هناك لافتة تعلن بفخر أن ويلش هي مقر مقاطعة ماكدويل، وأنه لسنوات طويلة، كانت هذه المقاطعة أكبر منتج للفحم في العالم مقارنة بأي بقعة أخرى. وبجانبها، لافتة أخرى تزعم أن ويلش تمتلك أكبر موقف لسيارات في الهواء الطلق في أمريكا الشمالية.

لكن الإعلانات المرسومة على واجهات المباني، مثل إعلان مطعم "تيك توك" وسينما "بوكاهونتاس"، كانت باهتة إلى حد يصعب قراءتها. قال أبي إن الأوقات العصيبة ضربت البلدة في الخمسينيات، واستمرت في التفاقم. وأوضح أن الرئيس جون إف. كينيدي جاء إلى ويلش بعد انتخابه بفترة قصيرة، ووزع شخصيًا أولى قسائم الطعام في البلاد هنا في

شارع ماكدويل، ليبرهن للأمريكيين العاديين أن الفقر المدقع موجود في بلادهم، رغم أنه قد يكون من الصعب عليهم تصديقه.

قال أبي إن الطريق الذي يمر عبر ويلش لا يؤدي إلا إلى أعماق الجبال الرطبة الموحشة، ثم إلى بلدات مناجم أخرى تلفظ أنفاسها الأخيرة. لم يكن الغرباء يمرون عبر ويلش هذه الأيام، إلا إذا جاءوا لجلب مزيد من البؤس، أي تسريح العمال، أو إغلاق منجم، أو حجز منزل، أو التنافس على وظيفة نادرة. لم يكن سكان البلدة يرحبون بالغرباء كثيرًا.

كانت الشوارع صامتة ومهجورة أغلب الوقت في ذلك الصباح، لكن بين الحين والآخر، كنا نمرّ بامرأة تضع لفائف الشعر، أو مجموعة رجال يرتدون قمصانًا عليها شعارات لزيوت المحركات، متسكعين عند مداخل المحلات. حاولت أن أنظر إليهم، أن أبتسم لهم وأومئ برأسي، مفسرة أننا لا نحمل أي نوايا سيئة، لكن لم يردّ عليّ أحد، ولم يبادلوني النظرات حتى. ومع ذلك، بمجرد أن تجاوزناهم، شعرت بأن الأعين تلاحقنا ونحن نواصل السير في الشارع.

قبل خمسة عشر عامًا، أحضر أبي أمي إلى ويلش في زيارة قصيرة بعد زواجهما مباشرة. قالت أمي: "يا إلهي! يبدو أن الأمور قد تدهورت قليلًا منذ آخر مرة كنا فيها هنا".

أطلق أبي ضحكة قصيرة ساخرة. نظر إلى أمي كأنه على وشك أن يقول: "أما قلت لكِ؟"، لكنه بدلًا من ذلك، اكتفى بهزّ رأسه.

فجأة، ابتسمت أمي ابتسامة عريضة وقالت: "أراهن أنه لا يوجد أي فنان آخر يعيش في ويلش. لن أواجه أي منافسة. قد تنطلق مسيرتي الفنية فعلًا هنا".

في صباح اليوم التالي، أخذتنا أمي -أنا وبراين- إلى مدرسة ويلش الابتدائية، الواقعة على أطراف البلدة. دخلت إلى مكتب المدير بثقة، ونحن خلفها، وأبلغته أنه سيكون محظوظًا بتسجيل اثنين من أذكى وأكثر الأطفال إبداعًا في أمريكا في مدرسته.

نظر المدير إلى أمي من فوق نظارته ذات الإطار الأسود، لكنه ظل جالسًا خلف مكتبه. شرحت له أمي أننا غادرنا فينيكس على عجل، كما تعلم، وهذه الأمور قد تحدث عادة، ولسوء الحظ، وسط كل هذا الاضطراب، نسيت أن تحزم أشياء مثل سجلاتنا المدرسية وشهادات ميلادنا.

قالت بابتسامة: "لكن يمكنك أن تأخذ كلمتي، فجانيت وبراين عبقريان، بل موهوبان".

نظر المدير إلينا -أنا وبراين- بتلك الملابس الصحراوية الرقيقة وشعرنا غير المغسول. ارتسمت على وجهه ملامح الشك وعدم الرضا. ركّز نظره عليّ، دفع نظارته إلى أعلى أنفه، وقال شيئًا بدا كأنه: "ثما ضب سعة؟".

قلت: "عذرًا؟".

قال بصوت أعلى: "ثما ضب سعة!".

كنت مشوشة تمامًا. نظرت إلى أمي.

قالت أمي للمدير: "إنها لا تفهم لهجتك". قطّب المدير حاجبيه. التفتت أمي إليّ وقالت: "إنه يسألكِ: كم حاصل ثمانية ضرب سبعة؟".

صرخت: "آه! ستة وخمسون! ثمانية في سبعة تساوي ستة وخمسين!"، وبدأت أسرد مزيدًا من المعادلات الرياضية.

نظر إليّ المدير بوجه خالٍ من التعبير.

قالت أمي: "إنه لا يستطيع تمييز ما تقولينه. حاولي أن تتحدثي ببطء".

طرح المدير عليّ مزيدًا من الأسئلة التي لم أفهمها. ومع ترجمة أمي، قدمت إجابات لم يتمكن من استيعابها. ثم سأل براين بعض الأسئلة، ولم يتمكنا من فهم بعضهما أيضًا.

قرر المدير أنني وبراين نعاني من بطء في التعلم، وأن لدينا صعوبات في النطق تجعل الآخرين يجدون صعوبة في فهمنا. فوضعنا في فصول خاصة بالطلاب الذين يعانون من صعوبات التعلم.

قالت أمي، بينما كنت أنا وبراين في طريقنا إلى المدرسة في اليوم التالي: "عليكما أن تبهرا الجميع بذكائكما. لا تخافا أن تكونا أذكى منهم".

كانت السماء قد أمطرت بالليلة السابقة لأول يوم لنا في المدرسة. وعندما نزلنا من الحافلة في مدرسة ويلش الابتدائية، تبللت أحذيتنا بالمياه التي ملأت الأخاديد المُوحِلة التي خلفتها إطارات الحافلات المدرسية. بحثت بعينيّ عن معدات اللعب في الساحة، ظننت أنه يمكنني كسب بعض الأصدقاء الجدد من خلال مهاراتي القوية في كرة الحبل التي تعلمتها في مدرسة إيمرسون، لكنني لم أرَ أي أرجوحة أو سلم حديدي أو حتى أعمدة كرة الحبل.

كان الجو باردًا منذ وصولنا إلى ويلش. في اليوم السابق، أخرجت أمي لنا المعاطف التي اشترتها من متجر التوفير في فينيكس. وعندما لاحظت أن كل أزرار معطفي قد تمزقت، قالت إن هذا العيب البسيط لا يساوي شيئًا أمام حقيقة أن المعطف مستورد من فرنسا ومصنوع من صوف الخراف النقي بنسبة مئة بالمئة. بينما كنا ننتظر جرس الاصطفاف، وقفت مع براين عند طرف الساحة، وعقدت ذراعيّ على صدري لأحكم إغلاق معطفي. كان بقية الأطفال يحدقون بنا، يهمسون في ما بينهم، لكنهم أيضًا أبقوا مسافة بيننا وبينهم، كأنهم لم يقرروا بعد إذا كنا مفترسين أم فرائس. كنت أعتقد أن ولاية فرجينيا الغربية كلها تعجّ بالمزارعين البيض، لذا فوجئت بوجود عدد كبير من الأطفال السود. رأيت فتاة سوداء طويلة ذات فكّ قوي وعينين لوزيتين تبتسم لي. أومأت برأسي وابتسمت لها، لكنني أدركت فجأة أن في ابتسامتها شيئًا خبيثًا. عقدت ذراعيّ بقوة أكبر على صدري.

كنت في الصف الخامس، لذا كان يومي الدراسي مقسمًا إلى حصص، ولكل مادة معلم وصف دراسي مختلف. في الحصة الأولى، كانت لدينا مادة تاريخ فرجينيا الغربية. كان التاريخ من موادي المفضلة. كنت متحفزة لرفع يدي بمجرد أن يطرح المعلم سؤالًا أعرف

إجابته، لكنه وقف أمام الفصل بجانب خريطة لفرجينيا الغربية، محدد عليها جميع المقاطعات الخمس والخمسين، وقضى الدرس بأكمله يشير إلى المقاطعات، ويسأل الطلاب عن أسمائها. في الحصة الثانية، قضينا الساعة في مشاهدة تسجيل لمباراة كرة قدم لعبها فريق مدرسة ويلش الثانوية قبل أيام. لم يقدمني أي من هذين المعلمين إلى الصف. كانا، مثل بقية الأطفال، غير متأكدين تمامًا من كيفية التعامل مع الغريب.

ثم جاءت حصتي التالية: الإنجليزية، للطلاب الذين يعانون من صعوبات التعلم. بدأت الآنسة كاباروسي حديثها بإخبار الفصل بأنه قد يفاجئهم أن يعرفوا أن هناك بعض الأشخاص في هذا العالم يعتقدون أنهم أفضل من غيرهم. قالت: "إنهم مقتنعون بأنهم مميزون جدًا لدرجة أنهم لا يحتاجون إلى اتباع القواعد التي يجب على الآخرين اتباعها"، ثم أضافت: "مثل تقديم سجلاتهم المدرسية عند التسجيل في مدرسة جديدة". ثم نظرت إليّ، ورفعت حاجبيها بطريقة ذات مغزى. وسألت الفصل: "من يعتقد أن هذا غير عادل؟".

رفع الأطفال جميعهم أيديهم باستثنائي.

قالت الآنسة كاباروسي: "أرى أن الطالبة الجديدة لا توافقنا الرأي". ثم أضافت: "ربما تودين أن تشرحي لنا سبب ذلك؟".

كنت أجلس في الصف قبل الأخير. استدار الطلاب الذين أمامي لينظروا إليّ. قررت أن أبهرهم بالإجابة التي تعلمتها من لعبة "إرجو". فقلت: "المعلومات غير كافية للوصول إلى استنتاج".

قالت الآنسة كاباروسي: "حقًا؟". ثم تابعت: "هل هذه هي الطريقة التي يتحدثون بها في مدينة كبيرة مثل فينيكس؟". نطقتها بتهكم: "فيييييـنيكس". ثم استدارت نحو الفصل، وقالت بصوت عالٍ ساخر: "المعلومات غير كافية للوصول إلى استنتاج".

ضحك الفصل بقوة.

شعرت بشيء حاد مؤلم بين كتفيّ، فاستدرت. كانت الفتاة الطويلة ذات العينين اللوزيتين تجلس خلفي، وهي ترفع القلم الحاد الذي طعنتني به في ظهري. ابتسمت الابتسامة الخبيثة نفسها التي رأيتها منها في ساحة اللعب.

بحثت عن براين في الكافيتيريا في أثناء الغداء، لكن طلاب الصف الرابع كانوا على جدول مختلف، لذا جلست وحدي، وأخذت قضمة من الشطيرة التي أعدّتها لي إرما ذلك الصباح. كانت بلا طعم ودهنية. فتحت شريحتي خبز "وندر" لأرى ما بداخلهما. كان هناك مسحة رقيقة من الدهن، هذا فقط. لا لحم، لا جبن، ولا حتى شريحة مخلل. ومع ذلك، مضغت ببطء، متأملة آثار أسناني في الخبز، لأؤجل قدر الإمكان اللحظة التي سأضطر فيها إلى مغادرة الكافيتيريا والتوجه إلى ساحة اللعب. عندما كنت آخر طالبة متبقية في الكافيتيريا، قال لي عامل النظافة، الذي كان يضع الكراسي فوق الطاولات استعدادًا لمسح الأرضية، إنه حان وقت المغادرة.

في الخارج، كان الضباب الخفيف يعلق في الهواء الساكن. جمعت طرفي معطفي المصنوع من صوف الحمل. بمجرد أن رأتني ثلاث فتيات سوداوات، تقودهن الفتاة ذات العينين اللوزيتين، بدأن يقتربن مني. تبعتهن بعض الفتيات الأخريات. في غضون لحظات، وجدت نفسي محاطة بهن.

قالت الفتاة الطويلة: "أنتِ تظنين أنكِ أفضل منا؟".

قلت: "لا، أعتقد أننا جميعًا متساوون".

قالت: "أنتِ تظنين أنكِ جيدة مثلي؟". وجهت لكمة نحوي. وعندما لم أرفع يدي للدفاع عن نفسي، وظللت ممسكة بمعطفي بإحكام، أدركت أنه لا يحتوي على أزرار. صاحت: "هذه الفتاة ليست لديها أزرار في معطفها!". بدا أن ذلك منحها الإذن الذي كانت تبحث عنه. دفعتني في صدري، فسقطت إلى الخلف. حاولت النهوض، لكن الفتيات الثلاث بدأن بركلي. تدحرجت مبتعدة إلى داخل بركة ماء، وأنا أصرخ طالبة منهن التوقف، وأضرب الأقدام

التي كانت تنهال عليّ من كل اتجاه. كانت بقية الفتيات قد شكّلن دائرة حولنا، فلم يكن أي من المعلمين قادرًا على رؤية ما يحدث. لم يكن هناك شيء يوقفهن حتى ينتهين تمامًا.

عندما عدنا جميعًا إلى المنزل بعد الظهر، كانت أمي وأبي متشوقين لسماع تفاصيل يومنا الأول.

قلت: "كان جيدًا". لم أرغب في إخبار أمي بالحقيقة. لم أكن في مزاج يسمح لي بسماع إحدى محاضراتها عن قوة التفكير الإيجابي.

قالت: "أرأيتِ؟ قلتُ لكِ إنكِ ستنسجمين بسهولة".

تجاهل براين أسئلة أمي وأبي، ولم تكن لوري تريد التحدث عن يومها على الإطلاق.

سألتها لاحقًا: "كيف كان الأطفال الآخرون؟".

قالت: "لا بأس"، لكنها أدارت وجهها بعيدًا، وانتهت المحادثة عند هذا الحد.

استمر التنمر يوميًا لأسابيع. كانت الفتاة الطويلة، واسمها دينيشيا هيويت، تراقبني بابتسامتها الخبيثة بينما كنا جميعًا ننتظر على ساحة الأسفلت قبل بدء الحصص. خلال الغداء، كنت أتناول شطائر الدهن ببطء شديد، لكن عاجلًا أم آجلًا، كان عامل النظافة يبدأ برفع الكراسي على الطاولات. كنت أخرج محاوِلة أن أُبقي رأسي مرفوعًا، فتُحيطني دينيشيا وعصابتها، ويبدأ الأمر من جديد.

في أثناء القتال، كنّ ينعتنني بالفقيرة، والقبيحة، والقذرة، وكان من الصعب أن أجادلهن في ذلك. لم يكن لديّ سوى ثلاث فساتين، كلها مستعملة أو من متجر خيري، مما يعني أنني كنت أضطر إلى ارتداء اثنين منهما مرتين في الأسبوع. كانت ملابسي قد تهالكت بسبب الغسيل المتكرر لدرجة أن خيوطها بدأت تتفكك. كما كنا دومًا متسخين. ليس ذلك النوع من القذارة الجافة التي عشناها في الصحراء، بل قذارة دهنية، مغلفة بطبقة من الغبار

الزيتي المنبعث من موقد الفحم. كانت إرما تسمح لنا بحمام واحد في الأسبوع، في أربع بوصات فقط من الماء الذي يُسخَّن على موقد المطبخ، وكان علينا جميعًا أن نستخدم الماء نفسه.

فكرت في الحديث عن هذا الشجار مع أبي، لكنني لم أرغب في أن أبدو متذمرة. إلى جانب ذلك، نادرًا ما كان يقظًا منذ وصولنا إلى ويلش، وكنت أخشى، إذا أخبرته، أن يحضر إلى المدرسة وهو ثمل وتزداد الأمور سوءًا.

حاولت التحدث مع أمي، لكنني لم أستطِع أن أخبرها عن الضرب، إذ كنت أخشى، إذا فعلت، أن تتدخل ولن تجلب سوى مزيد من المتاعب. أخبرتها فقط أن ثلاث فتيات من السود يضايقنني، لأننا فقراء جدًا. قالت لي إنه ينبغي لي أن أخبرهن أنه لا عيب في الفقر، وأن أبراهام لينكولن، أعظم رئيس عرفته هذه البلاد، جاء من أسرة ذات فقر مدقع. وأضافت أنه ينبغي لي أن أقول لهن إن مارتن لوثر كينج الابن كان سيشعر بالخجل من تصرفاتهن. ورغم أنني كنت أعلم أن هذه الحجج المثالية لن تجدي نفعًا، فقد جربتها على أي حال -"مارتن لوثر كينج كان سيشعر بالخجل!"- لكن ذلك جعل الفتيات الثلاث ينفجرن ضاحكات، ويدفعنني إلى الأرض.

في الليل، كنت أستلقي في سرير ستانلي بجانب لوري وبراين ومورين، وأضع خططًا للانتقام. تخيلت نفسي مثل أبي في أيامه بسلاح الجو، وأنا أهزمهن جميعًا بضربة واحدة. بعد المدرسة، كنت أخرج إلى كومة الحطب التي بجوار القبو، وأتمرن على الضربات القاضية والركلات الطائرة، بينما أطلق بعض الشتائم القوية. لكنني لم أتوقف عن التفكير في دينيشيا، في محاولة لفهمها. كنت آمل لفترة أن أصبح صديقتها. لقد رأيتها تبتسم مرات عديدة بابتسامة دافئة حقيقية، وكانت تحول وجهها تمامًا. بابتسامة كهذه، لا بد أن فيها بعض الخير، لكنني لم أستطع معرفة كيف أجعلها تبتسم لي.

بعد حوالي شهر من التحاقي بالمدرسة، كنت أصعد درجات تؤدي إلى حديقة على قمة التل، عندما سمعت نباحًا منخفضًا وغاضبًا آتيًا من الجانب الآخر لنصب تذكاري للحرب

العالمية الأولى. ركضت إلى أعلى الدرجات، فرأيت كلبًا هائجًا ضخمًا محاصرًا طفلًا أسود صغيرًا لا يتجاوز الخامسة أو السادسة من عمره، دافعًا إياه إلى زاوية النصب التذكاري. كان الطفل يركل الكلب محاولًا إبعاده، بينما كان الكلب ينبح ويهاجمه. كان الطفل يحدق نحو خط الأشجار على الجانب الآخر من الحديقة، وكنت أرى أنه كان يحسب فرصته في الركض إليها.

صرخت: "لا تركض!".

رفع الطفل رأسه لينظر إليّ، وكذلك فعل الكلب، وفي تلك اللحظة، انطلق الطفل في محاولة يائسة نحو الأشجار. قفز الكلب خلفه وهو ينبح، ثم لحق به، وبدأ يعض سرواله.

هناك كلاب مسعورة، وكلاب برية، وكلاب قاتلة، وأي منها كانت ستنقض عليك، ولن تتركك حتى تموت أنت أو هي، لكنني كنت أعلم أن هذا الكلب لم يكن شريرًا حقًا. لم يكن يعضّ الطفل، بل كان يستمتع بتخويفه، يزمجر ويسحب سرواله، دون أن يؤذيه فعليًا. لم يكن سوى كلب ضال تعرض لكثير من الضرب، وكان سعيدًا أخيرًا لأنه وجد من يهابه.

التقطت عصا وركضت نحوهما. صرخت في الكلب: "ابتعد من هنا!"، وعندما رفعت العصا، أطلق أنينًا وانسحب متسللًا.

لم تخترق أسنان الكلب جلد الصبي، لكنه كان يرتجف كما لو أنه أصيب بالشلل. عرضت عليه أن أصطحبه إلى منزله، وفي نهاية المطاف، حملته على ظهري. كان وزنه خفيفًا كالريشة، ولم يخرج منه سوى بضع كلمات مقتضبة بصوت بالكاد يُسمع: "هناك فوق"، "من هذا الاتجاه".

كانت المنازل في الحي قديمة، لكنها مطلية حديثًا، بعضها بألوان زاهية مثل البنفسجي أو الأخضر الزمردي. همس الصبي عندما وصلنا إلى منزل بشبابيك زرقاء: "هذا هو". كان

المنزل أنيقًا، وساحته مرتبة، لكنه كان صغيرًا جدًا، حتى إن الأقزام كان بإمكانهم العيش فيه. عندما وضعت الطفل أرضًا، ركض مسرعًا نحو الباب واختفى بداخله.

استدرت لأغادر، فرأيت دينيشيا هيويت واقفة على شرفة المنزل المقابل، تنظر إليّ بفضول.

في اليوم التالي، عندما خرجت إلى ساحة المدرسة بعد الغداء، بدأت الفتيات بملاحقتي كالمعتاد، لكن دينيشيا بقيت متأخرة. من دون قائدتهن، فقدت الأخريات دافعهن، وتوقفن قبل أن يصلن إليّ. بعد أسبوع، طلبت مني دينيشيا مساعدتها في واجب اللغة الإنجليزية. لم تقُل لي أبدًا إنها آسفة لمضايقتها لي، ولم تذكر الأمر حتى، لكنها شكرتني على إيصال جارها الصغير إلى المنزل تلك الليلة. أدركت أن طلبها للمساعدة كان بمثابة أقرب شيء إلى الاعتذار يمكن أن أحصل عليه. بما أن إرما كانت قد أوضحت موقفها تجاه السود، لم أدعُ دينيشيا إلى منزلنا لإنجاز واجبها، بل اقترحت أن أذهب إلى منزلها يوم السبت القادم.

في ذلك اليوم، كنت أغادر المنزل في الوقت ذاته الذي كان عمي ستانلي يخرج فيه. لم تكن لديه القدرة على تعلم القيادة، لذا كان أحد زملائه في متجر الأجهزة، حيث يعمل، يأتي لاصطحابه. قال ستانلي: "هل تريدين توصيلة أيضًا؟". وعندما أخبرته إلى أين أنا ذاهبة، قطّب وجهه وقال: "ذلك المكان مليء بالزنوج. لماذا تذهبين إلى هناك؟".

لم يرغب ستانلي أن يوصلني صديقه، لذا سِرت على قدمي. عندما عدت إلى المنزل في وقت لاحق من بعد الظهر، كان فارغًا باستثناء إرما، التي لم تطأ قدماها الخارج قط. كانت واقفة في المطبخ، تحرك قدرًا من الفاصولياء الخضراء، بينما ترتشف من زجاجة الشراب التي تحتفظ بها في جيبها.

قالت: "إذًا، كيف كان حال زنوجفيل؟".

لطالما كانت إرما تثرثر عن "الزنوج". كان منزلها هي وجدي في شارع كورت، على أطراف الحي الأسود. كان يزعجها أن السود بدءوا ينتقلون إلى ذلك الجزء من البلدة، وكانت دائمًا تقول إنهم السبب في انحدار مستوى ويلش. عندما تكون جالسًا في غرفة المعيشة، حيث كانت إرما تُبقي الستائر مسدلة دائمًا، كان بإمكانك سماع مجموعات من السود، وهم يسيرون في الطريق إلى وسط البلدة، يتحدثون ويضحكون. كانت إرما تهمس دائمًا: "الزنوج الملاعين". قالت ذات مرة: "السبب في أنني لم أخرج من هذا المنزل منذ خمسة عشر عامًا هو أنني لا أريد أن أرى زنجيًا، ولا أن يراني زنجي". كان أبي وأمي قد حرّما علينا استخدام تلك الكلمة. قالا إنها أسوأ من أي كلمة بذيئة. لكن بما أن إرما كانت جدتي، فلم أكن أعقب عندما تستخدمها.

واصلت إرما تحريك الفاصولياء. قالت: "إذا واصلتِ على هذا المنوال، فسيظن الناس أنكِ من أنصار الزنوج".

ثم رمقتني بنظرة جادة، كما لو أنها كانت تلقنني درسًا مهمًا في الحياة عليّ أن أفكر فيه وأستوعبه جيدًا. فتحت غطاء زجاجتها، وأخذت جرعة طويلة متأملة.

وبينما كنت أشاهدها تشرب، شعرت بضغط يتصاعد في صدري، وكان عليّ أن أطلقه. قلت: "من المفترض ألّا تستخدمي هذه الكلمة".

حملقت إرما من الدهشة.

تابعت: "أمي تقول إنهم مثلنا تمامًا، باستثناء أن بشرتهم فقط مختلفة عنا".

حدقت بي إرما بغضب. ظننت أنها ستصفعني، لكنها بدلًا من ذلك قالت: "يا لكِ من حمقاء منكرة للجميل! لن تأكلي من طعامي هذه الليلة. أحضري جسمكِ العديم الفائدة هذا إلى القبو".

عندما سمعت لوري أنني وبّخت إرما، احتضنتني. لكن أمي لم تكن سعيدة. قالت أمي: "قد لا نتفق مع كل آراء إرما، لكن علينا أن نتذكر أننا ضيوف في منزلها، فعلينا أن نُحسن التصرف".

لم يكن هذا يبدو كأنه كلام أمي. هي وأبي كانا يهاجمان أي شخص لم يرُقهما، أو لم يحترماه، سواء كان من مديري شركة ستاندرد أويل، أم جي إدجار هوفر، أم المتغطرسين، أم العنصريين. لطالما شجعانا على التعبير عن آرائنا بصراحة. والآن، علينا أن نعض على ألسنتنا. ونتوقف عن محاولة إبداء رأينا، لكنها كانت محقة؛ إرما كانت ستطردنا خارج المنزل. أدركت أن مواقف مثل هذه هي التي تجعل الناس منافقين.

قلت لأمي: "أنا أكره إرما".

قالت أمي: "يجب أن تُظهري لها بعض التعاطف". ثم أوضحت أن والدي إرما ماتا عندما كانت صغيرة، وأنها رُحِّلت من أحد منازل الأقارب إلى آخر، حيث كانوا يعاملونها كخادمة. كانت ذكريات طفولتها تتلخص في غسل الملابس على لوح الغسيل، حتى تنزف مفاصل أصابعها. أفضل شيء فعله لها جدي عند زواجهما هو شراء غسالة كهربائية، لكنها فقدت كل ما تبقى لها من فرحة منذ زمن طويل.

قالت أمي: "إرما لا تستطيع التخلي عن بؤسها. هذا كل ما تعرفه". ثم أضافت أنه لا ينبغي للمرء أن يكره أي شخص، حتى أسوأ أعدائه. قالت: "كل شخص لديه شيء جيد بداخله. عليكِ أن تجدي الصفة التي تشفع له وتحببه من أجلها".

قلت: "أوه، حقًا؟ وماذا عن هتلر؟ ما الصفة التي تشفع له؟".

قالت أمي دون تردد: "هتلر كان يحب الكلاب".

في أواخر الشتاء، قرر أبي وأمي قيادة الأولدزموبيل عائدين إلى فينيكس. قالا إنهما سيذهبان لاستعادة دراجاتنا وجميع الأغراض الأخرى التي اضطررنا إلى تركها خلفنا، وأخذ

نسخ من سجلاتنا المدرسية، ومحاولة إنقاذ قوس أمي الخشبي الفاكهي الذي سقط في القناة المائية على الطريق المؤدي إلى جراند كانيون. كنا، نحن الأطفال، سنبقى في ويلش. بما أن لوري كانت الأكبر سنًا، أعلن أبي وأمي أنها المسئولة. لكننا بالطبع كنا جميعًا خاضعين لأوامر إرما.

غادرا في صباح أحد الأيام خلال فترة ذوبان الثلوج. كان بإمكاني أن أرى من احمرار وجنتي أمي أنها كانت متحمسة لفكرة المغامرة. كان أبي أيضًا يتوق بوضوح إلى مغادرة ويلش. لم يحصل على عمل، وكنا نعتمد على إرما في كل شيء. اقترحت لوري أن يعمل أبي في المناجم، لكنه قال إن المناجم تسيطر عليها النقابات، والنقابات تسيطر عليها المافيا، والمافيا قد وضعته في القائمة السوداء بسبب تحقيقه في فساد نقابة الكهربائيين عندما كنا في فينيكس. عاد إلى فينيكس لسبب آخر، وهو جمع أبحاثه حول الفساد، لأن الطريقة الوحيدة التي تمكنه من الحصول على عمل في المناجم كانت أن يساعد في إصلاح اتحاد عمال المناجم في أمريكا.

تمنيت لو نذهب جميعًا معه. كنت أريد العودة إلى فينيكس، أجلس تحت أشجار البرتقال خلف منزلنا المصنوع من الطوب اللَّبِن، وأقود دراجتي إلى المكتبة، وأتناول الموز المجاني في المدرسة التي كان المعلمون فيها يرونني ذكية. كنت أريد أن أشعر بحرارة شمس الصحراء على وجهي، وأستنشق هواءها الجاف، وأتسلق الجبال الصخرية الشاهقة بينما يقودنا أبي في واحدة من رحلاته الطويلة التي كان يسميها "بعثات المسح الجيولوجي".

سألت إن كنا نستطيع الذهاب جميعًا، لكن أبي قال إنه وأمي سيقومان برحلة سريعة، عمل بحت، وأننا كأطفال لن نجلب إلا المتاعب. علاوة على ذلك، لا يمكنه أن يأخذنا من المدرسة في منتصف العام. أشرت إلى أنه لم يكن يكترث لهذا الأمر من قبل. قال إن "ويلش" ليست كالأماكن الأخرى التي عشنا فيها، فهناك قوانين يجب الالتزام بها، والناس لا يتقبلون تجاوزها بسهولة.

قال براين وهو يراقب أمي وأبي يغادران: "هل تظنين أنهما سيعودان؟".

قلت: "بالطبع"، رغم أنني كنت أتساءل عن الأمر ذاته. في الفترة الأخيرة، بدا أننا أصبحنا عبئًا أكثر مما كنا عليه سابقًا. لوري أصبحت مراهقة بالفعل، وبعد بضع سنوات سنصبح أنا وبراين كذلك. لم يعد بإمكانهما إلقاؤنا في مؤخرة شاحنة "يو-هول" أو وضعنا في صناديق كرتونية كي ننام فيها.

بدأت أنا وبراين بالجري خلف السيارة الأولدزموبيل، فاستدارت أمي ولوحت لنا، وأخرج أبي يده من النافذة مودعًا. تبعناهما حتى نهاية شارع كورت، حيث زادا من سرعتهما ثم انعطفا عند الزاوية. قلت لنفسي إن عليَّ أن أومن بعودتهما، لأنني إن لم أومن بذلك، فقد لا يعودان. وقد يتركاننا إلى الأبد.

بعد رحيل أمي وأبي، ازدادت "إرما" تجهّمًا وحدّة. كانت إن لم يعجبها تعبير وجوهنا، تضربنا على رءوسنا بملعقة التقديم. ذات مرة، أخرجت صورة مؤطرة لوالدها وأخبرتنا أنه كان الشخص الوحيد الذي أحبها في حياتها. تحدثت طويلًا عن معاناتها كيتيمة في رعاية أعمامها وعماتها الذين لم يعاملوها بنصف اللطف الذي تعاملنا به.

بعد نحو أسبوع من رحيل أمي وأبي، كنا نحن الأطفال نجلس جميعًا في غرفة المعيشة الخاصة بإرما نشاهد التلفاز. كان "ستانلي" نائمًا عند الردهة. إرما، التي كانت تشرب منذ الصباح الباكر، أخبرت براين أن سرواله يحتاج إلى إصلاح. بدأ يخلعه، لكنها قالت إنها لا تريد أن يركض في المنزل بملابسه الداخلية، أو يلف حوله منشفة كأنه يرتدي فستانًا. سيكون من الأسهل عليها إصلاحه وهو لا يزال يرتديه. أمرته بأن يتبعها إلى غرفة جدي، حيث تحتفظ بعدة الخياطة.

بعد لحظات من مغادرتهما، سمعتُ براين يعترض بصوت خافت. دخلتُ غرفة نوم الجد فرأيتُ إرما جاثيةً أمام براين، وهي تحاول الاعتداء عليه جسديًا، تمسك به بعنف وتصدر تمتمات غير مفهومة، وتطلب منه البقاء ثابتًا. كان براين يضع يديه بين ساقيه في محاولة يائسة للدفاع عن نفسه، ودموعه تنهمر على خديه.

صرخت: "إرما، ابتعدي عنه!".

التفتت إليّ إرما وهي ما زالت على ركبتيها، وحدقت بي بغضب قائلة: "أيتها اللعينة الصغيرة!".

سمعت لوري الضجة، وركضت إلى الغرفة. قلت لها: "إرما تلمس براين بطريقة لا تنبغي لها!". قالت إرما إنها كانت فقط تصلح له درزه الداخلي، وإنها ليست مضطرة إلى الدفاع عن نفسها أمام أكاذيب "لعينة صغيرة".

قلت: "أنا أعلم ما رأيته، إنها منحرفة!".

مدّت إرما يدها لتصفعني، لكن لوري أمسكت بيدها، وقالت بصوت هادئ، هو نفسه الذي كانت تستخدمه عندما كان والداي يفقدان السيطرة في أثناء شجارهما: قالت لوري: "فلنهدأ جميعًا. اهدءوا جميعًا".

انتزعت إرما يدها من قبضة لوري، وصفعتها بقوة جعلت نظارتها تطير عبر الغرفة. ردّت لوري، التي كانت قد بلغت الثالثة عشرة، بصفعة مماثلة. ضربتها إرما مرة أخرى، لكن هذه المرة سددت لوري لكمة إلى فكها. ثم انقضّت كل منهما على الأخرى، تتصارعان وتتشابكان وتشدّ كل منهما شعر الأخرى، بينما أنا وبراين نهتف مشجعين لوري، حتى استيقظ العم ستانلي، وترنّح إلى داخل الغرفة ليفصل بينهما.

بعد ذلك، نُفينا إلى القبو. كان يوجد باب في القبو يؤدي مباشرة إلى الخارج، لذلك لم نصعد إلى الطابق العلوي أبدًا. لم يُسمح لنا حتى باستخدام حمام إرما، مما يعني أننا إما ننتظر حتى نصل إلى المدرسة، أو نخرج إلى الخارج بعد حلول الظلام. كان العم ستانلي أحيانًا يهرّب لنا بعض الفاصولياء المسلوقة، لكنه كان يخشى أن تظن إرما أنه يقف في صفّنا، فتغضب منه أيضًا.

في الأسبوع التالي، ضربت العاصفة البلدة. انخفضت درجة الحرارة، وهطل قدمٌ من الثلج على "ويلش". لم تسمح لنا إرما باستخدام الفحم -قالت إننا لا نعرف كيفية تشغيل الموقد، وسنتسبب في إحراق المنزل- وكان البرد في القبو قارسًا إلى حدّ جعلنا، أنا ولوري وبراين وموريِن، ممتنين لأننا كنا نتشارك سريرًا واحدًا. بمجرد عودتنا من المدرسة، كنا نتسلل تحت الأغطية بملابسنا، وننجز فروضنا هناك.

كنا في الفراش عندما عادت أمي وأبي. لم نسمع صوت السيارة وهي تتوقف، بل سمعنا باب المنزل يُفتح في الطابق العلوي، ثم أصوات أمي وأبي، ثم بدأت إرما تسرد شكواها المطولة ضدنا. تلا ذلك صوت خطوات أبي الثقيلة، وهو يهبط الدرج نحو القبو، غاضبًا منا جميعًا، غاضبًا مني لأنني وبّخت إرما، وأطلقت اتهامات جامحة، وغاضبًا من لوري أكثر، لأنها تجرأت على ضرب جدتها، ومن براين لأنه كان "جبانًا" وتسبب في كل ذلك منذ البداية. كنت أظن أن أبي سيتفهّم الأمر بمجرد أن يسمع ما حدث، فحاولت أن أشرح.

لكنه صاح: "لا يهمني ما حدث!".

قلت: "لكننا كنا ندافع عن أنفسنا فقط".

قال: "براين رجل، يمكنه أن يتحمل الأمر". ثم أردف: "لا أريد سماع كلمة أخرى عن هذا. هل تفهمين؟". كان يهز رأسه، لكن بجنون، كأنه يحاول منع صوتي من الوصول إليه. لم يكن حتى ينظر إليّ.

بعدما عاد أبي إلى الطابق العلوي ليغرق في خمر إرما، كنا جميعًا في الفراش عندما عضّ براين إصبع قدمي محاولًا إضحاكي، لكنني ركلته بعيدًا. بقينا ممددين في الظلام الصامت.

قلت: "كان أبي غريبًا حقًا"، لأن أحدنا كان عليه أن يقول هذا.

قالت لوري: "ستكونين غريبة أيضًا لو كانت إرما أمك".

سألت: "هل تعتقدون أنها فعلت شيئًا لأبي، مثلما فعلت مع براين؟".

لم ينطق أحد بكلمة.

كان الأمر مقززًا ومخيفًا حتى للتفكير فيه، لكنه قد يفسر الكثير. لماذا غادر أبي المنزل بمجرد أن سنحت له الفرصة. لماذا يشرب كثيرًا ولماذا يغضب بتلك الطريقة. لماذا لم يكن يريد زيارة "ويلش" عندما كنا أصغر سنًا. لماذا رفض في البداية المجيء إلى "فرجينيا الغربية" معنا، ولم يتغلب على تردده إلا في اللحظة الأخيرة، وقفز إلى السيارة. لماذا كان يهز رأسه بتلك القوة، كأنه يريد أن يضع يديه على أذنيه، عندما حاولت أن أخبره بما كانت تفعله إرما ببراين.

قالت لوري: "لا تفكري في أشياء كهذه. ستصيبكِ بالجنون".

وهكذا، دفعت الفكرة بعيدًا عن ذهني.

أخبرنا أبي وأمي كيف وصلا إلى فينيكس ليكتشفا أن حيلة أمي بنشر الغسيل على حبل الغسيل لم تكن كافية لمنع اللصوص من اقتحام المنزل. فقد نُهِب منزلنا الكائن بشارع نورث ثيرد بالكامل. كل شيء تقريبًا كان قد اختفى، بما في ذلك، دراجاتنا بالطبع.
استأجرت أمي وأبي مقطورة لنقل ما تبقى من ممتلكاتنا القليلة -قالت أمي إن هؤلاء اللصوص الحمقى قد غفلوا عن بعض الأشياء الجيدة، مثل سروال الجدة سميث الخاص بركوب الخيل منذ الثلاثينيات، الذي كان ذا جودة عالية- لكن محرك الأولدزموبيل تعطل تمامًا في ناشفيل، فاضطرا إلى التخلي عنها إلى جانب المقطورة وسروال الجدة سميث، ثم استقلا الحافلة لبقية الطريق إلى ويلش.

اعتقدت أنه بمجرد عودة أمي وأبي، سيتمكنان من التصالح مع إرما. لكنها قالت إنها لا تستطيع مسامحتنا نحن الأطفال، ولم تعد تريدنا في منزلها، حتى لو بقينا في القبو، والتزمنا الصمت كالفئران في دار العبادة. قال أبي: "لقد نُفينا. هذا هو المصطلح المناسب".

قالت لوري: "هذا المكان ليس جنة عدن".

كنت أكثر انزعاجًا بشأن الدراجة مما كنت بشأن نفي إرما لنا. سألت أمي: "لماذا لا نعود فحسب إلى فينيكس؟".

قالت: "لقد كنا هناك بالفعل. وهناك كل أنواع الفرص هنا التي لم نكتشفها بعد".

انطلقت أمي وأبي للبحث عن مكان جديد لنعيش فيه. كان أرخص إيجار في ويلش شقة فوق مطعم على شارع ماكدويل، تتكلف حوالي خمسة وسبعين دولارًا شهريًا، وهو ما كان خارج إمكانياتنا. كما أن أمي وأبي أرادا مساحة خارجية تكون ملكًا لنا، لذا قررا الشراء. ولأننا لم يكن لدينا مال لدفع مقدم ولا دخل ثابت، كانت خياراتنا محدودة للغاية، لكن خلال يومين أخبرانا أنهما وجدا منزلًا يمكننا تحمل تكلفته. قالت أمي: "ليس فخمًا تمامًا، لذا سيكون هناك كثير من التقارب العائلي. وهو يتمتع بطابع ريفي".

سألت لوري: "إلى أي درجة من الريفية؟".

ترددت أمي للحظة. كان بإمكاني رؤية الصراع في ذهنها حول كيفية صياغة الإجابة. قالت: "ليس فيه نظام للسباكة الداخلية".

كان أبي لا يزال يبحث عن سيارة بديلة للأولدزموبيل -كان سقف ميزانيتنا في حدود العشرات المرتفعة من الدولارات- لذلك، في نهاية الأسبوع، خرجنا جميعًا في رحلة سيرًا على الأقدام لرؤية المنزل الجديد لأول مرة. سِرنا عبر الوادي في وسط المدينة، وحول أحد جوانب الجبل، مرورًا بالمنازل الصغيرة المرتبة المبنية من الطوب، التي شُيّدت بعد انضمام عمال المناجم إلى نقابة. عبرنا جدولًا يصب في نهر "تَج"، ثم بدأنا صعود طريق ضيق ممهّد بالكاد يُدعى شارع ليتل هوبرت. كان الطريق متعرجًا، وفي بعض الأجزاء، شديد الانحدار إلى درجة أنك كنت بحاجة إلى السير على أطراف أصابع قدميك، وإذا حاولت المشي بوضع قدميك مسطحتين، فستتمدد عضلات ساقيك حتى تشعر بالألم.

كانت المنازل هنا أكثر رثاثة من تلك الموجودة أسفل الوادي. كانت مصنوعة من الخشب، بشرفات مائلة للسقوط، وأسقف متدلية، ومزاريب صدئة، وأسقف من ورق القطران أو الألواح الأسفلتية التي بدأت تنفصل ببطء، لكن بثبات عن الجدران. في كل باحَة تقريبًا، كان هناك كلب أو اثنان مربوطان إلى شجرة أو حبل الغسيل، وكانا ينبحان بشراسة بينما نمر. وكما هي الحال مع معظم المنازل في ويلش، كانت هذه المنازل تُدفأ بالفحم. كانت العائلات الأكثر ازدهارًا لديها أكواخ مخصصة للفحم، بينما كانت العائلات الأفقر تترك الفحم في كومة أمام المنزل. كانت الشرفات مفروشة تمامًا كما لو كانت جزءًا من الداخل، حيث يمكنك رؤية ثلاجات ملطخة بالصدأ، وطاولات قابلة للطي، وسجاد معلق، وأرائك أو مقاعد سيارات مخصصة للجلوس في الشرفة، وربما خزانة مهترئة تم قطع فتحة في أحد جوانبها لتكون مكانًا دافئًا خاصًا بالقط للنوم.

واصلنا السير حتى كدنا نصل إلى نهاية الطريق، حيث أشار أبي إلى منزلنا الجديد.

قالت أمي: "حسنًا، أيها الأولاد، مرحبًا بكم في 93 شارع ليتل هوبرت! مرحبًا بكم في المنزل السعيد!".

وقفنا جميعًا نحدق. كان المنزل صغيرًا، متشبثًا بحافة تلة شديدة الانحدار لدرجة أن الجزء الخلفي منه فقط كان مستندًا إلى الأرض. أما الواجهة، بما في ذلك شرفة متدلية، فكانت بارزة في الهواء بشكل غير مستقر، مدعومة بأعمدة هزيلة مصنوعة من كتل إسمنتية طويلة. قد طُلي باللون الأبيض منذ زمن بعيد، لكن الطلاء تحول في الأماكن التي لم يتقشر عنها بالكامل إلى لون رمادي باهت.

قال أبي: "من الجيد أننا ربيناكم على أن تكونوا أقوياء، لأن هذا ليس منزلًا للضعفاء".

قادنا أبي إلى السلالم السفلية، التي كانت مصنوعة من صخور مرصوفة بالإسمنت معًا. بسبب التآكل وسوء البناء البالغ، كانت تميل بشكل خطير نحو الشارع. وحين انتهت

درجات الحجر، كانت هناك مجموعة مترنِّحة من الدرجات المصنوعة من ألواح خشبية -أقرب إلى سلم منها إلى دَرج حقيقي- تقودك إلى الشرفة الأمامية.

في الداخل، كانت هناك ثلاث غرف، كل واحدة بحجم يُقارب عشرة أقدام في عشرة أقدام، تطل جميعها على الشرفة الأمامية. لم يحتوِ المنزل على مِرحاض، لكن تحته، خلف أحد أعمدة الإسمنت، كانت هناك غرفة بحجم الخزانة تحتوي على مرحاض موضوع على أرضية إسمنتية. لم يكن المرحاض متصلًا بأي نظام من أنظمة الصرف الصحي أو خزان للصرف، بل كان مجرد مقعد فوق حفرة عمقها نحو ستة أقدام. لم تكن هناك مياه جارية داخل المنزل. كان يوجد فقط صنبور ماء يبرز بضع بوصات فوق الأرض بالقرب من المرحاض، مما يسمح لنا بملء سطول الماء ونقلها إلى الطابق العلوي. وبالرغم من أن المنزل كان مزودًا بأسلاك كهربائية، فقد اعترف أبي بأننا لا نستطيع في الوقت الراهن تحمل تكاليف تشغيلها.

لكن على الجانب الإيجابي، قال أبي، إن المنزل كلفنا ألف دولار فقط، وتنازل المالك عن الدفعة الأولى. كان من المفترض أن ندفع له خمسين دولارًا شهريًا، وإذا تمكنا من سداد الدفعات في موعدها، فسنمتلك المنزل بالكامل في غضون عامين.

قالت لوري: "من الصعب تصديق أن كل هذا سيصبح ملكنا يومًا ما". كانت قد بدأت تطور ما أسمته أمي ميلًا إلى السخرية.

قالت أمي: "يجب أن تكوني ممتنة". توجد قبائل في إثيوبيا قد يَقتلون من أجل الحصول على مكان كهذا". وأشارت إلى أن المنزل يتمتع ببعض الميزات الجذابة. على سبيل المثال، كان في غرفة المعيشة موقد فحم مصنوع من الحديد الزهر، يستخدم للتدفئة والطهو. كان كبيرًا وضخمًا، بقدمين ثقيلتين على شكل مخالب دب، وكانت أمي متأكدة من أنه ذو قيمة، إذا وضعته في مكان يقدّر الناس فيه التحف. لكن بما أن المنزل لم يكن يحتوي على مدخنة، فقد كان أنبوب الموقد يمتد عبر نافذة خلفية. وكان قد استبدل أحدهم بالزجاج بالجزء العلوي من النافذة قطعة من الخشب الرقائقي، ولفّ حول الفتحة ورق قصدير لمنع

تسرب دخان الفحم إلى الغرفة. لكن ورق القصدير لم يؤدِّ وظيفته بشكل جيد، إذ كان السقف مغطى بالسُّخَام الأسود. وكان شخص ما -ربما الشخص نفسه- قد ارتكب خطأً بمحاولة تنظيف السقف في بعض المواضع، لكنه لم ينجح إلا في تلطيخ السُّخَام، مما أدى إلى ظهور بقع بيضاء جعلت بقية السقف تبدو أشد سوادًا.

قال أبي معتذرًا: "المنزل نفسه ليس بالكثير، لكننا لن نبقى فيه طويلًا". الأمر الهام، والسبب الذي جعله وأمي يقرران شراء هذه الملكية بالتحديد، هو أنها كانت تحتوي على مساحة كافية لبناء منزلنا الجديد. كان يخطط لبدء العمل عليه فورًا. أراد أن يتبع المخططات الأصلية لـ"القلعة الزجاجية"، لكنه اضطر إلى إعادة تصميمها وزيادة حجم الخلايا الشمسية، لأننا كنا على الجانب الشمالي من الجبل، محاطين بتلال من كلا الجانبين، مما يعني أننا بالكاد نحصل على ضوء طفيف من الشمس.

انتقلنا للعيش في المنزل في ظهيرة ذلك اليوم. لم توجد أغراض كثيرة لتُنقَل. استعار أبي شاحنة صغيرة من متجر الأجهزة حيث كان يعمل العم ستانلي، وأحضر أريكة سرير كان أحد أصدقاء جدي على وشك التخلص منها. كما جمع بعض الطاولات والكراسي القديمة، وصنع بعض الخزائن المؤقتة -التي كانت في الواقع مبتكرة نوعًا ما- من خلال تعليق أنابيب معدنية من السقف باستخدام أسلاك.

استولت أمي وأبي على الغرفة التي تحتوي على الموقد، فأصبحت غرفة معيشة، وغرفة نوم رئيسية، ومرسمًا فنيًا، ومكتبًا للكتابة في آنٍ واحد. وضعنا أريكة السرير هناك، لكنها بمجرد أن فُتحت، لم تعد أبدًا إلى وضعها كأريكة. بنى أبي رفوفًا على طول الجدران العلوية لتخزين مستلزمات الرسم الخاصة بأمي. نصبت حاملها الفني تحت أنبوب الموقد، بجوار النافذة الخلفية، لأنها قالت إنها توفر ضوءًا طبيعيًا، وهو ما كان صحيحًا، نسبيًا. وضعت آلة الكتابة الخاصة بها تحت نافذة أخرى، مع رفوف لمخطوطاتها وأعمالها التي كانت قيد الإنجاز، وبدأت فورًا بتثبيت بطاقات فهرسة على الجدران، تحوي أفكارًا لقصص جديدة.

أما نحن الأطفال، فكنّا ننام في الغرفة الوسطى. في البداية، تشاركنا سريرًا كبيرًا كان قد تركه المالك السابق، لكن أبي قرر أننا أصبحنا كبارًا بعض الشيء على ذلك. كما أننا كنا أكبر من أن ننام في صناديق كرتونية، ولم تكن هناك مساحة كافية لوضعها على الأرض، لذا ساعدناه في بناء سريرين بطابقين. صنعنا الإطارات من الألواح الخشبية، ثم ثقّبنا الجوانب، وأدخلنا حبالًا عبرها. وللمراتب، وضعنا قطعًا من الكرتون فوق الحبال. وعندما انتهينا، بدا سريرنا بطابقين بسيطًا جدًا، لذا رششنا جوانبه بزخارف حمراء وسوداء متشابكة. عاد أبي ذات يوم بخزانة ذات أربعة أدراج كان قد وجدها ملقاة في مكان ما، فحصل كل واحد منا على درج خاص به. كما صنع لكل واحد منا صندوقًا خشبيًا بأبواب منزلقة لحفظ ممتلكاتنا الخاصة. ثبّتناها على الحائط فوق أسرّتنا، وهناك احتفظت بحجر الجيود الخاص بي.

أما الغرفة الثالثة في 93 شارع ليتل هوبرت، المطبخ، فكانت في فئة خاصة بها. فيها موقد كهربائي، لكن الأسلاك لم تكن مطابقة للمواصفات تمامًا، فقد كانت الوصلات معطوبة، والأسلاك مكشوفة، والمفاتيح تصدر طنينًا مزعجًا. قال أبي: "لا بد أن هيلين كيلر هي من وصّلت أسلاك هذا المنزل اللعين". ثم قرر أن المشكلة معقدة للغاية فلا تستحق العناء لإصلاحها.

أطلقنا على المطبخ اسم "غرفة الصعق"، لأنه في المناسبات النادرة التي كنا ندفع فيها فاتورة الكهرباء، وتكون لدينا طاقة، كنا نتلقى صدمة كهربائية قوية إذا لمسنا أي سطح معدني أو رطب في الغرفة. أول مرة تعرضت فيها للصعق، جعلتني أفقد أنفاسي، وسقطت على الأرض متشنجة. فسرعان ما أيقَنا أنه كلما تحتم علينا الدخول إلى المطبخ، كان علينا لف أيدينا بالجوارب الشديدة الجفاف أو الخرق التي يمكننا العثور عليها. وإذا تلقى أحدنا صدمة، كان يُعلن ذلك للجميع كما لو كان يقدم تقريرًا عن حالة الطقس. قلنا: "اليوم كانت لسعة الموقد قوية جدًا، ارتدوا طبقات إضافية من الخرق".

كانت إحدى زوايا سقف المطبخ تسرّب الماء بغزارة. في كل مرة يهطل فيها المطر، كان سقف الجبس ينتفخ ويصبح ثقيلًا، وتتدفق المياه باستمرار من بُقعة الانتفاخ. وخلال إحدى العواصف العنيفة في ذلك الربيع، انتفخ السقف لدرجة أنه انفجر، وسقطت المياه وقطع الجبس على الأرض. لم يصلحه أبي قط. حاولنا نحن الأطفال ترقيع السقف بأنفسنا باستخدام ورق القطران والقصدير والخشب وغراء إلمر، لكن لم يجدِ ذلك نفعًا، كانت المياه تجد طريقها إلى الداخل. وفي نهاية المطاف استسلمنا. وهكذا، في كل مرة كان المطر يهطل فيها في الخارج، كان يهطل في المطبخ أيضًا.

في البداية، حاولت أمي أن تجعل العيش في 93 شارع ليتل هوبرت يبدو كأنه مغامرة. فقد تركت المرأة، التي كانت تقطن هناك قبلنا، ماكينة خياطة قديمة تعمل بدواسة قدم، وقالت أمي إنها ستكون مفيدة، إذ يمكننا صنع ملابسنا حتى عندما تكون الكهرباء مقطوعة. كما ادّعت أيضًا أننا لسنا بحاجة إلى باترونات للخياطة، بل يمكننا أن نطلق العنان لإبداعاتنا، ونحيك بلا قيود. بعد فترة قصيرة من انتقالنا، قامت أمي ولوري وأنا بقياس بعضنا بعضًا، وحاولنا خياطة فساتيننا الخاصة.

استغرق الأمر وقتًا طويلًا، وانتهى بنا المطاف بفساتين فضفاضة وغير متناسقة، بأكمام غير متساوية وفتحات أذرع في منتصف الظهر. لم أتمكن من إدخال رأسي في فستاني، حتى قصت أمي بعض الغرز. قالت أمي: "إنه رائع!"، لكنني قلت لها إنني أبدو كأنني أرتدي كيس وسادة ضخمًا بأنياب في الجانبين. رفضت لوري ارتداء فستانها في الخارج، بل أيضًا في الداخل، واضطرت أمي إلى الاعتراف بأن الحياكة لم تكن أفضل طريقة لاستخدام طاقتنا الإبداعية، أو أموالنا. كان أرخص قماش يمكننا العثور عليه يكلف تسعة وسبعين سنتًا للياردة، وكنا نحتاج إلى أكثر من ياردتين للفستان. فكان من المنطقي أكثر شراء الملابس من متاجر التوفير، فهي على الأقل كانت تحتوي على فتحات الأذرع في الأماكن الصحيحة.

كما حاولت أمي أن تجعل المنزل يبدو أكثر إشراقًا. زيّنت جدران غرفة المعيشة بلوحاتها الزيتية، وسرعان ما غطت كل شبر مربع منها، باستثناء المساحة فوق الآلة الكاتبة، فكانت مخصصة لبطاقات الفهرسة. كانت هناك لوحات لغروب الشمس في الصحراء، وخيول جامحة، وقطط نائمة، وجبال مغطاة بالثلج، ووعاء مغطى بالفواكه، وأزهار متفتحة، وبورتريهات لنا نحن الأطفال.

ولأن أمي كانت تملك لوحات تفوق مساحة الجدران، ثبت أبي أرففًا طويلة على الحائط، وعلّقت أمي اللوحات بعضها فوق البعض، حتى أصبحت ثلاث أو أربع طبقات متراكمة. ثم بدأت بتدويرها قائلة: "مجرد تغيير طفيف لإنعاش المكان". لكنني كنت أومن بأنها كانت ترى لوحاتها كأطفال لها، وأرادت أن تشعر كلها بأنها تحظى بالمعاملة نفسها.

كما بَنَت أمي صفوفًا من الأرفف في النوافذ، ورتبت عليها زجاجات زاهية الألوان لاستقطاب الضوء. وقالت: "الآن يبدو كأن لدينا نوافذ زجاجية ملونة". كان كذلك، إلى حد ما، لكن المنزل ظل باردًا ورطبًا. كل ليلة في الأسابيع الأولى، كنت أستلقي على فراشي المصنوع من الكرتون وأستمع إلى صوت تساقط قطرات المطر في المطبخ، وأحلم بالصحراء، والشمس، ومنزلنا الكبير في فينيكس، بحديقته التي تضم شجرة النخيل في الأمام وأشجار البرتقال وأزهار الأولاندر في الخلف. لقد كنا نملك ذلك المنزل بالكامل. ولا نزال نملكه، ظللت أفكر. لقد كان منزلنا، المنزل الحقيقي الوحيد الذي عرفناه على الإطلاق.

قلت لأبي ذات يوم: "هل سنعود إلى المنزل يومًا ما؟".

"المنزل؟!".

"فينيكس".

"هذا هو منزلنا الآن".

بما أن ويلش أصبحت منزلنا الجديد، قررت أنا وبراين أن نستفيد من الوضع بأفضل طريقة ممكنة. كان أبي قد أرانا البقعة القريبة من المنزل حيث سنضع أساسات ونبدأ حفر القبو الخاص بـ"القلعة الزجاجية". قاسها ووضع علامات لها بأوتاد وخيوط. وبما أن أبي كان بالكاد يوجد في المنزل -كان مشغولًا بإجراء الاتصالات والتحقيق في أمر اتحاد عمال المناجم، كما أخبرنا- ولم يتسنَّ له بدء الحفر، قررت أنا وبراين أن نبدأ العمل. وجدنا مجرفة وفأسًا في مزرعة مهجورة، وقضينا تقريبًا كل دقيقة فراغ لدينا نحفر تلك الحفرة. كنا نعلم أننا بحاجة إلى حفر حفرة كبيرة وعميقة. يقول أبي دائمًا: "لا فائدة من بناء منزل جيد ما لم تضع له أساسًا متينًا".

كان العمل شاقًا، لكن بعد شهر من الحفر، كنا قد وصلنا إلى درجة من العمق يمكننا أن نختفي فيها تمامًا. ورغم أننا لم نعمل على تسوية الحواف أو تمهيد الأرضية، فقد كنا فخورين جدًا بإنجازنا. بمجرد أن يصب أبي الأساس، كنا سنتمكن من مساعدته في بناء الإطار.

لكن بما أننا لم نكن قادرين على دفع رسوم جمع القمامة في البلدة، بدأت نفاياتنا تتراكم بشكل مَهول. وذات يوم، قال لنا أبي أن نلقيها في الحفرة. قلت: "لكن هذه الحفرة مخصصة للقلعة الزجاجية".

قال أبي: "إنه إجراء مؤقت". وأوضح أنه سيستأجر شاحنة لنقل القمامة إلى المكب دفعة واحدة. لكنه لم يفعل ذلك أبدًا، وبينما كنت أنا وبراين نراقب، امتلأت الحفرة التي حفرناها لأساسات قلعة الزجاج بالقمامة تدريجيًا.

في هذا الوقت تقريبًا، وربما بسبب القمامة كلها، استوطن جرذ كبير وقبيح المنظر 93 شارع ليتل هوبرت. رأيته لأول مرة في وعاء السكر. كان هذا الجرذ أكبر من أن يسع وعاء سكر عادي، لكن بما أن أمي كانت مولعة بالحلويات، وكانت تضع ما لا يقل عن ثماني ملاعق صغيرة في كوب الشاي، كنا نحتفظ بالسكر في وعاء كبير على طاولة المطبخ.

لم يكن مجرد جرذ عادي يتغذى على السكر، بل كان يستحم فيه، ويتقلب فيه، ويستمتع به كأنه ينغمس في حمام فاخر، بينما يتدلى ذيله المُرتعش على حافة الوعاء، ينثر حبيبات السكر في كل مكان. تجمدت مكاني عندما رأيته، ثم تراجعت ببطء خارج المطبخ. أخبرت براين، ففتحنا باب المطبخ بحذر. كان الجرذ قد خرج من وعاء السكر، وقفز فوق الموقد. رأينا آثار أسنانه على كومة البطاطا الموضوعة على طبق فوق الموقد، وقد كانت عشاءنا. أمسك براين بمقلاة من الحديد الزهر، وقذفها باتجاه الجرذ. أصابته، ثم ارتطمت بالأرض بصوت مدوٍّ، لكن الجرذ لم يهرب. بل على العكس، حدق بنا بوقاحة مُصدرًا صوت هسهسة، كما لو كنا نحن الدخلاء عليه. هرعنا خارج المطبخ، وأغلقنا الباب بعنف، ثم دسسنا قطع قماش في الفراغ الموجود أسفله.

تلك الليلة، لم تتمكن مورين، التي كانت في الخامسة من عمرها، من النوم. استمرت في القول إن الجرذ قادم ليأكلها، وإنها تسمع صوته يزحف أقرب وأقرب. قلت لها أن تكف عن التصرف كجبانة.

قالت: "أنا أسمعه حقًا. أعتقد أنه قريب مني".

قلت لها إنها تسمح للخوف بالسيطرة عليها، وبما أن الكهرباء كانت تعمل في ذلك اليوم، أنرت النور لأثبت لها أنها كانت فقط تتوهم. وهناك، كان الجرذ جاثمًا على بطانية مورين الخزامية، على بُعد بضع بوصات فقط من وجهها. صرخت، ودفعت الأغطية عن نفسها، فقفز الجرذ إلى الأرض. أمسكت مكنسة وحاولت ضربه بالمقبض، لكنه تفادى الضربة. التقط براين مضرب بيسبول، وبدأنا بملاحقته بينما كان يزمجر ويصدر أصواتًا حادة.

لكن تينكل، الكلب الهجين الذي كان نصفه جاك راسل تيرير، والذي تبع براين إلى المنزل ذات يوم، انقض على الجرذ، وأمسكه بين أنيابه، وراح يهزه بعنف، ويضربه بالأرض حتى مات. عندما دخلت أمي إلى الغرفة، كان تينكل يسير بخطوات متفاخرة، منتفخ الصدر كأنه محارب منتصر. قالت أمي إنها شعرت ببعض الشفقة على الجرذ. قالت: "حتى الجرذان تحتاج إلى الطعام". ورغم أنه كان قد مات، رأت أنه يستحق اسمًا، فأطلقت عليه اسم

روفوس. أما براين، الذي كان قد قرأ أن المحاربين البدائيين كانوا يعلقون أجزاءً من أجسام ضحاياهم على أوتاد لتخويف أعدائهم، فقد علق روفوس من ذيله على شجرة حور أمام منزلنا في صباح اليوم التالي. وفي فترة الظهيرة، سمعنا صوت طلقات نارية. كان السيد فريمان، جارنا، قد رأى الجرذ يتدلى رأسًا على عقب. وبما أن روفوس كان ضخمًا للغاية، ظن أنه حيوان الأبوسوم، فأحضر بندقيته وأطلق عليه النار، ففجره تمامًا. لم يبقَ من روفوس سوى قطعة ذيل تشوهت بالكامل.

بعد حادثة روفوس، بدأت أنام وفي سريري مضرب بيسبول. أما براين، فكان ينام وفي سريره منجل. وأما مورين فكانت بالكاد تحصل على قليل من النوم. كانت تستيقظ مرعوبة بعد أن تحلم بأن الجرذان تلتهمها، وكانت تختلق أي عذر لقضاء الليل في منازل صديقاتها. أما أمي وأبي، فقد تجاهلا الأمر تمامًا. قالا إننا واجهنا خصومًا أشد شراسة في الماضي، وسنواجههم مرات أخرى في المستقبل.

قلت: "ماذا سنفعل بشأن حفرة القمامة؟ لقد امتلأت تقريبًا".

قالت أمي: "وسّعيها".

قلت: "لا يمكننا الاستمرار في رمي القمامة هناك. ماذا سيقول الناس عنا؟".

قالت أمي: "الحياة أقصر من أن نقلق بشأن رأي الآخرين". ثم أضافت: "على أي حال، عليهم أن يتقبلونا كما نحن".

كنت مقتنعة أن الناس قد يكونون أكثر تقبلًا لنا إذا بذلنا بعض الجهد لتحسين مظهر منزلنا في 93 شارع ليتل هوبرت. كنت أرى أنه يمكننا فعل الكثير، دون أن يكلفنا ذلك شيئًا تقريبًا. بعض سكان ويلش كانوا يقطعون الإطارات إلى نصفين، يطلونها باللون الأبيض، ويستخدمونها كحدود لحدائقهم. ربما لم يكن بمقدورنا بناء "القلعة الزجاجية" بعد، لكن

بالتأكيد كان بإمكاننا وضع إطارات مطلية حول فناء منزلنا الأمامي لإضفاء بعض الجمال عليه. توسلتُ إلى أمي قائلة: "هذا سيجعلنا نندمج قليلًا مع أهل البلدة".

قالت أمي: "بالتأكيد سيفعل ذلك"، لكن عندما كان الأمر متعلقًا بويلش، لم تكن لديها أي رغبة في الاندماج. قالت: "أفضل أن يكون لدينا فناء مليء بالقمامة الحقيقية على أن نزينه بزخارف حدائق تافهة".

واصلتُ البحث عن طرق أخرى لتحسين المنزل. وفي أحد الأيام، أحضر أبي إلى المنزل علبة طلاء بسعة خمسة جالونات، كانت متبقية من إحدى الوظائف التي عمل بها. وفي الصباح التالي، فتحتُ العلبة بحماس. كانت مليئة تقريبًا بطلاء أصفر فاقع. كان أبي قد أحضر بعض الفُرش أيضًا. أدركتُ أن طبقة من الطلاء الأصفر ستُغير مظهر منزلنا الرمادي الباهت تمامًا، وسيبدو -على الأقل من الخارج- شبيهًا بالمنازل التي يعيش فيها الآخرون.

راودتني فكرة العيش في منزل أصفر زاهٍ طوال الليل، فلم أستطِع النوم من شدة الحماس. استيقظتُ مبكرًا في اليوم التالي، وربطتُ شعري إلى الخلف، على أُهبَة الاستعداد لبدء الطلاء. قلتُ للجميع: "إذا عملنا معًا، يمكننا إنجازه في يوم أو يومين".

لكن أبي قال إن منزل "93 شارع ليتل هوبرت" كان متهدمًا لدرجة أنه لا يستحق أن نضيع عليه الوقت أو الجهد الذي يمكن أن نبذله في بناء "القلعة الزجاجية". أما أمي، فقالت إنها ترى أن المنازل الصفراء الفاقعة مبتذلة. بينما قال كل من براين ولوري إننا لا نملك السلالم أو السقالات اللازمة للعمل.

لم يكن أبي يحرز أي تقدم ملحوظ في بناء "القلعة الزجاجية"، وكنتُ أعلم أن علبة الطلاء الصفراء ستظل على الشرفة ما لم أتولَّ المهمة بنفسي. قررتُ أن أستعير سلمًا، أو أصنع واحدًا. كنتُ متأكدة أنه بمجرد أن يرى الجميع التحول المذهل للمنزل، سينضمون إليّ في العمل.

خرجتُ إلى الشرفة، وفتحتُ العلبة وبدأتُ بتحريك الطلاء بعصا، أخلط الزيت الذي كان قد ارتفع إلى السطح حتى تحول الطلاء -الذي كان بلون أزهار الحقل الصفراء- إلى مزيج كريمي ناعم. غمستُ الفرشاة العريضة في الطلاء، ومررتها على ألواح الخشب الخارجية الطويلة بحركات انسيابية. بدا الطلاء مشرقًا ولامعًا، وكان أفضل حتى مما توقعت. بدأتُ بالجانب البعيد من الشرفة، حول الباب المؤدي إلى المطبخ. وفي غضون ساعات قليلة، كنتُ قد طليت كل أجزاء الشرفة التي تمكنت من الوصول إليها. ظلت بعض الأجزاء الأمامية بلا طلاء، وكذلك الجوانب، لكنني كنتُ قد استهلكت أقل من ربع كمية الطلاء. إذا ساعدني الجميع، يمكننا طلاء الأجزاء كلها التي لم أتمكن من الوصول إليها، وسرعان ما سيكون لدينا منزل أصفر مبهج.

لكن لا أمي ولا أبي ولا براين ولا لوري ولا مورين أبدوا أي اهتمام. قالت لوري: "إذًا، أصبح جزء من واجهة المنزل أصفر الآن، هذا سيغير حياتنا فعلًا".

كنتُ أعرف أنني سأضطر إلى إنهاء العمل وحدي. حاولتُ صنع سلم من نفايات قطع الخشب، لكنه كان ينهار كلما حاولتُ الصعود عليه. كنتُ لا أزال أحاول بناء سلم ثابت عندما ضربت موجة برد المنطقة بعد بضعة أيام، فتجمدت علبة الطلاء تمامًا. وعندما عاد الطقس الدافئ وذاب الطلاء، فتحت العلبة، لكن المواد الكيميائية كانت قد انفصلت بعضها عن بعض، وأصبح السائل الذي كان ناعمًا في السابق مليئًا بالتكتلات، يشبه الحليب الفاسد. حركته بكل قوتي، واستمررتُ في تحريكه حتى بعد أن أدركتُ أنه قد فسد تمامًا، لأنني كنتُ أعلم أننا لن نحصل على علبة أخرى، وأنه بدلًا من أن نحظى بمنزل أصفر زاهٍ، أو على الأقل منزل رمادي باهت، أصبح لدينا الآن منزل بنصف طلاء، مشوه الشكل، معلنًا للعالم أن من يَقطُنونه قد أرادوا إصلاحه، لكنهم افتقروا إلى العزيمة لإنجاز المهمة.

كان شارع ليتل هوبرت يؤدي إلى واحدة من تلك الأودية العميقة والضيقة لدرجة أن الناس كانوا يمزحون قائلين إنه لا بد من ضخ أشعة الشمس إليه عبر الأنابيب. كان يوجد بالحي كثير من الأطفال -وللمرة الأولى، حصلت مورين على أصدقاء حقيقيين- وكنا جميعًا

نفضل التجمع عادةً عند مبنى الحرس الوطني في أسفل التل. كان الأولاد يلعبون كرة القدم في ساحة التدريب، بينما كانت معظم الفتيات اللاتي في سني يقضين فترات الظهيرة جالسات على الجدار المبني من الطوب المحيط بالمبنى، يمشطن شعرهن، ويضعن لمسات من ملمع الشفاه، ويتظاهرن بالغضب حين يطلق أحد جنود الاحتياط القصير الشعر صافرة الإعجاب نحوهن، بينما كُنّ في الواقع يستمتعن بذلك سرًا. كانت هناك فتاة تُدعى سيندي تومبسون، بذلت جهدًا مميزًا لتكون صديقتي، لكنني اكتشفتُ لاحقًا أن غايتها الحقيقية كانت تجنيدي في منظمة "كو كلوكس كلان" الخاصة بالمراهقين. لم يرُقني وضع مساحيق التجميل ولا ارتداء الأزياء البيضاء، لذا فضلتُ لعب كرة القدم مع الأولاد، الذين كانوا يتنازلون عن قاعدة "للذكور فقط" ويسمحون لي بالانضمام إلى الفريق إذا كانوا بحاجة إلى لاعب إضافي.

لم يكن قاطنو الأحياء الميسورة في ويلش يتهافتون على الانتقال إلى منطقتنا بالضبط. عاش بعض عمال المناجم في الشارع، لكن معظم البالغين لم يكونوا يعملون على الإطلاق. بعض الأمهات لم يكن لديهنّ أزواج، وبعض الآباء كانوا يعانون من مرض الرئة السوداء. أما البقية، فكانوا غارقين في مشكلاتهم أو مجرد كسالى عديمي الفائدة، لذلك تقبّل الجميع تقريبًا نوعًا من المساعدات الحكومية على مضض. ورغم أننا كنا أفقر أسرة في شارع ليتل هوبرت، فإن أمي وأبي لم يتقدما بطلب للحصول على إعانات أو قسائم الطعام، وكانا يرفضان الصدقة بكل أشكالها. وعندما كان المعلمون يعطوننا أكياس ملابس من تبرعات دار العبادة، كانت أمي تجبرنا على إعادتها. قال أبي وأمي: "نحن قادرون على الاعتناء بأنفسنا، ولا نقبل الصدقات من أحد".

وعندما تشتد الأمور، كانت أمي تذكرنا باستمرار بأن هناك أطفالًا آخرين في شارع ليتل هوبرت يعيشون ظروفًا أصعب مما نمر بها. عائلة جرادي، المكونة من اثني عشر طفلًا، لم يكن لديهم أب -مات في انهيار منجمي، أو هرب مع عاهرة، حسب الروايات المتداولة- أما أمهم، فكانت تمضي أيامها في الفراش تعاني من الصداع النصفي. ونتيجة لذلك، كان الأولاد يعيشون في فوضى عارمة. كان من الصعب التفريق بينهم، فقد كانوا جميعًا

يرتدون سراويل الجينز والقمصان الممزقة، وكانت رءوسهم محلوقة بالكامل لتجنب القمل. وعندما عثر الابن الأكبر على بندقية والده القديمة أسفل سرير أمه، قرر أن يمارس بعض الرماية عليّ أنا وبراين، فأطلق علينا طلقات من الخرطوش، بينما كنا نهرب إلى الغابة كي ننجو بحياتنا.

وكانت هناك أيضًا عائلة هال. كان جميع أبناء هال الستة قد وُلدوا معاقين ذهنيًا، ورغم أنهم أصبحوا في منتصف العمر، فإنهم ما زالوا يعيشون مع والديهم. ولأني كنت أتعامل بلطف مع كيني هال، الابن الأكبر البالغ من العمر اثنين وأربعين عامًا، نشأت لديه مشاعر قوية تجاهي. وكان الأطفال الآخرون يسخرون منه بإخباره أنه إذا أعطاهم دولارًا أو خلع ملابسه الداخلية وأراهم جسمه، فسيرتبون موعدًا كي يخرج معي. وفي ليالي السبت، بعد أن يكون قد وقع ضحية هذه الخدعة، كان يقف أمام منزلنا، يصرخ ويبكي لأنني لم أحضر الموعد. وحينها كنت أضطر إلى النزول إليه، وأشرح له أن الأطفال خدعوه، وأنه رغم امتلاكه صفات رائعة، فإنني لديَّ مبادئ تمنعني من مواعدة الرجال الأكبر سنًا.

لكن العائلة التي عانت أكثر من الجميع في شارع ليتل هوبرت كانت عائلة باستور. كانت الأم، جيني سو باستور، عاهرة البلدة. كانت تبلغ من العمر ثلاثة وثلاثين عامًا، ولديها ثماني بنات وابن واحد، وجميع أسمائهم تنتهي بحرف الياء. أما زوجها، كلارنس باستور، فكان مصابًا بمرض الرئة السوداء، وكان يجلس طوال اليوم على شرفة منزله الكبير المتدلي، لكنه لم يكن يبتسم أو يلوح لأحد، بل كان يجلس هناك بلا حراك. كان الجميع في البلدة يقولون إنه صار عاجزًا جنسيًا منذ سنوات، وإن أطفاله لم يكونوا من صلبه.

كانت جيني سو باستور منعزلة عن الآخرين، وكنت أتساءل إن كانت تمضي أيامها مرتدية ثوب نوم من الدانتيل، تدخن السجائر في انتظار زبائنها. ففي بلدة باتل ماونتن، كنت قد أدركت منذ فترة طويلة طبيعة عمل النساء اللواتي يجلسن على شرفة فندق "جرين لانترن"، حيث كُنّ يضعن أحمر شفاه أبيض وكحلًا أسود، ويرتدين قمصانًا مفتوحة الأزرار تكشف أجسامهن. لكن جيني سو باستور لم تكن تبدو كالعاهرات. كانت امرأة مترهلة بشعر

مصبوغ باللون الأصفر، وكنا نراها أحيانًا في فناء منزلها، تقطع الحطب، أو تملأ الدلو بالفحم. كانت ترتدي المآزر نفسها ومعاطف المزرعة القماشية التي كانت ترتديها بقية النساء في شارع ليتل هوبرت. كانت تبدو كأي أم أخرى.

كنت أتساءل أيضًا كيف تمارس مهنتها مع كل هؤلاء الأطفال الذين عليها الاعتناء بهم. لكن في إحدى الليالي، رأيت سيارة تتوقف أمام منزلها، وتومض بأضوائها الأمامية مرتين. وبعد لحظات، خرجت جيني سو من المنزل مسرعة، وصعدت إلى المقعد الأمامي، ثم انطلقت السيارة مبتعدة.

كانت كاثي، الابنة الكبرى لجيني سو باستور، منبوذة تمامًا بين الأطفال الآخرين، الذين كانوا يصرخون في وجهها بأن أمها "عاهرة"، وينادونها بـ"فتاة القمل". والحقيقة أنها كانت تعاني بالفعل من إصابة شديدة بالقمل. لكنها كانت تحاول التقرب مني. وفي إحدى المرات، ونحن عائدتان من المدرسة، أخبرتها أننا عشنا لفترة في كاليفورنيا، فتهلل وجهها. قالت إن والدتها لطالما رغبت في الذهاب إلى هناك، وسألتني إن كنت أود الذهاب إلى منزلها والتحدث مع أمها عن طبيعة الحياة في كاليفورنيا.

وبالطبع ذهبت. لم يسبق لي أن دخلت إلى فندق "جرين لانترن" من قبل، لكنني الآن سأقابل امرأة تعمل في هذا النوع من الأعمال. كانت هناك أمور كثيرة أتوق إلى معرفتها: هل كان بيع الجسم بهذه السهولة فعلًا؟ هل كان الأمر ممتعًا في أي وقت، أم كان مقززًا تمامًا؟ هل كانت كاثي وأخواتها ووالدها جميعًا يعلمون أن جيني سو باستور عاهرة؟ ماذا كانوا يعتقدون عن ذلك؟ لكن لم أخطط لطرح هذه الأسئلة بشكل مباشر، لكني كنت أظن أنه بمجرد دخولي إلى منزل عائلة باستور ولقائي بجيني سو، سأتمكن من الحصول على بعض الإجابات.

كان كلارنس باستور جالسًا في الشرفة، متجاهلًا كاثي وأنا بينما كنا نمر بجواره. وفي الداخل، كانت هناك غرف صغيرة متصلة بعضها ببعض مثل عربات القطار. وبسبب تهالك المنزل القائم على التل المتآكل، كانت الأرضيات والأسقف والنوافذ مائلة بزوايا مختلفة. لم

تكن هناك أي لوحات معلقة على الجدران، لكن عائلة باستور كانت قد ألصقت صورًا لنساء أنيقات مقتبسة من كتالوجات سيرز روباك.

كانت شقيقات كاثي الصغيرات يجرين في أرجاء المنزل بصخب، بعضهن شبه عاريات. لم تكن أي منهن تشبه الأخرى؛ إحداهن كانت حمراء الشعر، وأخرى شقراء، وأخرى ذات شعر أسود، بينما تراوحت درجات شعر البقية بين مختلف تدرجات البني. كان أصغر الإخوة، سويت مان، يزحف على أرضية غرفة المعيشة، وهو يمتص مخللًا ضخمًا. قالت جيني سو باستور، وهي تجلس على الطاولة في المطبخ، تمسح يديها بطرف قميصها: "سُررت بلقائكِ". كان بجانبها هيكل دجاجة مُحمرة فاخرة، من النوع الذي نادرًا ما كنا قادرين على شرائه. كان وجهها متعبًا، مليئًا بالتجاعيد، لكنها ابتسمت ابتسامة دافئة ومشرقة. "لم نعتد استقبال الضيوف".

عرضت جيني سو علينا مقاعد على الطاولة. كانت ذات قوام ممتلئ، وشعرها الأشقر داكنًا عند الجذور. قالت: "ساعداني في تنظيف هذه الدجاجة، وسأجهز لفائف الدجاج الخاصة بجيني سو". ثم التفتت إليّ قائلة: "أتعرفين كيف تنظفين هذه الدجاجة بالكامل؟".

قلت: "طبعًا أعرف". لم أكن قد أكلت شيئًا طوال اليوم.

قالت جيني سو: "حسنًا، أريني إذًا مهارتك".

بدأت بالجناح أولًا، فصلت العظمتين الرفيعتين عن بعضهما، وسحبت كل اللحم العالق بينهما. ثم انتقلت إلى فخذ الدجاجة وساقها، كسرت المفاصل وأزلت الأوتار، واستخرجت النخاع من الداخل. كانت كاثي وجيني سو تعملان معي على الدجاجة، لكنهما توقفتا عن العمل وأخذتا تراقبانني. من الذيل، انتزعت قطعة اللحم الطرية التي يغفل عنها معظم الناس. قلبت الهيكل رأسًا على عقب، وكشطت بأظفاري الدهون المتجمدة وبقايا اللحم. ثم أدخلت يدي بعمق داخل الدجاجة، لاستخراج كل ما تبقى من اللحم العالق في القفص الصدري.

قالت جيني سو: "يا فتاة، لم أرَ أحدًا يُنظّف دجاجة بهذه الاحترافية مثلكِ طوال حياتي".

أزلت قطعة الغضروف الحادة من عظمة الصدر، التي لا يأكلها معظم الناس، وقضمتها بقرمشة مرضية.

جمعت جيني سو اللحم في وعاء، ومزجته مع المايونيز وجبن تشيز ويز، ثم سحقت حفنة من رقائق البطاطس، وأضافتها إلى الخليط. ووضعت المزيج على شريحتين من خبز وندر، ثم لفّت كل شريحة على شكل أسطوانة وناولتنا إياها. قالت: "طيور ببطانياتها". كان طعمها لذيذًا.

قالت كاثي: "أمي، جانيت قد عاشت في كاليفورنيا".

قالت جيني سو: "حقًا؟". ثم أضافت: "لطالما حلمت بالعيش في كاليفورنيا، وأن أصبح مضيفة طيران". ثم تنهدت وأضافت: "لكنني لم أتمكن من الخروج من بلوفيلد أبدًا".

أخبرتهما عن حياتي في كاليفورنيا. وسرعان ما أدركت أنهما لم تعيراني أي انتباه عندما تحدثت عن بلدات التعدين الصحراوية، لذا بدأت أتحدث عن سان فرانسيسكو، ثم عن لاس فيجاس، التي لم تكن في كاليفورنيا تمامًا، لكنهما لم تهتما لذلك. جعلت الأيام القليلة التي أمضيناها هناك تبدو كأنها سنوات، وجعلت فتيات الاستعراض اللواتي لم أرَهن إلا من بعيد يبدون كأنهن صديقات مقربات وجارات. وصفت لهما الكازينوهات المتلألئة واللاعبين الأثرياء، وأشجار النخيل وحمامات السباحة، والفنادق ذات التكييف البارد والمطاعم حيث تشعل نادلات بقفازات بيضاء الحلويات الساخنة.

قالت جيني سو: "لا شيء يمكن أن يُضاهي ذلك!".

قلت لها: "أبدًا، مستحيل".

دخل سويت مان باكيًا، فحملته جيني سو، ووضعت إصبعها في المايونيز ليلعقه. قالت لي: "لقد أبدعتِ في تنظيف الدجاجة". ثم أضافت وهي تغمز لي: "يبدو لي أنكِ من النوع الذي سيأكل يومًا ما الدجاج المشوي والحلويات الساخنة بقدر ما تشائين".

لم أدرك إلا في طريقي إلى المنزل أنني لم أحصل على إجابة لأي من أسئلتي. وبينما كنت أجلس هناك، وأتحدث مع جيني سو، كنت قد نسيت تمامًا أنها عاهرة. شيء واحد كان يؤكد مهنتها: لقد وضعت دجاجة على المائدة.

كنا نتشاجر كثيرًا في ويلش. ليس فقط للدفاع عن أنفسنا، بل أيضًا لنثبت أننا ننتمي إلى المكان. ربما كان ذلك لأن الحياة في ويلش لم يكن بها الكثير لفعله، وربما كان ذلك لأن العيش هناك كان صعبًا، وجعل الناس قساة، وربما كان ذلك بسبب المعارك الدموية حول النقابات العمالية في المناجم، وربما لأن العمل في التعدين كان خطرًا ومتعبًا وملوثًا، وكان يعكر مزاج عمال المناجم، فيعودون إلى منازلهم ليفرغوا غضبهم في زوجاتهم، اللواتي يفرغنه في أطفالهن، الذين يفرغونه في أطفال آخرين. كان يبدو أن الجميع في ويلش -رجالًا ونساءً، وصبيانًا وبنات- يحبون القتال.

كانت هناك مشاجرات الشوارع، وطعنات في الحانات، وضربات في مواقف السيارات، وصفعات للزوجات، وأحيانًا ضرب الأطفال الصغار. لم يكن الأمر يتعدى لكمة طائشة، وينتهي قبل أن يدرك أحد ما حدث. وأحيانًا أخرى، كان القتال أشبه بنزال ملاكمة من اثنتي عشرة جولة، حيث يهتف الجمهور للمقاتلين الملطخين بالدماء والمتعرقين. ثم كانت هناك الضغائن والعداوات التي استمرت لسنوات - أخوان يضربان رجلًا لأن والده ضرب والدهما في الخمسينيات، امرأة تطلق النار على أعز صديقاتها لأنها أقامت علاقة حميمية مع زوجها، ثم يطعن شقيق الصديقة الزوج انتقامًا. بينما كنت تسير في شارع ماكدويل، كان نصف من تمر بهم يحملون إصابات من معركة محلية. كانت هناك كدمات زرقاء، وشفاه مشقوقة، وعظام خدود متورمة، وأذرع مليئة بالكدمات، ومفاصل أصابع متشققة، وحتى

شحوم آذان مقضومة. كنا قد عشنا في أماكن تعج بالمشكلات من قبل، لكن أمي كانت تقول إن ويلش هي أكثر بلدة مُحبة للقتال رأتها في حياتها.

كان -براين ولوري ومورين وأنا- نتشاجر أكثر من أغلب الأطفال. كانت دينيشيا هيويت وصديقاتها مجرد البداية، إذ تلتها عصابات صغيرة أخرى كانت تتحدانا واحدًا تلو آخر. أراد بعض الأطفال قتالنا، لأننا نملك شعرًا أحمر، أو لأن أبي كان سكيرًا، أو لأننا كنا نرتدي ثيابًا ممزقة ولم نكن نغتسل بقدر ما ينبغي، أو لأننا كنا نعيش في بيت متهالك مطلي جزئيًا بالأصفر، تحيط به حفرة مليئة بالقمامة. كانوا يمرون بجوار منزلنا المظلم ليلًا، ويرون أننا لم نكن نملك حتى ما يكفي لدفع فاتورة الكهرباء.

لكننا كنا دائمًا نقاتل دفاعًا عن أنفسنا، وغالبًا كفريق واحد. أما أعظم معاركنا وأكثر انتصاراتنا جرأة -معركة شارع ليتل هوبرت- ضد إرني جود وأصدقائه، عندما كنت في العاشرة من عمري، وكان براين في التاسعة. كان إرني جود صبيًا غليظ الرقبة، بأنف أفطس وعينين صغيرتين كأنهما مزروعتان على جانبي رأسه مثل الحوت. بدا كأن مهمته في الحياة هي طرد عائلة وولز من المدينة. بدأ الأمر حين كنت ألعب مع بعض الأطفال الآخرين فوق دبابة متوقفة بجوار مستودع الأسلحة. حين ظهر إرني وأخذ يرشقني بالحجارة، وهو يصرخ بأن علينا مغادرة ويلش، لأننا "نلوث المكان برائحتنا الكريهة".

رميت عليه بعض الحجارة ورددت: "اتركني وشأني!".

قال إرني بتحدٍّ: "اجعليني أفعل ذلك!".

صرخت: "أنا لا أصنع القمامة، بل أحرقها!". كان هذا الرد غالبًا ما يكون فعالًا، إذ يعوّض ازدراؤه عن افتقاره إلى الأصالة، لكنه هذه المرة جاء بنتيجة عكسية.

صاح إرني: "أنتم آل وولز لا تحرقون القمامة! بل تلقونها في حفرة بجوار منزلكم! أنتم تعيشون فيها!".

حاولت أن أجد ردًا على رده، لكن عقلي تجمد، لأنه كان محقًا؛ لقد كنا نعيش وسط القمامة.

دفع إرني وجهه في وجهي وقال: "قمامة! أنتم تعيشون في القمامة، لأنكم القمامة نفسها!".

دفعته بقوة، ثم التفتُ إلى الأطفال الآخرين أبحث عن دعم، لكنهم بدءوا يبتعدون، خافضين أنظارهم، كأنهم يشعرون بالعار لأنهم كانوا يلعبون مع فتاة تعيش بجوار حفرة قمامة.

في يوم السبت، كنت أنا وبراين نقرأ على الأريكة القابلة للطي، حين تهشم زجاج أحد ألواح النافذة، وسقط حجر على الأرض. هرعنا إلى الباب. كان إرني وثلاثة من أصدقائه يجوبون شارع ليتل هوبرت بدراجاتهم، يطلقون صيحاتهم الهائجة: "قمامة! قمامة! أنتم مجرد قمامة!".

خرج براين إلى الشرفة، فقذف أحد الصبية حجرًا أصابه في رأسه. ترنح إلى الخلف، ثم ركض نازلًا الدرج، لكن إرني وأصدقاءه قد انطلقوا على دراجاتهم يقهقهون بجنون. عاد براين إلى الداخل، وكان الدم ينزف على خده وقميصه، بينما كانت كتلة متورمة تبدأ بالانتفاخ فوق حاجبه. بعد دقائق قليلة، عاد إرني وعصابته، ورموا مزيدًا من الحجارة، وصرخوا أنهم قد رأوا "الحظيرة" التي يعيش فيها أطفال عائلة وولز، وأنهم سيخبرون الجميع في المدرسة بأنها أسوأ حتى مما كان يقال.

هذه المرة، خرجت أنا وبراين معًا لمطاردتهم. رغم أنهم كانوا يفوقوننا عددًا، فقد كانوا مستمتعين جدًا بلعبة السخرية منا لدرجة أنهم لم يتوقفوا للمواجهة، بل انطلقوا هاربين أسفل أول منعطف.

قال براين: "سيعودون".

سألته: "ماذا سنفعل؟".

جلس براين يفكر، ثم قال إن لديه خطة. وجد بعض الحبال تحت المنزل، وأخذني إلى مكان مرتفع في التل المطل على شارع ليتل هوبرت. قبل بضعة أسابيع، كنا قد جررنا هناك مرتبة قديمة، لأننا كنا نفكر في قضاء ليلة تخييم. شرح براين كيف يمكننا صنع مقلاع، مثل تلك التي قرأنا عنها في العصور الوسطى، من خلال تكديس الصخور على المرتبة وربطها بالحبال الملتفة حول أغصان الأشجار. جمعنا الآلة بسرعة واختبرناها مرة واحدة، وسحبنا الحبال إلى الخلف مع العد حتى ثلاثة. وقد نجحت التجربة، فقد انهالت مجموعة من الصخور على الشارع أدناه. كنا مقتنعين تمامًا بأن هذا سيكون كافيًا لقتل إرني جود وعصابته، وهو ما كنا ننوي فعله دون أدنى تردد: قتلهم والاستيلاء على دراجاتهم، وترك جثثهم في الشارع كعلامة تحذير للآخرين.

أعدنا تكديس الصخور على المرتبة، وأعدنا ضبط المقلاع، وانتظرنا. بعد بضع دقائق، ظهر إرني وعصابته مجددًا عند المنعطف. كان كل واحد منهم يقود دراجته بيد واحدة، بينما يمسك في اليد الأخرى حجرًا بحجم البيضة، يسيرون في صف واحد، مثل فرقة حربية من قبيلة "باوني"، على مسافات متباعدة بضع أقدام بعضهم عن بعض.. لذلك لم يكن بإمكاننا إصابتهم جميعًا في وقت واحد، فاستهدفنا إرني، الذي كان يترأّس المجموعة.

وحين اقترب إرني بالقدر الكافي، أعطى براين الإشارة، فسحبنا الحبال إلى الخلف دفعة واحدة. انطلقت المرتبة إلى الأمام، وأمطرت ترسانتنا من الصخور في الهواء. سمعت صوت ارتطامها بجسم إرني، متبوعًا بصوت ارتطامها بالطريق. صرخ إرني ولعن بصوت عالٍ وانزلقت دراجته. اصطدم الصبي الذي كان خلفه به، وسقط كلاهما على الأرض. أما الآخران، فاستدارا وانطلقا هاربين بأقصى سرعة. بدأت أنا وبراين بقذف أي صخور كانت في متناول أيدينا. ولأنهما كانا أسفل المنحدر، كانت زاوية تصويبنا مثالية، وحققنا عدة إصابات مباشرة، حيث ارتدت الصخور عن دراجتيهما، خادشة الطلاء ومُحدِثة انبعاجات في مصدات الدراجة.

ثم صاح براين: "هجوم!"، وانطلقنا مندفعين نحوهما أسفل التل. قفز إرني وصديقه على دراجتيهما، وأخذا يدفعان بدواساتهما بجنون قبل أن نتمكن من الوصول إليهما. وبينما كانا يختفيان عند المنعطف، بدأت أنا وبراين برقصة النصر وسط الشارع المليء بالصخور، مطلقين صيحات الحرب الخاصة بنا.

مع دفء الطقس، كسا جمال برّي أخّاذ تلال شارع هوبرت الصغير المنحدرة، وإن كانت فيه خشونة. تفتحت بعنفوان أزهار برية مثل زهرة القسيس والقلوب النازفة. وازدهرت على جانبي الطريق أزهار بيضاء تشبه الدانتيل، وأزهار الفلوكس البنفسجية، وزنابق نهار برتقالية ضخمة. في الشتاء، كانت الغابة تكشف عن سيارات مهملة، وثلاجات خربة، وأطلال المنازل المتروكة وسط الغابات. لكن مع حلول الربيع، سرعان ما غطتها النباتات المتسلقة والأعشاب والطحالب، ولم يمضِ وقت طويل حتى اختفت عن الأنظار تمامًا.

كانت إحدى مزايا الصيف أنه كان لدينا مزيد من الضوء للقراءة كل يوم. كانت أمي تكدّس الكتب بكثرة. كانت تعود من مكتبة ويلش العامة كل أسبوع أو أسبوعين بحقيبة وسادة مليئة بالروايات والسير الذاتية وكتب التاريخ. كانت تستلقي في الفراش معها، وتنظر إلينا بين الحين والآخر قائلة إنها آسفة، وإنها تعلم أنها يجب أن تفعل شيئًا أكثر إنتاجية، لكنها، مثل أبي، كانت لها إدماناتها، وكانت القراءة إحداها.

كنّا جميعًا نقرأ، لكن لم أشعر بروح الألفة التي كنت أشعر بها في باتل ماونتن، حين كنا نجلس جميعًا في المستودع نقرأ معًا. في ويلش، كان كل شخص ينعزل في زاوية مختلفة من المنزل. وبمجرد حلول الليل، كنا نستلقي جميعًا على أسرّتنا المصنوعة من الحبال والكرتون، نقرأ على ضوء المصباح اليدوي أو الشموع التي كنا نضعها فوق صناديقنا الخشبية، كل واحد منا ينشئ بقعته الخاصة من الضوء الخافت.

كانت لوري أكثرنا هوسًا بالقراءة. كانت تعشق الفانتازيا والخيال العلمي، خصوصًا The Lord of the Rings. وعندما لا تقرأ، كانت تمضي وقتها في رسم شخصيات الأورك

والهوبيت. حاولت إقناع الجميع في العائلة بقراءة السلسلة. قالت: "إنها تنقلك إلى عالم آخر مختلف تمامًا".

لم أكن أرغب في الانتقال إلى عالم آخر. كانت كتبي المفضلة تدور حول أشخاص يواجهون المتاعب. كنت أعشق The Grapes of Wrath وLord of the Flies، لكن أكثر ما أحببته كان A Tree Grows in Brooklyn. كنت أعتقد أنني وفرانسي نولان متشابهتان تقريبًا، باستثناء أنها عاشت قبل خمسين عامًا في بروكلين، وأن والدتها كانت تحرص دائمًا على نظافة المنزل. كان والد فرانسي يذكرني كثيرًا بأبي. إذا كانت فرانسي ترى نوايا والدها الطيبة، رغم أن معظم الناس اعتبروه سكيرًا معدمًا، فربما لم أكن حمقاء تمامًا، لأنني كنت أومن بأبي. أو أحاول أن أومن به. لكن الأمر كان يزداد صعوبة.

في إحدى ليالي الصيف، بينما كنت مستلقية على سريري والجميع نيام، سمعت باب المنزل الأمامي يُفتح، وصوت شخص يتمتم ويتعثر في الظلام. كان أبي قد عاد إلى البيت. توجهت إلى غرفة المعيشة، حيث كان جالسًا عند طاولة الرسم. من ضوء القمر المتسلل عبر النافذة، رأيت أن وجهه وشعره كانا ملطخين بالدماء. سألته عما حدث.

قال أبي: "تشاجرت مع جبل ما. والجبل هو من انتصر".

نظرت إلى أمي النائمة على سرير الأريكة، ورأسها مدفون تحت الوسادة. كانت تنام بعمق ولم تتحرك. وعندما أشعلتُ مصباح الكيروسين، رأيتُ أن لدى أبي أيضًا جرحًا كبيرًا في ساعده الأيمن وجرحًا عميقًا في رأسه لدرجة أنني استطعت رؤية بياض جمجمته.
أحضرتُ عود أسنان وملقطًا، وبدأتُ أُخرج الحصى الصغيرة من الجرح. لم يبدِ أبي أي رد فعل عندما سكبت الكحول المطهر على الجرح. وبسبب كثافة شعره، لم أتمكن من وضع ضمادة، فأخبرته أنه يجب عليّ أن أحلق المنطقة المحيطة بالجرح. قال أبي: "تبًا يا عزيزتي، هذا سيفسد مظهري. الرجل في مثل وضعي يجب أن يكون أنيقًا".

أمعن أبي النظر في الجرح الموجود في ساعده، وشدّ عاصبة حول الجزء العلوي من ذراعه، ثم طلب مني إحضار صندوق الخياطة الخاص بأمي. بحث عن خيط حريري، لكنه لم يجد، فقرر أن القطن سيكون كافيًا. أدخل الخيط الأسود في الإبرة، ثم ناولها لي، وأشار إلى الجرح. قال أبي: "خِيطِيه".

قلت: "أبي! لا أستطيع فعل ذلك".

قال أبي: "هيا يا عزيزتي، كنت سأفعلها بنفسي، لكنني لا أستطيع تحريك يدي اليسرى كما ينبغي". ثم ابتسم قائلًا: "لا تقلقي عليّ. أنا مُنتشٍ تمامًا، لن أشعر بشيء". أشعل أبي سيجارة، ووضع ذراعه على الطاولة. ثم قال لي: "هيا".

ضغطت الإبرة على جلد أبي وشعرت برجفة.

قال أبي: "هيا، امضي قدمًا".

غرزت الإبرة ببطء، وشعرت بمقاومة خفيفة عندما اخترقت الجلد. أردت أن أغمض عيني، لكنني كنت بحاجة إلى أن أرى. دفعت بقوة أكبر، وشعرت بمقاومة نسيج اللحم. كان الأمر كما لو أنني أخيط قطعة لحم. بل كانت خياطة قطعة لحم.

قلت: "لا أستطيع يا أبي، آسفة، لا أستطيع فعل ذلك".

قال أبي: "سنفعلها معًا".

بيده اليسرى، وجه أصابعي، فدفعت الإبرة بالكامل عبر جلده، حتى خرجت من الجهة الأخرى. ظهرت بضع قطرات من الدم. سحبتُ الإبرة إلى الخارج ثم شددتُ الخيط برفق لإحكام الغرزة. عقدت طرفي الخيط معًا كما أخبرني أبي، ثم، لأصنع غرزة ثانية، فعلت الأمر نفسه مرة أخرى. كان الجرح كبيرًا، وكان بحاجة إلى مزيد من الغرز، لكنني لم أستطِع إجبار نفسي على غرز الإبرة في ذراع أبي مرة أخرى.

نظرنا معًا إلى الغرزتين الداكنتين، غير المتقنتين بعض الشيء.

قال أبي: "عمل رائع يا عنزة الجبل. أنا أشعر بالفخر بكِ دائمًا".

عندما غادرت المنزل صباح اليوم التالي، كان أبي لا يزال نائمًا. وعندما عدت في المساء، كان قد رحل.

أصبح أبي يختفي لعدة أيام في كل مرة. وعندما كنت أسأله أين كان، كانت إجاباته غامضة للغاية أو غير قابلة للتصديق لدرجة أنني توقفت عن السؤال. وحين كان يعود، عادةً ما كان يحمل على كل ذراع كيسًا مليئًا بالبقالة، ونلتهم جميعًا شطائر اللحم المعلبة مع شرائح البصل السميكة، بينما كان يخبرنا عن تطورات تحقيقه في "اتحاد عمال المناجم" وأحدث مشاريعه لجني المال. كان يقول إنه يتلقى دائمًا عروض توظيف، لكنه لم يكن مهتمًا بأن يكون مجرد موظف يتلقى الأوامر، أو أن يكون شخصًا متملقًا يرضي رؤساءه. قال أبي: "لن تصبح ثريًا أبدًا، وأنت تعمل لدى شخص آخر". كان تركيزه منصبًا على الثراء. صحيح أنه لا يوجد ذهب في "فرجينيا الغربية"، لكنه كان مقتنعًا بوجود طرق أخرى لتحقيق الثروة. على سبيل المثال، كان أبي يعمل على تطوير تقنية لإحراق الفحم بكفاءة أعلى، بحيث يمكن استخراج وبيع حتى أدنى درجات الفحم جودة. قال كانت توجد سوق ضخمة لهذا، وكان مؤكدًا أن هذا المشروع سيجعلنا أثرياء بما يفوق أحلامنا.

كنتُ أستمع إلى خطط أبي وأحاول تشجيعه، متمنية أن يكون ما يقوله صحيحًا، رغم أنني كنت متأكدة إلى حد كبير أنه لم يكن كذلك. بين الحين والآخر كان المال -ومعه الطعام- يأتي في المناسبات النادرة التي يحصل فيها أبي على عمل مؤقت، أو حين يصل شيك من شركة النفط التي كانت تستأجر حقوق الحفر في أرض أمي في "ولاية تكساس". لم تكن أمي توضح أبدًا حجم الأرض أو موقعها الفعلي، وكانت ترفض تمامًا فكرة بيعها. كل ما كنا نعرفه هو أن هذا الشيك كان يصل كل بضعة أشهر، ويمنحنا وفرة من الطعام لبضعة أيام.

عندما كانت الكهرباء تعمل لدينا، كنا نأكل كثيرًا من الفاصولياء. كيس كبير من الفاصولياء المُرَقَّطة كان يكلف أقل من دولار، ويكفينا لعدة أيام. كان طعمها يصبح أفضل إذا أضفت إليها ملعقة من المايونيز. كنا نأكل أيضًا كثيرًا من الأرز الممزوج بسمك "جاك ماكريل"، الذي قالت أمي إنه غذاء ممتاز للدماغ. لم يكن جيدًا بقدر التونة، لكنه كان أفضل من طعام القطط، الذي كنا نأكله أحيانًا عندما تشتد علينا الأمور. في بعض الليالي، كانت أمي تُعِدّ لنا كمية كبيرة من الفشار كوجبة عشاء. قالت إنه غني بالألياف، وكانت تحثنا على وضع الملح بكثرة عليه، لأن اليود يمنع تضخم الغدة الدرقية. قالت أمي: "لا أريد أن يبدو أطفالي مثل البجع".

ذات يوم، عندما وصل شيك ملكية أكبر من المعتاد، فاشترت لنا أمي قطعة كبيرة من اللحم. أكلنا منه لعدة أيام، نقطع شرائح سميكة منه لتحضير الشطائر. ولأنه لم تكن لدينا ثلاجة، تركنا اللحم على أحد رفوف المطبخ. وبعد أن بقي هناك لمدة أسبوع تقريبًا، ذهبت لأقطع لنفسي شريحة على العشاء، فوجدته يعج بالديدان البيضاء الصغيرة.

كانت أمي جالسة على سرير الأريكة، تأكل القطعة التي قطعتها، قلت لها: "أمي، هذا اللحم مليء بالديدان".

قالت لي: "لا تكوني صعبة الإرضاء". وأضافت: "فقط أزيلي الأجزاء التي بها الديدان، فالداخل لا يزال صالحًا للأكل".

أصبحت أنا وبراين محترفين في البحث عن الطعام. كنا نقطف التفاح البري، والتوت الأسود البري ونأكل فاكهة البابايا خلال فصلي الصيف والخريف، كما كنا نسرق أكواز الذرة من مزرعة العجوز ويلسون. كانت الذرة قاسية، لأن العجوز ويلسون كان يزرعها كعلف للماشية، لكن إذا مضغتها جيدًا، فسوف يمكنك ابتلاعها. ذات مرة أمسكنا بطائر شحرور جريح عن طريق تغطيته ببطانية، وظننا أننا قد نصنع منه فطيرة، كما في أغنية الأطفال الشهيرة. لكننا لم نستطِع أن نجبر أنفسنا على قتل الطائر، وعلى أي حال، لم يبدُ صالحًا للأكل من شدة هزاله.

سمعنا عن طبق يدعى "سلطة البوك"، وبما أن هناك رقعة كبيرة من نبات "البوكويد" تنمو خلف منزلنا، قررت أنا وبراين تجربته. إذا كان طعمه جيدًا، فسيكون لدينا مصدر جديد للطعام. في البداية، جربنا أكل النبات نيئًا، لكنه كان مرًا للغاية، لذلك غليناه بينما كنا نغني "بوك سالاد آني" بحماس، لكنه ظل بطعم لاذع وقاسي الألياف، وبعد ذلك أصابتنا حكة في ألسنتنا استمرت لأيام.

ذات يوم، بينما كنا نبحث عن الطعام، تسللنا من نافذة منزل مهجور. كانت الغرف ضيقة وأرضياتها ترابية، لكننا وجدنا في المطبخ رفوفًا مليئة بالعلب الغذائية.

صرخ براين: "غنيمة!".

قلتُ بحماس: "حان وقت الوليمة!".

كانت العلب مغطاة بالغبار وبدأت تصدأ، لكننا افترضنا أن الطعام لا يزال صالحًا للأكل، فالغرض الأساسي من التعليب هو الحفظ. ناولت براين علبة طماطم، فأخرج سكينه الصغيرة. وما إن ثقَب العلبة حتى انفجرت في وجهه، فغمرتنا عصارة بنية غازية. حاولنا فتح بعض العلب الأخرى، لكنها انفجرت أيضًا، فعدنا إلى المنزل، دون أن نأكل شيئًا، وملابسنا ملطخة ببقع الطماطم الفاسدة.

عندما التحقت بالصف السادس، بدأ بقية الأطفال الآخرين يسخرون مني، ومن براين بسبب نحافتنا الشديدة. كانوا يُطلقون عليّ ألقابًا مثل: "سيقان العنكبوت"، و"فتاة الهيكل العظمي"، و"منظف الأنابيب"، و"لوح الخشب"، و"مؤخرة نحيلة"، و"امرأة العصا"، و"عمود الفاصولياء"، و"الزرافة". وكانوا يقولون إنني يمكنني البقاء جافة تحت المطر بمجرد الوقوف تحت سلك الهاتف.

خلال وقت الغداء، بينما كان الأطفال الآخرون يفتحون شطائرهم، أو يشترون وجباتهم الساخنة، كنت أنا وبراين نخرج كتبنا ونقرأ. كان براين يخبر الجميع أنه بحاجة إلى الحفاظ

على وزنه منخفضًا، لأنه يريد الانضمام إلى فريق المصارعة عندما يلتحق بالمدرسة الثانوية. أما أنا، فكنت أدّعي أنني نسيت إحضار غدائي. لم يصدقني أحد، فبدأت أختبئ في الحمام خلال فترة الغداء. كنت أجلس في أحد الأكشاك، وأغلق الباب بالمفتاح، وأرفع قدمي حتى لا يتمكن أحد من التعرف على حذائي.

عندما كانت الفتيات الأخريات يرمين أكياس غدائهن في سلال القمامة، كنت أذهب لأستعيدها. لم أستطِع تجاوز حقيقة أن الأطفال يرمون كل هذا الطعام الجيد: تفاح، وبيض مسلوق، وعبوات بسكويت بزبد الفول السوداني، وشرائح مخلل، وعبوات حليب صغيرة، وشطائر جبن لم يؤكل منها سوى قضمة واحدة، لأن الطفل لم يعجبه الفلفل الأحمر داخل الجبن. كنت أعود إلى الكشك، وألتهم غنائمي الشهية.

في بعض الأحيان، كان هناك طعام في سلة المهملات أكثر مما يمكنني تناوله. في المرة الأولى التي عثرت فيها على طعام زائد -شطيرة من اللحم البارد والجبن- وضعته في حقيبتي لآخذه لبراين. لكن في أثناء جلوسي في الفصل، بدأت أشعر بالقلق حول كيفية تبرير الأمر له. كنت متأكدة تقريبًا من أنه كان يبحث في القمامة أيضًا، لكننا لم نتحدث عن هذا الأمر أبدًا.

بينما كنت أحاول ابتكار طريقة لإقناع براين، بدأت رائحة اللحم البارد تنتشر من الحقيبة، كأنها تملأ الغرفة بأكملها. شعرت برعب شديد من أن زملائي قد يشمونها أيضًا، ومن ثم يلتفتون إليّ، ويرون حقيبتي الممتلئة، ولأنهم جميعًا يعلمون أنني لا أتناول الغداء أبدًا، سيدركون أنني أخذته من سلة المهملات. بمجرد انتهاء الحصة، هرعت إلى الحمام، ورميت الشطيرة مجددًا في سلة المهملات.

كانت مورين دائمًا ما تحصل على ما يكفيها من الطعام، لأنها كونت صداقات في جميع أنحاء الحي، وتذهب إلى منازلهم وقت العشاء. لم تكن لديَّ أدنى فكرة عن كيفية تدبر أمي ولوري لأمر طعامهما. الغريب أن أمي كانت تزداد وزنًا. في إحدى الليالي، عندما كان والدي غائبًا، ولم يكن لدينا أي طعام، كنا جميعًا نجلس في غرفة المعيشة محاولين عدم التفكير

في الطعام. لكن أمي كانت تختفي بين الحين والآخر تحت البطانية على سرير الأريكة. في لحظة ما، نظر إليها براين.

سأل: "هل تمضغين شيئًا؟".

قالت أمي: "أسناني تؤلمني"، لكنها بدأت تتلفت حولها بقلق، متجنبة نظراتنا. "إنها لِثَتي الملتهبة. أحرك فكي لتحسين الدورة الدموية".

سحب براين الغطاء إلى الخلف. كان ملقى بجوار أمي على الفراش لوح شكولاتة هيرشي عائلي ضخم، وقد تمزقت لفافته الفضية اللامعة إلى النصف تقريبًا. كانت قد التهمت نصفه بالفعل.

بدأت أمي تبكي. شهقت قائلة: "لا يمكنني التحكم في الأمر. أنا مدمنة على السكر، تمامًا كما أن والدكم مدمن على الشراب".

قالت لنا إنه يجب علينا مسامحتها، تمامًا كما كنا نسامح أبي دائمًا على إدمانه. لم ينطق أيّ منا بكلمة. أمسك براين بلوح الشكولاتة، وقسمه إلى أربعة أجزاء. وبينما كانت أمي تحدق بنا، التهمناها بسرعة.

كان الشتاء قاسيًا ذلك العام. بعد عيد الشكر مباشرة، بدأ الثلج يتساقط، وكانت أولى زخاته على شكل رقاقات كبيرة ورطبة بحجم الفراشات، تتهادى ببطء نحو الأرض. ثم تبعتها رقاقات أصغر وأكثر جفافًا، واستمرت في الهطول لأيام. في البداية، أحببت الشتاء في ويلش. فقد غطى الثلج الكثيف طبقات السخام، مما جعل المدينة بأكملها تبدو نظيفة ودافئة. حتى منزلنا بدا شبيهًا ببقية المنازل في شارع ليتل هوبرت.

بسبب زمهرير البرد، تكسرت الأغصان اليافعة الهشة في الهواء الجليدي، ولم أكد أشعر بذلك حتى بدأت أرتعد بردًا. لم يكن لديّ سوى معطف صوفي رقيق بأزراره المفقودة منذ زمن. في الداخل، لم يكن الوضع أفضل كثيرًا، صحيح أن لدينا موقد فحم، لكن لم يكن

لدينا فحم كي نحرقه. كان هناك اثنان وأربعون بائعًا للفحم مدرجين في دليل الهاتف الخاص بويلش. كانت تكلفة الطن الواحد، الذي يكفي طوال الشتاء، حوالي خمسين دولارًا، مع خدمة التوصيل، أو حتى ثلاثين دولارًا للفحم الأقل جودة. قالت أمي إنها آسفة، لكن ميزانيتنا لا تسمح بشراء الفحم. لذا كان علينا أن نبتكر طرقًا أخرى لنبقى دافئين.

كانت تتساقط دائمًا قطع الفحم الصغيرة من الشاحنات في أثناء قيامها بالتوصيل، واقترح براين أن نحضر دلوًا، ونبدأ جمع بعضها. كنا نسير على طول شارع ليتل هوبرت، نجمع قطع الفحم، عندما مرت بجانبنا عائلة نوي بسيارتهم العائلية. كانت الفتاتان كارين وكارول نوي تجلسان في المقعد المواجه للخلف، تنظران إلينا عبر النافذة الخلفية. صرخت: "نحن نعمل على مجموعتنا من الصخور!".

لكن القطع التي وجدناها كانت صغيرة جدًا، وبعد ساعة، لم يكن لدينا سوى نصف دلو فقط. كنا بحاجة إلى دلو كامل على الأقل لإبقاء النار مشتعلة طوال المساء. لذلك، على الرغم من أننا كنا نخرج أحيانًا لجمع الفحم، اعتمدنا في الغالب على الحطب. لكننا لم نكن قادرين على شراء الحطب، تمامًا كما لم نستطِع شراء الفحم، ولم يكن والدي موجودًا ليقطعه لنا، مما جعل الأمر متروكًا لنا، نحن الأطفال، للبحث عن أغصان الأشجار الميتة وجذوعها في الغابة.

كان العثور على حطب جاف أمرًا صعبًا. كنا ننطلق على سفح الجبل، نبحث عن قطع غير مشبعة بالماء أو متعفنة، ونهز الأغصان لإسقاط الثلج عنها. لكننا كنا نحرق الحطب بسرعة، وبينما يمنح الفحم حرارة شديدة، لم تكن نار الحطب تمنحنا سوى قليل من الدفء. كنا نتجمع جميعًا حول الموقد الحديدي، متدثرين بالبطانيات، نمد أيدينا نحو تلك الحرارة الضعيفة والممزوجة بالدخان. قالت أمي إنه ينبغي أن نشعر بالامتنان، فقد كانت حالنا أفضل من حال الرواد الأوائل، الذين لم تكن لديهم نوافذ زجاجية ولا مواقد من الحديد الزهر.

في أحد الأيام، نجحنا في إشعال نار قوية، لكن رغم ذلك، كان بإمكاننا رؤية أنفاسنا تتكثف في الهواء، والجليد يغطي كلا جانبي النوافذ. قررت أنا وبراين، أننا بحاجة إلى جعل النار أكثر لهيبًا، فخرجنا لجمع مزيد من الحطب. قال براين فجأة في أثناء عودتنا من جمع الحطب: "لا يوجد ثلج على سقف بيتنا". كان محقًا. فقد ذاب تمامًا. قال وهو يتفحص المنازل الأخرى: "كل البيوت الأخرى لا تزال أسطحها مغطاة بالثلج". وكان محقًا في ذلك أيضًا.

ثم استدار نحو أمي وقال: "هذا البيت لا يحتوي على ذرة من العزل الحراري، فالحرارة كلها تتسرب مباشرة عبر السقف".

قالت أمي وهي تحتضننا قرب الموقد: "قد لا يكون لدينا عزل، لكن لدينا بعضنا البعض".

أصبح الطقس في المنزل قارسًا لدرجة أن رقاقات الجليد تدلت من سقف المطبخ، وتصلبت المياه في الحوض حتى أصبحت كتلة صلبة، والتصقت الصحون المتسخة فيه كما لو كانت مغروزة في الإسمنت. حتى وعاء الماء الذي كنا نحتفظ به في غرفة المعيشة لغسل أيدينا كان يتجمد عادةً بطبقة من الجليد. كنا نتنقل في أرجاء المنزل مرتدين معاطفنا متدثرين بالبطانيات. بل حتى في أثناء النوم كنا نرتدي معاطفنا. لم يكن هناك موقد في غرفة النوم، ومهما وضعت على نفسي من بطانيات، كنت أظل أشعر بالبرد. كنت أبقى مستيقظة ليلًا، أفرك قدميّ بيدَيّ، في محاولة لتدفئتهما.

كنا نتشاجر حول من سينام مع الكلبين -تينكل، كلب الجاك راسل الصغير، وبيبين، الكلب المهجن المجعد الذي ظهر ذات يوم من الغابة- لأنهما كانا يمنحاننا بعض الدفء. لكن في نهاية المطاف، كان ينتهي بهما الأمر دائمًا مع أمي، لأنها كانت الأكبر حجمًا، ولأنهما، مثلنا، كانا يشعران بالبرد أيضًا. اشترى براين إجوانا (نوع من السحالي الكبيرة) من متجر جي. سي. ميرفي، ذلك المتجر الصغير الكائن بشارع ماكدويل، لأنها ذكرته بالصحراء. أطلق على السحلية اسم "إيجي" وكان ينام معها ملاصقة لصدره ليبقيها دافئة، لكنها تجمدت حتى الموت ذات ليلة.

كان علينا أن نترك الصنبور أسفل المنزل يقطر باستمرار حتى لا تتجمد المياه في الأنابيب. لكن عندما كان الطقس يشتد برودة، كانت المياه تتجمد على أي حال، لنستيقظ صباحًا فنجد مكعبًا جليديًا عملاقًا يتدلى من الصنبور. حاولنا إذابة الجليد في الأنبوب بتمرير قطعة خشب مشتعلة على طول الأنبوب، لكنه كان متجمدًا لدرجة أنه لا شيء كان يجدي نفعًا، ولم يكن أمامنا سوى الانتظار حتى تأتي موجة الدفء القادمة. عندما كان الأنبوب يتجمد تمامًا، كنا نحصل على الماء بإذابة الثلج أو رقاقات الجليد في قدر صفيح فوق الموقد الحديدي.

وفي بعض الأحيان، عندما لم يكن هناك ما يكفي من الثلج، كانت أمي ترسلني إلى جارنا، السيد فريمان، وهو عامل منجم متقاعد، لأستعير دلوًا من الماء. كان يعيش مع ابنه وابنته البالغين، بينات وبريسي. لم يرفض طلبي قط بشكل مباشر، لكنه كان ينظر إليّ صامتًا للحظات، ثم يهز رأسه، ويختفي داخل المنزل. وعندما كان يسلم لي الدلو، كان يهز رأسه باشمئزاز مرة أخرى، حتى بعد أن طمأنته بأن بإمكانه أخذ ما يشاء من الماء عند حلول الربيع.

قلتُ: "أنا أكره الشتاء".

قالت أمي: "لكل فصل ما يميزه. الطقس البارد مفيد، فهو يقتل الجراثيم".

وقد بدا أن هذا صحيح، إذ لم يمرض أيّ منا من قبل. لكن حتى لو استيقظت ذات صباح بحمى شديدة، ما كنت لأعترف بذلك لأمي، لأن المرض قد يعني البقاء في منزلنا المتجمد بدلًا من قضاء اليوم في فصل دراسي دافئ.

كان هناك شيء آخر جيد في الطقس البارد، وهو أنه يقلل من انتشار الروائح. بحلول رأس السنة، كنا قد غسلنا ملابسنا مرة واحدة فقط منذ تساقط الثلج الأول في شهر نوفمبر. في الصيف، اشترت أمي غسالة بدواسة مثل تلك التي كنا نملكها في فينيكس، واحتفظنا بها في المطبخ. عندما كانت لدينا كهرباء، كنا نغسل الملابس، وننشرها على الشرفة الأمامية

حتى تجف. لكن حتى عندما كان الطقس دافئًا، كانت الملابس تحتاج إلى أيام حتى تجف تمامًا، بسبب الرطوبة المستمرة في تلك المنطقة الجبلية. لكن عندما أصبح الطقس باردًا أصبح الغسيل مشكلة حقيقية. في إحدى المرات القليلة التي غسلنا فيها ملابسنا خلال الشتاء، تجمدت على الشرفة. عندما أحضرناها إلى الداخل، كانت الجوارب متصلبة على شكل علامات استفهام، والسراويل قاسية لدرجة أنه كان يمكن إسنادها إلى الحائط. بدأنا نضربها على الموقد في محاولة لتليينها. قالت لوري: "على الأقل، لسنا بحاجة إلى شراء النشا!".

لكن بحلول طقس يناير البارد، كانت رائحتنا قد أصبحت لا تطاق لدرجة أن أمي قررت أنه حان وقت بعض الرفاهية: سنذهب إلى المغسلة العامة. وضعنا ملابسنا المتسخة في أكياس الوسائد، وحملناها على ظهورنا وصولًا إلى شارع ستيوارت.

وضعت أمي الكيس المحمل بالملابس على رأسها، كما تفعل النساء في إفريقيا، وحاولت أن تجعلنا نفعل الشيء نفسه. قالت إن ذلك مفيد لظهورنا وأسهل على عمودنا الفقري، لكن لم تكن هناك أي فرصة لأن نُرى في شوارع ويلش حاملين أكياس الغسيل فوق رءوسنا. كنا نسير خلفها، حاملين أكياسنا على أكتافنا، نحدق بالناس بعينين متدحرجتين لنريهم أننا نتفق معهم: المرأة التي تسير، وعلى رأسها كيس بدت غريبة للغاية.

كانت المغسلة العامة، ذات النوافذ المغطاة ببخار الماء، دافئة ورطبة كحمام تركي. سمحت لنا أمي بوضع العملات في الغسالات، ثم تسلقنا وجلسنا فوقها. كان دفء المحركات المرتجفة ينتقل من تحتنا إلى كامل أجسامنا. بعد انتهاء الغسيل، ألقينا أكوام الملابس المبللة في المجففات، وأخذنا نراقبها وهي تتقلب داخلها كأنها في رحلة ترفيهية داخل مدينة ملاهٍ. وحين انتهت الدورة، سحبنا الملابس الساخنة، ودفنّا وجوهنا فيها. نشرناها على الطاولات، وبدأنا نطويها بعناية، محاذين أكمام القمصان، ومساوين درزات السراويل، ونجمع الجوارب في أزواج. لم نكن نكلف أنفسنا عناء طي الملابس في المنزل، لكن المغسلة كانت دافئة ومريحة إلى حد أننا كنا نبحث عن أي عذر لإطالة بقائنا فيها.

وعندما جاء الدفء المفاجئ في شهر يناير، بدت الأخبار جيدة في البداية. لكن مع ذوبان الثلوج، أصبح الخشب في الغابة مشبعًا بالماء تمامًا. لم نتمكن من إشعال النار إلا بصعوبة، فكانت مجرد دخان متصاعد. وعندما كان الخشب مبتلًا، كنا نستخدم الكيروسين، الذي كنا نحتفظ به لمصابيح الإنارة، لنشعل النار. كان أبي يزدري استخدام الكيروسين كوسيلة لإشعال النار. لم يكن أي مستكشف حقيقي ليتنازل عن كبريائه إلى هذا الحد. إضافة إلى ذلك، لم يكن الكيروسين رخيصًا، ولم يكن يمنح حرارة قوية، لذلك كنا نحتاج إلى كميات كبيرة منه فقط لنشعل النار. كان الأمر خطيرًا أيضًا. قال أبي إنه إذا لم تكن حذرًا في استخدام الكيروسين، فقد ينفجر. لكن مع ذلك، إذا كان الحطب مبللًا، ولم يكن يشتعل بسهولة، وكنا جميعًا نشعر بالبرد القارس، كنا نسكب عليه قليلًا من الكيروسين.

في أحد الأيام، صعدت أنا وبراين إلى التل لمحاولة العثور على بعض الحطب الجاف، بينما بقيت لوري في المنزل تغذي النار. وبينما كنا نزيل الثلج عن بعض الأغصان التي بدت واعدة، سمعنا دويًا عاليًا قادمًا من المنزل. التفتُّ فرأيت ألسنة اللهب تتصاعد داخل النوافذ.

أسقطنا الحطب من أيدينا، واندفعنا عائدين نحو المنزل. كانت لوري تتعثر في أنحاء غرفة المعيشة، وقد احترق حاجباها وغرتها بالكامل، ورائحة الشعر المحترق تملأ المكان. كانت قد استخدمت الكيروسين لمحاولة إشعال النار بشكل أفضل، فانفجر تمامًا كما قال أبي. لم يحترق شيء في المنزل سوى شعر لوري، لكن الانفجار دفع معطفها وتنورتها إلى الخلف، وأحرقت النيران فخذيها. خرج براين وأحضر بعض الثلج، وبدأنا نضعه على ساقيها، اللتين تحول لونهما إلى الوردي الداكن. في اليوم التالي، ظهرت بثور على طول فخذيها.

قالت أمي بعد أن فحصت البثور: "فقط تذكري، ما لا يقتلكِ يجعلكِ أقوى".

قالت لوري: "لو كان ذلك صحيحًا، لكنت هرقل الآن".

بعد أيام، عندما انفجرت البثور، سال منها سائل شفاف حتى وصل إلى قدميها. لأسابيع، كانت الجروح في مقدمة ساقيها مفتوحة، وكانت شديدة الحساسية لدرجة أنها كانت تجد صعوبة في النوم تحت الأغطية. لكن بحلول ذلك الوقت، كانت درجة الحرارة قد انخفضت مرة أخرى، وإذا دفعت الأغطية بعيدًا عنها، كانت تتجمد من البرد.

في أحد أيام ذلك الشتاء، ذهبت إلى منزل إحدى زميلاتي في الصف للعمل على مشروع مدرسي. كان والد كاري ماي بلانكنشيب مسئولًا إداريًا في مستشفى مقاطعة ماكدويل، وكانت عائلتها تعيش في منزل صلب مبني من الطوب في شارع ماكدويل. كانت غرفة المعيشة مزينة بدرجات من اللونين البرتقالي والبني، وكان نمط الستائر المربع متطابقًا مع تنجيد الأريكة. وعلى الحائط، كانت هناك صورة مؤطرة لشقيقة كاري ماي الكبرى في ثوب تخرجها في المدرسة الثانوية، مضاءة بمصباح صغير خاص بها، تمامًا كما في المتاحف.

كان هناك أيضًا صندوق بلاستيكي صغير على الحائط بالقرب من باب غرفة المعيشة، تتراص عليه أرقام صغيرة تحت ذراع تحكم. رأى والد كاري ماي أنني كنت أتأمل الصندوق، بينما كانت هي خارج الغرفة. قال لي: "إنه منظم الحرارة. تحركين الذراع لجعل المنزل أكثر دفئًا أو برودة".

ظننت أنه يمزح معي، لكنه حرك الذراع، فسمعت هديرًا مكتومًا ينبعث من الطابق السفلي.

قال: "هذا هو الفرن".

قادني إلى فتحة تهوية في الأرض، وطلب مني أن أضع يدي فوقها لأشعر بالهواء الدافئ يتصاعد منها. لم أُرِد أن أقول شيئًا يظهر مدى انبهاري، لكن لعدة ليالٍ بعد ذلك، كنت أحلم بأن لدينا منظم حرارة في منزلنا في 93 شارع ليتل هوبرت. كنت أحلم بأنه كل ما علينا فعله لملء منزلنا بذلك الدفء النظيف المنبعث من الفرن هو تحريك ذراع صغيرة.

توفيت إرما خلال آخر موجة صقيع شديدة في نهاية شتائنا الثاني في ويلش. قال أبي إن كبدها ببساطة توقف عن العمل. أما أمي فكانت ترى أنها كانت تثمل حتى الموت. قالت: "لقد كان انتحارًا بكل معنى الكلمة، تمامًا كما لو أنها وضعت رأسها في الفرن، لكن ببطء".

بغض النظر عن السبب، كانت إرما قد أعدت ترتيبات مفصلة لوفاتها. لسنوات، كانت تقرأ صحيفة "ذا ويلش ديلي نيوز" فقط للاطلاع على النعي وإعلانات التأبين ذات الحواف السوداء، وكانت تقصها وتحتفظ بالمفضلة لديها. كانت تلك الإعلانات مصدر إلهام لها لإعلان وفاتها الخاص، الذي ظلت تعمل عليه، وتعيد كتابته على نحو متكرر. كما أنها كتبت صفحات من التعليمات حول كيفية تنظيم جنازتها. اختارت جميع التراتيل والصلوات، وحددت دار الجنازات المفضلة لديها، وطلبت قميص نوم من الدانتيل الأرجواني من "جي سي بيني" لتُدفن به، واختارت نعشًا أرجوانيًا ذا درجتين من اللون، بمقابض كرومية لامعة، من كتالوج متعهد الدفن.

أبرز موت إرما الجانب المتدين لدى أمي. بينما كنا ننتظر القس، أخرجت مسبحتها وابتهلت من أجل روح إرما، التي كانت تخشى عليها من المصير المحتوم، إذ كانت تعتقد أنها انتحرت. حاولت أيضًا إقناعنا بتقبيل جثمان إرما، لكننا رفضنا رفضًا قاطعًا. مع ذلك، تقدمت أمي أمام المُعزّين، وانحنت باحترام، ثم قبّلت خد إرما بقوة سُمِعَ صوتها في أرجاء دار العبادة.

كنت أجلس بجوار أبي. كانت تلك أول مرة في حياتي أراه فيها مرتديًا ربطة عنق، التي كان يطلق عليها دائمًا اسم "حبل المشنقة". كان وجهه متجهمًا ومغلقًا، لكنني كنت أعلم أنه كان يعاني في داخله. كان مضطربًا أكثر من أي وقت مضى، وهو الأمر الذي فاجأني، لأن إرما بدت كأنها تمتلك نوعًا من السيطرة الشريرة على أبي، وكنت أعتقد أنه سيكون مرتاحًا للتحرر منها.

بينما كنا نسير في طريق العودة إلى المنزل، سألتنا أمي إن كنا نملك شيئًا لطيفًا نقوله عن إرما الآن بعد وفاتها. سرنا بضع خطوات في صمت، ثم قالت لوري: "رن الجرس، لقد ماتت

الساحرة".

بدأت أنا وبراين بالقهقهة. استدار أبي فجأة، ونظر إلى لوري بنظرة باردة غاضبة لدرجة أنني ظننت أنه قد يصفعها. قال: "لقد كانت أمي، بحق الرب". ثم نظر إلينا بغضب. "أنتم أيها الأطفال، تجعلونني أشعر بالخزي. هل تسمعونني؟ بالخزي!".

ثم انحرف باتجاه حانة جونيور. وقفنا جميعًا نشاهده يبتعد. صاحت لوري خلفه: "أنت تشعر بالخزي منا؟".

لكن أبي واصل سيره.

بعد أربعة أيام، عندما لم يعد أبي إلى المنزل بعد، أرسلتني أمي للبحث عنه. قلت: "لماذا يجب أن أكون أنا دائمًا من يبحث عن أبي؟".

قالت: "لأنه يحبكِ أكثر من البقية". ثم أضافت: "وسيعود إلى المنزل إذا طلبتِ منه ذلك".

كانت خطوتي الأولى في البحث عن أبي هي الذهاب إلى منزل آل فريمان المجاور، حيث كانوا يسمحون لنا باستخدام هاتفهم مقابل عشرة سنتات، والاتصال بجدي لأسأله إن كان أبي هناك. قال جدي إنه لا يعرف أين هو.

قال السيد فريمان بعد أن أغلقت الهاتف: "متى ستحصلون على هاتفكم الخاص؟".

وضعت القطعة النقدية على طاولة قهوته وقلت: "أمي لا تحب الهواتف، فهي تعتقد أنها وسيلة تواصل غير شخصية".

كانت محطتي الأولى، كما هي الحال دائمًا، هي حانة جونيور. كانت أفخم حانة في ويلش، بنافذة زجاجية كبيرة، وشواية تقدم البرجر والبطاطا المقلية، وآلة بينبول.

عندما دخلت، ناداني أحد الزبائن المعتادين قائلًا: "إنها ابنة ريكس الصغيرة! كيف حالكِ يا عزيزتي؟".

قلت: "أنا بخير، شكرًا لك. هل والدي هنا؟".

التفت إلى الرجل الذي بجواره وقال: "ريكس؟ أين ذلك العجوز اللعين ريكس؟".

قال الآخر: "رأيته هذا الصباح في حانة هاودي هاوس".

قال لي الساقي: "عزيزتي، تبدين بحاجة إلى استراحة. اجلسي وتناولي شراب الكوكاكولا على حسابي".

قلت: "لا، شكرًا لك. لديّ أشياء مهمة أكثر عليّ القيام بها".

ذهبت إلى حانة هاودي هاوس، التي كانت أقل شأنًا من جونيور. كانت أصغر حجمًا وأكثر قتامة، والطعام الوحيد الذي تقدمه هو البيض المخلل. أخبرني الساقي أن أبي ذهب إلى الحانة التالية، التي كانت أقل شأنًا حتى من هاودي هاوس، شبه مظلمة تمامًا، بطاولة بار لزجة، ولا تقدم أي طعام على الإطلاق. وهناك كان، جالسًا وسط عدد من الزبائن المعتادين، يروي إحدى قصصه عن القوات الجوية.

عندما رآني، توقف عن الكلام، ونظر إليّ بالطريقة نفسها التي ينظر بها إليّ في كل مرة أضطر فيها إلى البحث عنه في إحدى الحانات. كانت دائمًا لحظة محرجة لكلينا. لم أكن أرغب في البحث عنه أكثر مما كان هو يرغب في أن تأتي ابنته الصغيرة الرثة لاستدعائه إلى المنزل كصبي مشاغب. حدق بي للحظة بنظرة باردة وغريبة، ثم انفجر في ابتسامة واسعة.

صرخ: "يا عنزة الجبل! ما الذي تفعلينه في هذا الوكر؟".

قلت: "أمي تقول إن عليك العودة إلى المنزل". قال متسائلًا: "أهذا صحيح؟" ثم طلب لي مشروب كوكاكولا، وطلب لنفسه مشروبًا آخر. ظللت أخبره أن الوقت قد حان للذهاب، لكنه استمر في تأجيل الأمر، وطلب مزيدًا من الجرعات، كأنه كان بحاجة إلى ابتلاع عدد منها

قبل أن يتمكن من مواجهة المنزل. ترنح نحو الحمام، ثم عاد، وطلب واحدة أخيرة على الطريق، ثم ضرب كأس الجرعة على البار، ونهض متجهًا إلى الباب. لكنه تعثر وهو يحاول فتحه، وانهار على الأرض. حاولت مساعدته على النهوض، لكنه ظل يتعثر مرة أخرى.

قال رجل خلفي: "عزيزتي، لن تتمكني من أخذه إلى أي مكان بهذه الطريقة". ثم أضاف: "تعالي، سأوصلكما إلى المنزل".

قلت: "أقدّر لك ذلك يا سيدي، إذا لم يكن في الأمر مشقّة عليك".

ساعد بعض الزبائن الآخرين الرجل وأنا في رفع أبي إلى صندوق شاحنته. أسندناه إلى صندوق أدوات. كان ذلك في وقت متأخر من بعد الظهر في أوائل الربيع، وأصحاب المتاجر في شارع ماكدويل كانوا يغلقون متاجرهم متجهين إلى منازلهم. بدأ أبي يغني إحدى أغانيه المفضلة:

تأرجحي بلطف، أيتها العربة المباركة،
التي جاءت لتحملني إلى دياري.

كان صوته الباريتوني قويًا، يتمتع بالدفء والمدى، وعلى الرغم من أنه كان ثملًا، فقد غنى التراتيل الدينية كما لو كان يرفع سقف المكان بصوته.

نظرتُ نحو نهر الأردن، فماذا رأيت؟

قادمًا ليأخذني إلى دياري؟

رأيتُ موكبًا من الملائكة يسعى إليّ،
قادمين ليحملوني إلى موطني الأبدي.

صعدتُ بجانب السائق. وبينما كنا في طريقنا إلى المنزل، وأبي لا يزال يغني في الخلف، مطيلًا كلمة "بلطف" لدرجة أنه بدا كأنه بقرة تئن، سألني الرجل عن المدرسة. أخبرته أنني أدرس بجد، لأنني أريد أن أصبح طبيبة بيطرية أو جيولوجية متخصصة في العصر الميوسيني، عندما تشكلت الجبال في الغرب. كنت أشرح له كيف تتكون الجيودات من فقاعات في الحمم البركانية عندما قاطعني. قال: "بالنسبة إلى ابنة سكير البلدة، يبدو أن لديكِ خططًا كبيرة حقًا".

قلت: "أوقف الشاحنة، يمكننا أن نكمل طريقنا بمفردنا من هنا".

قال: "أوه، لم أقصد شيئًا بذلك، وأنتِ تعلمين أنكِ لن تتمكني من إيصاله إلى المنزل بمفردكِ".

رغم ذلك، توقف. فتحت باب الشاحنة الخلفي، وحاولت سحب أبي إلى الخارج، لكن الرجل كان محقًا، لم أستطِع فعل ذلك. لذا عدتُ إلى مقعدي بجوار السائق، وطويت ذراعي على صدري، وحدقتُ إلى الأمام. عندما وصلنا إلى 93 شارع ليتل هوبرت، ساعدني في إخراج أبي.

قال لي الرجل: "أعلم أنكِ شعرتِ بالإهانة مما قلته، لكنني قصدت به الإطراء".

ربما كان يجب أن أشكره، لكنني انتظرت حتى غادر بسيارته، ثم ناديتُ براين ليساعدني في حمل أبي إلى أعلى التل وإدخاله إلى المنزل.

بعد بضعة أشهر من وفاة إرما، غفا العم ستانلي في القبو في أثناء قراءة القصص المصورة وتدخين سيجارة. احترق البيت الخشبي الكبير بالكامل، لكن جدي وستانلي نَجَوَا، وانتقلا للعيش في شقة صغيرة من دون نوافذ في قبو منزل قديم حول التل. كان تجار المخدرات الذين عاشوا هناك قبلهم قد نشروا الشتائم والأنماط النفسية على الجدران والأنابيب في السقف. لم يَطلِها المالك، ولم يفعل جدي وستانلي أيضًا.

كان لدى الجد والعم ستانلي حمام صالح للاستخدام، لذا كنا نذهب هناك في عطلة نهاية الأسبوع للاستحمام. في إحدى المرات كنت أجلس بجوار العم ستانلي على الأريكة في غرفته، نشاهد برنامج Hee Haw وأنتظر دوري في الحمام. كان جدي في نادٍ اجتماعي يقضي فيه معظم يومه، وكانت لوري تغتسل، وأمي كانت تجلس عند الطاولة في غرفة جدي تحل الكلمات المتقاطعة. شعرت بيد ستانلي تزحف على جسمي. نظرت إليه، لكنه كان يحدق بالفتيات الراقصات في البرنامج بتركيز شديد لدرجة أنني لم أكن متأكدة إن كان يفعل ذلك عمدًا، لذا دفعت يده بعيدًا، دون أن أقول شيئًا. بعد لحظات، عادت اليد تتحرك مرة أخرى. نظرتُ إلى الأسفل، فرأيتُ أن العم ستانلي كان يفعل فعلًا شائن. شعرت بالرغبة في ضربه، لكنني كنت خائفة من أن أتعرض للمشكلات مثلما حدث مع لوري عندما ضربت إرما، لذا هرعت إلى أمي.

قلت: "أمي، العم ستانلي يتصرف على نحو غير لائق".

قالت: "أوه، ربما تتخيلين الأمر".

صرخت: "لقد تحسسني! وكان يتصرف بوقاحة!".

أمالت أمي رأسها وبدت قلقة. قالت: "المسكين ستانلي، إنه وحيد للغاية".

قلت: "لكنه كان مقززًا!".

سألتني أمي إن كنت بخير. هززت كتفي وأومأت برأسي. قالت: "إذًا، ها أنت ذي على ما يرام. كثير من النساء يبالغن في هذه الأمور، لكنكِ أقوى من ذلك". وعادت أمي إلى حل كلماتها المتقاطعة.

بعد ذلك، رفضتُ الذهاب إلى منزل جدي مرة أخرى. أن أكون قوية كان أمرًا جيدًا، لكن آخر ما كنت أحتاج إليه هو أن يعتقد العم ستانلي أنني أعود من أجل مزيد من عبثه. كنت أفعل كل ما يتطلبه الأمر للاستحمام في شارع ليتل هوبرت. في المطبخ، كان لدينا حوض من

الألمنيوم يمكنك الجلوس فيه إذا ضممت ساقيك إلى صدرك. بحلول ذلك الوقت، أصبح الطقس دافئًا بما يكفي لملء الحوض بالماء من الصنبور تحت المنزل والاستحمام في المطبخ. بعد الاستحمام، كنتُ أجثو بجانب الحوض، وأغمر رأسي في الماء لأغسل شعري. لكن حمل كل تلك الدلاء من الماء إلى المنزل كان عملًا شاقًا، لذا كنتُ أؤجل الاستحمام حتى أشعر بأني بحاجة ماسة إلى ذلك.

في فصل الربيع، جاءت الأمطار، وأغرقت الوادي بأمطار متساقطة لأيام متتالية. انهمر الماء على التلال، وجرف معه الصخور والأشجار الصغيرة، وغطى الطرق، وجرد الأسفلت. انسكب الماء في الجداول، التي انتفخت وتحولت إلى اللون البني الفاتح الرغوي، مثل مخفوق الشكولاتة. صبت الجداول في نهر "تَج" الذي فاض على ضفتيه، وغمر المنازل والمتاجر على طول شارع ماكدويل. كان الطين بعمق أربعة أقدام في بعض المنازل، وجرفت المياه شاحنات البيك أب والمنازل المتنقلة. في بوفالو كريك هولو، انهار حاجز منجم، واندفعت موجة من المياه السوداء بارتفاع ثلاثين قدمًا، وقتلت 126 شخصًا. قالت أمي إن هذا كان انتقام الطبيعة من الرجال الذين اغتصبوا ونهبوا الأرض، مدمرين نظام الصرف الطبيعي الخاص بالطبيعة من خلال قطع الغابات والتعدين السطحي للجبال.

كان شارع ليتل هوبرت مرتفعًا جدًا في الوادي، لدرجة أنه لم يتعرض للفيضان، لكن المطر جرف أجزاءً من الطريق إلى ساحات المنازل التي تقع أسفلنا. كما جرف الماء بعض التربة حول الأعمدة القائم عليها منزلنا، مما جعله أكثر هشاشة. اتسعت الفجوة في سقف المطبخ، ثم بدأ السقف في الجانب الخاص ببراين ومورين في غرفة النوم بالتسريب. كان براين ينام في السرير العلوي، وعندما كان المطر يهطل، كان يضع مشمعًا فوقه ليحمي نفسه من قطرات الماء المتساقطة.

كان كل شيء في المنزل رطبًا. انتشرت طبقة رقيقة من العفن الأخضر الرفيع على الكتب والأوراق واللوحات التي كانت مكدسة بارتفاعات كبيرة، وفي أماكن عميقة لدرجة أنك بالكاد تستطيع عبور الغرفة. نبتت الفطريات الصغيرة في الزوايا. أكلت الرطوبة من السلالم

الخشبية المؤدية إلى المنزل، وأصبح صعودها يُشكل خطرًا يوميًا. سقطت أمي عبر إحدى الدرجات المتعفنة، وتدحرجت أسفل التل. كانت الكدمات تغطي ساقيها وذراعيها لأسابيع. كانت تقول عندما يحدق بها الناس: "زوجي لا يضربني، هو فقط يرفض إصلاح الدرج".

بدأت الشرفة أيضًا تتعفن. تآكلت معظم الدرابزينات، وتحولت الألواح الأرضية إلى سطح إسفنجي زلق بسبب العفن والطحالب. أصبحت مشكلة حقيقية عندما كان عليك الذهاب أسفل المنزل لاستخدام المرحاض ليلًا، وكل واحد منا قد انزلق وسقط من الشرفة على الأقل مرة واحدة. كان السقوط بارتفاع عشرة أقدام على الأرض.

قلت لأمي: "علينا أن نفعل شيئًا حيال وضع الشرفة، أصبح الذهاب إلى الحمام ليلًا خطيرًا للغاية". بالإضافة إلى أن المرحاض أسفل المنزل أصبح غير صالح تمامًا للاستخدام. كان قد فاض عن الحد، وكان من الأفضل لك أن تحفر حفرة لنفسك في التل لتستخدمها بدلًا منه.

قالت أمي: "أنتِ على حق، يجب أن نفعل شيئًا".

اشترت دلوًا. كان مصنوعًا من البلاستيك الأصفر، واحتفظنا به على أرضية المطبخ، وكان هذا ما نستخدمه كلما احتجنا إلى الذهاب إلى الحمام. وعندما يمتلئ، يتطوع أحدنا ليحمله إلى الخارج، يحفر حفرة ويفرغه فيها.

في أحد الأيام، بينما كنت أنا وبراين نتجول بحثًا عن أي شيء مفيد حول حافة ممتلكاتنا، التقط براين قطعة من الخشب المتعفن، وهناك بين الحشرات وجدت خاتمًا من الألماس. كان الحجر كبيرًا. في البداية ظننا أنه مجرد خردة جميلة، لكننا نظفناه بالبصاق، وخدشنا الزجاج به كما علمنا أبي، وبدا حقيقيًا. اعتقدنا أنه قد يكون ملكًا للسيدة العجوز التي كانت تعيش هنا من قبل. كانت قد توفيت قبل أن ننتقل. كان الجميع يقول إنها كانت "غريبة الأطوار بعض الشيء".

قلت لبراين: "ما رأيك بقيمته؟".

قال: "ربما أكثر من قيمة المنزل نفسه".

فكرنا في بيع الخاتم وشراء الطعام، وسداد أقساط المنزل -كان والداي يتأخران في تسديد الأقساط الشهرية، وكانت هناك أحاديث عن أننا سنُطرد من المنزل- وربما يتبقى لدينا ما يكفي لشراء شيء خاص بنا، مثل زوج جديد من الأحذية الرياضية لكل منا.

أخذنا الخاتم إلى المنزل وأريناه لأمي. رفعت الخاتم إلى الضوء، ثم قالت إننا نحتاج إلى تقييمه. في اليوم التالي، استقلت أمي حافلة "ترايل وايز" إلى بلوفيلد. وعندما عادت، أخبرتنا أنه كان بالفعل ألماسة حقيقية تزن قيراطين.

قلت: "إذًا ما قيمته؟".

قالت: "هذا لا يهم".

قلت: "لماذا؟".

قالت: "لأننا لن نبيعه".

قالت إنها ستحتفظ به ليحل محل خاتم الزواج الذي أعطته لها والدتها، والذي رهنه أبي بعد زواجهما بفترة وجيزة.

قلت: "لكن يا أمي هذا الخاتم يمكن أن يوفر لنا كثيرًا من الطعام".

قالت أمي: "هذا صحيح، لكنه يمكن أن يعزز تقديري لذاتي أيضًا. وفي أوقات كهذه، يكون تقدير الذات أكثر أهمية من الطعام".

كانت أمي تحتاج حقًا إلى تعزيز تقديرها لذاتها. أحيانًا كانت الأمور تتغلب عليها. كانت تنعزل في سرير الأريكة، وتبقى هناك لأيام متتالية، تبكي وتلقي أحيانًا أشياء علينا. كانت تصرخ بأنها كان يمكن أن تكون فنانة مشهورة لولا إنجابها الأطفال، وأن لا أحد يقدر

تضحياتها. وفي اليوم التالي، إذا مرّت حالة الغضب هذه، كانت تعود إلى الرسم، وهي تدندن كأن شيئًا لم يحدث.

في صباح أحد أيام السبت، بعد وقت قصير من بدء أمي ارتداء خاتمها الألماسي الجديد، كانت في حالة مزاجية جيدة، وقررت أننا جميعًا سننظف المنزل. اعتقدت أن هذه فكرة رائعة. أخبرتُ أمي أنه يجب علينا إفراغ كل غرفة، وتنظيفها جيدًا، وإعادة الأشياء الضرورية فقط. بدا لي أن هذه هي الطريقة الوحيدة للتخلص من هذه الفوضى. لكن أمي قالت إن فكرتي ستستغرق وقتًا طويلًا، وكل ما انتهى بنا الأمر إلى فعله هو ترتيب أكوام الأوراق في رزم متناسقة، وحشو الملابس المتسخة في خزانة الأدراج. أصرت أمي على أن نردد الصلاة "السلام عليكِ يا مريم" بينما نعمل. قالت: "إنها طريقة لتنقية أرواحنا بينما ننظف المنزل، قالت نضرب عصفورين بحجر واحد".

لاحقًا في ذلك اليوم، قالت إن السبب في تغير مزاجها قليلًا هو أنها لم تكن تمارس التمارين الرياضية على نحو منتظم. قالت: "سأبدأ بممارسة تمارين اللياقة البدنية. بمجرد أن تنشط الدورة الدموية، تتغير نظرتك إلى الحياة بالكامل". انحنت ولمست أصابع قدميها.

وعندما اعتدلت، قالت إنها شعرت بتحسن بالفعل، ثم انحنت مرة أخرى للمس أصابع قدميها. كنت أراقبها عند مكتب الكتابة، وذراعاي مطويتان على صدري. كنت أعلم أن المشكلة لم تكن في أن دورتنا الدموية سيئة. لم نكن بحاجة إلى القيام بالتمارين الرياضية. بل كنا بحاجة إلى اتخاذ إجراءات جذرية. كنت قد بلغت الثانية عشرة من العمر، وكنت أفكر مليًا في خياراتنا، وأجري بعض الأبحاث في المكتبة العامة، وأجمع المعلومات حول كيفية نجاة العائلات الأخرى في شارع ليتل هوبرت. توصلت إلى خطة، وكنت أنتظر الفرصة المناسبة لطرحها على أمي. بدا لي أن اللحظة كانت مواتية.

قلت: "أمي، لا يمكننا الاستمرار في العيش بهذا الشكل".

قالت: "ليس سيئًا لهذه الدرجة". وبين كل لمسة لأصابع قدميها، كانت ترفع يديها نحو السماء.

قلت: "لم نأكل شيئًا سوى الفشار لثلاثة أيام".

قالت: "أنتِ دائمًا سلبية جدًا. تذكرينني بأمي - نقد، نقد، نقد".

قلت: "أنا لست سلبية، أنا فقط أحاول أن أكون واقعية".

قالت: "أنا أفعل ما بوسعي في ظل هذه الظروف. لماذا لا تلومين أباكِ أبدًا على أي شيء؟ إنه ليس قديسًا، كما تعلمين".

قلت: "أعلم". مررتُ إصبعي على حافة المكتب. كان والدي دائمًا يضع سجائره هناك، وكانت الحافة مليئة بسلسلة من حروق السجائر السوداء، كأنها إطار زخرفي. قلت: "أمي، عليكِ أن تتركي أبي".

توقفت عن لمس أصابع قدميها. قالت: "لا أصدق أنكِ تقولين ذلك. لا أصدق أنكِ، من بين الجميع، قد تنقلبين على والدكِ". استمرت في الحديث قائلة إنني كنت آخر مُدافع عنه، والوحيدة التي كانت تتظاهر بتصديق كل أعذاره وقصصه، والتي كانت لا تزال تؤمن بخططه للمستقبل. قالت: "إنه يحبكِ كثيرًا. كيف يمكنكِ أن تفعلي هذا به؟".

قلت: "أنا لا ألوم أبي". وكنت صادقة. لكن بدا أن أبي عازم على تدمير نفسه، وكنت أخشى أنه سيجرنا جميعًا معه. قلت: "علينا أن نبتعد".

قالت: "لكن لا يمكنني ترك والدكِ!".

أخبرتُ أمي أنها إذا تركت أبي، فستكون مؤهلة للحصول على إعانة حكومية، وهو شيء لا يمكنها الحصول عليه الآن، لأنها متزوجة من رجل قادر جسديًا على العمل. بعض زملائي في المدرسة -ناهيك بنصف سكان شارع ليتل هوبرت- كانوا يتلقون إعانات حكومية، ولم يكن ذلك الأمر سيئًا للغاية. كنت أعلم أن أمي كانت تعارض فكرة الإعانات، لكن هؤلاء

الأطفال كانوا يحصلون على قسائم غذائية ومخصصات لشراء الملابس. وكانت الدولة تشتري لهم الفحم، وتدفع ثمن وجبات الغداء المدرسية.

لكن أمي رفضت. قالت إن الإعانة ستسبب لنا ضررًا نفسيًا لا يمكن إصلاحه. قالت: "يمكنك أن تشعر بالجوع بين الحين والآخر، لكن بمجرد أن تأكل، ستكون بخير. ويمكنك أن تشعر بالبرد لفترة، لكنك دائمًا ستشعر بالدفء في نهاية المطاف. لكن بمجرد أن تتلقى الإعانة، يتغير كل شيء فيك. حتى لو تمكنت من الخروج منها، فلن يمكنك الهروب من وصمة العار بأنك كنت حالة خيرية. تبقى مُحمّلًا بهذه العلامة مدى الحياة".

قلت: "حسنًا، إذا لم نقبل الإعانات، إذًا احصلي على وظيفة". كان هناك نقص في المعلمين في مقاطعة ماكدويل، تمامًا كما كانت الحال في باتل ماونتن. فكان بإمكانها الحصول على عمل بسهولة، وعندما تحصل على راتب، يمكننا الانتقال إلى شقة صغيرة في المدينة.

قالت: "تبدو تلك حياة سيئة".

قلت: "أسوأ من هذه؟".

صمتت أمي. بدت كأنها تفكر. ثم نظرت إليّ بابتسامة هادئة. وقالت: "لا يمكنني ترك والدكِ. هذا يتعارض مع العقيدة الكاثوليكية". ثم تنهدت وقالت: "وعلى أي حال، أنتِ تعرفين أمكِ. أنا مدمنة على الإثارة".

لم تخبر أمي أبي أبدًا أنني حثثتها على تركه. في ذلك الصيف، كان لا يزال يعتقد أنني أكبر داعميه، وبالنظر إلى قلة المنافسة على هذا الدور، فربما كنت كذلك بالفعل.

في إحدى أمسيات شهر يونيو، كنت أنا وأبي نجلس على الشرفة، وأرجلنا متدلية من الحافة، نحدق بالبيوت الواقعة أسفلنا. كان ذلك الصيف حارًا لدرجة أنني كنت بالكاد أستطيع التنفس. بدا لي أكثر حرارة من فينيكس أو باتل ماونتن، حيث كانت درجات الحرارة تتجاوز المئة درجة، لذلك عندما أخبرني أبي أن الحرارة لا تتجاوز تسعين درجة

فقط، قلت إن مقياس الحرارة لا بد أن يكون معطلًا. لكنه قال لا، لقد اعتدنا حرارة الصحراء الجافة، أما هذه، فهي حرارة رطبة.

أشار أبي إلى أن الجو كان أكثر حرارة في الوادي على طول شارع ستيوارت، حيث تصطف تلك المنازل الطوبية الجميلة ذات الحدائق المربعة الأنيقة والممرات المغطاة بألواح الألمنيوم المموجة. كانت الوديان تحبس الحرارة. أما منزلنا، فقد كان الأعلى على جانب الجبل، مما جعله أبرد بقعة في ويلش. وفي حالة حدوث فيضان -كما رأينا- كان أيضًا الأكثر أمانًا. قال لي: "لم تكوني تعرفين أنني فكرت كثيرًا في المكان الذي يجب أن نعيش فيه، أليس كذلك؟ الأمر كله يتعلق بثلاثة أشياء، يا عنزتي الجبلية: الموقع. الموقع. الموقع".

بدأ أبي يضحك. كانت ضحكته صامتة جعلت كتفيه تهتزان، وكلما ضحك أكثر، بدا الأمر له أكثر طرافة، مما جعله يضحك أكثر فأكثر. لم أستطِع إلا أن أضحك أيضًا، وسرعان ما أصبح كلانا في حالة هستيرية، مستلقيين على ظهرينا، والدموع تنهمر على خدودنا، نضرب أقدامنا على أرضية الشرفة. كنا نكاد نلهث من الضحك، وجوانبنا تتشنج من شدة الضحك، فنظن أن النوبة انتهت، لكن فجأة يبدأ أحدنا بالقهقهة، فيشعل الآخر، وسرعان ما نجد أننا نصرخ من الضحك مرة أخرى مثل الضباع.

كان المصدر الرئيسي للتخفيف من حرارة الصيف للأطفال في ويلش هو المسبح العام، الكائن بجوار خطوط السكك الحديدية قرب محطة إيسو. ذهبت أنا وبراين للسباحة مرة واحدة، لكن إيرني جود وأصدقاءه كانوا هناك، وبدءوا يخبرون الجميع أن آل وولز يعيشون وسط القمامة، وأننا سنجعل مياه المسبح تفوح برائحة كريهة لا تُحتمل. كانت تلك فرصة إيرني جود للانتقام منا بعد معركة شارع ليتل هوبرت. أحد أصدقائه ابتكر مصطلح "وباء صحي"، وبدءوا يخبرون الأهالي والمنقذين أنه يجب طردنا لمنع تفشي الوباء في المسبح. قررت أنا وبراين المغادرة. وبينما كنا نبتعد، ركض إيرني جود نحو السياج المعدني، وصاح بصوت حاد ممتلئ بالانتصار: "عودوا إلى مكب القمامة! هيا عودوا الآن، ولا تأتوا مجددًا!".

بعد أسبوع، مع استمرار موجة الحر، التقيت دينيشيا هيويت في وسط المدينة. كانت قد عادت لتوها من المسبح، وكان شعرها المبلل مربوطًا تحت وشاح. قالت: "يا إلهي! ذلك الماء كان رائعًا"، ولفظت كلمة "رائع" بطريقة جعلتها تبدو كأن بها خمسة عشر حرف "ا". "هل تذهبين للسباحة؟".

قلت: "لا يحبون ذهابنا إلى هناك".

أومأت دينيشيا برأسها، رغم أنني لم أشرح لها السبب. ثم قالت: "لماذا لا تأتين معنا للسباحة في الصباح؟".

فهمتُ أنها تقصد السود الآخرين. لم يكن المسبح منحازًا إلى أي عرق، فقد كان بإمكان أي شخص السباحة في أي وقت -على الأقل من الناحية العملية- لكن الحقيقة كانت أن جميع السود يسبحون في الصباح عندما يكون الدخول مجانيًا، بينما يسبح البيض في فترة ما بعد الظهر عندما يكون الدخول بخمسين سنتًا. لم يكن هذا الترتيب مخططًا له، ولم تكن هناك قواعد تفرضه. هكذا كانت الأمور، ببساطة.

كنت أرغب بشدة في العودة إلى ذلك الماء، لكنني لم أستطِع التخلص من الشعور بأن قبول عرض دينيشيا سيكون بمثابة انتهاك لنوع من المحرمات. سألت: "ألن يغضب أحد؟".

قالت: "لأنكِ بيضاء؟ قد يغضب قومكِ، لكن نحن لن نغضب. ثم إنهم لن يكونوا هناك".

في صباح اليوم التالي، التقيت دينيشيا أمام مدخل المسبح، وكنت أحمل لباس السباحة المكون من قطعة واحدة الذي اشتريته من متجر الملابس المستعملة داخل منشفة رمادية مهترئة. عندما مررنا عبر البوابة، رمقتني الفتاة البيضاء التي كانت تعمل في كشك التذاكر بنظرة متفاجئة، لكنها لم تقل شيئًا. كانت غرفة تبديل النساء مظلمة، وتفوح منها رائحة منظف باين سول، بجدران من كتل الإسمنت وأرضية إسمنتية مبللة. كانت هناك أغنية

روحية تنطلق بصوت عالٍ من جهاز تشغيل أشرطة ثماني المسارات، وكانت جميع النساء السوداوات المكتظات بين المقاعد الخشبية المتآكلة يغنين ويرقصن على الموسيقى.

في غرف تغيير الملابس التي اعتدتُها، كانت النساء البيضاوات يبدين دائمًا قدرًا من الخجل من تعرّيهن، فيلففن مناشف حول خصورهن قبل خلع ملابسهن، لكن هنا كانت معظم النساء عاريات. بعضهن كنّ نحيفات بخصور نحيلة وعظام ترقوة بارزة. بينما كانت أخريات ذوات قوام مُمتلئ، وكنّ يرقصن بحركات مُنسجمة.

بمجرد أن رأتني النساء، توقفن عن الرقص. اقتربت إحداهن ووقفت أمامي، واضعةً يديها على خصرها، قريبةً مني جدًا. أوضحت دينيشيا أنني معها وأنني شخص موثوق. تبادلت النساء النظرات، وهززن أكتافهن بتجاهل.

كنت على وشك أن أبلغ الثالثة عشرة من عمري، وكنت أشعر بالخجل من جسمي، لذلك كنت أخطط لارتداء ملابس السباحة تحت فستاني، لكنني خشيت أن يجعلني هذا أكثر لفتًا للانتباه، لذلك أخذت نفسًا عميقًا، وخلعت ملابسي. لاحظت دينيشيا على الفور الندبة على ضلوعي، التي كانت بحجم يدي الممدودة. شرحتُ أنني أصبتُ بهذه الندبة عندما كنت في الثالثة من عمري، وأنني مكثت في المستشفى لستة أسابيع لأخضع لعمليات ترقيع الجلد، ولهذا السبب لم أرتدِ بيكيني قط. مررت دينيشيا أطراف أصابعها برفق على الندبة، وقالت: "ليست سيئة لهذه الدرجة".

صاحت إحدى النساء: "مرحبًا نيتيا! صديقتكِ البيضاء لديها شعر أحمر ينبت!".

سألتها دينيشيا: "ماذا كنتِ تتوقعين؟".

قلت: "صحيح. لا بد أن يتطابق لو الياقة مع لون الأساور".

كانت جملة سمعتها من دينيشيا من قبل. ابتسمت دينيشيا لسماعها، وضحكت النساء جميعًا بصوت عالٍ. دفعتني إحدى الراقصات برفق بخصرها، فشعرتُ بأنني موضع ترحيب

كافٍ لأرد عليها بدفعة مماثلة مازحة.

بقيت أنا ودينيشيا في المسبح طوال الصباح، نتقاذف الماء ونتدرب على سباحة الظهر وسباحة الفراشة. كانت تتحرك في الماء بعشوائية كما كنت أفعل. وقفنا على أيدينا، ومددنا أرجلنا خارج الماء، وقمنا بالتواءات تحت الماء، ولعبنا لعبة ماركو بولو والدجاج مع بقية الأطفال الآخرين. كنا نقفز خارج الماء لنقوم بالقفزات الكبيرة مُحدثين رذاذًا هائلًا يشبه النافورة، بقصد إغراق أكبر عدد ممكن من الأشخاص الجالسين بجوار المسبح. كانت المياه الزرقاء تتلألأ وتتحول إلى زبد أبيض. بحلول نهاية فترة السباحة المجانية، كانت أصابع يدي وقدمي متجعدة تمامًا، احمرت عيناي وكانت تؤلمانني بسبب الكلور، الذي كان قويًا لدرجة أنك كنت تستطيع رؤية بخاره يتصاعد من المسبح. لم أشعر بهذا القدر من النظافة من قبل.

في ذلك المساء كنت وحدي في المنزل، وما زلت أستمتع بالشعور الجاف والحكة الناتجة عن تنظيف بشرتي بالكلور، والشعور بارتخاء العظام الذي يأتي بعد الكثير من التمارين، عندما سمعتُ طرقًا على الباب. أفزعني الصوت. كان نادرًا ما يزورنا أحد في 93 شارع ليتل هوبرت. فتحتُ الباب قليلًا، ونظرت إلى الخارج. كان هناك رجل أصلع جزئيًا يحمل ملفًا تحت ذراعه واقف على الشرفة. شيء ما في مظهره أوحى إليَّ بأنه موظف حكومي، وهو من الفئة التي علمنا أبي أن نتجنبها.

سألني: "هل رب الأسرة هنا؟".

قلت: "من يسأل؟".

ابتسم الرجل ابتسامة زائفة، كما لو كان يهم بإخبار شخص ما بأخبار سيئة بطريقة لطيفة. قال: "أنا من خدمات رعاية الأطفال، وأبحث عن ريكس أو روز ماري وولز".

قلتُ: "إنهما ليسا هنا".

سألني: "كم سنكِ؟".

"اثنا عشر عامًا".

"هل يمكنني الدخول؟".

كان بإمكاني أن أرى أنه كان يحاول التلصص خلفي ليرى داخل المنزل. أغلقتُ الباب تمامًا، ولم أترك سوى فتحة صغيرة. قلتُ: "أمي وأبي لن يرغبا أن أسمح لك بالدخول". ثم أضفت لأثير انطباعًا قويًا حتى يتحدثا إلى محاميهما: "فقط أخبرني بما تريد وسأنقل الرسالة إليهما".

قال الرجل إن شخصًا ما لم يكن مسموحًا له بالكشف عن هويته قد اتصل بمكتبه، وأوصى بالتحقيق في الظروف المعيشية في 93 شارع ليتل هوبرت، حيث كان من المحتمل أن يكون هناك أطفال يعيشون تحت رعاية سيئة.

قلتُ: "لا أحد يهملنا".

"متأكدة؟".

"نعم متأكدة يا سيدي".

"هل يعمل والدكِ؟".

قلت: "بالطبع". "إنه يقوم ببعض الأعمال الصغيرة. وهو رائد أعمال. إنه يطور تقنية لإحراق الفحم القاري المنخفض الجودة بطريقة آمنة وفعالة".

"وماذا عن والدتكِ؟".

قلت: "إنها فنانة. وكاتبة ومعلمة".

دوّن الرجل ملاحظة في دفتره وقال: "حقًا؟ أين؟".

قلت: "لا أعتقد أن أمي وأبي سيرغبان في أن أتحدث إليك في غيابهما. عُد مرة أخرى في حال وجودهما بالمنزل. وسيجيبان عن أسئلتك".

قال الرجل: "جيد. سأعود مرة أخرى. أخبريهما بذلك".

مرر إليَّ بطاقة عمل عبر الشق الذي في الباب. راقبته وهو يشق طريقه نزولًا إلى الأرض. قلتُ له: "كن حذرًا من الدرج. نحن في طور بناء مجموعة جديدة".

بعد أن غادر الرجل، كنت غاضبة للغاية لدرجة أنني ركضت إلى أعلى التل، وبدأت أقذف الصخور الكبيرة -تلك التي تتطلب حملها بكلتا اليدين- في حفرة القمامة. باستثناء إرما، لم أكره أحدًا في حياتي أكثر مما كرهت ذلك الرجل الذي يعمل بخدمات رعاية الأطفال. حتى إيرني جود لم أكرهه إلى هذا الحد. على الأقل عندما كان إيرني وعصابته يأتون ويصرخون بأننا حثالة، كنا قادرين على صدهم بالحجارة. لكن إذا قرر الرجل المسئول عن رعاية الأطفال بأننا عائلة غير صالحة، فلن تكون لدينا أي وسيلة لردعه. سيبدأ تحقيقًا وسينتهي به الأمر إلى إرسالنا -أنا وبراين ولوري ومورين- لنعيش مع عائلات مختلفة، رغم أننا جميعًا نحصل على درجات جيدة، ونعرف شفرة مورس. لم أستطِع السماح بحدوث ذلك. لا يمكن بأي حال من الأحوال أن أفقد براين ولوري ومورين.

كنت أتمنى لو كان بإمكاننا الهروب. لفترة طويلة، افترضت أنا وبراين ولوري أننا سنغادر ويلش عاجلًا أم آجلًا. كنا نسأل والدي كل بضعة أشهر إن كنا سننتقل للعيش في مكان آخر. كان أحيانًا يتحدث عن أستراليا أو ألاسكا، لكنه لم يتخذ أي خطوة فعلية. وعندما كنا نسأل أمي، كانت تغني أغنية حول كيف أن حماسها قد اختفى وذهب. ربما العودة إلى ويلش قد قتلت الفكرة التي كان يحملها والدي عن نفسه كرجل يسعى نحو آفاق جديدة. فالحقيقة كانت أننا عالقون هنا.

عندما عادت أمي إلى المنزل، أعطيتها بطاقة الرجل، وأخبرتها عن زيارته. كنت لا أزال غاضبة. قلتُ لها إنه بما أن هي وأبي لا يكلفان نفسيهما عناء العمل، وبما أنها ترفض ترك أبي، فإن الحكومة ستتولى مهمة تفريق الأسرة عنها.

كنت أتوقع أن ترد أمي بإحدى تعليقاتها المعتادة، لكنها استمعت إلى ثورتي العارمة بصمت. ثم قالت إنها بحاجة إلى التفكير في خياراتها. جلست أمام لوح الرسم الخاص بها. كانت قد نفدت منها اللوحات، فبدأت بالرسم على الخشب الرقائقي، فأمسكت بقطعة من الخشب، وأحضرت لوحتها، ووضعت الألوان عليها، ثم اختارت فرشاة.

سألتها: "ماذا تفعلين؟".

قالت: "أفكر".

رسمت أمي بسرعة وبشكل تلقائي، كأنها تعرف بالضبط ما تريد أن ترسمه. ظهرت ملامح لامرأة في منتصف اللوحة. كانت امرأة ذات خصر نحيف، وذراعاها مرفوعتان. ظهرت دوائر زرقاء مُرتكزة حول خصرها. كان اللون الأزرق يمثل ماءً. كانت أمي ترسم صورة لامرأة تغرق في بحيرة عاصفة. عندما انتهت، جلست لفترة طويلة في صمت تحدق باللوحة.

أخيرًا سألتها: "إذًا، ماذا سنفعل؟".

قالت: "جانيت، تركيزك مخيف".

قلت: "لم تجيبي عن سؤالي".

قالت بحدة: "سأحصل على وظيفة يا جانيت". ثم ألقت فرشاة الرسم في الجرة التي تحتوي على زيت التربنتين، وجلست تُحدق بالمرأة الغارقة.

في مقاطعة ماكدويل، كان المعلمون المؤهلون نادرين جدًا لدرجة أن اثنين من المعلمين الذين درّسوني في مدرسة ويلش الثانوية لم يسبق لهما الالتحاق بالجامعة. لكن أمي تمكنت من الحصول على وظيفة بحلول نهاية الأسبوع. قضينا تلك الأيام في محاولة يائسة لتنظيف المنزل استعدادًا لعودة موظف رعاية الطفل. لكن المهمة كانت مستحيلة، بسبب أكوام الأغراض المتناثرة الخاصة بأمي والثقب الكائن بالسقف والدلو الأصفر المقزز في المطبخ. وبالرغم من ذلك، لسبب ما، لم يعد ذلك الرجل أبدًا.

كانت وظيفة أمي تدريس القراءة العلاجية في مدرسة ابتدائية في بلدة ديفي، التي كانت مخيمًا لتعدين الفحم تقع على بُعد اثني عشر ميلًا شمال ويلش. ولأننا لم نكن نملك سيارة، رتّب مدير المدرسة لأمي أن يتم اصطحابها مع معلمة أخرى تُدعى لوسي جو روز، تخرجت للتو في كلية ولاية بلوفيلد، وكانت بدينة للغاية لدرجة أنها بالكاد كانت تستطيع الجلوس خلف مقود سيارتها دودج دارت البنّية. لم تكن لوسي جو راضية عن هذا الترتيب الذي فُرض عليها تقريبًا، وأبدت استياءها من أمي منذ البداية. لم تكن تبادلها أطراف الحديث كثيرًا في أثناء القيادة، واكتفت بتشغيل أشرطة باربرا ماندريل وتدخين سجائر "كولز" ذات الفلتر طوال الطريق. وبمجرد أن تغادر أمي السيارة، تتعمد رش مقعدها بمعقم "لايسول" بطريقة استعراضية ساخرة. أما أمي، فقد كانت ترى أن لوسي جو تفتقر إلى المعرفة تمامًا. ففي إحدى المرات، ذكرت أمي اسم جاكسون بولوك، ردت لوسي جو بغضب قائلة إنها ذات أصول بولندية، ولذلك لن تقبل استخدام أمي لأسماء مهينة للبولنديين.

واجهت أمي المشكلات نفسها التي واجهتها في باتل ماونتن في ما يتعلق بتنظيم أوراقها وضبط طلابها. مرة واحدة على الأقل في الأسبوع، كانت تستيقظ غاضبة، وترفض الذهاب إلى العمل، وكنت أنا ولوري وبراين نضطر إلى تهدئتها، وجعلها تذهب إلى العمل حيث كانت لوسي جو تنتظر مُقطّبة الجبين، بينما ينبعث الدخان الأزرق بغلظة من ماسورة العادم المثقوبة من الصدأ لسيارة الدارت.

لكن على الأقل أصبح لدينا قليل من المال. بينما كنت أجني بعض المال الإضافي من خلال مجالسة الأطفال، وكان براين يتخلص من الأعشاب الضارة في حدائق الآخرين، ولوري كانت توزع الصحف، إلا أن كل هذا لم يكن كافيًا. أما الآن، فقد أصبحت أمي تتقاضى حوالي سبعمئة دولار شهريًا، وعندما رأيت لأول مرة شيك راتبها الأخضر الرمادي، مع الإيصال القابل للصرف وتوقيعاته الآلية، ظننت أن مشكلاتنا قد انتهت. في أيام استلام الرواتب، كانت أمي تصحبنا معها إلى البنك الضخم المقابل لمحكمة المقاطعة كي تصرف الشيك. وبعد أن تتسلم المال من الصراف، كانت تتوجه إلى زاوية البنك، وتضع النقود في جورب كانت قد ثبّتته بدبوس أمان على حمالة صدرها. ثم كنا نتوجه جميعًا إلى شركة الكهرباء وشركة المياه ومالك العقار، لدفع الفواتير بأوراق فئة العشرة والعشرين دولارًا. كان الموظفون يتعمدون تجنب النظر عندما كانت أمي تخرج الجورب من حمالة صدرها، بينما كانت توضح لكل من في الجوار أن هذه هي طريقتها لضمان عدم تعرضها للنشل.

وأيضًا اشترت أمي بعض المدافئ الكهربائية بنظام الدفع بالتقسيط، وكنا نذهب إلى متجر الأجهزة الكهربائية كل شهر لندفع بضعة دولارات، على أمل أن تصبح ملكًا لنا بحلول فصل الشتاء. كانت أمي دائمًا تضع شيئًا واحدًا على الأقل تحت نظام الأقساط كنوع من "الرفاهية"، شيئًا لا نحتاج إليه فعليًا -كغطاء حريري مزخرف أو مزهرية من الكريستال المُزَركَش- لأنها كانت تقول إن أفضل طريقة للشعور بالثراء هي الاستثمار في الكماليات الفاخرة غير الضرورية. بعد ذلك، كنا نتوجه إلى متجر البقالة أسفل التل، ونشتري الأساسيات مثل الفاصولياء والأرز، والحليب المجفف، والمعلبات. كانت أمي دائمًا تشتري العلب المُنْبَعِجة، حتى لو لم تكن مخفضة السعر، لأنها كانت تقول إن تلك العلب بحاجة إلى قليل من الحب أيضًا.

في المنزل، كنا نفرغ حقيبة أمي على سرير الأريكة، ونعدّ المال المتبقي. كانت هناك مئات الدولارات، وبدا لي أنها أكثر من كافية لتغطية نفقاتنا حتى نهاية الشهر، أو هكذا كنت أعتقد. لكن شهرًا بعد شهر، كان المال يختفي قبل وصول الراتب التالي، وكنت أجد نفسي مجددًا أبحث في سلال القمامة بالمدرسة عن الطعام.

في نهاية أحد الأشهر في الخريف، أخبرتنا أمي أنه لم يتبقَّ لنا سوى دولار واحد للعشاء. كان هذا كافيًا لشراء جالون من أيس كريم نابولي، وقد قالت إنه ليس فقط لذيذًا، لكنه يحتوي على كثير من الكالسيوم أيضًا، فسيكون مفيدًا لعظامنا. أحضرنا الأيس كريم إلى المنزل، ومزق براين العلبة، وقسمها إلى خمس شرائح متساوية. طالبتُ بأن أكون أول من يختار. أخبرتنا أمي أن نستمتع به جيدًا، لأننا لا نملك المال للعشاء في الليلة المُقبلة.

سألتها، بينما كنا نتناول شرائح الأيس كريم: "أمي، ماذا حدث لكل المال؟".

قالت: "لقد ذهب، ذهب، ذهب!".

سألتها لوري: "لكن أين؟".

قالت أمي: "لديّ منزل مليء بالأطفال وزوج مدمن على الشراب. إن تدبير الأمور أصعب مما تظنين".

فكرت في الأمر وقلت لنفسي، لا يمكن أن يكون هذا الأمر بهذه الصعوبة. فهناك أمهات أخريات يقمن بذلك. حاولت استجوابها. هل كانت تنفق المال على نفسها؟ هل كانت تعطيه لأبي؟ أم كان أبي يسرقه؟ أم أننا ننفقه ببذخ؟ لم أتمكن من الحصول على إجابة. قلت: "أعطينا المال. سنضع ميزانية ونلتزم بها".

قالت أمي: "من السهل عليكِ التفوه بهذا الكلام".

وضعت أنا ولوري ميزانية، وخصصنا فيها مبلغًا كبيرًا لأمي لتغطية الكماليات مثل ألواح هيرشي الكبيرة والمزهريات الكريستالية المُزَركَشة. كنا نعتقد أنه إذا التزمنا بميزانيتنا، فسنتمكن من شراء ملابس وأحذية ومعاطف جديدة، وشراء طن من الفحم بسعر منخفض خلال نهاية الموسم. وربما في نهاية المطاف، يمكننا تركيب عزل، وإدخال أنبوب المياه إلى المنزل، وربما حتى إضافة سخان ماء. لكن أمي لم تسلمنا المال أبدًا. لذلك، بالرغم من أن لديها وظيفة جيدة، كنا نعيش تقريبًا كما كنا من قبل.

التحقت بالصف السابع ذلك الخريف، مما يعني أنني كنت أذهب إلى مدرسة ويلش الثانوية. كانت مدرسة كبيرة تقع بالقرب من قمة تل تطل على البلدة، وكان هناك طريق شديد الانحدار يقود إليها. كان يتم اصطحاب الطلاب بالحافلات من الأماكن النائية في الجبال ومن مخيمات الفحم مثل ديفي وهيمفيل التي كانت صغيرة جدًا لدرجة عدم وجود مدرسة ثانوية خاصة بها. بدا بعض الطلاب فقراء مثلي، بشعر مقصوص في المنزل وثقوب في مقدمة أحذيتهم. فأدركتُ أنه من السهل الاندماج مع الطلاب سريعًا مقارنة بمدرسة ويلش الابتدائية.

كانت دينيشيا هيويت هناك أيضًا. كانت تلك الصباحات الصيفية التي قضيتها معها في السباحة في المسبح العام أسعد أوقاتي في ويلش، لكنها لم تدعُني مرة أخرى، وعلى الرغم من أن المسبح كان عامًا، فلم أشعر بأن بإمكاني الذهاب للسباحة المجانية إلا إذا تلقيت دعوة منها. رأيتها مرة أخرى فقط عندما التحقت بالمدرسة، ولم نتحدث أبدًا عن ذلك اليوم في المسبح. أعتقد أننا كنا نعلم أن محاولة أن نكون صديقتين مقربتين ستكون أمرًا غريبًا للغاية بالنظر إلى الطريقة التي يفكر بها الناس في ويلش حول الاختلاط بالسود. في أثناء الغداء، كانت دينيشيا تجلس مع الطلاب السود الآخرين، لكننا كنا نحضر قاعة الدراسة معًا، وكنا نتبادل الملاحظات هناك.

بحلول الوقت الذي التحقت فيه بمدرسة ويلش الثانوية، كانت دينيشيا قد تغيرت. فقدت بريقها تمامًا. بدأت تتناول المشروبات في أثناء المدرسة. كانت تملأ علبة الصودا بالمشروب، وتصحبها معها إلى الفصل. حاولت معرفة ما الذي كان يدفعها إلى ذلك، لكن كل ما تمكنت من استخلاصه منها هو أن صديق والدتها الجديد قد انتقل للعيش معهم، وكان التكيف مع الوضع الجديد أمرًا صعبًا.

في اليوم الذي كان يسبق الكريسماس مباشرة، مررت إليَّ دينيشيا ملاحظة في قاعة الدراسة تسأل عن أسماء فتيات تبدأ بحرف "د". كتبت لها أكبر عدد استطعت التفكير فيه

-ديان، دونا، دورا، دريما، دياندرا- ثم كتبت: "لماذا؟". مررت إليَّ ملاحظة تقول: "أعتقد أنني حبلى".

بعد الكريسماس، لم تنتظم دينيشيا في الحضور إلى المدرسة. بعد مرور شهر من غيابها، سرتُ بطريق الجبل إلى منزلها، وطرقت الباب. فتح رجل الباب وحدّق بوجهي. كانت بشرته سوداء مثل المقلاة الحديدية، وعيناه بلون النيكوتين الأصفر. لم يفتح باب المنزل، فاضطررت إلى التحدث من الخارج.

سألتُ: "هل دينيشيا في المنزل؟".

سأل: "ماذا تريدين؟".

أجبتُ: "أريد أن أراها".

قال: "إنها لا تريد رؤيتكِ"، ثم أغلق الباب.

رأيت دينيشيا في البلدة مرة أو مرتين بعد ذلك، وتبادلنا التلويح بالأيدي، لكننا لم نتحدث مرة أخرى. لاحقًا، علمنا جميعًا أنها قد اعتُقلت بتهمة طعن صديق والدتها حتى الموت.

كانت الفتيات الأخريات يتحدثن باستمرار عن أصدقائهن. وبدا أن العالم مقسّم بين الفتيات اللواتي لديهن أصدقاء والفتيات اللواتي ليس لديهن. وكان هذا هو الفارق الأهم، وربما الفارق الوحيد الذي كان يهم. لكنني كنت أعرف أن الفتيان يشكلون خطرًا. كانوا يدّعون الإعجاب والحب، لكنهم دائمًا ما كانوا يسعون وراء شيء آخر.

وعلى الرغم من أنني لم أكن أثق بالفتيان، كنت أتمنى لو أبدى أحدهم اهتمامًا بي. كيني هال، الرجل العجوز الذي يقطن الشارع، والذي كان لا يزال متيّمًا بي، لا يُحتسب. وإذا أبدى أي ولد اهتمامًا بي، كنت أتساءل إن كنت سأمتلك الشجاعة الكافية لإيقافه عندما يحاول التمادي أكثر من اللازم وأخبره أنني لست من هذا النوع من الفتيات. لكن الحقيقة هي أنني

لم أكن بحاجة إلى القلق كثيرًا بشأن صدّ تقدمات أحدهم، لأنني -كما كان إيرني جود يذكرني في كل فرصة سانِحَة- قبيحة إلى درجة أنه إذا أردت أن يلعب معي كلب، كنت سأضطر إلى ربط قطعة لحم حول عنقي.

كنتُ أحمل ما كانت تُطلق عليه أمي ملامح مميزة. كانت تلك إحدى طرق التعبير عنه. كنتُ قريبة من طول ستة أقدام، شاحبة مثل بطن الضفدع، وكان شعري أحمر لامعًا. كان مرفقاي بارزين مثل الأوتاد الطائرة وركبتاي كصحون الشاي. لكن أكثر ملامحي بروزًا -وأسوأها- كانت أسناني. لم تكن فاسدة أو ملتوية. في الواقع، كانت معتدلة وقوية. لكنها كانت تبرز بشكل مستقيم. كان الصف العلوي يدفع نفسه إلى الأمام بحماسة لدرجة أنني كنتُ أجد صعوبة في إغلاق فمي تمامًا، وكنتُ دائمًا أحاول مد شفتي العلوية لتغطيتهما. وعندما أضحك، كنتُ أضع يدي على فمي.

أخبرتني لوري أنني فقط أبالغ في تصور مدى سوء أسناني. كانت تقول: "إنها فقط بارزة قليلًا. لها جاذبية خاصة، فيها عبقٌ من شخصية بيبّي ذات الجورب الطويل". كانت أمي تقول إن بروز أسناني يمنح وجهي طابعًا مميزًا. أما براين فكان يقول إن أسناني ستكون مفيدة إذا اضطررتُ يومًا إلى أكل تفاحة من خلال ثقب في سياج خشبي.

ما كنت أحتاج إليه حقًا هو تقويم الأسنان. في كل مرة أنظر فيها إلى المرآة، كنت أتوق إلى الحصول على ما كان يسميه الأطفال الآخرون "فمًا مليئًا بالأسلاك الشائكة". بالطبع، لم يكن لدى أمي وأبي أي مال لتقويم الأسنان -في الواقع لم يسبق لأي منا الذهاب إلى طبيب الأسنان- لكن بما أنني كنت أعمل جليسة أطفال وأنجز فروض الأطفال الآخرين مقابل المال، قررت أن أوفر المال بنفسي حتى أستطيع شراء تقويم أسنان بنفسي. لم أكن أعلم كم كانت تكلفته، لذا توجهت إلى الفتاة الوحيدة في صفي التي كانت ترتدي تقويمًا للأسنان، وبعد أن أثنيتُ على تقويمها، سألت بشكل عفوي عن المبلغ الذي دفعه والداها. عندما قالت إن التكلفة كانت ألف ومئتي دولار، كدت أفقد توازني. كنت أحصل على دولار واحد في الساعة لرعاية الأطفال. عادة ما كنتُ أعمل خمس أو ست ساعات في الأسبوع،

مما يعني أنه إذا ادخرتُ كل قرش أجنيه، فسيستغرق الأمر حوالي أربع سنوات لتوفير المال.

لذا قررت صنع تقويم أسناني بنفسي.

ذهبت إلى المكتبة، وطلبت كتابًا عن تقويم الأسنان. نظرت إليّ أمينة المكتبة بطريقة غريبة نوعًا ما وقالت إنها لا تملك واحدًا، عندها أدركت أنني سأضطر إلى اكتشاف الأمر بنفسي. كانت العملية تتطلب بعض التجارب والمحاولات الفاشلة. في البداية، استخدمتُ فقط شريطًا مطاطيًا. قبل أن أذهب إلى النوم، كنت أضعه حول مجموعة أسناني العلوية بالكامل. كان الشريط صغيرًا لكنه سميك، وكان محكمًا على نحو جيد. لكنه كان يضغط على نحو غير مريح على لساني، وفي بعض الأحيان كان ينفلت في أثناء الليل، وأستيقظ وأنا أختنق به. لكن في معظم الأحيان، كان يبقى في مكانه طوال الليل، وفي الصباح كانت لثتي تؤلمني بسبب الضغط على أسناني.

بدا لي ذلك علامة واعدة، لكنني بدأت أقلق من أن الشريط المطاطي قد يدفع أسناني الخلفية إلى الأمام بدلًا من دفع الأمامية إلى الداخل. لذلك، حصلت على الأربطة المطاطية الأكبر حجمًا، ولففتها حول رأسي بالكامل، بحيثُ تضغط على أسناني الأمامية. لكن كانت المشكلة في هذه الطريقة هي أن الأربطة المطاطية كانت محكمة جدًا -وكان لا بد أن تكون كذلك لتؤدي وظيفتها- لذا كنت أستيقظ وأنا أعاني من صداع وعلامات حمراء عميقة حيث كانت الأربطة تضغط على وجهي.

أدركت أنني بحاجة إلى تقنية أكثر تقدمًا. ثنيت علاقة ملابس معدنية على شكل حدوة حصان لتناسب الجزء الخلفي من رأسي. ثم ثنيت الطرفين إلى الخارج، بحيث عندما أضع العلاقة حول رأسي، تتجه الأطراف بعيدًا عن وجهي، وتشكل خطافات لتثبيت الشريط المطاطي في مكانه. عندما جربت ذلك، كانت العلاقة تضغط بقوة على مؤخرة جمجمتي، لذا استخدمت فوطة صحية من نوع "كوتكس" كوسادة لتخفيف الضغط.

كانت الأداة تعمل على نحو مثالي، باستثناء أنني كنت مضطرة للنوم مستلقية على ظهري تمامًا، وهو ما كنتُ أجد صعوبة في فعله، خصوصًا عندما يكون الطقس باردًا؛ كنت أحب أن أتدثر بالبطانيات. بالإضافة إلى ذلك، كانت الأربطة المطاطية تنقطع في منتصف الليل. ومن عيوب هذه الأداة أيضًا أنني كنتُ أستغرق وقتًا طويلًا لوضعها على نحو صحيح. لذا كنتُ أنتظر حتى يحل الظلام حتى لا يراني أحد.

ذات ليلة، كنت مستلقيةً على سريري أرتدي تقويمي المصنوع من شماعة المعاطف عندما فُتح باب غرفة النوم. استطعت تمييز ظل باهت في الظلام. قلتُ: "من هناك؟"، لكن بسبب وجود التقويم في فمي، خرج الصوت كما لو كان "مرراك؟".

أجاب أبي: "إنه والدكِ". "ما قصة هذه التمتمة؟". تقدم نحوي وأشعل ولاعته "الزيبو"، فانطلق منها اللهب. نظر إليّ متفحصًا، وقال: "ما هذا الشيء الذي على رأسكِ بحق السماء؟".

قلت: "جهاز التقويم الخاص بي".

قال: "ماذا؟".

نزعت التقويم، وشرحتُ لأبي أنني بحاجة إلى تقويم أسناني، لأن أسناني الأمامية بارزة على نحو سيئ، لكن تكلفة التقويم كانت تبلغ ألفًا ومئتي دولار، لذلك صنعت واحدًا بنفسي.

قال أبي: "أعيدي ارتداءه". ثم تفحصه بعناية، ثم أومأ برأسه. وقال مبتسمًا: "هذا التقويم بمثابة إنجاز هندسي عبقري. يبدو أنكِ ورثتِ مهارات والدكِ".

أمسك بذقني، وسحب فمي ليبقيه مفتوحًا. قال: "وأعتقد، بحق الله، أنه يعمل".

ذلك العام، بدأت العمل في صحيفة "ذا مارون ويف" المدرسية. كنت أرغب في الانضمام إلى أي نادٍ أو مجموعة أو منظمة حيث يمكنني أن أشعر بالانتماء، حيث لا يبتعد الناس إذا

جلست بجانبهم. كنت عداءة جيدة، وفكرت في الانضمام إلى فريق ألعاب القوى، لكن كان عليك شراء الزي الرياضي، وأمي قالت إننا لا نستطيع تحمل تكلفة شرائه. أما العمل في صحيفة "ذا مارون ويف"، فلم يكن يتطلب شراء زي موحد أو آلة موسيقية أو دفع أي مستحقات، لذا انضممت إليها.

كانت الآنسة جانيت بيفنز، إحدى معلمات اللغة الإنجليزية في المدرسة الثانوية، المستشارة الأكاديمية لصحيفة "ذا مارون ويف". كانت امرأة هادئة ودقيقة، وكانت قد التحقت بالعمل بمدرسة "ويلش" الثانوية لفترة طويلة جدًا، لدرجة أنها كانت أيضًا معلمة اللغة الإنجليزية لأبي. فقد أخبرني ذات يوم أنها كانت أول شخص في حياته أظهر أي إيمان به. كانت تعتقد أنه كاتب موهوب وشجعته على تقديم قصيدة مكونة من أربعة وعشرين بيتًا بعنوان "عاصفة صيفية" لمسابقة شعرية على مستوى الولاية. عندما فازت القصيدة بالمركز الأول، تساءل أحد معلميه الآخرين بصوت عالٍ إذا كان ابن اثنين من مدمني الشراب الفاشلين مثل تيد وإرما وولز قد كتبها بنفسه. شعر أبي بالإهانة الشديدة لدرجة أنه ترك المدرسة. كانت الآنسة بيفنز هي من أقنعته بالعودة والحصول على شهادته، قائلة له إنه يملك ما يلزم ليكون شخصًا مميزًا. سماني أبي تيمنًا بها، واقترحت أمي إضافة حرف "ن" مرة أخرى لجعل الاسم أكثر أناقة وإضفاء طابع فرنسي.

قالت لي الآنسة بيفنز إنه، بقدر ما تتذكر، كنتُ الطالبة الوحيدة في الصف السابع التي عملت في صحيفة "ذا مارون ويف". بدأت العمل هناك كمدققة لغوية. في أمسيات الشتاء، بدلًا من التجمع حول المدفأة في منزلنا الصغير الكائن بـ 93 شارع ليتل هوبرت، كنت أذهب إلى المكاتب الدافئة الجافة لصحيفة The Welch Daily News، حيث كانت صحيفة "ذا مارون ويف" تُطبع وتُنسَّق. كنت أعشق أجواء غرفة الأخبار المليئة بالحركة. كانت أجهزة التليجراف تصدر طنينًا مستمرًا، بينما كانت لفائف الورق التي تحمل الأخبار من جميع أنحاء العالم مكدسة على الأرض. كانت مصابيح الفلورسنت تتدلى على ارتفاع ثماني عشرة بوصة فوق المكاتب ذات الأسطح الزجاجية المائلة، حيث كان الرجال يرتدون واقيات الأعين الخضراء، ويتشاورون حول أكوام من النصوص والصور الفوتوجرافية.

كنتُ آخذ مسودات صحيفة "ذا مارون ويف" وأجلس عند أحد المكاتب، مستقيمة الظهر، وقلم رصاص خلف أذني، وأتفحص الصفحات بعناية بحثًا عن الأخطاء المطبعية. كانت السنوات التي أمضيتها في مساعدة أمي لتصحيح الإملاء في واجبات طلابها قد منحتني كثيرًا من الخبرة لهذا النوع من العمل. كنتُ أصحح الأخطاء بقلم تحديد أزرق فاتح، بحيث لا تلتقطه الكاميرا التي تلتقط الصفحات للطباعة. كان مصممو النصوص يعيدون كتابة السطور التي صححتها ويطبعونها من جديد. كنتُ أمرر السطور المصححة عبر آلة الشمع الساخن التي تجعل الجهة الخلفية متماسكة، ثم أستخدم سكين "إكس-أكتو" لقص السطور الجديدة بدقة وتثبيتها فوق السطور الأصلية.

حاولتُ أن أبقى غير ملفتة إلى الأنظار في غرفة الأخبار، لكن إحدى عاملات الطباعة، وهي امرأة متجهمة تدخن بشراهة، وترتدي دائمًا غطاء رأس، لم تكن على وفاق معي. كانت تعتقد أنني متسخة. عندما كنت أمر بجانبها، كانت تلتفت إلى بقية العاملين، وتقول بصوت عالٍ: "هل يشم أحدكم رائحة غريبة؟"، تمامًا كما كانت تفعل "لوسي جو روز" مع أمي، فقد بدأت برش المطهر ومعطر الهواء في اتجاهي كلما اقتربت. ثم اشتكت لرئيس التحرير، السيد "موكينفوس"، قائلة إنني قد أكون مصابة بالقمل، وقد أنقل العدوى إلى طاقم العمل بأكمله. ناقش السيد "موكينفوس" الأمر مع الآنسة "بيفنز"، التي أخبرتني أنها ستدافع عني ما دمت أُبقي نفسي نظيفة. عندها بدأت أعود إلى شقة جدي وعمي "ستانلي" مرة كل أسبوع للاستحمام، رغم أنني كنت حريصة على تجنب "عمي ستانلي" في أثناء وجودي بالمنزل.

في أثناء وجودي بصحيفة "ديلي نيوز"، كنتُ أراقب المحررين والصحفيين في أثناء عملهم في غرفة الأخبار. كانوا يُبقون جهاز اللاسلكي الخاص بالشرطة قيد التشغيل طوال الوقت، وعندما يُبلَغ عن حادث أو حريق أو جريمة، كان رئيس التحرير يرسل مراسلًا للتحقق مما حدث. بعد بضع ساعات كان المراسل يعود ويكتب تقريرًا، ثم يُنشر في صفحات الصحيفة في اليوم التالي. كان هذا الأمر يروقني بشدة. حتى ذلك الحين، عندما كنت أفكر في الكتابة، كان أول ما يخطر ببالي هو أمي، منحنية على الآلة الكاتبة، تكتب

رواياتها ومسرحياتها وفلسفاتها عن الحياة، وأحيانًا تتلقى رسائل الرفض. لكن مراسل الصحيفة، بدلًا من الانعزال، كان على اتصال بالعالم الخارجي. ما يكتبه المراسل يؤثر في ما سيتحدث الناس عنه في اليوم التالي، كان يعرف ما الذي يحدث حقًا. قررتُ أنني أريد أن أكون واحدة من أولئك الذين يعرفون ما يحدث حقًا.

عندما أنتهي من عملي، كنت أقرأ القصص التي تصل من وكالات الأنباء. لأننا لم نكن نشترك في الصحف أو المجلات، لم أكن أعرف ما يجري في العالم، باستثناء النسخة المشوهة من الأحداث التي كنا نحصل عليها من أمي وأبي، النسخة التي يكون فيها كل سياسي فاسدًا، وكل شرطي بلطجيًا، وكل مجرم بريئًا لُفِّقت التهم له. بدأت أشعر كأنني أحصل على القصة الكاملة بوضوح لأول مرة، كأنني أُعطيت الأجزاء المفقودة من اللغز، وبدأ العالم يصبح أكثر وضوحًا بالنسبة إليّ.

في بعض الأحيان، كنت أشعر بأنني أخفق بحق مورين، كأنني لم أفِ بوعدي بحمايتها، ذلك العهد الذي قطعته على نفسي عندما كنتُ أحملها بين ذراعيّ في طريق العودة إلى المنزل من المستشفى بعد ولادتها. لم أستطِع أن أوفر لها ما كانت بحاجة إليه أكثر من أي شيء آخر -حمامات دافئة، وسريرًا مريحًا، وأطباقًا مليئة بالعصيدة قبل الذهاب إلى المدرسة صباحًا- لكنني كنت أحاول تعويض ذلك بأشياء صغيرة. عندما بلغت مورين السابعة من عمرها ذلك العام، أخبرت براين ولوري بأنها تستحق احتفالًا خاصًا بعيد ميلادها. كنا نعلم أن أمي وأبي لن يحضرا لها أي هدايا، لذا ادخرنا المال لعدة أشهر، ثم ذهبنا إلى متجر "دولار جنرال" واشترينا لها مجموعة ألعاب لأجهزة المطبخ بدت واقعية إلى حد كبير: كان المحرِّك في الغسالة يدور فعلًا، والثلاجة كانت تحتوي على رفوف معدنية من الداخل. كنا نعتقد أنه عندما تلهو، يمكنها على الأقل أن تتخيل أنها تمتلك ملابس نظيفة، وتحصل على وجبات منتظمة.

قالت مورين بعد أن فتحت الهدايا: "أخبروني مجددًا عن كاليفورنيا". على الرغم من أنها قد وُلدت هناك، لم تكن تتذكرها تمامًا. لطالما أحبت سماع قصصنا عن الحياة في صحراء

كاليفورنيا، لذا قصصناها عليها مجددًا، كيف كانت الشمس تشرق دائمًا، وكان الجو دافئًا لدرجة أننا كنا نجري حفاة الأقدام حتى في ذروة فصل الشتاء، وكيف كنا نأكل الخس من الحقول الزراعية، ونقطف كميات هائلة من العنب الأخضر، وننام على البطانيات تحت السماء المرصعة بالنجوم. أخبرناها أنها كانت لديها بشرة شقراء، لأنها وُلدت في ولاية استُخرج منها كثير من الذهب، وأن عينيها زرقاوان بلون المحيط الذي يُنظف شواطئ كاليفورنيا. قالت مورين: "هذا هو المكان الذي سأنتقل إليه".

على الرغم من اشتياقها إلى كاليفورنيا، ذلك المكان الساحر المليء بالضوء والدفء، فقد بدت أكثر سعادة من بقيتنا -نحن الأطفال- في ويلش. كانت فتاة جميلة كأميرة من أميرات قصص الأطفال، بشعرها الأشقر الطويل وعينيها الزرقاوين المذهلتين. كانت تقضي وقتًا طويلًا مع عائلات صديقاتها لدرجة أنها في كثير من الأحيان لم تكن تبدو كأنها واحدة من أفراد عائلتنا. كان عديد من صديقاتها من أتباع الطائفة الخمسينية، وكان آباؤهنّ يرون أن أمي وأبي يتصرفان بإهمال مخزٍ، لذلك أخذوا على عاتقهم مسئولية إنقاذ مورين.
احتضنوها كابنة بديلة، وأخذوها معهم إلى اجتماعات الإحياء الديني، وإلى طقوس التعامل مع الأفاعي في بلدة "جولو".

ونتيجة لذلك، أصبحت مورين متدينة بشدة، تعمّدت أكثر من مرة، وكانت تعود إلى المنزل دائمًا، وهي تعلن أنها قد وُلدت من جديد. في إحدى المرات، أصرت على أن الشيطان قد تجسّد في هيئة أفعى دائرية تضع ذيلها في فمها، وانحدرت خلفها من الجبل، وهي تهمس بأن روحها ستكون لها. قال براين لأمي: "نحن بحاجة إلى إبعاد مورين عن هؤلاء المجانين الخمسينيين". لكن أمي قالت إننا جميعًا نجد طريقنا إلى الدين بطرقنا الخاصة، وأن علينا احترام ممارسات الآخرين الدينية، لأن الأمر متروك لكل إنسان ليجد طريقه الخاص إلى الجنة.

كانت أمي أحيانًا حكيمة كالفلاسفة، لكن مزاجها كان يُتلف أعصابي. في بعض الأحيان، كانت تشعر بالسعادة لأيام متواصلة مُعلنة أنها قررت التفكير فقط في الأمور الإيجابية،

لأنك إن فكرت بأفكار إيجابية، فستحدث لك أشياء إيجابية. لكن هذه الأفكار الإيجابية كانت سرعان ما تتحول إلى أفكار سلبية، تجتاح عقلها كما لو كانت سربًا ضخمًا من الغربان السوداء يُهيمن على المشهد، جاثمًا بكثافة على الأشجار، وأسوار الحدائق، والمروج، يحدّق بنا بصمت يُنذر بالسوء. وعندما يحدث ذلك، كانت ترفض النهوض من الفراش، حتى عندما تأتي "لوسي جو" لإيصالها إلى المدرسة، وتظل تطلق أبواق سيارتها بنفاد صبر.

في صباح أحد الأيام، قرب نهاية العام الدراسي، انهارت أمي تمامًا. كان من المفترض أن تكتب تقارير تقييم لتقدُّم طلابها، لكنها كانت تقضي كل وقت فراغها في الرسم، والآن أصبح الموعد النهائي للتسليم وشيكًا والتقارير لم تُكتب بعد. كان برنامج القراءة العلاجية مهددًا بفقدان التمويل، والمديرة ستكون غاضبة بشدة أو فقط مستاءة. لم تستطِع أمي مواجهة تلك المرأة. غادرت "لوسي جو"، التي كانت تنتظرها في سيارة "دارت"، دونها، بينما ظلت أمي ممددة على سرير الأريكة، ملتفة في البطانيات، تبكي وتنتحب من مدى كرهها لحياتها.

لم يكن أبي هناك، ولم تكن مورين كذلك. بدأ براين، كعادته، يقلد بكاء أمي وصراخها، لكنه أدرك أن لا أحد يضحك، لذا التقط كتبه، وخرج من المنزل. جلست لوري بجوار أمي على السرير، تحاول مواساتها. أما أنا، فوقفت عند مدخل الباب، مكتفة يديّ، أحدق بها بصمت.

كان من الصعب عليّ أن أصدق أن هذه المرأة، التي تخفي رأسها تحت البطانيات، تشفق على نفسها، وتنتحب كطفلة في الخامسة، هي أمي. كانت أمي في الثامنة والثلاثين من عمرها، ليست صغيرة، لكنها لم تكن كبيرة في السن أيضًا. قلتُ لنفسي إنه على بُعد خمسة وعشرين عامًا، سأكون في سنها الآن. لم تكن لديّ أدنى فكرة عن كيف ستكون حياتي حينها، لكن بينما كنت أجمع كتبي المدرسية، وأخرج من الباب، أقسمت لنفسي إن حياتي لن تكون أبدًا مثل حياة أمي، وإنني لن أقضي أيامي باكية في كوخ بارد في إحدى تلك المناطق النائية البائسة.

سرتُ في شارع "ليتل هوبرت". كانت الأمطار قد هطلت في الليلة السابقة، ولم يكن هناك سوى صوت خرير المياه المنحدرة، وهي تتدفق عبر الأخاديد المتآكلة على سفح التل. كانت تيارات رفيعة من الماء الموحل تتدفق عبر الطريق، تتسرب إلى داخل حذائي وتبلل جوربَيّ. كان نعل حذائي الأيمن قد انفصل جزئيًا عن الحذاء، فصار يتأرجح مع كل خطوة أخطوها.

لحقت بي لوري، وسرنا معًا بصمت لبرهة. قالت لوري أخيرًا: "أمي المسكينة، تمُر بأوقات عصيبة".

قلت: "ليست أصعب من وضعنا جميعًا".

قالت لوري: "بل أصعب، فهي من تزوجت بأبي".

قلت: "كان ذلك اختيارها. عليها أن تكون أكثر حزمًا، أن تفرض سيطرتها على أبي بدلًا من الدخول في نوبات هستيرية طوال الوقت. ما يحتاج إليه أبي هو امرأة قوية".

قالت لوري: "حتى عروسة الأعمدة لن تكون سندًا قويًا بما يكفي لأبي".

قلت: "ما هذا؟".

قالت لوري: "أعمدة منحوتة على هيئة نساء، تلك التي تحمل المعابد اليونانية فوق رءوسها. كنت أنظر إلى صورة لبعضها قبل أيام، وأفكر: هؤلاء النساء لديهن ثاني أصعب وظيفة في العالم".

لم أتفق مع لوري. كنت أعتقد بأن المرأة القوية يمكنها السيطرة على أبي. ما كان يحتاج إليه هو شخص واعٍ حازم، شخص يضع له حدودًا وقوانين لا يحيد عنها. كنت أعتقد أنني قوية بما يكفي لأسيطر على أبي. وعندما كانت أمي تقول لي إنني شديدة التركيز، كنت أعرف أنها لا تقصد ذلك كمجاملة، لكنني أخذتها على هذا النحو.

سنحت لي الفرصة لإثبات أن أبي يمكن السيطرة عليه ذلك الصيف، بعد انتهاء المدرسة. كان على أمي أن تقضي ثمانية أسابيع في "تشارلستون"، تأخذ دورات جامعية لتجديد رخصة التدريس الخاصة بها، أو هذا ما أخبرتنا به. كنتُ أتساءل إن كانت تبحث عن طريقة للابتعاد عنا جميعًا لبعض الوقت. أما لوري، فبفضل درجاتها الجيدة ورصيد أعمالها الفنية، قُبلت في مخيم صيفي ترعاه الحكومة للطلاب الموهوبين. وهكذا، وجدت نفسي، في سن الثالثة عشرة، المسئولة عن المنزل.

قبل أن تغادر أمي، أعطتني مئتي دولار. قالت إن هذا المبلغ كافٍ تمامًا لشراء الطعام لي ولـ"براين" و"مورين" لمدة شهرين، بالإضافة إلى سداد فواتير الماء والكهرباء. أجريت بعض الحسابات. المبلغ كان بالكاد يكفي، بمعدل خمسة وعشرين دولارًا في الأسبوع، أو أكثر قليلًا من ثلاثة دولارات ونصف في اليوم. وضعتُ ميزانية دقيقة، وحسبت أننا قد نتمكن بالكاد من تدبّر الأمر إذا كسبت مالًا إضافيًا من رعاية الأطفال.

خلال الأسبوع الأول، سارت الأمور كما خططت. اشتريت الطعام وأعددت الوجبات لي ولـ"براين" و"مورين". كان قد مر ما يقارب العام منذ أن أجبرنا موظف الرعاية الاجتماعية على تنظيف المنزل، وكان قد عاد مجددًا إلى فوضاه العارمة. كانت أمي ستصاب بنوبة غضب لو تجرأت على رمي أي شيء، لكنني قضيت ساعات، وأنا أحاول ترتيب أكوام الأغراض المتراكمة في كل مكان.

كان أبي يقضي معظم الليل خارج المنزل، حتى نخلد إلى النوم، وعندما نستيقظ ونخرج صباحًا، يكون لا يزال نائمًا. لكن ذات مساء، بعد أسبوع تقريبًا من مغادرة أمي إلى "تشارلستون"، وجدني وحدي في المنزل.

قال أبي: "عزيزتي، أحتاج بعض المال".

قلت: "لأي شيء؟".

قال أبي: "الشراب والسجائر".

قلت: "ميزانيتي محدودة قليلًا يا أبي".

قال أبي: "لا أحتاج إلى الكثير، فقط خمسة دولارات".

كان هذا يعادل طعام يومين: نصف جالون من الحليب، ورغيفًا من الخبز، ودزينة بيض، وعلبتين من سمك "جاك ماكيريل"، وكيسًا صغيرًا من التفاح، وبعض الفشار. ولم يكن أبي حتى يتظاهر بأنه يحتاج إلى المال لشيء ضروري. كما أنه لم يحاول التودد إليّ أو التوسل أو استخدام سحره المعتاد. كان ببساطة ينتظر أن أعطيه المال، كأنه كان واثقًا بأنني لن أتمكن من قول لا. ولم أستطِع بالفعل. أخرجت محفظتي البلاستيكية الخضراء، وسحبت منها ورقة مجعدة من فئة خمسة دولارات، وناولتها إليه ببطء.

قال أبي: "أنتِ رائعة يا عزيزتي"، ثم طبع قبلة على وجهي.

أبعدت رأسي عنه. إعطاؤه ذلك المال أثار غضبي. كنت غاضبة من نفسي، لكنني كنت غاضبة من أبي أكثر. كان يعلم أنني الوحيدة في العائلة التي أملك نقطة ضعف تجاهه، وكان يستغلها. شعرت بأنني مُستغلَّة. لطالما كانت الفتيات في المدرسة يتحدثن عن هذا الشاب أو ذاك، ويقلن إنه "يستغل" الفتيات لمصالحه الخاصة، وعن تلك الفتاة المسكينة التي "تعرضت للاستغلال من قبله". والآن، كنت أفهم، بعمق، معنى تلك الكلمة.

وحين طلب مني أبي خمسة دولارات أخرى بعد بضعة أيام، أعطيتها له. شعرت بالغثيان لمجرد التفكير بأن عشرة دولارات صُرِفت من ميزانيتي. وبعد بضعة أيام، طلب مني أبي عشرين دولارًا.

قلت: "عشرين دولارًا؟"، لم أصدق أن أبي يدفعني إلى هذا الحد. "لماذا عشرون؟".

قال أبي: "تبًا، منذ متى أصبحت بحاجة إلى تبرير نفسي أمام أطفالي؟". ثم، في اللحظة التالية، أخبرني أنه استعار سيارة من صديق، وأنه بحاجة إلى شراء وقود ليتمكن من الذهاب إلى "جاري" لحضور اجتماع عمل. "أحتاج إلى المال لكي أجني المال. سأعيده إليك". نظر إليَّ متحديًا إياي أن أشك في كلامه.

قلتُ: "تراكمت لديَّ فواتير". كنت أسمع نبرة صوتي تصبح حادة، لكنني لم أستطِع التحكم فيها. "لديّ أطفال بحاجة إلى الطعام".

قال أبي: "لا تقلقي بشأن الطعام والفواتير، هذا من شأني أنا، حسنًا؟".

وضعت يدي في جيبي. لم أكن أعرف إذا كنت أحاول إخراج المال أم حمايته.

قال أبي: "هل خذلتكِ يومًا؟".

سمعت هذا السؤال على الأقل مئتي مرة، ودائمًا كنت أجيب بالطريقة التي كنت أعلم أنه يريد سماعها، لأنني كنت أعتقد أن إيماني به هو ما أبقاه مستمرًا طوال هذه السنوات. كنت على وشك إخباره بالحقيقة لأول مرة، أن أجعله يدرك أنه خذلنا جميعًا مراتٍ كثيرة. لكنني توقفت. لم أستطِع فعلها. في تلك الأثناء، كان أبي يقول إنه لا يطلب مني المال، بل يأمرني بأن أعطيه له. قال إنه بحاجة إليه. وسألني إن كنت أظنه كاذبًا عندما قال إنه سيعيده إليّ؟

أعطيته العشرين دولارًا.

في ذلك السبت، أخبرني أبي أنه لكي يعيد إليَّ المال، عليه أن يَجنيه أولًا. وأرادني أن أرافقه في رحلة عمل. أخبرني أنني بحاجة إلى ارتداء شيء أنيق. بحث بين فساتيني المعلقة على الأنبوب في الغرفة، واختار واحدًا مزينًا بأزهار زرقاء بأزرار من الأمام. كان قد استعار سيارة، "بليموث" قديمة بلون أخضر باهت، وكانت نافذة الجانب الأيمن مكسورة، وانطلقنا عبر الجبال إلى بلدة قريبة، حيث توقفنا عند حانة على جانب الطريق.

كان المكان مظلمًا وضبابيًا من دخان السجائر، كان أشبه بساحة معركة. أضواء النيون لأصناف الشراب كانت تتوهج على الجدران. رجال نحيلون بوجوه ذات ملامح مجعدة ونساء بأحمر شفاه داكن جالسون بمحاذاة البار. كان هناك بضعة رجال يرتدون أحذية ذات مقدمة فولاذية يلعبون البلياردو.

جلستُ مع أبي على البار. طلب أبي شراب "بادز" له ولي، رغم أني أخبرته أنني أريد "سبرايت". بعد قليل، نهض أبي ليلعب البلياردو، وما إن غادر مقعده حتى أقبل رجل وجلس مكانه. كان للرجل شارب أسود كثيف ينحني حول زوايا فمه، وتراكمت أوساخ الفحم تحت أظفاره. سكب الرجل ملحًا في شرابه، وكان أبي قد أخبرني أن بعض الرجال يفعلون ذلك لأنهم يحبون الحصول على رغوة إضافية.

قال الرجل: "اسمي روبي"، ثم أشار نحو أبي وسأل: "هل تعرفين هذا الرجل؟".

قلت: "إنه أبي".

لعق زبد الشراب، وبدأ يسألني عن نفسي، مائلًا نحوي وهو يتحدث. قال: "كم سنكِ يا فتاة؟".

قلت: "كم تظن؟".

قال: "سبعة عشر تقريبًا".

ابتسمت، واضعة يدي على أسناني.

قال: "تعرفين كيف ترقصين؟". هززت رأسي نفيًا. قال: "بالطبع تعرفين"، ثم سحبني عن المقعد. نظرت نحو أبي، الذي ابتسم ولوّح لي بيده.

على مشغل الأغاني، كانت "كيتي ويلز" تغني عن الرجال المتزوجين والحانات. أمسكني "روبي" بقوة، واضعًا يده على أسفل ظهري. رقصنا على أغنية ثانية، وعندما جلسنا مجددًا

على المقاعد المواجهة لطاولة البلياردو، خلف البار، مرر ذراعه خلفي. تشنج جسمي، لكني لم أشعر بعدم الارتياح تمامًا. لم يغازلني أحد منذ "بيلي ديل"، إلا إذا كنتُ سأحسب "كيني هال".

مع ذلك، كنت أعرف تمامًا ما كان "روبي" يسعى إليه. كنت على وشك إخباره أنني لست من ذلك النوع من الفتيات، لكنني فكرت أنه قد يرد عليّ بأنني أستبق الأمور أكثر من اللازم. في نهاية المطاف، كل ما فعله هو أنه رقص معي ببطء، ووضع ذراعه حولي. تبادلت نظرة مع أبي. كنت أتوقع أن يندفع عبر الغرفة، ويضرب "روبي" بعصا البلياردو، لأنه تجرأ على التصرف مع ابنته بهذه الطريقة. لكنه، بدلًا من ذلك، صاح: "افعل شيئًا مفيدًا بتلك اليدين اللعينتين، تعال إلى هنا والعب معي جولة بلياردو".

طلبا المشروبات، وبدءا بتغطية رءوس عصي البلياردو بالطباشير. تظاهر أبي في البداية بالهزيمة، وخسر بعض المال أمام "روبي"، ثم بدأ برفع الرهانات والتغلب عليه. بعد كل جولة، كان "روبي" يريد الرقص معي مجددًا. استمر الأمر على هذا النحو لساعات، مع "روبي" الذي كان يزداد ثمالة، يُهزم أمام أبي، ويتحرش بي في أثناء الرقص، أو عندما كنا نجلس عند البار بين الجولات. وكل ما قاله أبي لي: "أبقي ساقيكِ متقاطعتين يا حبيبتي، وأبقيهما متقاطعتين بإحكام".

وبعد أن أخذ أبي منه حوالي ثمانين دولارًا، بدأ "روبي" يتمتم بغضب. ضرب قطعة الطباشير بعنف على الطاولة، فتناثر منها غبار أزرق، وأضاع تسديدته الأخيرة. ألقى بعصا البلياردو على الطاولة، وأعلن أنه اكتفى، ثم جلس بجواري. كانت عيناه محمرتين، وظل يردد أنه لا يصدق أن ذلك العجوز الأحمق قد سلبه ثمانين دولارًا، كأنه لم يقرر بعد إن كان غاضبًا أم منبهرًا.

ثم أخبرني أنه يقطن شقة فوق الحانة، وأن لديه تسجيلًا غنائيًا لـ"روي أكوف" ليس ضمن قائمة الأغاني في آلة الموسيقى، وأراد مني الصعود معًا للاستماع إليه. كنت أعتقد أنه إن

كان كل ما يريده هو مزيد من الرقص قليلًا، وربما تبادل بعض القبلات، فبإمكاني التعامل مع ذلك، لكن كان لديَّ شعور بأنه يظن أن خسارته لكل ذلك المال تمنحه حقًا في شيء آخر.

قلتُ: "لست متأكدة".

قال: "آه، هيا تعالي"، ثم صاح باتجاه أبي: "سآخذ فتاتك إلى الطابق العلوي".

رد أبي: "بالتأكيد، فقط لا تفعل شيئًا لم أكن لأفعله". ثم أشار بعصا البلياردو نحوي وقال: "إن احتجتِ إلى شيء، فاصرخي". ثم غمز لي كأنه يُخبرني أنه واثق بقدرتي على الاعتناء بنفسي، وأن هذا مجرد جزء من مهمتي.

بموافقة والدي، صعدتُ إلى الطابق العلوي. دخلنا الشقة عبر ستارة مصنوعة من حلقات معدنية لعلب المشروبات مُعلّقة ببعضها. كان يوجد رجلان جالسان على أريكة يُشاهدان المصارعة على التلفزيون. عندما رآني، ابتسم أحدهما لروبي ابتسامة ذات معنى، فوضع روبي أسطوانة روي أكوف دون أن يخفض صوت التلفزيون. اقترب مني وبدأ بالرقص، لكنني شعرتُ بأن الأمر يتجاوز الحد، فقاوَمتُه. عندها، تحرّكت يداه بشكل غير لائق، ودفعني على السرير، وبدأ بتقبيلي عنوة. علّق أحد الصديقين قائلًا: "هذا جيدا". وصرخ الآخر: "هيا!".

قلتُ: "لست من ذلك النوع من الفتيات"، لكنه تجاهلني تمامًا. وحين حاولتُ الإفلات، أمسك بذراعيَّ إلى الخلف. تذكرت أن أبي قال لي أن أصرخ إذا احتجت إليه، لكنني لم أرغب في الصراخ. كنت غاضبة جدًا منه لدرجة أنني لم أتحمل فكرة أن يكون هو من ينقذني. أما روبي، فكان يتمتم بشيء عن كوني نحيفة أكثر مما ينبغي.

قلتُ: "نعم، معظم الرجال لا يعجبون بي، إلى جانب نحافتي، لديَّ هذه الندوب".

قال: "أوه، حقًا"، لكنه توقف لوهلة.

استغللت الفرصة، تدحرجت مبتعدة عن السرير، وفتحت أزرار فستاني عند الخصر بسرعة، ثم كشفته قليلًا لأريه الندبة على جانبي الأيمن. بالنسبة إليه، كان من الممكن أن يكون جسمي بأكمله مجرد كتلة مشوهة من الندوب. نظر روبي بتردد إلى صديقيه، كان الأمر أشبه برؤية فجوة في سياج.

قلتُ: "أعتقد أنني أسمع أبي يناديني"، ثم اندفعت نحو الباب.

في السيارة، أخرج أبي النقود التي ربحها وعدَّ منها أربعين دولارًا، ثم ناولني إياها.

قال: "نحن فريق رائع".

راودني شعور برغبة في رمي المال عليه، لكنني كنت أعرف أننا -نحن الأبناء- بحاجة إليه، لذا وضعته في حقيبتي. لم نخدع روبي، لكننا استغللناه بطريقة أشعرتني كأنها مشبوهة تمامًا، وانتهى بي المطاف في موقف خانق. وإن كان أبي قد نصب فخًا لـ"روبي"، فقد نصب لي واحدًا أيضًا.

قال: "أهناك ما يزعجكِ يا عنزة الجبل؟".

لوهلة، فكرت في ألا أخبر أبي بشيء. كنتُ خائفة من أن ينتهي الأمر بسفك الدماء، فقد كان دائمًا يهدد بأنه سيقتل أي شخص يلمسني بسوء. لكنني قررت في نهاية المطاف أنني أريد رؤية ذلك الوغد يُبرح ضربًا. قلت: "أبي، ذلك الحقير هاجمني عندما كنا في الطابق العلوي".

قال أبي وهو يقود السيارة خارج موقف الحانة: "أنا متأكد أنه لم يفعل سوى ملامستك قليلًا. كنتُ أعلم أنكِ ستتمكنين من حماية نفسك".

كان الطريق إلى ويلش مظلمًا وخاليًا. الريح كانت تعوي عبر النافذة المكسورة في جانب سيارتنا البليموث. أشعل والدي سيجارة وقال: "كان الأمر أشبه بتلك المرة التي دفعتكِ

فيها إلى الينبوع الكبريتي لأعلمكِ السباحة. ربما كنتِ مقتنعة حينها بأنكِ ستغرقين، لكنني كنت واثقًا بأنك ستنجحين".

في الليلة التالية، اختفى أبي. وبعد بضعة أيام، أراد أن أذهب معه مرة أخرى إلى إحدى الحانات، لكنني رفضت. غضب أبي وقال إن لم أكن أرغب في مشاركته، فعلى الأقل ينبغي أن أعطيه بعض المال ليواصل لعب البلياردو. وجدت نفسي أعطيه ورقة نقدية من فئة العشرين دولارًا، ثم أخرى بعد بضعة أيام.

كانت أمي قد أخبرتني أن أتوقع وصول شيك في أوائل يوليو نظير تأجيرها لأرضها في تكساس، لكنها حذرتني من أن أبي سيحاول الاستيلاء عليه. في الواقع، انتظر أبي ساعي البريد عند أسفل التل، وأخذ الشيك منه في اليوم الذي وصل فيه، لكن عندما أخبرني ساعي البريد بما حدث، ركضت مسرعة إلى أسفل شارع ليتل هوبرت، ولحقت بأبي قبل أن يصل إلى البلدة. أخبرته أن أمي أرادت مني أن أخبئ الشيك حتى تعود. قال: "فلنُخفِه معًا". ثم اقترح أن نخبئه في موسوعة "وورلد بوك" لعام 1933، التي حصلت عليها أمي مجانًا من المكتبة - تحت عنوان "العملة".

في اليوم التالي، عندما ذهبت لإعادة إخفاء الشيك في مكان آخر، كان قد اختفى. أقسم والدي أنه لا يعرف ما الذي حدث له. كنت أعلم أنه يكذب، لكنني كنت أعلم أيضًا أنه إذا واجهته، فسينكر الأمر، وسينتهي الأمر بشجار صاخب لن يفيدني بشيء. ولأول مرة، أدركت تمامًا ما كانت أمي تواجهه. أن تكون امرأة قوية لم يكن بالأمر السهل كما كنت أعتقد. لا تزال أمي بعيدة في تشارلستون لأكثر من شهر، وكان المال المخصص للطعام على وشك أن ينفد، ولم يكن المال الذي أدخره من مجالسة الأطفال يعوض الفرق.

رأيت لافتة "مطلوب موظف" على نافذة متجر مجوهرات بشارع ماكدويل يُدعى "صندوق بيكر للمجوهرات". وضعتُ كثيرًا من مساحيق التجميل، وارتديت أفضل فستان لديَّ -كان أرجوانيًا بنقاط بيضاء صغيرة وحزام يُربط في الخلف- وانتزعت زوجًا من

أحذية الكعب العالي الخاصة بأمي، إذ كنا نرتدي المقاس نفسه. ثم سرتُ بمحاذاة الجبل لأتقدم للوظيفة.

دفعتُ الباب، فاهتزت الأجراس المعلقة أعلاه. كان "صندوق بيكر للمجوهرات" متجرًا فاخرًا، من النوع الذي لم تسنح لي فرصة دخوله من قبل. كان مكيف الهواء يعمل بهدوء، والمصابيح الفلورية تطن بصوت خفيف. وكانت الخزائن الزجاجية مقفلة، تحتوي على خواتم وقلائد ودبابيس الزينة، بينما عُلّقت بعض القيثارات وآلات البانجو على جدران خشبية لإضفاء بعض التنوع على البضائع. كان السيد بيكر متكئًا على المنضدة، شابكًا أصابعه، وبطنه الكبير منتفخ فوق حزامه الأسود النحيف، يبدو كأنه خط الاستواء يحيط بالكرة الأرضية.

كنتُ أخشى أن يرفض السيد بيكر توظيفي إذا علم أنني لم أكن سوى فتاة في الثالثة عشرة من عمري، لذا أخبرته أنني في السابعة عشرة. وظفني على الفور مقابل أربعين دولارًا أسبوعيًا، تُدفع نقدًا. كنت في غاية السعادة. كان هذا أول عمل حقيقي لي. رعاية الأطفال، والدروس الخصوصية، وحلّ واجبات الأطفال الآخرين، وجزّ العشب، واستبدال الزجاجات الفارغة، وبيع الخردة المعدنية، لم تكن تُحتسب كأعمال حقيقية. أربعون دولارًا في الأسبوع كان مبلغًا ضخمًا.

أحببتُ العمل. كان الأشخاص الذين يشترون المجوهرات سعداء دائمًا، وعلى الرغم من أن بلدة ويلش كانت فقيرة، فإن متجر "صندوق بيكر للمجوهرات" كان يعجّ بالزبائن: عمال مناجم كبار السن يشترون لزوجاتهم دبوس الأمومة، وهو دبوس مُرصَّع بأحجار الميلاد التي تمثل كل واحد من أبنائهن، وأزواج المراهقين يتسوقون لشراء خواتم الخطبة، والفتاة تضحك بفرح، والشاب يحاول أن يبدو فخورًا ورجوليًا.

خلال فترات الركود، كنت أنا والسيد بيكر نشاهد جلسات تحقيق ووترجيت على تلفاز أبيض وأسود صغير. كان السيد بيكر مفتونًا بزوجة جون دين، مورين، التي كانت تجلس خلف زوجها في أثناء شهادته، مرتدية ملابس أنيقة، وشعرها الأشقر على شكل كعكة

مشدودة. قال: "يا إلهي، إنها امرأة راقية بحق!". أحيانًا، بعد مشاهدة مورين دين، كان السيد بيكر يشعر برغبة جامحة لدرجة أنه يقترب مني في أثناء تنظيفي لخزانة العرض، ويحاول التحرش بي. كنت أنتزع يديه وأسير بعيدًا، دون أن أنطق بكلمة، فيعود ذلك العجوز الشبق إلى التلفاز كأن شيئًا لم يكن.

عندما كان السيد بيكر يذهب لتناول الغداء في مطعم "ماونتينير"، كان يأخذ معه دائمًا مفتاح خزانة العرض التي تحتوي على خواتم الألماس. إذا دخل أحد من الزبائن الذي يريد رؤية الخواتم، كان عليّ أن أركض عبر الشارع لاستدعائه. ذات مرة، نسي أخذ المفتاح، وعندما عاد، حرص على عدّ الخواتم أمامي على نحو واضح. كأنه يخبرني صراحة بأنه لا يثق بي على الإطلاق. في أحد الأيام، بعد أن عاد السيد بيكر من الغداء، وتفحص خزائن العرض بطريقته الاستعراضية المعتادة، شعرت بالغضب لدرجة أنني بدأت أتفحص المكان، أبحث عن أي شيء في المتجر كله قد يكون ذا قيمة لسرقته. قلائد، ودبابيس زينة، وبانجوس (آلة موسيقية)، لم يُثِر أي منها اهتمامي. لكن حينها، لفتت انتباهي خزانة عرض الساعات.

لطالما رغبتُ في امتلاك ساعة. على عكس الألماس، كانت الساعات عملية. الساعات لمن يسابقون الوقت، لمن لديهم مواعيد يجب أن يلتزموا بها، وجداول يجب أن يطابقوها. كان هذا النوع من الأشخاص هو ما كنت أطمح إلى أن أكونه. عشرات الساعات كانت تدق داخل الخزانة خلف صندوق المحاسبة. لكن كانت هناك واحدة بالتحديد جعلت قلبي يخفق. كانت تأتي بأربع أساور بألوان مختلفة -أسود، وبني، وأزرق، وأبيض- بحيث يمكن تغيير الأسورة لتتناسب مع الملابس. كان سعرها 29.95 دولارًا، أي أقل بعشرة دولارات من راتب أسبوع. لكن إذا أردت، كان بإمكاني أن أجعلها ملكي في لحظة، ومن دون مقابل. كلما فكرتُ في تلك الساعة، زاد إغراؤها لي.

في أحد الأيام، زارتنا امرأة تعمل في أحد المتاجر التي يملكها السيد بيكر في بلدة "وور". كان يريدها أن تُقدم لي بعض نصائح الجمال. وفي أثناء عرضها لمجموعة أدوات التجميل

الخاصة بها، قالت لي، بصوتها الذي يفيض تصنعًا، إنها تظن أنني أجني ثروة من العمولات. سألتها: "ماذا تقصدين؟". قالت، بينما كانت تتفحصني بأهدابها المُثقلة بطبقات الماسكارا: "بالإضافة إلى راتب الأربعين دولارًا أسبوعيًا، أكسب 10 في المئة على كل عملية بيع". كانت عمولاتها أحيانًا ضعف راتبها. قالت: "اللعنة، بإمكانكِ الحصول على أكثر من أربعين دولارًا في الأسبوع من المعونة الاجتماعية. إذا لم تحصلي على عمولات، فهذا يعني أن بيكر يسرقكِ".

عندما سألتُ السيد بيكر عن العمولات، قال إنها للبائعين فقط، أما أنا فمجرد مساعدة. في اليوم التالي، عندما ذهب السيد بيكر إلى مطعم "مونتانيير"، فتحتُ خزانة العرض، وأخذت الساعة ذات الأربع أساور. دسستُها في حقيبتي، وأعدت ترتيب الساعات المتبقية بحيث تغطي الفراغ. كنتُ قد أنجزتُ كثيرًا من عمليات البيع بمفردي عندما كان السيد بيكر مشغولًا، وبما أنه لم يدفع لي أي عمولات، فقد كنتُ فقط آخذ ما أستحقه.

عندما عاد السيد بيكر من الغداء، تفحص خزانة خواتم الألماس كعادته، لكنه لم يُلقِ حتى نظرة على الساعات. في أثناء عودتي إلى المنزل ذلك المساء، والساعة مخبأة في حقيبتي، شعرتُ بخفة ونشوة. بعد العشاء، تسلقتُ سريري العلوي، حيث لا يمكن لأحد رؤيتي، وبدأتُ أجرب الساعة مع كل واحدة من الأساور، مقلدةً إيماءات الأثرياء كما تخيلتهم.

كان ارتداء الساعة في العمل أمرًا غير وارد بالطبع. أدركتُ أيضًا أنني قد أصادف السيد بيكر في أي مكان في البلدة، لذا قررتُ ألا أرتدي الساعة إلا في المنزل حتى تبدأ المدرسة. ثم بدأتُ أفكر كيف سأشرح أمر الساعة لبراين ولوري وأمي وأبي. وراودني القلق أن يلمح السيد بيكر في ملامحي ما يدل على السرقة. عاجلًا أم آجلًا، سيكتشف الساعة المفقودة ويستجوبني، وسيتعين عليّ أن أكذب بمهارة، وهو أمر لم أكن جيدة فيه. وإذا لم أكن مقنعة، فسوف أُرسَل إلى مدرسة إصلاحية مع أشخاص مثل بيلي ديل، وسيحظى السيد بيكر بالرضا، لأنه كان محقًا منذ البداية في عدم ثقته بي.

لم أكن على استعداد لمنحه ذلك الشعور بالانتصار. في صباح اليوم التالي، أخرجتُ الساعة من الصندوق الخشبي الذي احتفظتُ فيه بحجر الجيود، ووضعتها في حقيبتي، وأعدتها إلى المتجر. قضيتُ الصباح كله وأنا أنتظر بفارغ الصبر مغادرة السيد بيكر لتناول الغداء. وعندما غادر أخيرًا، فتحتُ خزانة العرض، وأعدتُ الساعة إلى مكانها، ثم أعدت ترتيب الساعات الأخرى من حولها. تحركتُ بسرعة. في الأسبوع السابق، سرقتُ الساعة دون أن أشعر بأي توتر، لكنني الآن كنتُ مرعوبة من أن يمسكني أحد وأنا أعيدها.

في أواخر أغسطس، كنتُ أغسل الملابس في الحوض الصغير بغرفة المعيشة عندما سمعتُ أحدًا يصعد الدرج وهو يغني. كانت لوري. اقتحمت غرفة المعيشة، وحقيبة الدوفل على كتفها، وهي تضحك وتغني بحماس إحدى تلك الأغاني الصيفية الطريفة التي يرددها الأطفال حول نار المخيم. لم يسبق لي أن رأيتُ لوري تنطلق بهذا الشكل من قبل. كانت تشع بهجة، وهي تخبرني عن الوجبات الساخنة، والاستحمام بالماء الدافئ، وكل الأصدقاء الجدد الذين كوّنتهم. بل إنها حتى حصلت على صديق قام بتقبيلها. قالت: "كان الجميع يفترض أن هذا الأمر مُعتاد. لكن كان ذلك شعورًا غريبًا". ثم أخبرتني أنها أدركت أنه إذا تمكنت من مغادرة ويلش والابتعاد عن العائلة، فقد تحظى بفرصة لحياة سعيدة. ومنذ ذلك الحين، بدأت تتطلع إلى اليوم الذي ستغادر فيه شارع ليتل هوبرت، وتبدأ حياتها المستقلة.

بعد بضعة أيام، عادت أمي إلى المنزل. بدت مختلفة هي الأخرى. كانت قد عاشت في سكن جامعي طوال الصيف، دون أن يكون عليها الاعتناء بأربعة أطفال، وقد أحبت ذلك. حضرت المحاضرات، ورسمت لوحات، وقرأت أكوامًا من كتب تطوير الذات، التي جعلتها تدرك أنها كانت تعيش حياتها من أجل الآخرين. أعلنت بنيّة حازمة أنها ستترك وظيفتها في التدريس وتتفرغ للفن. قالت: "لقد حان الوقت لأفعل شيئًا لنفسي. حان الوقت لأبدأ العيش من أجلي".

قلتُ: "لكن يا أمي، لقد قضيتِ الصيف كله في تجديد شهادتك التدريسية".

قالت: "لو لم أفعل ذلك، لما توصلتُ إلى هذا الإدراك".

قلتُ: "لا يمكنكِ ترك وظيفتكِ، نحن بحاجة إلى المال".

قالت: "لماذا يجب أن أكون أنا دائمًا من يكسب المال؟ لديكِ وظيفة. ويمكنكِ كسب المال. يمكن للوري أن تكسب المال أيضًا. لديَّ أشياء أكثر أهمية لأفعلها".

ظننتُ أن أمي تمر بنوبة غضب أخرى. افترضتُ أنه بحلول أول يوم دراسي، ستكون قد انطلقت في سيارة لوسي جو دارت إلى مدرسة ديفي الابتدائية، حتى لو اضطررنا إلى إقناعها. لكن في ذلك الصباح، رفضت أمي النهوض من السرير. حاولنا -أنا، ولوري، وبراين- أن نزيح عنها الأغطية ونجذبها للخروج، لكنها لم تتحرك.

قلت: "لديكِ مسئوليات. قد تتدخل رعاية الأطفال مجددًا إذا لم تذهبي إلى العمل". عقدت أمي ذراعيها على صدرها، وحدقت فينا بتحدٍّ. قالت: "لن أذهب إلى المدرسة".

سألتُها: "لماذا؟".

قالت: "أنا مريضة".

قلتُ: "ما خطبكِ؟".

قالت: "مخاطي لونه أصفر".

قلتُ: "لو أن كل من لديه مخاط أصفر بقي في المنزل، لكانت المدارس شبه فارغة".

عندها، رفعت أمي رأسها بغضب. قالت أمي: "لا يمكنكِ التحدث إليَّ بهذه الطريقة"، ثم أضافت: "أنا أمكِ".

قلتُ: "إذا كنتِ تريدين أن تُعاملي كأم، فعليكِ أن تتصرفي كأم".

نادرًا ما كانت أمي تغضب. كانت تغني أو تبكي، لكن الآن، كان وجهها يلتوي بالغضب. كنا نعلم كلانا أنني قد تجاوزتُ الحد، لكنني لم أكترث. فقد تغيرتُ أنا أيضًا خلال الصيف.

صرخت أمي: "كيف تجرئين؟ أنتِ في ورطة الآن، ورطة كبيرة. سأخبر والدكِ. فقط انتظري حتى يعود إلى المنزل".

لم يقلقني تهديد أمي. من وجهة نظري، كان أبي مدينًا لي. لقد اعتنيتُ بأطفاله طوال الصيف، ووفرتُ له المال لشراء المشروبات والسجائر، وساعدته على خداع ذلك المُعدِّن روبي. كنت أعتقد أنني أملك أبي في جيبي الصغير.

عندما عدتُ من المدرسة بعد الظهر، كانت أمي لا تزال مستلقية على السرير القابل للطي، وبجانبها كومة صغيرة من الكتب الورقية. كان أبي جالسًا عند طاولة الرسم، يلفّ سيجارة. أشار إليّ لأتبعه إلى المطبخ. راقبتنا أمي ونحن نغادر.

أغلق أبي الباب، ونظر إليّ بصرامة. قال: "تدّعي أمكِ أنكِ خاطبتِها بوقاحة".

قلتُ: "نعم، هذا صحيح".

قال: "نعم يا سيدي". هكذا صحّح لي لهجتي، لكني آثرتُ الصمت.

قال بصرامة: "أنا محبط منكِ. أنتِ تعرفين جيدًا أنكِ يجب أن تحترمي والديكِ".

قلتُ: "أبي، أمي ليست مريضة، إنها تتغيب عن مسئولياتها. عليها أن تأخذ التزاماتها بجدية أكبر. عليها أن تنضج قليلًا".

حدّق بي أبي، ثم قال: "من تظنين نفسكِ؟ إنها أمكِ".

قلت: "إذًا لماذا لا تتصرف كأم؟". حدّقتُ بأبي لوهلة بدت كأنها دهر. ثم فجأة، انطلقتُ بالكلمات قبل أن أتمكن من التراجع. قلت: "ولماذا لا تتصرف أنتَ كأب؟".

رأيت الدم يتدفق إلى وجهه. أمسك بذراعي بقوة وقال: "اعتذري عن هذا الكلام!".

قلتُ بتحدٍّ: "وإلا ماذا؟".

دفعني أبي نحو الحائط. قال بصوت غاضب: "وإلا، أقسم بالله، سأريكِ من المسئول هنا".

كان وجهه على بعد بضع بوصات من وجهي. قلت: "ماذا ستفعل لمعاقبتي؟ ستتوقف عن أخذي إلى الحانات؟".

رفع أبي يده كما لو أنه سيصفعني. قال: "راقبي لسانكِ أيتها الشابة. ما زلت قادرًا على تأديبكِ، فلا تظني أنني لن أفعل".

قلتُ: " لا يُعقل أن تكون جادًا".

خفض أبي يده، ثم سحب حزامه من حلقات سرواله، ولفه حول مفاصل يديه عدة مرات.

قال بصوت حاد: "اعتذري لي ولأمكِ".

قلتُ: "لا".

رفع أبي الحزام وقال: "اعتذري".

قلت: "لا".

قال: "إذًا انحني إلى الأمام".

كان أبي واقفًا بيني وبين الباب. لم يكن هناك مخرج سوى المرور من خلاله. لكن لم يخطر ببالي أن أهرب أو أقاوم. كنت أرى أنه في وضع أصعب من موقفي. كان عليه أن يتراجع، لأنني كنت أعلم أنه إذا انحاز إلى أمي وضربني، فسيخسرني إلى الأبد.

حدّق كل منا بالآخر. بدا كأنه ينتظر مني أن أخفض نظري، أن أعتذر وأخبرهم بأنني كنت مُخطئة حتى تعود الأمور كما كانت، لكنني واصلتُ التحديق بعينيه. أخيرًا، قررت أن أضعه تحت الاختبار، فاستدرت، وانحنيت قليلًا، ووضعت يديّ على ركبتيّ.

كنت أتوقع أن يستدير ويرحل، لكن بدلًا من ذلك، انهالت ست ضربات عنيفة على ظهر فخذيّ، كل واحدة منها مصحوبة بصوت صفير في الهواء. شعرتُ بالندوب تتكوّن حتى قبل أن أعتدل في وقوفي.

خرجتُ من المطبخ، دون أن أنظر إلى أبي. كانت أمي تقف خارج الباب. كانت تستمع إلى كل شيء. لم أنظر إليها، لكنني رأيتُ بطرف عيني تعبير النصر المرتسم على وجهها. عضضتُ شفتي كيلا أبكي.

بمجرد أن خرجتُ من المنزل، ركضتُ نحو الغابة، أدفع بأغصان الأشجار وأشجار العنب البرية بعيدًا عن وجهي. كنتُ أعتقد أنني سأبدأ بالبكاء الآن بمجرد أن أبتعد عن المنزل، لكن بدلًا من ذلك، تقيأتُ. أكلتُ بعض النعناع البري لأتخلص من طعم القيء، وسرتُ لساعات، كما بدا لي، عبر التلال الصامتة. كان الهواء نقيًا وباردًا، وأرض الغابة مغطاة بطبقة سميكة من الأوراق المتساقطة من أشجار الكستناء والحور. في وقت متأخر من بعد الظهر، جلستُ على جذع شجرة، مائلة إلى الأمام، لأن ظهر فخذي كان لا يزال يؤلمني. طوال الرحلة الطويلة، ظل الألم يبقيني في حالة من التفكير، وبحلول الوقت الذي جلستُ فيه على الجذع، كنتُ قد اتخذتُ قرارين.

كان قراري الأول، أنني قد تلقيت آخر ضربة لي في حياتي. لن يسمح أحد لنفسه بأن يضربني. مجددًا. أما القرار الثاني، أنني، مثل لوري، سأغادر ويلش. في أقرب وقت ممكن. قبل أن أنهي المدرسة الثانوية إن استطعت. لم أكن أعرف إلى أين سأذهب، لكنني كنت أعلم أنني سأرحل. كنت أعلم أيضًا أن الأمر لن يكون سهلًا. فالناس كانوا يبقون عالقين في ويلش. كنتُ أعتمد على أمي وأبي ليأخذانا بعيدًا من هنا، لكنني الآن أدركتُ أنني سأتولى الأمر بنفسي. سيحتاج الأمر إلى الادخار والتخطيط. قررتُ أنه في اليوم التالي، سأذهب

إلى متجر "جي. سي. ميرفي" وأشتري حصالة بلاستيكية وردية كنت قد رأيتها هناك. كنت سأضع الخمسة والسبعين دولارًا التي تمكنت من ادخارها في أثناء عملي في "صندوق بيكر للمجوهرات". سيكون ذلك بداية صندوق الهروب الخاص بي.

ذلك الخريف، ظهر في ويلش شابان مختلفان عن أي شخص التقيته من قبل. كانا صانعي أفلام من مدينة نيويورك، وقد أُرسلا إلى ويلش ضمن برنامج حكومي يهدف إلى رفع المستوى الثقافي في المناطق الريفية ببلدة أبالاشيا. كانا يُدعيان كين فينك وبوب جروس.

في البداية، اعتقدتُ أنهما يمزحان. كين فينك وبوب جروس؟ بالنسبة إليّ، كان بإمكانهما أن يقولا إن اسميهما كين الغبي وبوب القبيح، ولن يكون الأمر مختلفًا. لكن كين وبوب لم يكونا يمزحان. لم يجدا في اسميهما أي شيء مضحك، ولم يبتسما حتى عندما سألتُ إن كانا يسخران مني.

كانا يتحدثان بسرعة فائقة -تمتلئ محادثاتهما بإشارات إلى أشخاص لم أسمع عنهم من قبل، مثل ستانلي كوبريك ووودي آلن- لدرجة أنني كنت أجد صعوبة في متابعتهما أحيانًا. وعلى الرغم من أنهما لم يجدا اسميهما مضحكين، فقد كانا يملكان حس دعابة مختلفًا. لم يكن من نوع النكات التي اعتدتها في مدرسة ويلش الثانوية، كنكات البولنديين أو الفتيان الذين يضعون أيديهم تحت إبطهم ليصدروا أصوات ضرطة. كان لدى كين وبوب أسلوب ذكي وتنافسي في المزاح، يُطلق أحدهما تعليقًا ساخرًا، فيرد الآخر بتعليق أكثر ذكاءً، ثم يعود الأول برد آخر، وهكذا حتى أشعر بأن رأسي يدور.

في إحدى عطلات نهاية الأسبوع، عرض كين وبوب فيلمًا سويديًا في قاعة المدرسة. كان الفيلم بالأبيض والأسود، مصحوبًا بترجمة، وتدور أحداثه حول الرمزية، فلم يحضر أكثر من اثني عشر شخصًا، رغم أن العرض كان مجانيًا. بعد انتهاء العرض، أطلعت لوري كين وبوب على بعض رسومها. قالا إنها موهوبة، وإذا كانت جادة في أن تصبح فنانة، فعليها أن تذهب إلى نيويورك. نيويورك كانت مكانًا يعج بالطاقة والإبداع والتحفيز الفكري، شيئًا لم نشهده من قبل. كانت تعج بأشخاص فريدين لم يتمكنوا من الاندماج في أي مكان آخر.

في تلك الليلة، استلقيت أنا ولوري على أسرّتنا المصنوعة من الحبال، نتحدث عن مدينة نيويورك. كنت أتصورها دائمًا مدينة ضخمة وصاخبة، مليئة بالتلوث، وحشود من الناس في بذلات رسمية يزاحمون بعضهم على الأرصفة. لكن لوري بدأت تراها كمدينة الزمرد، مكانًا متلألئًا ومفعمًا بالحياة يقع في نهاية طريق طويل، حيث يمكنها أن تصبح الشخص الذي قُدِّر لها أن تكونه.

ما أحبّته لوري أكثر في وصف كين وبوب هو أن مدينة نيويورك تستقطب أولئك الذين يختلفون عن غيرهم. كانت لوري مختلفةً بقدر ما يمكن أن يكون عليه شخص في ويلش. بينما كان أغلب الطلاب يرتدون الجينز وأحذية "كونفيرس" والتيشيرتات، كانت لوري تظهر في المدرسة مرتدية أحذية عسكرية، وفستانًا أبيض مُزينًا بنقاط حمراء، كَتبت على ظهره شِعرًا مُظلمًا بخط يدها. كان الطلاب الآخرون يرمونها بقوالب الصابون، ويدفع بعضهم بعضًا إلى طريقها، ويكتبون عنها كتابات مسيئة على جدران حمامات المدرسة. لكنها كانت ترد عليهم بالشتائم باللاتينية.

في المنزل، كانت لوري تقرأ وترسم حتى وقت متأخر من الليل، على ضوء الشموع أو مصباح الكيروسين إذا قُطعت الكهرباء. كانت تحب التفاصيل القوطية: الضباب الذي يتدلى فوق بحيرة صامتة، الجذور الملتوية التي تندفع من الأرض، غرابًا وحيدًا جاثمًا على غصن شجرة عارية عند حافة المياه. كنت أعتقد أن لوري مذهلة، ولم يكن لديَّ أدنى شك في أنها ستصبح فنانة ناجحة، لكن فقط إن تمكنت من الوصول إلى نيويورك. قررت أنني أريد الذهاب أيضًا، وخلال ذلك الشتاء، وضعنا خطة. ستغادر لوري وحدها إلى نيويورك في يونيو، بعد تخرجها. ستستقر هناك، وتجد لنا مكانًا، وسألحقُ بها بمجرد أن أتمكن من ذلك.

أخبرتُ لوري عن صندوق الهروب الخاص بي، عن الخمسة والسبعين دولارًا التي ادّخرتها. قلتُ: "من الآن فصاعدًا، سيكون صندوقنا المشترك". سنأخذ أعمالًا إضافية بعد المدرسة، وكل ما نجنيه سنضعه في الحصالة. ستأخذ لوري المال معها إلى نيويورك لتتمكن من الاستقرار، وبحلول الوقت الذي أصل فيه إلى هناك، سيكون كل شيء جاهزًا.

لطالما كانت لوري بارعة في تصميم الملصقات، سواء لحفلات التشجيع الرياضية، والمسرحيات التي ينظمها نادي الدراما، وحملات انتخابات مجلس الطلاب. الآن، بدأت تصمم ملصقات حسب الطلب مقابل دولار ونصف للملصق. لكنها كانت خجولة جدًا لتطلب العمل بنفسها، لذا كنتُ أنا من يتولى ذلك. كان عديد من طلاب مدرسة ويلش الثانوية يريدون ملصقات مخصصة ليعلقوها في غرفهم، تحمل أسماء أحبائهم، أو صور سياراتهم، أو أبراجهم الفلكية، أو أسماء فرقهم الموسيقية المفضلة. كانت لوري ترسم الأسماء بأحرف ضخمة متشابكة ثلاثية الأبعاد، مثل تلك التي تظهر على أغلفة ألبومات الروك، ثم تلونها بألوان نيون زاهية، وتُحددها بالحبر الهندي حتى تبدو الحروف بارزة أكثر، وتضيف حولها نجومًا ونقاطًا وخطوطًا متعرجة تجعلها تبدو كأنها تنبض بالحياة. كانت الملصقات رائعة لدرجة أنه سرعان ما انتشر صيت ملصقات لوري، وتراكمت الطلبات على لوري حتى باتت تعمل حتى الواحدة أو الثانية صباحًا.

أما أنا، فكنت أجني المال من رعاية الأطفال، ومن القيام بالفروض المدرسية للطلاب الآخرين. كنت أكتب لهم تقارير الكتب، والمقالات العلمية، وحل مسائل الرياضيات. كنتُ أتقاضى دولارًا واحدًا لكل مهمة، وأضمن الحصول على درجة لا تقل عن "جيد جدًا"، وإلا كان يحق للزبون استرداد أمواله كاملة. بعد المدرسة، كنت أعمل جليسة للأطفال مقابل دولار واحد في الساعة، وغالبًا ما كنت أتمكن من إنجاز الواجبات في أثناء ذلك. كما كنت أقدم دروسًا خصوصية للطلاب مقابل دولارين في الساعة.

أخبرنا براين عن صندوق الهروب، فانضم إلينا في الإسهام، رغم أننا لم نجعله جزءًا من خطتنا، لأنه كان لا يزال في الصف السابع. كان يقضي وقته في جزّ العشب أو قطع الحطب أو إزالة الأعشاب الضارة من التلال بمنجل. كان يعمل بعد المدرسة حتى غروب الشمس، وطوال يومي السبت والأحد، ويعود إلى المنزل وذراعاه ووجهه مخدوشان من الشجيرات التي أزالها. دون أن ينتظر شكرًا أو تقديرًا، كان يضيف أرباحه بصمت إلى الحصالة، التي أطلقنا عليها اسم "أوز".

احتفظنا بأوز فوق آلة الخياطة القديمة في غرفة النوم. لم يكن لأوز فتحة سفلية، وكانت الفتحة العلوية ضيقة جدًا بحيث لا يمكن إخراج الأوراق النقدية منها، حتى لو استخدمنا سكينًا، لذا بمجرد أن تضع المال بداخلها، يبقى هناك. اختبرنا ذلك للتأكد. لم نتمكن من عدّ المال، لكن لأن أوز كانت شفافة جزئيًا، كنا نستطيع رؤية الأوراق النقدية تتراكم داخلها عندما نرفعها باتجاه الضوء.

ذات يوم في ذلك الشتاء، عندما عدتُ إلى المنزل من المدرسة، كانت هناك سيارة كاديلاك كوبية ديفيل ذهبية اللون متوقفة أمام المنزل. تساءلتُ إن كانت وكالة الرعاية الاجتماعية قد وجدت لنا بعض الأثرياء ليكونوا آباءنا بالتبني، وإن كانوا قد وصلوا لأخذنا معهم، لكن أبي كان داخل المنزل، يدور مفتاح سيارة حول إصبعه. قال أبي: "هذه الكاديلاك هي المركبة الرسمية الجديدة لعائلة وولز". أما أمي فكانت تتذمر قائلة إن العيش في كوخ من ثلاث غرف من دون كهرباء قد يكون أمرًا مقبولًا، فثَمَّ شرف في الفقر، لكن أن تعيش في كوخ من ثلاث غرف، وتمتلك كاديلاك ذهبية يعني أنك من الفقراء البيض بكل ما تحمله الكلمة من معنى.

سألت أبي: "كيف حصلت عليها؟".

قال: "يد بوكر مذهلة، وخدعة أفضل منها".

كنّا قد امتلكنا بضع سيارات منذ وصولنا إلى ويلش، لكنها كانت مجرد خردة متحركة، بمحركات ترتجف ونوافذ متشققة، وعندما نقودها، كنا نرى الأسفلت غير الواضح من خلال الثقوب الصدئة في أرضياتها. لم تصمد تلك السيارات لأكثر من بضعة أشهر، وكما هي الحال مع الأولدزموبيل التي قدناها من فينيكس، لم نُكلف أنفسنا عناء تسميتها، ناهيك بتسجيلها أو فحصها. أما كاديلاك الكوبية ديفيل، فكانت تمتلك ملصق فحص لم تنتهِ صلاحيته بعد. كانت رائعة لدرجة أن أبي أعلن أن الوقت قد حان لإحياء تقليد تسمية سياراتنا. قال: "هذه الكاديلاك، تبدو لي كأنها إلفيس".

راودتني فكرة أن أبي يجب أن يبيع إلفيس، ويستخدم المال لتركيب مرحاض داخلي، ويشتري لنا جميعًا ملابس جديدة. الأحذية السوداء التي اشتريتها بخمسين سنتًا من متجر دولار جنرال ممزقة، وكانت مثبتة بدبابيس أمان حاولت تلوينها بقلم تحديد أسود، حتى لا تكون ملحوظة. كما استخدمت قلم التحديد لرسم بقع ملونة على ساقيّ، على أمل أن تخفي الثقوب في سروالي. ظننت أن هذا أقل وضوحًا من خياطة الرقع. كان لديَّ واحد أزرق وآخر أخضر، لذا عندما أخلع سروالي، كانت ساقاي تظهر مغطاة ببقع زرقاء وخضراء.

لكن أبي كان يحب إلفيس كثيرًا لدرجة أنه لم يفكر في بيعها. والحق أنني أحببت إلفيس أيضًا تقريبًا بالقدر نفسه. كانت إلفيس طويلة وأنيقة مثل يخت سباق. وكانت مزودة بتكييف هواء، ومقاعد مبطنة بفرش ذهبي فاخر، ونوافذ ترتفع وتنخفض بضغطة زر، وإشارة انعطاف تعمل، لذا لم يكن أبي بحاجة إلى مدّ ذراعه إلى الخارج. في كل مرة كنا نجوب البلدة بسيارة إلفيس، كنت أومئ برأسي برشاقة، وأبتسم للمارة على الرصيف، أشعر كأنني وريثة ثرية. كان أبي يقول: "لديكِ نُبل حقيقي يا عنزة الجبل".

أصبحت أمي أيضًا تحب إلفيس. لم تعد إلى التدريس، وبدلًا من ذلك كانت تقضي وقتها في الرسم، وفي عطلات نهاية الأسبوع بدأنا نقود إلفيس إلى المعارض الحِرفية في جميع أنحاء ولاية فرجينيا الغربية: وهي معارض يَعزفُ فيها الرجال الملتحون بسراويل ذات حمالات على آلات الدولسيمر، وتبيع فيها النساء، مرتديات فساتين قديمة، خدّاشات ظهر مصنوعة من أكواز الذرة ومنحوتات فحمية تمثل الدببة السوداء وعمال المناجم. كنا نملأ صندوق إلفيس الخلفي بلوحات أمي، ونحاول بيعها في تلك المعارض. كما كانت أمي ترسم صورًا شخصية فورية بالباستيل لمن هو مستعد لدفع ثمانية عشر دولارًا، وأحيانًا كانت تحصل على عمولة من جراء ذلك.

كنا ننام جميعًا داخل إلفيس خلال تلك الرحلات، لأننا في كثير من الأحيان كنا نجني بالكاد ما يكفي لتغطية تكاليف الوقود، وأحيانًا أقل من ذلك. ومع ذلك، كان الشعور بالتحرك مرة

أخرى رائعًا. كانت رحلاتنا بإلفيس تُذكرني بمدى سهولة حزم الأمتعة والمضي قدمًا بمجرد أن يراودك ذلك الشعور. بمجرد أن تعزم على الرحيل، فلا يكون هناك أي تعقيد في الأمر.

مع اقتراب فصل الربيع واقتراب موعد تخرج لوري، كنت أستلقي مستيقظة في الليل، أفكر في حياتها القادمة في مدينة نيويورك. قلتُ لها: "بعد ثلاثة أشهر تمامًا، ستعيشين في نيويورك". وفي الأسبوع التالي، قلتُ: "بعد شهرين وثلاثة أسابيع تمامًا، ستعيشين في نيويورك".

فقالت لي بضجر: "هلّا توقفتِ عن الحديث؟".

سألتها: "هل تشعرين بالتردد؟".

قالت: "ماذا تظنين؟".

كانت لوري مرعوبة. لم تكن متأكدة مما يُفترض أن تفعله بمجرد وصولها إلى نيويورك. كان ذلك دائمًا الجزء الأكثر غموضًا في خطتنا للهروب. في الخريف الماضي، كنتُ واثقة بقُدرتها على الحصول على منحة دراسية في إحدى جامعات المدينة. كانت واحدة من بين المتأهلين إلى التصفيات النهائية للحصول على منحة الاستحقاق الوطنية، لكنها اضطرت إلى استقلال سيارة أحد سائقي الشاحنات إلى بلوفيلد لأداء الاختبار، فتوترت عندما حاول السائق التحرش بها، وصلت متأخرة بنحو ساعة تقريبًا، وأدّت الاختبار على نحو سيئ.

أمّا أمي، التي كانت تدعم خطط لوري للذهاب إلى نيويورك، وظلت تقول إنها تتمنى لو كانت هي الأخرى ستذهب إلى تلك المدينة الكبيرة، فقد اقترحت عليها أن تقدم طلبًا إلى مدرسة كوبر يونيون للفنون. أعدت لوري مجموعة من رسوماتها ولوحاتها، لكن قبل الموعد النهائي لتقديم الطلبات بقليل، سكبت عن طريق الخطأ إبريقًا من القهوة على أعمالها، مما جعل أمي تتساءل بصوت عالٍ إذا كانت لوري تعاني من خوفٍ من النجاح.

ثم سمعت لوري عن منحة دراسية تقدمها جمعية أدبية للطالب الذي يصنع أفضل عمل فني مستوحى من أحد عباقرة الأدب الإنجليزي. قررت أن تصنع تمثالًا نصفيًا لشكسبير من الطين. عملت عليه لمدة أسبوع، مستخدمة عود مثلجات حادًا لتشكيل عينيه المنتفختين قليلًا وذقنه الصغير والقرط الخاص به وشعره الطويل نسبيًا. وعندما انتهت، بدا التمثال كأنه نسخة طبق الأصل من شكسبير.

في تلك الليلة، كنا جميعًا نجلس حول طاولة الرسم نراقب لوري، وهي تضع اللمسات الأخيرة على شعر شكسبير عندما عاد أبي إلى المنزل ثملًا. قال أبي: "هذا يشبه العجوز بيلي فعلًا، لكن المشكلة الوحيدة، كما قلت لكم من قبل، أنه كان مجرد دجال لعين".

لسنوات، كلما كانت أمي تُخرج مسرحيات شكسبير، كان أبي ينطلق في الحديث بإسهاب عن فكرة أنها لم تُكتب من قبل شخص واحد هو ويليام شكسبير من آفون، بل كتبها مجموعة من الأشخاص، من بينهم شخص يدعى إيرل أوف أكسفورد، لأنه لا يمكن لشخص واحد في إنجلترا في العصر الإليزابيثي أن يمتلك مفردات شكسبير التي تضم ثلاثين ألف كلمة. كان يقول: "كل هذا الهراء عن بيلي شكسبير الصغير، العبقري العظيم رغم تعليمه المدرسي المتواضع، ومعرفته القليلة باللاتينية والأقل منها بالإغريقية، ليس إلا مجرد أسطورة عاطفية".

قال للوري: "أنتِ تسهمين في ترويج هذه الخدعة".

قالت لوري: "أبي، إنه مجرد تمثال نصفي".

قال أبي: "هذه هي المشكلة".

ثم تأمل التمثال للحظة، وفجأة مد يده، ومَسَح فم شكسبير بإبهامه.

صرخت لوري: "ما الذي تفعله بالله عليك؟".

قال أبي: "لم يعد مجرد تمثال نصفي. الآن أصبح يحمل قيمة رمزية. يمكنكِ تسميته ‹الشاعر الأبكم›".

صرخت لوري: "لقد قضيت أيامًا في صنعه، وقد دمرته!".

قال أبي: "بل لقد رفعته إلى مستوى أعلى". ثم أخبر لوري أنه سيساعدها في كتابة ورقة تثبت أن مسرحيات شكسبير لها عدة مؤلفين، مثل لوحات رامبرانت. ثم أضاف: "بحق الله، ستقلبين عالم الأدب رأسًا على عقب".

صرخت لوري: "أنا لا أريد أن أقلب العالم رأسًا على عقب! فقط أريد الفوز بمنحة تافهة!".

قال أبي: "تبًا، أنتِ في سباق خيل، لكنكِ تفكرين بعقلية الخراف. والخراف لا تفوز بسباقات الخيول".

لم تعد لدى لوري الطاقة لإعادة تشكيل التمثال النصفي. في اليوم التالي، سحقت الطين إلى كتلة كبيرة، وتركته على طاولة الرسم. قلتُ للوري إنه إذا لم تُقبَل في مدرسة فنية بحلول وقت تخرجها، فعليها الذهاب إلى نيويورك على أي حال. يمكنها أن تعيش على المال الذي وفرناه حتى تجد وظيفة، ثم تقدم طلبًا للالتحاق بإحدى الكليات. أصبحت تلك خطتنا الجديدة.

كان الجميع غاضبين من أبي، مما جعله يستاء. قال إنه لا يعرف لماذا يزعج نفسه بالعودة إلى المنزل من الآن فصاعدًا، لأنه لم يعد يتلقى أدنى قدر من التقدير لأفكاره. أصر على أنه لم يكن يحاول منع لوري من الذهاب إلى نيويورك، لكنه قال إنه لو كان لديها الحد الأدنى من العقل، فستبقى حيث هي. قال على نحو متكرر إن نيويورك مكان مُزرٍ للغاية، مليء بالمنحرفين والمجرمين. وحذرها من أنها ستتعرض للسرقة، وتجد نفسها في الشوارع، مُجبرة على ممارسة الدعارة، وينتهي بها المطاف مدمنة مخدرات مثل عديد من المراهقين الهاربين. ثم قال: "أنا أقول لكِ هذا فقط لأنني أحبكِ. ولا أريد أن أراكِ تتأذين".

في إحدى أمسيات شهر مايو، بعد أن قضينا ما يقارب تسعة أشهر في ادخار المال، عدت إلى المنزل ومعي بضعة دولارات جنيتها من مجالسة الأطفال، ودخلت إلى غرفة النوم لأخبئها بداخل حصّالة النقود "أوز". لم تكن الحصّالة في مكانها فوق آلة الخياطة القديمة. بدأت أفتش بين أكوام الأغراض في الغرفة، حتى عثرت عليها أخيرًا ملقاة على الأرض. كان أحدهم قد مزقها بسكين، وسرق كل المال.

كنت أعلم أنه أبي، لكن في الوقت ذاته، لم أستطِع أن أصدق أنه انحدر إلى هذا المستوى. من الواضح أن لوري لم تكن تعرف بعد. كانت في غرفة المعيشة تدندن وهي تعمل على ملصق. كان أول ما خطر ببالي هو إخفاء "أوز". راودتني فكرة مجنونة بأنني قد أتمكن بطريقة أو بأخرى من استبدال المال قبل أن تكتشف لوري أنه قد اختفى. لكنني كنت أعلم كم كان ذلك سخيفًا؛ لقد قضينا نحن الثلاثة معظم العام في جمع هذا المال. لم تكن هناك أي فرصة لتعويضه خلال الشهر المتبقي قبل تخرج لوري.

دخلت إلى غرفة المعيشة، ووقفت بجانبها أحاول التفكير في ما يمكنني قوله. كانت تعمل على ملصق كتب عليه "تامي!" بألوان زاهية. وبعد لحظة، رفعت رأسها وقالت: "ماذا؟".

رأت لوري ملامح وجهي، وأدركت فورًا أن هناك خطبًا ما. نهضت فجأة لدرجة أنها أسقطت زجاجة حبر هندي، وركضت إلى غرفة النوم. تهيأت لسماع صرخة، لكن لم يكن هناك سوى صمت، ثم صوت بكاء خافت مكسور.

بقيت لوري مستيقظة طوال الليل بانتظار أبي لمواجهته، لكنه لم يعُد إلى المنزل. تغيبت عن المدرسة في اليوم التالي على أمل أن يعود، لكنه ظل مختفيًا لثلاثة أيام قبل أن نسمع صوته وهو يصعد الدرج الخشبي المتهالك المؤدي إلى الشرفة.

صرخت لوري: "أيها اللعين! لقد سرقت مالنا!".

قال أبي: "ما الذي تتحدثين عنه بالله عليكِ؟ وانتقي ألفاظكِ". ثم اتكأ على الباب وأشعل سيجارة.

رفعت لوري حصّالة النقود المحطمة، وقذفتها بكل قوتها نحو أبي، لكنها كانت فارغة وخفيفة الوزن. ارتطمت بكتفه برفق، ثم ارتدت إلى الأرض. انحنى أبي ببطء، كما لو أن الأرض تحته قد تنهار في أي لحظة، والتقط حصّالة النقود المحطمة، وقلبها بين يديه. قال: "يبدو أن أحدهم قد مزق أوز المسكينة، أليس كذلك؟". ثم التفت إليّ وقال: "جانيت، هل تعرفين ما الذي حدث؟".

كان في الواقع يبتسم نصف ابتسامة لي. فبعد حادثة الضرب، حاول أبي التودد إليّ، ورغم أنني كنت أخطط للرحيل، فقد كان قادرًا على إضحاكي عندما يريد، وكان لا يزال يعتبرني حليفته. لكن الآن، كنت أريد أن أضربه على رأسه. قلت: "أنتَ سرقت مالنا، هذا ما حدث".

قال أبي: "أليس هذا غريبًا؟!". ثم بدأ يتحدث عن كيف أن الرجل يعود إلى منزله بعد أن أمضى يومه في معركة العمل، محاولًا حماية عائلته، وكل ما يريده مقابل تعبه وتضحياته هو القليل من الحب والاحترام، لكن يبدو أن هذا بات طلبًا مستحيلًا هذه الأيام. قال إنه لم يأخذ مالنا المخصص لنيويورك، لكنه إذا كانت لوري مُصرة على الذهاب إلى ذلك المستنقع القذر، فسيمول رحلتها بنفسه.

ثم أدخل يده في جيبه، وأخرج بضعة دولارات مجعدة. حدقنا به دون أن نحرك ساكنًا، فأسقط النقود على الأرض. قال: "كما تشاءان".

سألته: "لماذا تفعل هذا بنا يا أبي؟ لماذا؟".

تجمدت ملامحه بالغضب، ثم ترنح نحو الأريكة، وسقط مغشيًا عليه.

كانت لوري تردد: "لن أخرج من هنا أبدًا. لن أخرج من هنا أبدًا".

قلت: "بل ستتمكنين. أقسم لكِ". كنت أومن بذلك، لأنني كنت أعلم أنه إذا لم تخرج لوري من ويلش، فلن أتمكن أنا أيضًا من الخروج.

في اليوم التالي، عدت إلى متجر "جي. سي. ميرفي" وتوقفت أمام رف حصّالات النقود. كانت كلها بلاستيكية أو خزفية أو زجاجية، مما يجعلها سهلة الكسر. نظرت إلى مجموعة من الصناديق المعدنية المزودة بأقفال ومفاتيح. لكن مفصلاتها كانت ضعيفة للغاية، وكان بإمكان أبي فتحها بسهولة. لذلك، اشتريتُ محفظة نقود زرقاء، وارتديتها حول خصري تحت ملابسي طوال الوقت. وعندما امتلأت عن آخرها، وضعت المال في جورب، وخبأته في فجوة في الحائط أسفل سريري.

بدأنا ندخر من جديد، لكن لوري كانت تشعر بالإحباط، ونادرًا ما كانت ترسم، مما جعل المال يتجمع ببطء. قبل أسبوع من انتهاء العام الدراسي، لم يكن لدينا سوى 37.20 دولارًا في الجورب. ثم جاءتني فرصة غير متوقعة، حين عرضت عليّ إحدى النساء اللواتي كنت أرعى أطفالهن، وهي معلمة تُدعى السيدة ساندرز، أن أقضي الصيف مع عائلتها في ولاية آيوا، إذ كانوا يخططون للعودة إلى مسقط رأسهم. أخبرتني أنها ستدفع لي مئتي دولار في نهاية الصيف، بالإضافة إلى شراء تذكرة حافلة لي للعودة إلى ويلش.

تأملت عرضها للحظة، ثم قلت: "خذي لوري بدلًا مني، وفي نهاية الصيف، اشتري لها تذكرة حافلة إلى نيويورك".

وافقت السيدة ساندرز.

في صباح اليوم الذي غادرت فيه لوري، تجمعت سحب داكنة فوق قمم الجبال المحيطة ببلدة ويلش. كانت تلك السحب تظهر في معظم الصباحات، وحين كنت أراقبها، كانت تذكرني بعزلة البلدة ونسيانها، كأنها مكان كئيب ضائع وسط الغيوم. عادةً ما كانت هذه السحب تتلاشى مع حلول منتصف النهار، عندما ترتفع الشمس فوق التلال الشاهقة، لكن

في بعض الأيام، كما في ذلك اليوم الذي غادرت فيه لوري، كانت تظل عالقة بين الجبال، مكوّنةً طبقة ضبابية في الوادي تجعل الشعر والوجه يبتلان بالرطوبة.

عندما توقفت سيارة عائلة ساندرز العائلية، كانت لوري جاهزة للمغادرة. كانت قد حشرت ملابسها، وكتبها المفضلة، وأدواتها الفنية في صندوق كرتوني واحد. عانقتنا جميعًا باستثناء أبي -لم تتبادل معه أي كلمة منذ أن نهب حصالة "أوز"- ثم وعدت بأن تكتب لنا، وصعدت إلى السيارة.

وقفنا نشاهد السيارة وهي تتلاشى في الأفق، بينما تنحدر أسفل شارع ليتل هوبرت. لم تلتفت لوري ولو لمرة واحدة إلى الخلف، ورأيت في ذلك إشارة جيدة.

عندما صعدت درجات السلم عائدة إلى المنزل، وجدت أبي واقفًا في الشرفة، يدخن سيجارة.

قال: "هذه العائلة تنهار".

فأجبته: "لقد انهارت بالفعل".

ذلك الخريف، عندما كنت في الصف العاشر، عينتني الآنسة بيفنز محررةً للأخبار في صحيفة المدرسة "ذا مارون ويف". كنت قد بدأت العمل في الصحيفة كمدققة لغوية عندما كنت في الصف السابع، ثم توليت تنسيق الصفحات في الصف الثامن، وبحلول الصف التاسع، أصبحت أكتب المقالات وألتقط الصور. كانت أمي قد اشترت كاميرا "مينولتا" لالتقاط صور للوحاتها وإرسالها إلى لوري، التي كانت تعرضها في المعارض الفنية في نيويورك. وعندما لم تكن أمي تستخدم الكاميرا، كنت أحملها معي أينما ذهبت، لأنك لا تعرف متى قد تصادف حدثًا يستحق التغطية الصحفية. أكثر ما أحببته في عملي كصحفية هو أنه منحني ذريعة للوجود في أي مكان. لم يكن لديَّ كثير من الأصدقاء في ويلش، لذا نادرًا ما كنت أحضر مباريات كرة القدم أو الحفلات أو التجمعات المدرسية، إذ كنت أشعر

بالإحراج من الجلوس وحدي، بينما الجميع برفقة أصدقائهم. لكن عملي في الصحيفة منحني سببًا وجيهًا للحضور، كنت في مهمة صحفية، وعضوة في طاقم الإعلام، أحمل دفتر ملاحظاتي وكاميرا من ماركة "مينولتا" معلقة حول عنقي.

بدأت أحضر كل الفاعليات اللامنهجية تقريبًا، وسرعان ما بدأ الطلاب الذين كانوا يتجاهلونني في السابق يقبلونني بينهم، بل ويسعون إلى الظهور أمامي، يضحكون ويتصرفون بعفوية على أمل أن تظهر صورهم في الصحيفة. وبما أنني أصبحت قادرة على منحهم لحظات من الشهرة بين أقرانهم، لم أعد شخصًا يمكن الاستهانة به.

على الرغم من أن الصحيفة كانت دورية شهرية، فقد كنت أكرس لها وقتي وجهدي يوميًا. فبدلًا من الانزواء في الحمام خلال استراحة الغداء، أصبحت أقضي تلك الفترة في حجرة الآنسة بيفنز، حيث أجتهد في كتابة مقالاتي، وأنقح وأحرر إسهامات الطلاب الآخرين، بل وأعتني حتى بأدق التفاصيل مثل عدّ الحروف في العناوين للتأكد من ملاءمتها لأعمدة الصفحة. وهكذا، وجدتُ أخيرًا عذرًا مقبولًا للتغيب عن وجبة الغداء، فصرتُ أعلل ذلك قائلًة: "لديَّ موعد نهائي لتسليم المقالات". كما اعتدتُ البقاء بعد انتهاء الدوام المدرسي لأحمّض الصور بنفسي في الغرفة المظلمة، وكانت لهذا الأمر ميزة أخرى غير متوقعة. إذ أتاح لي ذلك فرصة التسلل بهدوء إلى الكافتيريا بعد انصراف الجميع، والبحث عما تجود به سلال المهملات من بقايا الطعام. وهناك، كنت أعثر على كنوز حقيقية: علب صناعية ضخمة من الذرة ما تزال شبه ممتلئة، وحاويات كبيرة من سلطة الكرنب وحلوى التابيوكا الشهية. وهكذا، لم أعد مضطرة إلى النبش في قمامة الحمامات بحثًا عن لقمة، ونادرًا ما عدتُ أشعر بوطأة الجوع بعد ذلك.

وعندما بلغتُ الصف الحادي عشر، منحتني الآنسة بيفنز منصب رئيسة تحرير الصحيفة، وهو منصب كان يُفترض أن يشغله طالب في السنة النهائية عادةً. لم يكن ثَمَّ سوى قلة من الطلاب المهتمين بالعمل الصحفي، وهو الأمر الذي اضطرني إلى كتابة أغلب مواد الصحيفة

بنفسي. بلغ بي الأمر أنني بدأتُ أتجاهل وضع أسماء الكتّاب على المقالات، إذ بدا من غير المنطقي أن يتكرر اسمي أربع مرات في الصفحة الأولى!

كان سعر النسخة الواحدة من الصحيفة خمسة عشر سنتًا، وكنتُ أتولى بنفسي مهمة البيع، أجوب الصفوف وقاعات المدرسة، وأصدح بصوتي كباعة الصحف التقليديين. ورغم أن عدد طلاب المدرسة كان يقارب الألف ومئتي طالب، لم نتمكن إلا من بيع بضع مئات من النسخ فقط. ولرغبتي في تحسين المبيعات، عمدتُ إلى تجربة خطط متنوعة: فنظمتُ مسابقات للشعر، واستحدثتُ زاوية خاصة بالموضة، وكتبتُ مقالات افتتاحية تثير النقاش والجدل، من بينها مقال شكّكتُ فيه في مدى موثوقية الاختبارات الموحدة، وهو الأمر الذي أثار حفيظة واستياء رئيس قسم التعليم بالولاية، ودفعه إلى الرد بخطاب حامل نبرة غاضبة. إلا أن كل هذه المحاولات لم تُثمر النتائج المرجوة.

وذات يوم، بينما كنت أحاول إقناع أحد الطلاب بشراء الصحيفة، أفصح لي قائلًا إنه لا يرى جدوى من ذلك، معللًا الأمر بتكرار الأسماء نفسها في كل عدد: رياضيين، ومشجعات، وقليل من الطلاب المتفوقين دراسيًا الذين يحصدون الجوائز باستمرار. فاستلهمتُ من هذه الملاحظة فكرة زاوية جديدة أطلقتُ عليها اسم "ركن أعياد الميلاد"، وخصصتها لنشر أسماء حوالي ثمانين شخصًا ممن سيحتفلون بأعياد ميلادهم في الشهر المقبل. لقد كانت تلك هي المرة الأولى التي يظهر فيها أغلب هؤلاء الأشخاص في صفحات الصحيفة، وقد غمرتهم سعادة طاغية لرؤية أسمائهم مطبوعة على الورق، وهو ما دفعهم إلى شراء عدة نسخ من الصحيفة. وبالفعل، تضاعف عدد النسخ الموزعة بشكل ملحوظ. تساءلت الآنسة بيفنز بصوت عالٍ مستنكرة ما إذا كان "ركن أعياد الميلاد" يمت بصلة إلى الصحافة الجادة. فأجبتها ببساطة وعملية بأن الأمر لا يهمني، فالمهم أنه يحقق الهدف ويبيع الصحف.

في ذلك العام، حلَّ تشاك ييجر ضيفًا على مدرسة ويلش الثانوية. لطالما سمعتُ عن تشاك ييجر من والدي، وذلك منذ ولادته في ربوع ولاية فرجينيا الغربية، وتحديدًا في بلدة ميرا الواقعة على ضفاف نهر "مَد" Mud في مقاطعة لينكولن، وكيف التحق بالقوات الجوية

خلال الحرب العالمية الثانية، وتمكن بحلول سن الثانية والعشرين من إسقاط إحدى عشرة طائرة ألمانية، وكيف شق طريقه ليصبح طيارًا تجريبيًا في قاعدة إدواردز الجوية المترامية الأطراف في صحراء موهافي الشاسعة بولاية كاليفورنيا، وكيف استطاع في أحد أيام عام 1947 أن يصبح أول إنسان يحطم جدار الصوت على متن طائرته X-1، وذلك على الرغم من أنه في الليلة السابقة كان قد قضى سهرة يحتسي الشراب، وتعرض لحادث سقوط من فوق حصان تسبب في كسور في بعض ضلوعه.

لم يعترف والدي قط بوجود أبطال له في الحياة، إلا أن تشاك ييجر، ذلك الرجل الذي جسد أقصى درجات الجرأة والإقدام، والشهير بحبه للشراب وحساباته الدقيقة، كان الشخص الوحيد في هذا العالم الذي يكن له والدي إعجابًا فائقًا يفوق أي شخص آخر. وما إن علم والدي بنبأ اعتزام تشاك ييجر إلقاء كلمة في مدرسة ويلش الثانوية، وموافقته على إجراء مقابلة صحفية معي عقب ذلك، حتى كاد يفقد صوابه من فرط الحماس. فقد كان بانتظاري على شرفة المنزل، ممسكًا بقلم وورقة، وذلك لدى عودتي من المدرسة في اليوم الذي سبق موعد المقابلة المرتقبة. فقد انكبّ على مساعدتي في تحضير قائمة بأسئلة مُحكمة ومُتقنة، خشية أن أُعرّض نفسي لموقف مُخجل أمام قامة شامخة من قامات ولاية فرجينيا الغربية.

ما الذي كان يدور في ذهنك عندما كسرت حاجز ماخ 1 لأول مرة؟

ما الذي كان يدور في ذهنك عندما كسر أي. سكوت كروسفيلد حاجز ماخ 2؟

ما طائرتك المفضلة؟

ما رأيك في إمكانية الطيران بسرعة الضوء؟

أعدّ والدي ما يناهز خمسة وعشرين أو ثلاثين سؤالًا على هذا المنوال، ثم ألحّ علينا أن نُجري بروفة للمقابلة. تقمّص دور تشاك ييجر، وأخذ يُجيب بتفصيل وإسهاب عن الأسئلة

التي أعدّها. تغرغرت عيناه بالدموع، وهو يستعيد إحساسه بتجاوز حاجز الصوت. ثم عقد العزم على أنني بحاجة إلى ترسيخ قاعدة راسخة في تاريخ الطيران، فظل مستيقظًا إلى ساعة متأخرة من الليل يُلقنني دروسًا تحت ضوء سراج الكيروسين الوَهّاج حول برنامج الرحلات التجريبية، والمبادئ الجوهرية للديناميكا الهوائية، والعالم الفيزيائي النمساوي إرنست ماخ.

في اليوم التالي، قدّم السيد جاك، مدير المدرسة، تشاك ييجر خلال التجمع الحاشد في قاعة المدرسة. بدا مظهره أقرب إلى رعاة البقر منه إلى أبناء فرجينيا الغربية، وذلك بفضل مشيته المتّئدة ووجهه النحيل المُتشح بسمرة الصحراء، لكن بمجرد أن شرع في الكلام، انطلق صوته نقيًا صافيًا، يحمل معه صفاء لهجة أبناء الجبال الشاهقة. في أثناء كلمته، خيّم السكون على الطلاب المتوترين فوق مقاعدهم القابلة للطي، وانجذبوا بسحر شخصية هذا الرجل الأسطوري الذي طاف أرجاء المعمورة، وهو يُخبرنا بمدى اعتزازه بجذوره في فرجينيا الغربية، وكيف يجب علينا نحن أيضًا أن نعتز بتلك الجذور المشتركة التي تجمعنا، وأنه مهما كان منشأ أحدنا، فبوسع كل واحد منا، بل ويتعيّن عليه، أن يقتفي أثر أحلامه، على غرار ما فعل هو تمامًا. وعندما أسدل الستار على كلمته، كادت موجة التصفيق العارمة أن تُحطّم زجاج النوافذ.

اعتليت خشبة المسرح قبل أن يغادر الطلاب القاعة. ناديتُ بصوت مسموع: "السيد ييجر"، ومددتُ يدي مصافحة. "أنا جانيت وولز من صحيفة ذا مارون ويف".

استقبل تشاك ييجر يدي بابتسامة ودودة، وقال مداعبًا: "اكتبي اسمي على نحو صحيح يا آنسة، حتى يعرف أهلي عمن تكتبين".

جلسنا على بعض المقاعد المطوية، وتبادلنا أطراف الحديث لما يقارب الساعة. أبدى السيد ييجر اهتمامًا بالغًا بكل سؤال طرحته، كأنه يملك من الوقت ما يكفي ليخصصه لي وحدي. وحين ذكرتُ أمامه أسماء الطائرات المتنوعة التي حلّق بها، وهي الطائرات نفسها التي

حدّثني عنها والدي سابقًا، ابتسم مرة أخرى وقال بترحيب: "يا للروعة! أنا على يقين بأننا أمام خبيرة طيران مُحنّكة!".

في الممرات بعد ذلك، لم ينقطع سيل الطلاب المتدفق نحوي ليخبروني عن مدى حظي. تساءلوا بفضول: "كيف كان الحديث معه؟"، "ماذا قال لكِ بالتحديد؟". عاملني الجميع بقدر وافر من الاحترام، وهو الاحترام الذي لم يكن يحظى به سوى ألمع الرياضيين في المدرسة. بل إن لاعب الوسط في فريق كرة القدم الشهير وجه إليّ نظرة إعجاب، وأومأ برأسه تقديرًا. أصبحتُ الفتاة التي تمكنت بالفعل من التحدث مع تشاك ييجر.

كان والدي شديد الشوق لمعرفة تفاصيل المقابلة، إلى درجة أنه لم يكتفِ بانتظاري في المنزل عند عودتي من المدرسة فحسب، بل كان أيضًا في كامل وعيه واتزانه. وأصرّ على أن يعاونني في صياغة المقال، حرصًا منه على ضمان دقته من الناحية التقنية.

كنت قد استحضرتُ بالفعل مقدمةً في ذهني. جلستُ أمام آلة والدتي الكاتبة من طراز "ريمنجتون" وانهمكتُ في الكتابة:

"هذا الشهر، استعادت صفحات كتب التاريخ حيويتها وتوهجها، عندما حلّ تشاك ييجر، الرجل الذي حطم حاجز الصوت للمرة الأولى، ضيفًا على مدرسة ويلش الثانوية".

أطلّ والدي من خلف كتفي معقبًا: "يا له من مطلع آسر!"، لكن فلنضفِ عليه مسحةً من التشويق والإثارة.

كانت لوري تواظب على مراسلتنا من نيويورك، وقد أخذت المدينة بلُبّها. كانت تقيم في نُزلٍ خاص بالنساء في قرية جرينتش، وتعمل نادلة في مطعم ألماني، وتنتظم في دروسٍ للفنون، بل وحتى دروس في المبارزة بالسيف. لقد صادقت ثلةً من الأشخاص الرائعين، كل منهم فذّ غريب الأطوار. كانت تذكر لنا أن سكان نيويورك يعشقون الفن والموسيقى لدرجةٍ تدفع الفنانين إلى عرض لوحاتهم وبيعها على الأرصفة، جنبًا إلى جنب مع الفرق الموسيقية

التي تعزف مقطوعاتٍ لموزارت. حتى "سنترال بارك" لم تكن بالخطورة التي يتصورها أهل فرجينيا الغربية. ففي عطلات نهاية الأسبوع، كانت تعجّ بالمتزلجين على العجلات، ولاعبي الفريسبي، والمهرجين، والممثلين الصامتين بوجوههم المطلية باللون الأبيض. كانت على يقينٍ بأنني سأقع في غرام نيويورك بمجرد أن أخطو إليها، وكنتُ على درايةٍ بذلك أيضًا.

منذ أن التحقتُ بالصف الحادي عشر، وأنا أحسبُ الأشهر -اثنين وعشرين شهرًا- حتى يحين موعد لحاقي بلوري. كانت خطتي جليةً لا لبس فيها: ما إن أتخرج من المرحلة الثانوية، سأنتقل إلى نيويورك، وألتحق بإحدى جامعاتها، ثم أقتنص وظيفةً في وكالة "أسوشيتد برس" أو "يونايتد برس إنترناشيونال"، تلك الوكالات التي كانت أخبارها تتدفق عبر آلات التلكس في صحيفة "ويلش ديلي نيوز"، أو حتى في إحدى الصحف النيويوركية المرموقة. لطالما سمعتُ الصحفيين في "ويلش ديلي نيوز" يسخرون من الصحفيين الأنيقين العاملين في تلك الصحف، وكنتُ مصممةً على أن أغدو منهم.

في منتصف عامي الدراسي الثالث، توجهتُ إلى الآنسة كاتونا، مستشارة المرحلة الثانوية، وطلبتُ منها تزويدي بأسماء الكليات الموجودة في نيويورك. رفعت الآنسة كاتونا نظارتها المعلقة بسلسلة حول عنقها، وأمعنت النظر إليّ من خلال عدساتها. وأفادت أن "بلوفيلد ستيت" لا تبعد سوى ستة وثلاثين ميلًا فحسب، وأنني، بالنظر إلى علاماتي المرتفعة، يمكنني الحصول على منحة دراسية كاملة.

أجبتُها قائلة: "أرغبُ في الالتحاق بجامعة في نيويورك".

رمقتني الآنسة كاتونا بنظرةٍ مستغربة، وتساءلت في دهشة: "ولِمَ قد تفعلين ذلك؟".

أجبتُ ببساطةٍ وعفوية: "لأنني أطمحُ أن تكون تلك المدينة موطنَ إقامتي".

علّقت الآنسة كاتونا قائلة: "في تقديري الشخصي، أرى أن هذا القرار ينطوي على قدرٍ من الحماقة. فمن المنطقي دائمًا أن تلتحقي بجامعة تقع في الولاية التي أتممتِ فيها دراستكِ

الثانوية، إذ إنكِ ستُعتبرين حينها طالبةً من داخل الولاية، ممّا يعزز فرص قبولكِ، ويقلّل بشكلٍ ملحوظ من قيمة الرسوم الدراسية".

تأملتُ كلامها للحظاتٍ وجيزة، ثم بادرتُها بالقول: "ربما ينبغي لي أن أنتقل إلى نيويورك الآن، وأكمل دراستي الثانوية هناك، وحينها سأُصنّف كطالبةٍ من داخل الولاية".

حدّقت بي الآنسة كاتونا مليًا وأردفت قائلة: "لكنكِ تقيمين هنا في الأساس. هذا موطنكِ وهذه جذوركِ".

كانت الآنسة كاتونا امرأة ذات تقاطيع وجه دقيقة ومحددة، تعتاد ارتداء سترات صوفية مُزررة وأحذية متينة وقوية. نشأت وترعرعت في مدرسة ويلش الثانوية، ولم يخامرها قطّ خاطرُ العيش في مكان آخر. كانت مغادرة فرجينيا الغربية، بل وحتى مجرد الابتعاد عن ويلش، بمثابة خيانة عظمى في نظرها، توازي في شناعتها التخلي عن العائلة ونكران الجميل.

علّقتُ قائلة: "مجرد كوني أقيم هنا الآن، لا يعني بالضرورة أنني عاجزة عن الانتقال".

ردت قائلة: "لكن الإقدام على هذه الخطوة سيكون خطأً جسيمًا. موطنكِ الحقيقي هنا. تمعّني في ما ستفقدينه من جرّاء ذلك: عائلتكِ وأصدقاءكِ المقربين. ناهيكِ بأن عامكِ الدراسي الأخير يمثل المرحلة الأهم في مسيرتكِ التعليمية بأسرها. ستفوّتين على نفسكِ بهجة فاعليات يوم التخرج واحتفالات حفل الوداع".

عدتُ إلى المنزل متباطئة الخُطا في ذلك المساء، أستعيد في ذهني كلمات الآنسة كاتونا. لا شك في أن عديدًا من البالغين في ويلش كانوا يتحدثون عن عامهم الأخير في المدرسة الثانوية كأنه كان ذروة سنين عمرهم وأوج حياتهم. ففي "يوم التخرج" -وهو يوم كانت المدرسة قد خصصته في محاولة جادة لتثني الطلاب عن التسرب- كان الطلاب يرتدون أزياء تنكريةً مُضحكة، ويُمنحون إجازةً من حضور الحصص الدراسية. بيد أن هذا لم يكن

سببًا وجيهًا بما يكفي للإبقاء عليّ في ويلش عامًا آخر إضافيًا. أما في ما يتعلق بحفل التخرج الختامي، فلم يكن لديّ أدنى أمل في العثور على مرافق يصطحبني إليه، تمامًا كحال والدي الذي تبدو فرصته في استئصال شأفة الفساد من النقابات العمالية ضربًا من المستحيل.

لقد كنتُ أتحدث عن الانتقال إلى نيويورك على سبيل الافتراض المجرد حين بادرت بذكر الأمر قبل عام من التخرج، لكن بينما كنت أسير عائدة، أدركتُ فجأة أنني إن أردتُ حقًا تحقيق ذلك، فبإمكاني المضي قدمًا والإقدام عليه. ليس الآن، ليس في هذه اللحظة الراهنة -فما زلنا لم نبرح منتصف العام الدراسي بعد- لكن بوسعي الانتظار حتى أنتهي من إتمام الصف الحادي عشر. حينها سأكون قد بلغت السابعة عشرة من عمري. كنتُ قد وفّرتُ ما يقارب المئة دولار، وهو مبلغ أعتبره كافيًا للانطلاق وبدء حياة جديدة في نيويورك. أجل، كنتُ قادرةً على مغادرة ويلش في غضون أقل من خمسة أشهر فقط.

انتابتني موجة عارمة من الحماسة والابتهاج، بلغت من شدتها أنني اندفعتُ أعدو. ركضتُ بكل ما أوتيت من قوة، أسرع فأسرع، على امتداد الطريق القديم المظلل بالأشجار العارية الفروع، ثم اجتزتُ منطقة "جراند فيو" وصعدتُ شارع "ليتل هوبرت"، متجاوزةً نباح الكلاب الصاخبة في الأفنية، وأكوام الفحم المتجمدة الصلبة، مسرعةً الخُطا أمام منازل عائلات "نوي" و"باريش" و"هال" و"رينكو"، حتى وصلتُ، لاهثة الأنفاس، إلى منزلنا المتواضع. للمرة الأولى منذ سنوات طويلة، انتبهتُ للعمل غير المكتمل في طلاء جدران المنزل باللون الأصفر الشاحب. لقد أمضيتُ وقتًا مديدًا في ويلش، وأنا أحاول جاهدةً تحسين الأوضاع وتعديل الأحوال، لكن عبثًا؛ لم يتبدل من الواقع شيء.

في الواقع المرير، كانت حال المنزل تتدهور باضطراد. أخذ أحد الأعمدة الساندة يتصدع ويعوجّ. تفاقم تسرب السقف فوق مضجع براين، حتى بات يضطر، كلما هطل المطر، إلى الاحتماء تحت طوفٍ مطاطي كانت أمي قد فازت به في مسابقة، جمعنا قسائمها من عبوات السجائر "بنسون آند هيدجز 100s" الملقاة في صناديق القمامة. على أي حال، إن

غادرتُ، فسيغدو بوسع براين أن ينتقل إلى سريري القديم. هكذا، استقرّ عزمي وبتّ على قراري. سأرحل إلى نيويورك ما إن يشارف العام الدراسي على الانتهاء.

تكبدت المشقة في تسلق سفح الجبل خلف المنزل -حيث كانت الدرجات قد تلاشت وتهاوت عن آخرها- وتسلّلتُ عبر النافذة الخلفية التي ما لبثنا أن اتخذناها مدخلًا معتادًا لنا. كان أبي جاثيًا إلى منضدة الرسم، منكبًا على بعض الحسابات والأرقام، بينما كانت أمي تقلب ناظريها في كومة من لوحاتها المكدسة. ما إن باحَثتُهما بخطتي المُزمعة، حتى أطفأ أبي سيجارته المشتعلة، وانتصب واقفًا، ثم انصرف عبر النافذة الخلفية صامتًا، لم يتفوه بكلمة. أما أمي، فقد أومأت برأسها في سكون، وأطرقت ببصرها إلى الأسفل، تنفض الغبار المتراكم عن إحدى لوحاتها، وتهمهم بتمتمات خفيضة بين شفتيها.

استفسرتُ قائلةً: "ما رأيكِ في الأمر؟".

أجابت: "حسنًا. اذهبي إذًا".

سألتُ: "ما الذي يحصل؟".

ردّت قائلة: "لا شيء. الأمر يستحق، عليكِ الذهاب. إنها لخطة صائبة". ثم بدا عليها التأثر، كأنها على وشك الانهمار بالبكاء.

بادرتُها قائلةً بنبرة مواسية: "لا تحزني يا أمي، سأحرص على الكتابة إليكِ باستمرار".

أجابت بنبرة مُفعمة بالأسى: "لستُ حزينة لأني سأفتقدكِ أنتِ بالذات. بل أنا مُغتمة، لأنكِ أنتِ من سينعم بالرحيل إلى نيويورك بينما أنا هنا، قابعة في مكاني. هذا ليس من الإنصاف في شيء".

ما إن هاتفتُ لوري، حتى أبدت موافقتها الفورية على خطتي. أخبرتني أن بإمكاني الإقامة معها ريثما أجد وظيفة، وأسهم في تقاسم تكاليف الإيجار. أما براين، فقد استحسن الفكرة

هو الآخر، خصوصًا عندما لمّحتُ إلى أنه سيحظى بفرصة الانتقال إلى سريري القديم. حتى إنه أخذ يمازحني بلكنة مصطنعة متكلفة، متنبئًا بتحولي إلى إحدى فتيات نيويورك الأنيقات، اللواتي يرتدين معاطف الفراء، ويمددن خنصرهنّ ويرفعن أنوفهن في الهواء. ثم شرع يعدّ الأسابيع المتبقية قبل موعد رحيلي، تمامًا كما كنتُ أفعل في انتظار لُقيا لوري. فكان يقول: "بعد ستة عشر أسبوعًا بالتمام، ستكونين مستقرة في نيويورك". وفي الأسبوع الذي تلاه: "بعد ثلاثة أشهر وثلاثة أسابيع بالتمام، ستحطين رحالكِ في نيويورك".

لم يطُل الحديث بيني وبين أبي منذ أن أعلنتُ عن قراري الحاسم. وفي إحدى ليالي الربيع النَّدِية، دلف إلى الغرفة حيث كنتُ مستلقية على سريري منهمكة في الدراسة. كان يحمل بين ذراعيه بعض الأوراق المطوية بإحكام.

سألني قائلًا: "هل لديكِ بضع دقائق لتلقي نظرة سريعة على هذا؟".

أجبتُه: "بالتأكيد تفضل".

فانصعتُ خلفه إلى غرفة المعيشة، حيث بسط الأوراق بعناية فائقة على منضدة الرسم. كانت تلك هي التصميمات الأصلية المهترئة للقلعة الزجاجية، تغشاها آثار القدم والزمن. لم أعد أذكر على وجه الدقة آخر مرة وقعت عيناي عليها. فقد انقطعنا عن الخوض في الحديث عن القلعة منذ أن امتلأت الحفرة التي حفرناها خصيصى لها بأكوام القمامة.

بادرني أبي قائلًا: "أظن أنني اهتديتُ أخيرًا إلى حل جذري لمعضلة نقص ضوء الشمس في الجانب المنحدر". كان تصوره يقوم على تركيب مرايا مُقعّرة متخصصة ضمن الألواح الشمسية. إلا أن ما رغب في التباحث بشأنه معي على وجه الخصوص، كان تصميم الغرفة المخصصة لي. فقد استرسل قائلًا: "الآن وقد رحلت لوري، سأُجري تعديلًا على التصميم الأصلي، وستغدو غرفتكِ الجديدة أرحب اتساعًا بكثير".

كانت يداه ترتجفان قليلًا بينما يفرد أمامي تلك المخططات المترامية الأطراف. لقد رسم بدقة متناهية الواجهات الأمامية والجانبية والعلوية للقلعة الزجاجية، ووضع رسومات تخطيطية للأسلاك وشبكة السباكة المعقدة. بل إنه تجاوز ذلك إلى رسم تصميمات داخلية للغرف بتفاصيلها الدقيقة، ووضع عليها علامات إرشادية، وحدد أبعادها بقياسات بالغة الدقة، كما عهدتُ خط يده المربع والواضح.

تأملتُ مليًا تلك المخططات الصامتة. ثم تفوهتُ قائلة: "يا أبي، أنت لن تشيّد القلعة الزجاجية أبدًا".

فردّ قائلًا: "أهذا يعني أنكِ قد فقدتِ الثقة بوالدكِ العجوز؟".

أجبته قائلة: "حتى إن أتممت بناءها، فسأكون قد رحلتُ من هنا. ففي غضون أقل من ثلاثة أشهر، سأنطلق صوب نيويورك".

قاطعني أبي قائلًا: "كنتُ أفكر مليًا، لعلكِ لستِ مضطرة إلى العجلة في الرحيل". يمكنكِ أن تمكثي هنا ريثما تتخرجين في مدرسة ويلش الثانوية، ثم تلتحقين بجامعة بلوفيلد ستيت كما اقترحت الآنسة كاتونا، وبعدها تنعمين بوظيفة مرموقة في صحيفة "ويلش ديلي نيوز". ثم أخذ يقطع لي وعودًا بأنه سيعاونني في صياغة المقالات الصحفية، تمامًا على النحو الذي فعله في مقالي عن تشاك ييجر. واختتم حديثه قائلًا: "وسأبني القلعة الزجاجية، أقسم لكِ بذلك. وسنحيا فيها جميعًا في كنفٍ واحد. وستكون أفضل بكثير من أي شقة يمكن أن تجديها في نيويورك، يمكنني أن أضمن لكِ ذلك".

خاطبتُ أبي قائلة: "يا أبي، حالما أنتهي من دراستي، سأستقل أول حافلة مغادرة إلى الخارج. وإذا تعطلت الحافلات عن العمل، فسأجد من يقلني. وإذا لم أجد وسيلة نقل على الإطلاق، فسأسير على قدمي. انطلق وابنِ القلعة الزجاجية، لكن ليس من أجلي".

طوى أبي المخططات المعمارية وغادر الغرفة. بعد لحظات، سمعتُ وقع خطواته المتسارعة، وهو ينزل الجبل.

كان فصل الشتاء لطيفًا هذا العام، وقد حلّ الصيف مبكرًا في منطقتنا الجبلية. وبحلول أواخر شهر مايو، كانت أزهار "القلب الدّامي" و"الأزاليّة" قد أزهرت بكامل بهائها، وانتشر عبير زهر العسل الفواح في الأنحاء، متسللًا إلى داخل أرجاء المنزل. لقد عشنا أيام الصيف الحارة الأولى قبل حتى أن ينتهي العام الدراسي.

خلال تلك الأسابيع القليلة الأخيرة، كنت أتقلب بين مشاعر الحماس، والتوتر، ثم الخوف، ثم أعود إلى الحماس مجددًا في غضون دقائق معدودة. في اليوم الأخير من الدراسة، نظفت خزانتي المدرسية، وتوجهت لتوديع الآنسة بيفنز.

قالت لي: "لديَّ شعور قوي تجاه مستقبلكِ. أعتقد أنكِ ستحققين نجاحًا كبيرًا هناك. لكنكِ وضعتِني في موقف صعب الآن". ثم تساءلت: "من سيحرر مجلة ذا مارون ويف في العام القادم؟".

أجبتها: "لا تقلقي، ستجدين شخصًا مناسبًا، أنا على ثقة بذلك".

ردت قائلة: "لقد فكرت في محاولة إقناع أخيكِ بتولي هذه المهمة".

قلت: "قد يظن الناس أن عائلة وولز تؤسس سلالة".

فابتسمت الآنسة بيفنز وقالت: "ربما أنتم كذلك".

في تلك الليلة بمنزلنا، انهمكت أمي في تنظيف حقيبة سفر كانت تخصّها، تلك التي اعتادت استخدامها لحفظ أحذية رقصها، بينما كنتُ منهمكة في ملئها بملابسي ونسخ مُجلّدة من مجلة "ذا مارون ويف". كنتُ تواقةً إلى ترك كل ما يربطني بالماضي خلف ظهري، حتى الذكريات الجميلة، لذا فقد أهديتُ مورين حجر الجيود الخاص بي. كان مُغبرًا وباهتًا، لكني

أخبرتها أنها إذا فركته جيدًا، فسوف يلمع كالألماس. وبينما كنتُ أُخلي الصندوق المُثبت على الحائط بجوار سريري، قاطعني براين قائلًا: "تخيّلي هذا! غدًا في مثل هذا الوقت ستكونين في نيويورك!". ثم شرع يُقلّد فرانك سيناترا، مُترنمًا بنشاز أغنية "نيويورك، نيويورك"، ومؤديًا رقصة استعراضية بحركات مبالغ فيها إلى حد السخافة.

فصرختُ به قائلة: "اخرس أيها الأحمق!". ووجهتُ إليه ضربة قوية على كتفه.

فردّ قائلًا: "أنتِ الحمقاء!". وبادلني الضرب بمثل قوته. تبادلنا لكمات أخرى متفرقة، ثم تبادلنا النظرات بتوجّس وتردد.

لم تكن هناك سوى حافلة واحدة مُتوجهة من ويلش، وموعد انطلاقها في تمام الساعة السابعة وعشر دقائق صباحًا. كان عليّ أن أكون في المحطة قبل الساعة السابعة. أعلنت أمي -لأنها ليست من مُحبي الاستيقاظ باكرًا- أنها لن تنهض لتودّعني. وقالت: "أنا أعرف كيف تبدين، وأعرف تمامًا كيف يكون شكل محطة الحافلات". ثم استطردت قائلة: "تلك الوداعات المُطوّلة مفعمة بالعواطف بشكل مبالغ فيه".

تصارعتُ مع الأرق طوال تلك الليلة، وبراين كذلك. فبين الفينة والأخرى، كان يخرق سكون الليل بإعلانه المازح: "بعد سبع ساعات ستغادرين ويلش!"، ثم "بعد ست ساعات ستغادرين ويلش!"، فينتهي بنا الأمر بالانفجار ضحكًا. وأخيرًا، استسلمتُ للنعاس، لكن براين سرعان ما أيقظني مع انبلاج الفجر، رغم أنه -تمامًا كأمي- لم يكن من محبي الاستيقاظ المبكر. راح يهزّ ذراعي قائلًا: "لا مجال للمزاح الآن. بعد ساعتين من الآن ستكونين قد رحلتِ فعلًا".

لم يكن والدي قد عاد إلى المنزل تلك الليلة، لكن بينما كنت أتسلل عبر النافذة الخلفية حاملة حقيبة سفري، وجدته جالسًا عند أسفل الدرجات الحجرية، يدخن سيجارة. أصرّ على حمل الحقيبة عني، وانطلقنا معًا عبر شارع ليتل هوبرت، ثم انعطفنا نحو الطريق القديم.

كانت الأزقة الخالية مُبللة بندى الصباح. ومن حين لآخر، كان أبي يلتفت إليّ ويغمز بعينه، أو يُصدر صوت "تك" بلسانه كأني مُهر يدفعه للعدو قُدمًا. بدا كأنه يحاول جاهدًا أن يؤدي الدور التقليدي للأب، ألا وهو غرس الشجاعة في قلب ابنته، ومساعدتها على مواجهة مخاوف المجهول المُقبلة.

عندما وصلنا إلى المحطة، استدار نحوي وقال: "يا ابنتي، قد لا تكون الحياة في نيويورك باليسر الذي تتخيلينه".

فأجبته بثقة: "أنا قادرة على التأقلم معها".

مدّ يده إلى جيبه، واستخرج سكينه المُفضّلة، تلك التي تتميز بمقبض من قرن الغزال، ونصل من الفولاذ الأزرق الألماني، والتي لطالما استخدمناها في رحلات صيد الشياطين.

وقال: "سأشعر براحة أكبر إذا علمتُ أنكِ تحملينها معكِ". ثم دسّ السكين في كفّي.

انعطفت الحافلة نحو منعطف الشارع، وتوقفت أمام محطة "تريل وايز" مصحوبة بصوت فحيح مكابح الهواء المضغوط. فتح السائق صندوق الأمتعة، وانزلقت حقيبة سفري إلى الداخل لتستقر بجوار الحقائب الأخرى. عانقتُ والدي بحرارة. وعندما تلامست وجنتانا، واستنشقتُ عبير التبغ المنبعث منه، ورائحة مستحضر "فيتاليس" العطري، ورائحة الشراب الخفيفة، أدركتُ أنه قد تهيأ وحلق ذقنه خصيصى من أجلي.

قال بصوت حنون: "إذا لم تجرِ الأمور في نيويورك على النحو الذي تتمنينه، فباب العودة إلى المنزل مفتوح لكِ دائمًا". ثم أردف قائلًا: "سأكون هنا سندًا لكِ. أنتِ تعلمين ذلك جيدًا، أليس كذلك؟".

أجبته بتأكيد: "أعلم". كنتُ على يقين أنه سيكون كذلك، بأسلوبه الخاص. وكنتُ على يقين أيضًا بأنني لن أعود أبدًا.

لم يكن على متن الحافلة سوى عدد قليل من الركاب، مما أتاح لي فرصة الظفر بمقعد مُريح بجوار النافذة. أغلق السائق الباب بإحكام، وانطلقت الحافلة في رحلتها. في البداية، عقدتُ العزم على ألّا ألتفت إلى الخلف مطلقًا. كنتُ أصبو إلى التطلع إلى الأمام، نحو الوجهة التي أقصدها، لا إلى الوراء، نحو ما كنتُ أتركه خلفي من ذكريات. لكنني لم أتمالك نفسي، واستدرتُ على أي حال.

كان أبي حينها يُشعل سيجارة أخرى. لوّحتُ له مودعة، فردّ التحية بإشارة سريعة من يده. ثم دسّ يديه في جيبي معطفه، والسيجارة معلقة بين شفتيه، وظلّ واقفًا هناك، بكتفين مائلتين قليلًا، ونظرة زائغة في عينيه. تراءى لي مشهد مغادرته "ويلش" هو الآخر في ريعان شبابه، وهو في السابعة عشرة من عمره، مفعمًا بالحماس مثلي تمامًا الآن، ومؤمنًا تمام الإيمان بأنه لن يرجع إليها قط. وتساءلتُ في قرارة نفسي، هل كان يأمل أن تعود ابنته المُفضلة يومًا ما إلى أحضانه، أم أنه كان يتمنى، على عكس ما فعله، أن تنجح في الانعتاق منها إلى الأبد.

أدخلت يدي في جيبي، ولمست مقبض السكين القرني، ثم لوّحت مجددًا. لكنه بقي في مكانه، يزداد صِغرًا، أصغر فأصغر، حتى انعطفنا عند زاوية الشارع واختفى.

4

نيويورك

عندما بدت لي نيويورك للمرة الأولى، كان الشفق الوشيك يُرخي سدائله على المدينة. لاحَت في الأفق البعيد، خلف تضاريس التلال المتراكمة، مجرد رءوس شاهقة للأبراج وقواطع حادة للمباني. ثم ما لبثنا أن بلغنا قمة التلة، وهناك، مُترامية عبر نهر عريض، انبسطت جزيرة مترامية الأطراف، مُزدانةً بناطحات السحاب الشاهقة من أقصاها إلى أدناها، ونوافذها الزجاجية تتألق كألسنة اللهب الذهبية تحت وهج الشمس الغاربة.

هيجت تلك الرؤية قلبي، فاندفع بالخفقان، وتعرّقت كفّاي بغزارة. شققت طريقي بصعوبة عبر ممر الحافلة الضيق، قاصدةً دورة المياه الصغيرة في المؤخرة، وهناك غسلت وجهي بماء الحوض المعدني البارد. تأملتُ انعكاس وجهي الشاحب في المرآة المُعتمة، وسألت نفسي في حيرة: ما الذي سيستقر في نفوس سكان نيويورك، حين يقع نظرهم عليّ؟ هل سيرون مجرد فتاة جبلية قادمة من أبالاشيا الوعرة، فتاة طويلة القامة، هيفاء القدّ، تكاد ملامحها تختزل في خطوط حادة وزوايا مُدببة، بمرفقين بارزين، وركبتين نحيلتين، وأسنان أمامية نافرة؟ طالما أخبرني والدي أنني أمتلك جمالًا دفينًا. لكن معظم الناس لم يكترثوا لرؤيته. وكم عانيتُ أنا شخصيًا لأتبينه في ذاتي، إلا أن والدي كان دائمًا يؤكد أنه يراه جليًا، وهذا وحده كان يكفيني. كنتُ أمني النفس بأن يرى سكان نيويورك فيّ ولو جزءًا يسيرًا مما كان يراه والدي.

عندما توقفت الحافلة أخيرًا في المحطة النهائية، تناولت حقيبة سفري بصعوبة، وشققت طريقي نحو بهو المحطة المركزي. هناك، حشد بشري متدفق، متسارع الخُطا من حولي، يكاد يجرفني بتدفقه، حتى شعرتُ كأنني صخرة صماء مُلقاة في مجرى نهر جارف، وفجأة، تردد في سمعي صوت ينادي باسمي. كان شابًا يميل لون بشرته إلى الشحوب،

يرتدي نظارة ذات إطار أسود سميك، جعلت عينيه تبدوان ضئيلتين على نحو لافت. عرّف نفسه باسم "إيفان"، وأخبرني أنه صديق أختي لوري. تبين لي أن لوري كانت منهمكة في عملها في ذلك الوقت، وأنها طلبت من إيفان أن يتكرم باستقبالي نيابةً عنها. بادر إيفان بعرض المساعدة في حمل حقيبتي، ثم انطلق بي نحو الخارج، إلى تلك الفسحة الصاخبة أمام المحطة، حيث كانت جموع المشاة تحتشد في انتظار إشارة المرور لعبور التقاطع، واصطفت السيارات في صفوف مُتراصة، وتطايرت قصاصات الأوراق في كل اتجاه. تبعته مُذعنةً في صمت، وسط ضجيج المدينة المُخيم.

بعد أن قطعنا مسافة قصيرة، وضع إيفان الحقيبة على الأرض. قال: "يا إلهي، هذه الحقيبة ثقيلة! ما الذي تحملينه بداخلها؟".

أجبته قائلة: "إنها مجموعتي من الفحم".

حدّق بي في ذهول تام.

ابتسمت وقلت: "أنا أمزح معك فقط"، ثم دفعته بخفة على كتفه. لم يكن إيفان يتمتع ببديهة حاضرة، وهو ما اعتبرته إشارة جيدة. لم يكن لديَّ ما يدعوني إلى الانبهار التلقائي بذكاء وفطنة أهل نيويورك.

حملت الحقيبة مرة أخرى، ولم يصر إيفان على استعادتها، بل بدا عليه الارتياح لتوليّ المسئولية. واصلنا السير بينما كان يلقي عليّ نظرات خاطفة من وقت لآخر. أخيرًا قال: "فتيات فرجينيا الغربية يتمتعن بصلابة لا تصدق".

أجبته مؤكدة: "أنت على حق تمامًا".

اصطحبني إيفان إلى مطعم ألماني يُدعى "زوم زوم". كانت لوري متمركزة خلف المنضدة، تحمل في كل يد أربع زجاجات من المشروبات. كان شعرها مرفوعًا على شكل كعكتين متطابقتين، وتتحدث بلكنة ألمانية ثقيلة، مبررةً ذلك لاحقًا بأنه يزيد إكراميات الزبائن.

أشارت إليّ وقالت لزبائنها: "هذه أختي!". رفع الرجال كئوسهم وهتفوا: "أهلًا بكِ في نيويورك!".

لم أكن أعرف أي كلمة ألمانية، لذا قلت: "جراتسي (شكرًا بالإيطالية)!".

ضحك الجميع. بما أن لوري كانت لا تزال في نوبة عملها، خرجت لأتجول في الشوارع. أضعت طريقي مرتين، واضطررت إلى طلب المساعدة. لطالما حذرني الناس من فظاظة سكان نيويورك. صحيح أن الكثيرين كانوا يمرون دون توقف عندما تحاول استيقافهم في الشارع، بل إنهم كانوا يهزون رءوسهم ويكملون سيرهم. أما الذين كانوا يتوقفون، فكانوا لا ينظرون إليّ مباشرةً، بل يحدقون بأعينهم إلى مكان بعيد في امتداد الشارع، ووجوههم عابسة. لكن بمجرد أن يدركوا أنني لا أحاول استجداء المال أو الاحتيال عليهم، كانت مواقفهم تتغير تمامًا. صاروا ينظرون إليّ مباشرةً، ويقدمون لي تعليمات مفصلة عن كيفية الوصول إلى مبنى إمباير ستيت: "تسعة مربعات سكنية للأمام، ثم انعطفي يمينًا، ثم اعبري شارعين، وهكذا". بل إن بعضهم رسم لي خرائط توضيحية. أدركت أن سكان نيويورك يتظاهرون فقط بعدم الود.

لاحقًا، اصطحبتني لوري في رحلة عبر مترو الأنفاق إلى قرية جرينتش، ثم توجهنا معًا إلى "إيفانجلين"، وهو نزل مخصص للنساء كانت تقيم فيه. في تلك الليلة، استيقظت في حوالي الساعة الثالثة صباحًا، وإذا بي أرى السماء متوهجة بضوء برتقالي ساطع. تساءلت في نفسي إذا كان هناك حريق هائل قد اندلع في مكان ما، لكن في الصباح، أخبرتني لوري أن ذلك التوهج البرتقالي نتيجة لتلوث الهواء الذي يعكس أضواء الشوارع والمباني. وأوضحت لي أن السماء الليلية هنا تكون دائمًا على هذا اللون. وهذا يعني، كما قالت، إنك في نيويورك لا تستطيع رؤية النجوم أبدًا. لكن كوكب الزهرة لم يكن نجمًا، لذا خطر لي سؤال إذا كنت سأتمكن من رؤيته.

في اليوم التالي مباشرة، تمكنت من الحصول على وظيفة في مطعم للوجبات السريعة يقع في شارع الرابع عشر. بعد خصم الضرائب والتأمينات الاجتماعية، كان من المفترض أن

أحصل على أكثر من ثمانين دولارًا أسبوعيًا. لقد أمضيت وقتًا طويلًا أتخيل كيف ستكون الحياة في نيويورك، لكن الأمر الذي لم يخطر ببالي إطلاقًا هو أن الفرص ستتاح لي بهذه السهولة. بغض النظر عن ذلك الزي الرسمي الذي كان محرجًا بعض الشيء -أحمر وأصفر مع قبعات كبيرة متطابقة- فقد أحببت العمل هناك. كانت ساعات الغداء والعشاء تتميز بحركة محمومة، مع اصطفاف صفوف الزبائن التي تمتد إلى خارج المطعم، وأصوات أمناء الصناديق، وهم يصرخون بالطلبات عبر مكبرات الصوت، وعمال الشواية الذين يمررون شرائح البرجر عبر الحزام الناقل المشتعل، والموظفين الذين يتنقلون بسرعة فائقة بين طاولة الإضافات وركن المشروبات وسخان البطاطس بالأشعة تحت الحمراء، وكل منهم يحاول مواكبة سيل الطلبات المتزايد، بينما يقفز المدير للمساعدة كلما نشأت أزمة مفاجئة. كنا نحصل على خصم بنسبة عشرين في المئة على وجباتنا، وخلال الأسابيع الأولى هناك، اعتدت أن أتناول شطيرة برجر بالجبن ومخفوق شكولاتة كل يوم على الغداء.

في منتصف فصل الصيف، عثرت لوري لنا على شقة في حي يناسب ميزانيتنا المحدودة، في جنوب برونكس. كان المبنى الأصفر المصمم على طراز فن الديكو يبدو فخمًا في أوج افتتاحه، لكن جدرانه الخارجية كانت الآن مغطاة برسومات الجرافيتي، والمرايا المتصدعة في المدخل كانت مثبتة بشرائط لاصقة. ومع ذلك، كان يتمتع بما كانت أمي تسميه "الأساس المتين".

كانت شقتنا أكبر من منزلنا بأكمله في شارع ليتل هوبرت، وأكثر فخامة منه بمراحل. كانت أرضياتها مكسوة بخشب الباركيه اللامع، وتضم مدخلًا واسعًا بدرجتين تؤديان إلى غرفة المعيشة -حيث كنت أنام- وإلى جانبها، غرفة نوم أصبحت من نصيب لوري. كان لدينا أيضًا مطبخ مجهز به ثلاجة تعمل بكفاءة، وموقد غاز مزود بتقنية الإشعال الذاتي، مما أغنانا عن استخدام أعواد الثقاب، فكل ما عليك فعله هو تدوير المقبض، والاستماع إلى صوت الطقطقة المميز، ثم مشاهدة حلقة اللهب الأزرق وهي تتراقص عبر الفتحات الصغيرة في الموقد. لكن الغرفة الأحب إلى قلبي كانت الحمام. كانت أرضيته مرصوفة ببلاط أبيض

وأسود، ويحتوي على مرحاض يتدفق ماؤه بقوة عارمة، وحوض استحمام عميق تستطيع أن تغمر جسمك فيه بالكامل، ومياه ساخنة لا تنقطع أبدًا.

لم يكن يزعجني أن الشقة كانت تقع في حي يعتبر من الأحياء الصعبة، فقد اعتدنا العيش في أحياء مماثلة طوال حياتنا. كان الفتية البورتوريكيون يتجمعون في الشارع على نحو دائم، يعزفون الموسيقى، ويرقصون، ويجلسون فوق السيارات المهجورة، أو يتجمهرون عند مدخل محطة المترو العلوية وأمام المتجر الصغير الذي يبيع السجائر المفردة المعروفة باسم "لوسيز". تعرضت لمحاولات سرقة مرات عديدة. كان الجميع ينصحونني بأنه إذا حاول أحدهم سرقتي، يجب عليّ أن أسلمه المال على الفور بدلًا من تعريض حياتي للخطر. لكنني لم أكن مستعدة إطلاقًا للتخلي عن أي جزء من مالي الذي كسبته بجهد مُضنٍ لصالح أي غريب، ولم أكن أرغب في أن أشتهر في الحي بأنني هدف سهل، لذا كنت دائمًا أقاوم. في بعض الأحيان كنت أنجح، وفي أحيان أخرى كنت أفشل. لكن أفضل وسيلة اتبعتها للحماية هي أن أبقى متيقظة ومنتبهة دائمًا. ذات مرة، بينما كنت أصعد إلى القطار، حاول أحدهم أن يخطف حقيبتي، لكنني جذبتها نحوي بقوة، فتمزق الحزام وسقط الرجل على الأرض خالي الوفاض. وبينما كان القطار يتحرك مبتعدًا، نظرت من النافذة، ولوّحت له بيدي تلويحة ساخرة واسعة.

في ذلك الخريف، عثرت لي لوري على مدرسة حكومية فريدة، لم تكن تعتمد على الفصول الدراسية التقليدية، بل كانت تتيح للطلاب اختيار تدريبات مهنية متنوعة في أنحاء المدينة. وقع اختياري على صحيفة "ذا فينيكس"، وهي صحيفة أسبوعية كانت تصدر من محل متواضع بشارع أتلانتيك في قلب بروكلين، بالقرب من مصنع "إكس-لاكس" القديم. كان مايك أرمسترونج مالك الصحيفة وناشرها ورئيس تحريرها في آن واحد. وكان يعتبر نفسه صحفيًا استقصائيًا من الطراز العنيد، وقد رهن منزله خمس مرات متتالية للحفاظ على استمرار "ذا فينيكس". كان العاملون جميعهم يستخدمون آلات كاتبة يدوية طراز "أندروود" عتيقة، بشريط حبر باهت وأزرار مائلة إلى الاصفرار. أما آلتي الكاتبة، فكانت معطلة، تحديدًا حرف E لا يعمل، فاضطررت إلى استخدام رمز "@" بدلًا منه. لم نكن نملك

أوراق طباعة كافية، فكنا نقتات على أوراق البيانات الصحفية القديمة التي نلتقطها من سلة المهملات. ناهيك بأن الراتب كان يرتد مرة على الأقل شهريًا، مما أدى إلى استقالة عديد من الصحفيين المحبطين. وذات ربيع، بينما كان السيد أرمسترونج يجري مقابلة مع خريجة جامعية حديثة من قسم الصحافة لشغل وظيفة شاغرة، قفز فأر على قدمها فصرخت بذعر. وبمجرد أن غادرت الخريجة، التفت إليّ السيد أرمسترونج قائلًا: "إذا بدأتِ من اليوم مناداتي باسمي الأول ‹مايك› بدلًا من ‹السيد أرمسترونج›، فالوظيفة لكِ".

لم أكن قد تجاوزت الثامنة عشرة من عمري آنذاك. استقلتُ في اليوم التالي مباشرة من عملي في مطعم الوجبات السريعة، وتحولتُ إلى مراسلة صحفية بدوام كامل في "ذا فينيكس". لم أختبر سعادة مماثلة في حياتي قط. كنت أعمل تسعين ساعة في الأسبوع، وهاتفي لا يكف عن الرنين، وأندفع مسرعة لإجراء المقابلات، ثم ألقي نظرة خاطفة على ساعة "رولكس" التي اشتريتها من بائع متجول بعشرة دولارات لأتأكد من أنني لست متأخرة، وأعود مسرعة لأكتب تقريري، وأظل مستيقظة حتى الرابعة فجرًا لأساعد في طباعة الصحيفة بعد أن يستقيل عامل الطباعة. كل ذلك مقابل 125 دولارًا أسبوعيًا، وذلك إذا سمح البنك بصرف الشيك طبعًا.

كنت أرسل إلى براين خطابات مطولة، أغدق عليه فيها بكلمات معسولة عن الحياة المرفهة في نيويورك. فما كان منه إلا أن ردّ عليّ برسالة يصف فيها كيف أن الأوضاع في ويلش تزداد تدهورًا. كتب يقول: "أبي لا يفيق من سُكره، إلا إذا زُجّ به في السجن. أمي انقطعت تمامًا عن هذا العالم، وانزوت في عالمها الخاص. أما مورين، فتقيم أغلب الوقت عند الجيران. سقف غرفة نومي انهار، مما اضطرني إلى نقل فراشي إلى الشرفة. حاولت بناء جدران واقية بتثبيت بعض الألواح على الحاجز، لكنها كانت تتسرب من كل ناحية، لذا ما زلت ألجأ إلى النوم تحت الطوف المطاطي المنفوخ".

أخبرت لوري بأنه يجب أن يأتي براين ليقيم معنا في نيويورك، وقد وافقتني الرأي. إلا أنني كنت أخشى أن يتعلق براين بويلش ويرغب في البقاء فيها. فقد بدا لي دائمًا أقرب إلى

حياة الريف والهواء الطلق منه إلى صخب المدينة وضجيجها. لطالما رأيته يتجول في الغابات، يعبث بمحرك مهجور ذي شوطين، أو منهمكًا في تقطيع الحطب، أو منهمكًا في نحت رأس حيوان من قطعة خشب. لم أسمعه قط يشكو من الحياة في ويلش، وعلى عكسي أنا ولوري، كان يتمتع بصداقات وعلاقات اجتماعية واسعة هناك. لكنني كنت على يقين بأن مصلحته على المدى الطويل تكمن في مغادرة البلدة والانتقال إلى المدينة. لهذا، أعددت قائمة بالأسباب الموجبة لانتقاله إلى نيويورك، عازمة على استخدامها لإقناعه.

اتصلت به في منزل جده، وعرضت عليه حججي وبراهيني. أوضحت له أنه سيحتاج إلى إيجاد وظيفة ليُسهم في دفع الإيجار وتكاليف الطعام، لكن فرص العمل متوافرة بكثرة في المدينة. وأخبرته بأن بإمكانه مشاركة غرفة المعيشة معي -المساحة تتسع لفراش ثانٍ- وأن دورة المياه تعمل على الدوام، والسقف هنا لا يعرف التسرب أبدًا.

عندما انتهيت من حديثي، خيّم الصمت للحظة، ثم سألني براين قائلًا: "متى أقرب وقت يمكنني فيه القدوم؟".

تمامًا كما فعلتُ، استقلّ براين حافلة "تريل وايز" صبيحة اليوم التالي لإنهاء عامه الدراسي في المرحلة الثانوية. وفي اليوم الذي تلا وصوله إلى نيويورك، وجد عملًا في محل لبيع المثلجات في حي بروكلين، غير بعيد عن مقر "ذا فينيكس". وذكر أنه يُفضّل بروكلين على مانهاتن أو برونكس، لكنه اعتاد أيضًا أن يتردد على "ذا فينيكس" عقب انتهاء نوبته، منتظرًا إياي حتى حوالي الساعة الثالثة أو الرابعة فجرًا لكي نعود معًا بواسطة المترو إلى جنوب برونكس. لم يكن يتفوه بشيء يُذكر، لكني كنتُ أدرك أنه كان يرى، مثلما كنا في طفولتنا، أننا سنصبح أقدر على مجابهة العالم إذا كنا متكاتفين.

لم أعد أرى أي فائدة تُرجى من الذهاب إلى الجامعة. فقد كانت باهظة التكاليف، وكان غرضي منها هو الحصول على شهادة تُؤهلني للعمل كصحفية، غير أنني كنتُ أعمل بالفعل في "ذا فينيكس". أما المعرفة بحد ذاتها، فقد كنتُ أعتقد جازمةً أن المرء ليس بحاجة إلى شهادة جامعية لكي يغدو من الأشخاص الذين يُدركون حقيقة ما يجري. فإذا كنتَ يقظًا

ومُتفطنًا، يُمكنك أن تتعلّم بنفسك. لذا، ما إن أسمع بشيء أجهله -كقواعد حفظ الطعام وفقًا للشريعة اليهودية، أو "تنظيم تاماني هول السياسي"، أو "الموضة الراقية"- حتى أبحث عنه لاحقًا وأتقصّاه. وذات يوم، التقيتُ ناشطًا مجتمعيًا وصف برنامجًا وظيفيًا بعينه بأنه امتداد لعصر الإصلاحية. لم أكن أعلم ماهية عصر الإصلاحية هذا، فعدتُ أدراجي إلى المكتب، وأخرجتُ موسوعة "وورلد بوك". استفسر مني مايك أرمسترونج عمّا كنتُ منهمكة بفعله، وعندما أوضحتُ له الأمر، قال لي: "هل فكرتِ يومًا في الالتحاق بالجامعة؟".

فأجبته: "ولِمَ أتنازل عن هذه الوظيفة، وأذهب إلى الجامعة؟ لديكم خريجو جامعات يعملون هنا، ويقومون بالمهام نفسها التي أقوم بها".

قال مايك: "قد يبدو لكِ هذا مستبعدًا، لكن الحق يُقال، هناك فرص وظيفية تفوق وظيفتكِ الحالية أهمية. وقد تنالين إحداها يومًا ما، غير أن ذلك مشروط بحصولكِ على شهادة جامعية". وأردف مايك مؤكدًا لي أنه إذا قررتُ الالتحاق بالجامعة، فسيكون بإمكاني العودة إلى "ذا فينيكس" متى شئت. لكنه استدرك قائلًا بأنه لا يظن أنني سأقدم على تلك الخطوة.

علمتُ من صديقات لوري أن جامعة كولومبيا تُعدّ الأفضل في نيويورك. ولأنها كانت آنذاك حكرًا على الذكور، تقدمتُ بطلب انتساب إلى كلية بارنارد، التابعة لها، وقُبِلت. حصلتُ على منح دراسية وقروض غطت الجزء الأكبر من الرسوم الدراسية الباهظة، إضافة إلى بعض المدخرات التي جمعتها خلال عملي في "ذا فينيكس". غير أن تغطية المبلغ المتبقي استلزمت مني العمل لمدة عام كامل في وظيفة الرد على المكالمات الهاتفية في إحدى شركات "وول ستريت".

مع بدء الدراسة، لم يعد بمقدوري تحمل أعباء حصتي من الإيجار. لكن طبيبة نفسية تفضلت عليّ بعرض غرفة في شقتها في "أبر ويست سايد" مقابل العناية بطفليها الصغيرين. انخرطتُ في العمل بمعرض فني في عطلات نهاية الأسبوع، وضغطتُ جدولي

الدراسي بحيث اقتصرت المحاضرات على يومين فقط، حتى أصبحتُ محررة الأخبار في صحيفة Barnard Bulletin، بيد أنني استقلت من هذا المنصب عندما سنحت لي فرصة عمل كمساعدة تحرير بنظام ثلاثة أيام عمل أسبوعيًا في إحدى أعرق المجلات في المدينة. كان كتّاب المجلة قد ألّفوا مؤلفات غزيرة، وغطوا حروبًا طاحنة، وأجروا مقابلات صحفية مع رؤساء دول. أما أنا، فكان عملي يقتصر على فرز رسائلهم البريدية، ومراجعة سجلات نفقاتهم، وإحصاء عدد الكلمات في مسوداتهم. لكن رغم ذلك، شعرتُ بأنني قد بلغتُ المكانة التي أطمح إليها.

دأب والداي على الاتصال بنا من حين لآخر من منزل جدي ليطلعانا على آخر الأخبار والمستجدات في ويلش. بدأتُ أنفر من تلك المكالمات، ففي كل مرة كنا نتلقى اتصالًا منهما، كانت تطرأ مشكلة جديدة: انهيار طيني يجرف ما تبقى من الدرج، ومحاولات جيراننا، آل فريمان، الرامية إلى إعلان المنزل غير صالح للسكن قانونيًا، وسقوط مورين من الشرفة وإصابتها بجرح في الرأس.

حين سمعت لوري بتلك الأنباء، رأت أن الأوان قد آن لانتقال مورين إلى نيويورك هي الأخرى. لكن مورين لم تكن تتجاوز الثانية عشرة من عمرها، وكنت أخشى أن تكون صغيرة جدًا على مغادرة الديار. فقد كانت في الرابعة من عمرها، حين انتقلنا إلى فرجينيا الغربية، ولم تعرف عالمًا سواها.

تساءلتُ: "من سيعتني بها؟".

أجابت لوري قائلة: "سأتولاها أنا. بوسعها الإقامة معي".

تواصلت لوري مع مورين، فاستقبلت الفكرة بصراخ متحمس، ثم تحدثت لوري مع أمي وأبي. رأت أمي أن الفكرة ممتازة، لكن أبي اتهم لوري بأنها تسعى إلى خطف بناته، وأعلن تبرؤه منها. وصلت مورين في مطلع الشتاء. في غضون ذلك، كان براين قد انتقل إلى شقة صغيرة بالقرب من محطة حافلات بورت أوثوريتي، وبفضل عنوانه، تمكنا من تسجيل

مورين في مدرسة حكومية مرموقة في مانهاتن. وفي عطلات نهاية الأسبوع، كنا نجتمع جميعًا في شقة لوري. كنا نقلي شرائح اللحم أو نعد أطباقًا شهية من الاسباجيتي بكرات اللحم، ونجلس نتسامر حول ويلش، وننخرط في الضحك على كل ذلك العبث، حتى تترقرق الدموع في مآقينا.

في صباح أحد الأيام، بعد مرور ثلاث سنوات على انتقالي إلى نيويورك، كنت منهمكة في الاستعداد للذهاب إلى الجامعة، بينما أستمع إلى الراديو. أعلن المذيع عن ازدحام مروري خانق على طريق نيوجيرسي تيرنبايك. تسبب في ذلك عطل شاحنة صغيرة كانت تحمل أثاثًا وملابس متناثرة على الطريق، الأمر الذي أدى إلى اختناق مروري حاد. وبينما كانت الشرطة تحاول جاهدةً إخلاء الطريق، قفز كلب من الشاحنة، وأخذ يعدو على الطريق السريع، في حين حاول عدد من الضباط الإمساك به. انتهز المذيع تلك الفرصة السانحة للسخرية اللاذعة من هؤلاء "الريفيين" الذين قدموا على متن "خردة متحركة" وكلبهم الذي ينبح، متسببين في تأخير آلاف الموظفين عن الوصول إلى أعمالهم.

في تلك الليلة نفسها، أبلغتني طبيبتي النفسية بأن هناك مكالمة هاتفية بانتظاري.

قالت أمي بصوت مفعم بالحيوية: "جينيتي-كينز! خمني ماذا حدث؟"، ثم أردفت بحماس جارف: "أنا وأبوكِ انتقلنا إلى نيويورك!".

أول ما تبادر إلى ذهني هو تلك الشاحنة المتعطلة على الطريق في ذلك الصباح. عندما سألت أمي عن ذلك الأمر، اعترفت بأنهما واجها "عطلًا فنيًا بسيطًا" في الشاحنة. إذ تبين أن سيرًا قد انقطع في أحد الطرق السريعة المزدحمة، وأن "تينكل"، الذي ضاق ذرعًا بالحبس -كما تعرفين طبعه- قفز منها. وقد حضرت الشرطة إلى عين المكان، ودخل أبي في مشادة كلامية حادة معهم، حتى إنهم هددوه بالاعتقال، يا له من موقف عصيب! تساءلت قائلة: "لكن كيف علمتِ بذلك؟".

فأجبتها: "لقد سمعت الخبر في الراديو".

أجابت أمي بتعجب: "في الراديو؟"، وبدت غير مصدقة الأمر. "أيعقل أن يصبح عطل شاحنة قديمة خبرًا يُذاع في ظل كل الأحداث الجارية في العالم؟"، لكن الفرحة الصادقة كانت جلية في نبرة صوتها. وأضافت: "لم نكد نصل بعد، وبِتنا بالفعل مشهورين!".

بعد أن أنهيت مكالمتي مع أمي، ألقيت نظرة حولي في غرفتي. كانت غرفة خادمة صغيرة، ملاصقة للمطبخ، ذات نافذة ضيقة وحمام يُستخدم أيضًا كمخزن. لكنها كانت مملكتي الخاصة. كانت لديَّ غرفة، وكانت لديَّ حياة مستقلة، ولم يكن هناك متسع في أي منهما لأمي وأبي.

ومع ذلك، في اليوم التالي، توجهت إلى شقة لوري لرؤيتهما. كان الجميع مجتمعين هناك. عانقت أمي وأبي بحرارة. استخرج أبي زجاجة صغيرة من الشراب من كيس ورقي، بينما انهمكت أمي في سرد مغامراتهما المتنوعة خلال الرحلة. في ذلك اليوم، كانا قد قاما بجولة سياحية، وركبا مترو الأنفاق للمرة الأولى، وهو ما وصفه أبي بأنه "جحر لعنة تحت الأرض". أما أمي، فقد ذكرت أن اللوحات الفنية المصممة على طراز فن الديكو في مركز روكفلر كانت مخيبة للآمال، ولا ترتقي إلى مستوى بعض لوحاتها على الإطلاق. لم يكن أي منا نحن الأبناء يُسهم بالكثير في الحوار الدائر.

أخيرًا، سأل براين: "حسنًا، ما الخطة إذًا؟ هل ستنتقلان للعيش هنا على نحو دائم؟".

أجابت أمي: "لقد انتقلنا بالفعل".

سألت: "إلى الأبد؟".

أكد أبي: "هذا صحيح".

تساءلت بنبرة حادة غير مقصودة: "لماذا؟".

بدا أبي في حيرة من أمره، كأن الإجابة ينبغي أن تكون بديهية وواضحة. فقال: "لكي نصبح عائلة مجتمعة مرة أخرى". ثم رفع زجاجته قائلًا: "من أجل العائلة!".

استأجر والداي غرفة في منزل سكني على بُعد بضعة شوارع من شقة لوري. ساعدتهما صاحبة المنزل ذات الشعر الفضي على الانتقال إلى الغرفة، لكن بعد مرور بضعة أشهر، عندما تخلّفا عن سداد الإيجار، طردتهما ووضعت أمتعتهما في الشارع وأغلقت الغرفة. انتقل والداي بعدها إلى فندق مهجور مُكوّن من ستة طوابق، يقع في حيّ أكثر فقرًا وتدهورًا. مكثا هناك عدّة أشهر، لكن عندما تسبب والدي في نشوب حريق في أثناء نومه بسبب سيجارة مشتعلة، طُرِدا مرة أخرى. كان براين مقتنعًا بأنه يجب إجبارهما على الاعتماد على نفسيهما، وإلا فسيظلان عبئًا علينا إلى الأبد، لذا رفض استقبالهما. لكن لوري، التي كانت قد انتقلت من جنوب برونكس إلى شقة في المبنى نفسه الذي يسكنه براين، سمحت لهما بالإقامة معها ومع مورين. أخبرا لوري بأن الأمر لن يستغرق سوى أسبوع أو أسبوعين على الأكثر، أو شهر كحد أقصى، ريثما يدّخران بعض المال، ويجدان مكانًا جديدًا للإقامة.

لكن الشهر في شقة لوري تحوّل إلى شهرين، ثم ثلاثة، ثم أربعة أشهر. في كل مرة كنت أزور فيها الشقة، كانت تبدو أكثر اكتظاظًا وفوضوية. علقت والدتي اللوحات على الجدران، وراحت تجمع كل ما تجده في الشوارع، وتكدّسه في غرفة المعيشة، كما وضعت الزجاجات الملونة على النوافذ لخلق تأثير يشبه الزجاج المعشق. تراكمت الأكوام حتى لامست السقف، ثم امتلأت غرفة المعيشة بالكامل، وبدأت مقتنيات والدتي وفنّها العشوائي يزحفان إلى المطبخ.

لكن الأمر الذي كان يضغط على لوري حقًا هو والدي. فعلى الرغم من أنه لم يتمكن من العثور على عمل ثابت، فقد كان دائمًا يبتكر طرقًا ملتوية وغامضة للحصول على المال، لكنه كان يعود إلى الشقة كل ليلة وهو في حالة سُكر، ويبحث عن مشاجرات ومشكلات. أدرك براين أن لوري على وشك أن تفقد صبرها وتنفجر، فاقترح على والدي أن يأتي

ويعيش معه في شقته. وضع براين قفلًا على خزانة المشروبات، لكن لم يمر أسبوع حتى عاد إلى المنزل ليجد أن والدي قد استخدم مفكًا لخلع باب الخزانة من مفصلاته وشرب كل زجاجة من الشراب حتى آخر قطرة.

لم يفقد براين أعصابه، بل أخبر والده أنه ارتكب خطأً بتركه المشروبات الكحولية في الشقة. أوضح أنه سيسمح لوالده بالبقاء، لكن بشرط التزامه ببعض القواعد، أولاها التوقف عن الشرب طيلة فترة إقامته هناك. ردّ الأب قائلًا: "أنت سيد قرارك، وهذا حقك". ثم أضاف مُعترضًا: "لكني لن أُذعن لابني أبدًا". كان هو وأمي لا يزالان يملكان الشاحنة الصغيرة البيضاء التي قدما بها من فرجينيا الغربية، فبدأ ينام فيها.

في غضون ذلك، كانت لوري قد منحت أمي عدة مهل لإخلاء الشقة وتنظيفها، لكن المهل انقضت واحدة تلو أخرى دون جدوى. علاوة على ذلك، كان أبي يتردد على أمي باستمرار، لكن سرعان ما كانت هذه الزيارات تتحول إلى مشاجرات عنيفة، بلغت من الحدة أن الجيران أخذوا يقرعون الجدران احتجاجًا، ممّا أدّى إلى اشتباك أبي معهم أيضًا.

ذات يوم، أفضت لوري إليّ قائلة: "لم أعد أطيق هذا الوضع".

فأجبتها: "ربما عليكِ أن تطلبي من أمي الرحيل".

قالت: "لكنها أمي".

قلت: "هذا لا يهم. إنها تدفعكِ إلى حافة الجنون".

في نهاية المطاف، رضخت لوري للأمر، وبالفعل كان من الصعب عليها إخبار أمي بضرورة المغادرة، لكنها بادرت بعرض المساعدة عليها لإعادة ترتيب حياتها. إلا أن أمي أصرت على موقفها بأنها ستكون على ما يرام.

وقالت أمي لي: "لوري تفعل الصواب. في بعض الأحيان، نحتاج إلى أزمة بسيطة لتكون بمثابة الحافز الذي يدفعنا إلى استكشاف قدراتنا الكامنة".

انتقلت أمي برفقة كلبها المدلل "تينكل" للإقامة في الشاحنة مع أبي. مكثا هناك بضعة أشهر، لكن في أحد الأيام، أوقفا الشاحنة في منطقة محظورة، فسُحِبت على الفور. ولسوء الحظ، نظرًا لعدم تسجيلها، لم يتمكنا من استعادتها. في تلك الليلة، باتا على مقعد في الحديقة، ليصبحا بلا مأوى.

كان أبي وأمي يتصلان بنا بانتظام من كبائن الهواتف العمومية ليطمئنا على أحوالنا، وكنا نلتقي جميعًا في منزل لوري مرة أو مرتين شهريًا.

وبعد مضي بضعة أشهر على تشردهما، قالت أمي: "الحياة ليست بهذا القدر من السوء".

وأردف أبي: "لا تقلقوا علينا أبدًا، فقد تعلمنا دائمًا كيف نتصرف وندبر أمورنا".

ثم شرحت أمي أنهما كانا منهمكين في تعلم أساليب العيش الجديدة. لقد تفقدا مختلف مطابخ الإغاثة، وتذوقا أطعمتها المتنوعة، وصارت لديهما مطاعمهما الخيرية المفضلة. كما اكتشفا المكتبات العامة التي تحتوي على دورات مياه نظيفة حيث يمكنهما الاغتسال. وعلقت أمي قائلة: "نغتسل قدر المستطاع من أعلى وأسفل، لكننا لا نغسل ما لا يُمكن غسله". إضافة إلى ذلك، كانا ينظفان أسنانهما، ويحلق أبي ذقنه بانتظام. وكانا يبحثان في حاويات المهملات عن الصحف للاطلاع على الفاعليات والأنشطة المجانية. فكانا يحضران العروض المسرحية والأوبرالية والحفلات الموسيقية التي تقام في الحدائق، ويستمتعان بمعزوفات الرباعية الوترية وعروض البيانو في بهو المباني المكتبية، ويشاهدان عروض الأفلام ويزوران المتاحف. لقد بدأ فصل الصيف عندما صارا بلا مأوى، فكانا ينامان على مقاعد الحدائق أو بين الشجيرات الكثيفة على جوانب الممرات. وفي بعض الأحيان، كان شرطي يوقظهما ويطلب منهما الانتقال إلى مكان آخر، لكن سرعان ما كانا يجدان مكانًا آخر للمبيت. وخلال النهار، كانا يخفيان أغطية النوم بين الأشجار.

عندها قلت لأمي: "لا يمكنكما الاستمرار على هذا النحو".

فأجابتني: "ولِمَ لا؟ إن التشرد بحد ذاته مغامرة!".

مع دخول فصل الخريف، حينما بدأت الأيام تقصر والأجواء تبرد، أخذ والداي يمضيان أوقاتًا أطول في المكتبات، طلبًا للدفء والراحة اللذين توفرهما، فبعضها كان يظل مفتوحًا حتى ساعة متأخرة من الليل. كانت أمي منهمكة في قراءة مؤلفات بلزاك، بينما انصب اهتمام أبي على نظرية الفوضى، فكان يتصفح مقالات من مجلة Los Alamos Science ومجلة Statistical Physics. بل إنه ذكر أن ذلك ساعده على صقل مهاراته في لعبة البلياردو.

سألت أمي: "ماذا ستفعلان حين يحل الشتاء؟".

ابتسمتْ قائلة: "الشتاء فصلي المفضل!".

أما أنا، فكنت لا أدري أيّ الخيارات أصوب. كان جزءٌ مني يتوق إلى مد يد العون إلى أبي وأمي بكل ما أملك من قوة، بينما كان جزءٌ آخر مني يتوق إلى الخلاص من هذا العبء الثقيل بأي سبيل. حلّ الشتاء باكرًا في تلك السنة، وبِتُّ كلما غادرت عيادة الطبيبة النفسية، أجدني مشدوهة بوجوه المشردين الذين يعترضون طريقي في الشوارع، يلح عليّ سؤال مقلق: هل يمكن أن يكون أحدهم أمي أو أبي؟ اعتدتُ أن أمنح المتسولين ما تجود به جيوبي من فكة نقود، غير أنني لم أستطِع قمع ذلك الشعور العميق بأنني أمارس نوعًا من الترضية الكاذبة للضمير. كنتُ أدفع المال لأريح نفسي قليلًا من وطأة حقيقة تجوال والديّ في الطرقات، بينما أرفل أنا في نعيم وظيفة ثابتة وغرفة دافئة أعود إليها في نهاية كل يوم.

ذات يوم، بينما كنت أمشي في شارع برودواي برفقة زميلتي الدراسية كارول، أقدمتُ على إعطاء مبلغ قليل من المال لشاب متسول. لم تتوانَ كارول عن توبيخي قائلةً بنبرة حادة:

"كان عليكِ ألا تفعلي هذا".

"لماذا؟".

فأجابت: "هذا التصرف لا يشجعهم إلا على مزيد من التسول. إنهم جميعًا محتالون، لا يُؤتمن لهم جانب".

عندها، انتابتني رغبة عارمة في الرد عليها قائلة: "وما الذي تفهمينه أنتِ في هذا الأمر؟"، وتمنيتُ لو أفصحتُ لها عن أن والديّ ربما يكونان في عداد هؤلاء المشردين أيضًا، وأنها جاهلة تمامًا بمعنى أن يصبح المرء معدمًا، بلا مأوى يئويه ولا طعام يسد جوعه. لكن الإفصاح عن مثل هذا الأمر كان يعني الكشف عن حقيقتي الدفينة، وهو أمر لم أكن مستعدة له على الإطلاق. وعند مفترق الطريق التالي، انفضّ جمعنا بصمت مطبق، دون أن أنبس ببنت شفة.

كنت أعي تمامًا أنه كان عليّ أن أقف مدافعة عن أمي وأبي. لطالما تحليت بالشجاعة الفطرية منذ صغري، وكانت عائلتنا دائمًا سندًا بعضها لبعض، لكن في تلك الأوقات العصيبة لم يكن أمامنا مفر آخر. أما الآن، فقد استُنزفت قواي تمامًا في مواجهة أولئك الذين يسخرون منّا بسبب طريقة عيشنا. لم تعد لديّ القدرة أو الطاقة للدفاع عن أبي وأمي أمام العالم بأسره.

لهذا السبب تحديدًا، لم أجرؤ على كشف حقيقة والديّ أمام البروفيسورة فوكس. لقد كانت إحدى أستاذاتي المُفضّلات، امرأة نحيلة القوام، ذات عينين ثاقبتين وهالات سوداء تُظلل جفنيها السفليين، تُدرّس مادة العلوم السياسية. في أحد الأيام، سألتْ البروفيسورة فوكس إذا كان التشرد ناتجًا عن تعاطي المخدرات وبرامج المساعدة الحكومية الفاشلة، كما يدّعي المحافظون، أم أنه يحدث، كما يرى الليبراليون، بسبب تقليص خدمات الرعاية الاجتماعية وعجز النظام عن توفير فرص اقتصادية للفئات الفقيرة؟ طلبت منّي البروفيسورة فوكس الإجابة.

ترددت قليلًا، ثم قلت: "أحيانًا، أعتقد أنه ليس هذا ولا ذاك".

قالت: "هل يمكنكِ التوضيح؟".

قلت: "أظنّ أن بعض الناس يحصلون على الحياة التي اختاروها لأنفسهم".

قالت البروفيسورة فوكس: "هل تقصدين أن المشردين يرغبون في العيش في الشارع؟ هل تقولين إنهم لا يتمنون عائلة دافئة وسقفًا يحميهم؟".

قلت: "ليس تمامًا". كنت أبحث عن الكلمات المناسبة. "إنهم يتمنون ذلك، لكن إذا كان بعضهم مستعدًا للعمل بجد وتقديم بعض التنازلات، فقد لا يحصلون على الحياة المثالية، لكن بإمكانهم على الأقل تدبير أمورهم بالكاد".

تحركت البروفيسورة فوكس من مكانها خلف المنصة، ثم خاطبتني قائلةً بنبرة تكاد ترتجف من شدة الانفعال: "ما الذي تعرفينه عن حياة الفئات المهمشة؟"، وأردفت بتأثر بالغ: "ماذا تدركين عن المشقات والعقبات التي تواجه الطبقة الدنيا في المجتمع؟".

عندها، صوّب جميع الطلاب الحاضرين أنظارهم نحوي.

رددتُ قائلة: "أجل، معكِ كل الحق في هذا الطرح".

في يناير من ذلك العام، بلغ الشتاء ذروته قسوةً، حتى أنه أمكن رؤية كتل جليدية بحجم السيارات تطفو على سطح نهر هدسون. وفي غمرة ليالي الشتاء القارسة تلك، سرعان ما كانت ملاجئ المشردين تغصّ بالكامل. كان والداي يمقتان تلك الملاجئ بشدة. "مستنقعات آسنة بالبشر" هكذا كان أبي يصفها بازدراء، و"أوكار موبوءة مقيتة". ولطالما آثر والداي المبيت على مصاطب الكنائس التي تفتح أبوابها للمحتاجين، غير أنه في بعض الليالي، كانت جميع المصاطب في كل دار عبادة مشغولة عن آخرها. في تلك الظروف، كان مصير أبي أن يئول به الأمر إلى أحد الملاجئ، في حين كانت أمي تفد إلى منزل لوري، وهي تجرّ

تينكل خلفها. وفي خضم تلك اللحظات العصيبة، كان قناع البهجة الزائف الذي تتظاهر به أمي يتلاشى وينكسر، فتنخرط في البكاء، وتلوذ بلوري وتعترف بأن الحياة في العراء قاسية، بل قاسية إلى أقصى الحدود.

ولبرهة، راودتني فكرة ترك الدراسة في كلية برنارد كي أكرّس جهودي لمساعدتهما. فقد بدا لي أن إمعاني في متابعة دراسات الفنون الحرة في جامعة خاصة مرموقة، بينما والداي يصارعان قسوة الشارع، هو ضرب من الأنانية المفرطة التي لا تُحتمل، بل خطيئة أخلاقية جسيمة. غير أن لوري استطاعت أن تقنعني بأن التخلي عن الدراسة سيكون تصرفًا أحمق. أوضحت لي أن ذلك لن يجدي نفعًا على الإطلاق، بل والأدهى من ذلك، أنه سيفطر قلب أبي حسرةً. فقد كان يزهو أيّما زهو بوجود ابنة له تدرس في الجامعة، بل وفي جامعة عريقة من جامعات رابطة اللبلاب تحديدًا. فكلما سنحت له فرصة التعرف على شخص جديد، كان يسارع إلى إيجاد سبيل للإشارة إلى هذا الأمر في مستهل الحديث.

بيد أن براين ألمح إلى أن أمي وأبي لم يكونا معدومَي الخيارات. إذ كان بمقدورهما العودة إلى فرجينيا الغربية أو فينيكس. وكان بإمكان أمي أن تمارس عملًا يكسبها رزقها، فهي لم تكن بالية اليد. بل كانت تمتلك مجموعة من مجوهرات الأمريكيين الأصليين العتيقة، تحتفظ بها في مستودع تخزين خاص. ناهيك بخاتم الألماس الذي عثرت عليه أنا وبراين تحت ألواح خشبية متآكلة في ويلش، والذي كانت أمي لا تفارقه حتى في مضجعها في العراء. وهي لا تزال تحتفظ بملكية بعض العقارات في فينيكس. ناهيك بقطعة الأرض في تكساس، التي كانت تدر عليها دخلًا منتظمًا من عائدات حقوق استغلال النفط.

كان براين على صواب في تحليله. فقد كانت أمي تمتلك بالفعل جملة من الخيارات المتاحة. التقيتُها في أحد المقاهي بغية مناقشة هذا الأمر معها. فبادرتُ باقتراح أن تدرس إمكانية البحث عن ترتيب مماثل لما توصلتُ إليه أنا شخصيًا: غرفة في شقة شخص لطيف مقابل توفير الرعاية لأطفاله أو لكبار السن لديه.

غير أن أمي ردت قائلةً: "لقد أفنيتُ عمري في خدمة الآخرين ورعايتهم، وقد آن الأوان لي كي أوليَ نفسي بعض الاهتمام".

فأجبتها قائلةً: "لكنكِ في واقع الأمر لا تولينَ نفسكِ أي اهتمام يُذكر".

فسألت: "أترغبين في استئناف هذا الجدل العقيم؟ على كل حال، لقد استمتعتُ بمشاهدة بعض الأفلام السينمائية الجيدة مؤخرًا. ألا يسعنا أن نتحدث عن الأفلام فحسب؟".

ثم اقترحتُ على أمي أن تبيع مجوهراتها الهندية، لكنها لم تُعِر هذا الاقتراح أدنى اهتمام. فقد كانت تعتز بتلك المجوهرات اعتزازًا جمًا، وفضلًا عن ذلك، كانت تمثل إرثًا عائليًا ذا قيمة معنوية راسخة.

فما كان مني إلا أن ذكرتُ لها قطعة الأرض الكائنة في تكساس.

فردت قائلةً: "تلك الأرض ظلت في حوزة العائلة لأجيال مديدة، وستبقى كذلك. فمثل هذا الصنف من الأراضي لا يُباع قط".

ثم استفسرتُ منها عن العقار الموجود في فينيكس.

فأجابت: "أنا أحتفظ به لأيام الشدة والمحن".

فقلتُ لها: "لكن يا أمي، نحن نعيش بالفعل غمرة تلك الأيام العصيبة".

فقالت: "هذه ليست سوى قطرات مطر خفيفة، فربما تتبعها أعاصير عاتية في المستقبل!"، ثم احتست رشفة من الشاي الذي أمامها، وأردفت قائلةً: "الأمور غالبًا ما تنتهي على خير ما يرام".

فسألتها: "وماذا لو لم يحدث ذلك؟".

فأجابت: "هذا يعني أنكِ لم تصلي إلى المشهد الختامي بعد".

نظرت إليّ عبر الطاولة، وابتسمت تلك الابتسامة الواثقة، ابتسامة من يمتلك الإجابات جميعها. وتحدثنا عن الأفلام.

نجا والداي من الشتاء، لكن مع كل زيارة لهما، كان مظهرهما يزداد سوءًا: أكثر قذارة، بكَدماتٍ أكثر، وشعر أغبر.

قال أبي مطمئنًا: "لا تقلقي أبدًا. هل رأيتِ والدكِ العجوز يومًا في ورطة لم يستطِع الخروج منها؟".

كنت أردد في نفسي أن أبي على حق، وأنهما يعرفان كيف يعتنيان بنفسيهما وببعضهما، لكن في الربيع، اتصلت أمي لتخبرني أن أبي مصاب بالسل.

قلّما مرض أبي. كان يتعرض للكدمات والإصابات باستمرار، لكنه كان يتعافى بسرعة، كأن لا شيء يقهره. جزء مني لا يزال يصدق كل تلك الحكايات الطفولية التي قصها علينا عن كونه لا يُقهر. طلب أبي ألا يزوره أحد، لكن أمي أخبرتني أنها تعتقد أنه سيسعد برؤيتي لو ذهبت إلى المستشفى.

انتظرتُ عند مكتب الممرضات، بينما ذهب أحد العاملين ليخبره بوجود زائر. تخيلتُ أن أجده تحت خيمة أكسجين أو ممددًا على سرير يسعل الدم في منديل أبيض، لكن بعد لحظات، رأيته يهرع نحوي في الممر. كان شاحبًا وأنحل من المعتاد، لكن رغم كل تلك السنوات القاسية، لم يبدُ عليه التقدم في السن بشكل ملحوظ. لا يزال شعره كثيفًا أسودَ كالفحم، وعيناه الداكنتان تبرقان فوق القناع الجراحي الورقي الذي يرتديه.

قال: "توقفي هناك يا نيلي، لا تقتربي". وأضاف: "سعدت برؤيتكِ يا حبيبتي، لكن لا أريدكِ أن تلتقطي هذه الجراثيم اللعينة".

أخذني أبي إلى جناح مرضى السل، وعرّفني على جميع أصدقائه هناك. قال لهم: "صدقوا أو لا تصدقوا، لقد أنجب ريكس وولز شيئًا يُعتد به، وها هي أمامكم". ثم انخرط في السعال.

سألته: "أبي، هل ستكون بخير؟".

أجاب: "لن ينجو أحد منا من الموت يا حبيبتي". كانت تلك جملة يرددها كثيرًا، والآن بدا كأنه يجد فيها نوعًا من الرضا الخاص.

أخذني والدي إلى جواره عند سريره، حيث كانت تنتظم إلى جانبه حزمة من الكتب مرتّبة بعناية. أخبرني بأن معاناته مع مرض السل دفعته إلى التأمل في موضوع الموت وطبيعة الكون. كان مُمتنعًا عن الشراب تمامًا منذ دخوله المستشفى، وانكبّ على قراءة المزيد عن نظرية الفوضى، وخصوصًا أعمال ميتشل فيجنباوم، الفيزيائي في لوس ألاموس الذي درس الانتقال بين النظام والاضطراب. ذكر أبي أن فيجنباوم قدّم حُجّة مُقنعة بأن الاضطراب ليس عشوائيًا في الواقع، بل يتبع طيفًا تسلسليًا من الترددات المُتغيرة. وأضاف أنه إذا كان كل فعل في الكون نعتبره عشوائيًا يخضع في الواقع لنمط منطقي، فإن ذلك يُشير إلى وجود خالق، وبدأ يُعيد التفكير في قناعاته الإلحادية. قال أبي: "إذا كانت الفيزياء -وخصوصًا فيزياء الكم- تُشير إلى وجود قوة عظيمة أو مُبدع للكون، فأنا مُستعد تمامًا لتقبّل هذه الفكرة".

أراني والدي بعض الحسابات التي كان يعمل عليها. لاحظ نظراتي إلى ارتعاش يديه فرفعهما قائلًا: "لا أعرف إذا كان السبب هو الامتناع عن الشراب أم الشعور بالرهبة". ثم أضاف: "ربما كلاهما".

فبادرته قائلة: "اقطع لي وعدًا أن تمكث هنا حتى تُشفى تمامًا. لا أودّ لك أن تغادر قبل الأوان". أطلق أبي ضحكة مدوية، لكن سرعان ما استحال الأمر إلى نوبة أخرى من السعال.

مكث أبي في المستشفى مدة ستة أسابيع. وبحلول ذلك الوقت، لم يكن قد تعافى من مرض السل فحسب، بل كان قد أمضى أطول فترة انقطاع عن الشراب منذ خضوعه للعلاج في فينيكس. كان يدرك تمام الإدراك أنه إذا عاد إلى حياته السابقة، فسوف يعود إلى الشراب حتمًا. لحسن الحظ، تمكن أحد مديري المستشفى من تدبير وظيفة له كعامل صيانة في منتجع في ولاية أخرى، مع توفير الإقامة والطعام. حاول أبي إقناع أمي بالذهاب معه، لكنها رفضت بشكل قاطع، معللة رفضها بأن "الريف ممل".

وهكذا، سافر أبي بمفرده. كان يتصل بي بين الحين والآخر، وبدا لي أنه تمكن من تكوين حياة جديدة تروقه. استأجر شقة صغيرة أعلى مرآب، وكان يستمتع بإصلاح وصيانة الفندق العتيق، وأحب العودة إلى أحضان الطبيعة ليستمتع بجمالها، والأهم من ذلك، أنه كان ملتزمًا بالتعافي، وظل ممتنعًا عن الشراب. قضى أبي الصيف بأكمله وحتى الخريف في عمله بالمنتجع. وعندما بدأ الطقس يبرد، اتصلت به أمي، وألمحت إلى أن بقاء شخصين دافئين خلال فصل الشتاء أيسر من بقاء شخص واحد، بالإضافة إلى إخبارها إياه بمدى اشتياق الكلب "تينكل" إليه. في شهر نوفمبر، وبعد مرور أول موجة صقيع قوية، تلقيت اتصالًا هاتفيًا من براين، يخبرني فيه أن أمي نجحت في إقناع أبي بترك وظيفته والعودة إلى المدينة.

سألت براين متسائلة: "هل تظن أنه سيظل ممتنعًا عن الشرب؟".

فأجابني براين: "لقد عاد إلى الشرب بالفعل".

بعد مرور أسابيع قليلة على عودة أبي، رأيته في منزل لوري. كان جالسًا على الأريكة واضعًا ذراعه حول أمي، وفي يده زجاجة من الشراب. ضحك أبي ثم قال: "أمكِ هذه مجنونة بحق، لا أستطيع العيش معها، ولا أستطيع العيش دونها. واللعنة! يبدو أنها تشعر تجاهي بالشعور نفسه".

كان لكلٍّ منّا عالمه الخاص في تلك الفترة. كنتُ أنا طالبة جامعية، بينما أصبحت لوري رسامة في شركة متخصصة في الكتب المصورة، وكانت مورين تقيم مع لوري، وتدرس في المرحلة الثانوية. أما براين، الذي عقد العزم على أن يصبح شرطيًا منذ أن اضطر إلى الاستعانة بالشرطة في فينيكس لفضِّ نزاع نشب بين أمي وأبي، فقد أصبح مشرفًا في أحد المستودعات، وكان يخدم في قوات الشرطة الاحتياطية إلى أن يبلغ السن القانونية التي تخوّله الالتحاق بأكاديمية الشرطة. اقترحت أمي أن نحتفل جميعًا بعيد الميلاد في شقة لوري. اشتريت لها حلية فضية عتيقة، لكن اختيار هدية لأبي كان أكثر صعوبة، فقد كان دائمًا ما يردد أنه لا يحتاج إلى شيء. وبالنظر إلى أن فصل الشتاء يبدو أنه سيكون قاسيًا كسابقه، وأن أبي كان يكتفي بارتداء سترته الجلدية حتى في أشد الأجواء برودة، قررتُ أن أشتري له ملابس تقيه البرد. فتوجهت إلى متجر للمستلزمات العسكرية، واشتريت له قمصانًا داخلية صوفية، وملابس حرارية، وجوارب صوفية سميكة، وسراويل عمل زرقاء كتلك التي يرتديها ميكانيكيو السيارات، بالإضافة إلى حذاء عمل جديد ذي مقدمة فولاذية.

زيّنت لوري شقتها بالأنوار الملونة وأغصان الصنوبر وملائكة ورقية، وأعدَّ براين شراب البيض. ولكي يثبت أبي أنه في أحسن حالاته، حرص على التأكد من أنه خالٍ تمامًا من الشراب قبل أن يرتشف كوبًا من شراب البيض. وزعت أمي الهدايا، وكانت كل واحدة منها مغلفة بورق جرائد ومربوطة بخيط جزار. حصلت لوري على مصباح متصدع ربما كان من تصميم تيفاني، ونالت مورين دمية خزفية عتيقة ينقصها معظم شعرها، أما براين فحصل على ديوان شعر من القرن التاسع عشر، مجرد من غلافه، وتنقصه صفحاته الأولى. وكانت هديتي أنا سترة برتقالية بياقة مستديرة، عليها بقعة خفيفة، لكنها مصنوعة، كما أشارت أمي، من صوف شيتلاند الأصلي.

عندما ناولتُ أبي حزمة الصناديق المغلفة بعناية، اعترضَ قائلًا إنه لا يحتاج إلى شيء، ولا يريد أيَّ شيء. قلت: "افتحها فقط".

شاهدتُه وهو يزيل الغلاف بحذر، ثم يرفع الأغطية، وينظر إلى الملابس المطوية. تجلَّت على وجهه تلك النظرة الحزينة التي تعلوه عندما يصطدم بالواقع المرير. قال: "يبدو أنكِ تخجلين كثيرًا من أبيكِ العجوز".

سألته: "ماذا تقصد؟".

قال: "أنتِ ترينني مجرد حالة إحسان للعرض".

نهض أبي، وارتدى سترته الجلدية، متجنبًا نظراتنا جميعًا.

سألت: "إلى أين تذهب؟".

لكن أبي رفع ياقة سترته، وخرج من الشقة. أصغيتُ إلى صوت خطواته وهو ينزل الدرج.

سألت: "ماذا فعلت؟".

قالت أمي: "انظري إلى الأمر من زاويته، أنتِ اشتريتِ له كل هذه الأشياء الجديدة الجميلة، بينما كل ما لديه ليقدمه لكِ هو أشياء رثة من الشارع. إنه الأب، وهو الذي من المفترض أن يعتني بكِ".

خيم الصمت على الغرفة للحظات. قلت لأمي: "أظن إذًا أنكِ أيضًا لا تريدين هديتكِ".

قالت أمي: "أوه، لا. أنا أحب تلقِّي الهدايا".

بحلول صيف العام التالي، كان والداي قد أكملا عامهما الثالث في التشرّد. وقد تكيّفا مع هذا الوضع بشكل أو بآخر، وبدأتُ أستوعب تدريجيًا حقيقة أن هذا هو واقع حياتنا، شئتُ أم أبيت. علّقت أمي قائلة: "أظنّ أن للمدينة دورًا في تسهيل الأمر، فالتشرّد هنا يسير نسبيًا. لو كان الوضع لا يُحتمل، لكُنّا قد سلكنا دربًا آخر".

وفي شهر أغسطس، اتصل بي أبي ليتباحث معي بشأن المواد التي اخترتها للفصل الدراسي الخريفي. كما رغب أيضًا في التطرّق إلى بعض الكتب المُدرجة في قوائم القراءة. منذ أن استقرّ في نيويورك، دأب على استعارة الكتب المطلوبة في دراستي من المكتبة العامة. وأخبرني بأنه يقرؤها جميعًا ليتمكّن من الإجابة عن أي استفسار قد يخطر ببالي. وأضافت أمي أنه بهذه الطريقة "يحصل على تعليمه الجامعي الخاص به".

وعندما استفسر عن المقررات التي سجلتها، أجبته قائلة: "أنا أفكر في الانسحاب من الجامعة".

فقال أبي: "لا، لن تفعلي هذا!".

أوضحتُ له أنه على الرغم من أن غالبية تكاليف دراستي كانت مُغطاة بالمنح والقروض الدراسية، فإن الجامعة كانت تتوقع مني أن أُسهم بمبلغ ألفي دولار سنويًا. ومع ذلك، خلال فصل الصيف، لم أتمكن من ادخار سوى ألف دولار. كنتُ لا أزال بحاجة إلى ألف أخرى، ولم تكن لديّ أي وسيلة لتوفيرها.

تساءل أبي قائلًا: "لماذا لم تخبريني بهذا الأمر مُسبقًا؟".

بعد أسبوع، اتصل بي أبي، وطلب مني أن أقابله في شقة لوري. عندما وصل بصحبة أمي، كان يحمل بيده كيسًا بلاستيكيًا كبيرًا للقمامة، بينما كان يُخفي تحت ذراعه كيسًا ورقيًا بنيًا صغيرًا. ظننتُ أنه يحمل زجاجة من الشراب، لكنه فجأة فتح الكيس الورقي، وقلبه رأسًا على عقب. فإذا بمئات الدولارات تنهال على ركبتي -فئات الدولار والخمسة والعشرة والعشرين- جميعها مُجعّدة ومُهترئة.

قال أبي: "هذا المبلغ تسعمئة وخمسون دولارًا". ثم فتح كيس القمامة، وإذا به يحتوي على معطف فرو مُتدلٍّ منه. وأضاف: "هذا من فراء المينك الخالص. تستطيعين رهنه مقابل خمسين دولارًا على الأقل".

حدّقتُ بالمال، ثم سألته أخيرًا: "من أين لك كل هذا؟".

أجاب أبي: "مدينة نيويورك مليئة بلاعبي البوكر الذين لا يُفرّقون بين مؤخرتهم وحفرة في الأرض".

قلتُ: "أبي، أنتما أحوج إلى هذا المال مني".

ردّ أبي: "هذا المال لكِ. منذ متى أصبح اهتمام الأب بابنته الصغيرة خطأً؟".

أجبتُ: "لكنني لا أستطيع..."، ثم نظرتُ إلى أمي.

جلست أمي بجانبي، وربّتت على ساقي قائلة: "لطالما آمنتُ بقيمة التعليم الجيد".

وهكذا، عندما التحقتُ بسنتي الأخيرة في "بارنارد"، سددت ما تبقّى من رسوم دراستي بتلك الأوراق النقدية المُجعّدة والمُهترئة التي جلبها أبي.

بعد مرور شهر، تلقيت اتصالًا هاتفيًا من والدتي. كانت في غاية الحماس والانفعال، حتى إن الكلمات تداخلت عليها. أخبرتني أنهما وجدا أخيرًا مكانًا ليسكنا فيه. وأضافت أن منزلهما الجديد يقع في مبنى مهجور في منطقة الطرف الشرقي السفلي من المدينة. قالت لي: "صحيح أنه متهالك بعض الشيء، لكنه يحتاج فقط إلى قليل من الاهتمام والرعاية. والأهم من كل ذلك أنه مجاني تمامًا!".

وأوضحت لي أن هناك آخرين أيضًا ينتقلون للعيش في المباني المهجورة، ويطلقون على أنفسهم اسم "المستوطنين"، بينما تُعرف هذه المباني بـ"المستوطنات غير الرسمية". تحدثت والدتي بحماس قائلة: "أنا ووالدكِ رائدان في هذا المجال، تمامًا مثل جدكِ الأكبر الذي أسهم في استصلاح الغرب الأمريكي!".

بعد بضعة أسابيع، اتصلت بي أمي مرة أخرى لتخبرني أنه على الرغم من أن "المستوطنة" لا تزال بحاجة إلى بعض اللمسات الأخيرة -كتركيب باب أمامي على سبيل المثال- فإنهما

أصبحا جاهزين لاستقبال الزوار رسميًا. وفي أحد أيام أواخر الربيع، استقللت مترو الأنفاق إلى محطة "أستور بليس" واتجهت شرقًا. كان منزل والدي يقع في مبنى مكون من ستة طوابق، وقد تفتتت طبقة الملاط الخارجية، وتناثر الطوب في أماكن متفرقة. كانت النوافذ جميعها في الطابق الأرضي مغطاة بألواح خشبية متينة. مددت يدي لفتح باب المبنى، لكن بدلًا من أن أجد قفلًا أو مقبضًا، لم يكن هناك سوى تجويف فارغ. في الداخل، كان هناك مصباح كهربائي وحيد ومتدلٍ من سلك عارٍ في الردهة. وعلى أحد الجدران، كانت أجزاء كبيرة من الجص قد سقطت متهاوية، لتكشف عن الدعامات الخشبية والأنابيب والأسلاك الممتدة خلفها. صعدت إلى الطابق الثالث، وطرقت باب شقة والدي، فسمعت صوت أبي الخفيض ينادي من الداخل. لكن بدلًا من أن يفتح الباب كالمعتاد، ظهرت أصابعه من الجانبين، ثم رفعه بالكامل من إطاره. كان أبي واقفًا هناك، يبتسم ويرحب بي بحرارة، بينما يشرع في الحديث بحماس عن أنه لم يتمكن بعد من تركيب مفصلات للباب. وأخبرني أنه في الواقع، لم يحصل على الباب نفسه إلا مؤخرًا، بعد أن عثر عليه في قبو مبنى مهجور آخر.

ركضت أمي نحونا بابتسامة عريضة كشفت عن أضراسها، ثم غمرتني بعناق دافئ. أزاح أبي قطة كانت تجلس على كرسي -لقد اعتادا تبني القطط الضالة- ودعاني للجلوس. كانت الغرفة تعج بالأثاث المتهالك، وأكوام الملابس المتناثرة، ورفوف الكتب المكدسة، وأدوات أمي الفنية. وانتشرت في أرجاء المكان أربع أو خمس مدافئ كهربائية تبث حرارة لافحة. أخبرتني أمي أن أبي قد ربط كل "مستأجر" في المبنى بكابل معزول، ووصله خلسة بعمود كهرباء في نهاية الشارع. وقالت: "نحن جميعًا ننعم بالكهرباء المجانية، بفضل أبيكِ. لا يستطيع أحد في المبنى الاستغناء عنها".

ضحك أبي بتواضع جم، ثم أخذ يشرح لي مدى تعقيد العملية، بسبب قدم شبكة الكهرباء في المبنى، معلقًا: "أغرب نظام كهربائي رأيته في حياتي. لا بد أن دليل تشغيله مكتوب بالهيروغليفية".

تأملت المكان حولي، وسرعان ما أدركت أنه لو استبدلنا بتلك المدافئ الكهربائية موقد فحم، لأصبح هذا المكان المهجور في الجانب الشرقي الأدنى صورة طبق الأصل عن منزلنا في شارع ليتل هوبرت. لقد هربت ذات يوم من ويلش، وها أنا أستنشق الآن الروائح القديمة نفسها -رائحة زيت التربنتين، وشعر الكلاب، والملابس الرثة، وعبق المشروبات الفاسدة ودخان السجائر، ورائحة الطعام غير المبرد الذي بدأ يفسد- فشعرت برغبة جامحة في الهرب. لكن أمي وأبي كانا يفيضان فخرًا وسرورًا، وبينما كنت أستمع إليهما وهما يتحدثان بحماس -يقاطع أحدهما الآخر لتصحيح التفاصيل وسد الثغرات في القصة- عن رفاقهما من المهمشين والأصدقاء الذين صادقاهم في الحي، وعن معركتهما المشتركة ضد وكالة الإسكان في المدينة، تجلى لي أنهما قد وجدا أخيرًا مجتمعًا متكاملًا من الأشخاص الذين يشبهونهما، أناسًا يحيون حياة خارجة عن المألوف تحديًا للسلطة، ويستمتعون بذلك. بعد كل تلك السنوات من الترحال والتنقل، وجدا أخيرًا ملاذًا يأويان إليه.

في ذلك الربيع، تخرجتُ أخيرًا من كلية بارنارد. حضر براين حفل التخرج، لكن لوري ومورين لم تتمكنا من الحضور بسبب التزامات عملهما. أما أمي، فقد علقت قائلةً إن الحفل لن يكون سوى مجموعة من الخطب المملة عن مشوار الحياة الطويل والمتعرج. كنت أتمنى حقًا حضور أبي، لكنني توقعتُ بنسبة كبيرة أن يحضر وهو في حالة سكر، ويحاول مقاطعة أو مناظرة المتحدث الرئيسي في الحفل.

"لا يمكنني المخاطرة بحدوث ذلك يا أبي". هكذا أخبرته.

فرد قائلًا: "تبًا! لست بحاجة إلى رؤية "عنزتي الجبلية" وهي تستلم شهادة التخرج لأعلم أنها حصلت على الشهادة الجامعية".

في تلك الفترة، عرضت عليّ المجلة التي كنت أعمل بها يومين في الأسبوع وظيفة بدوام كامل. الآن، كل ما كنت أحتاج إليه هو مكان للإقامة. كنت أواعد منذ سنوات رجلًا يدعى إيريك، وهو صديق لأحد أصدقاء لوري الأذكياء وغريبي الأطوار. كان إيريك ينتمي إلى عائلة ثرية، ويدير شركة صغيرة، ويعيش بمفرده في الشقة التي نشأ بها في بارك أفينيو.

كان شخصًا انطوائيًا ومنظمًا بشكل قهري، يحتفظ بسجلات دقيقة لإدارة وقته، ويستطيع استعراض إحصاءات لا حصر لها عن لعبة البيسبول. لكنه كان أيضًا رجلًا مستقيمًا وجديرًا بالاعتماد عليه، لا يقامر أبدًا، ولا يفقد أعصابه، ودائمًا ما يسدد فواتيره في وقتها المحدد. عندما علم أنني أبحث عن شقة وشريك سكن لتقاسم المصاريف، اقترح أن أنتقل للعيش معه. أخبرته أنني لا أستطيع تحمل نصف الإيجار، ولن أقيم هناك إلا إذا كنت قادرة على دفع نصيبي بالكامل. اقترح أن أبدأ بدفع المبلغ الذي أقدر عليه، وعندما يرتفع راتبي، يمكنني زيادة المبلغ المدفوع. بدت الصفقة كأنها اتفاق تجاري، لكنها كانت صفقة جيدة، وبعد تفكير ملي، وافقت.

عندما أخبرت أبي عن خططي، سألني إذا كان إيريك يسعدني ويعاملني بلطف. ثم أضاف: "لأنه إذا لم يفعل، فسألقنه درسًا قاسيًا لن ينساه أبدًا!".

أجبته: "إنه يعاملني على نحو جيد يا أبي". ما أردت قوله حقًا هو أنني كنت أعلم أن إيريك لن يحاول أبدًا سرقة راتبي أو إلقائي من النافذة، وأنني كنت أخشى دائمًا أن أقع في حب رجل يشبهك يا أبي -رجل يشرب بنهم، ومندفع، وجذاب لكنه مدمر- لكنني في نهاية المطاف اخترت رجلًا يمثل النقيض التام لك.

حزمتُ كل ما أملك في صندوقين من صناديق الحليب البلاستيكية وكيس قمامة واحد. حملتها إلى الشارع، أشرت لسيارة أجرة، وأخبرت السائق أن يقلني إلى بناية إيريك. خرج البواب، بزيّه الأزرق المطرز بخيوط ذهبية، من تحت المظلة، وأصرّ على حمل الصناديق إلى الردهة.

كانت شقة إيريك ذات أسقف عالية ذات عوارض خشبية مكشوفة ومدفأة ذات إطار فني على طراز فن الديكو. "أنا أعيش فعلًا في بارك أفينيو"، ظللت أكرر هذه العبارة في نفسي، بينما كنت أعلق ملابسي في الخزانة التي أخلاها إيريك لي. ثم بدأت أفكر في أمي وأبي. عندما انتقلا إلى المسكن المهجور -الذي كان يبعد خمس عشرة دقيقة بالمترو جنوبًا، كأنهما

انتقلا إلى عالم آخر- بدا الأمر كأنهما وجدا أخيرًا المكان الذي ينتميان إليه، وتساءلت إذا كنت قد وجدت مكاني أنا أيضًا.

دعوتُ أمي وأبي لزيارة الشقة. قال أبي إنه سيشعر بعدم الارتياح في هذا المكان، ولم يأتِ مطلقًا، لكن أمي زارتني على الفور. قلبت الأطباق لتتحقق من اسم المصنع، ورفعت طرف السجادة الفارسية لتعد العُقد، وحملت الأكواب الخزفية نحو الضوء، ومررت إصبعها على حواف خزانة عتيقة. ثم توجهت إلى النافذة، وأطلت على مباني الطوب والحجر الجيري المقابلة. قالت: "لا تعجبني بارك أفينيو. العمارة هنا مملة جدًا. أنا أفضل العمارة في سنترال بارك ويست".

فقلت لها ممازحة: "أنتِ أرقى مُشردة عرفتها في حياتي". وضحكت أمي. جلسنا على الأريكة في غرفة المعيشة. كنت أرغب في التحدث معها في أمر مهم. أخبرتها أنني الآن أمتلك وظيفة جيدة، وأصبح بإمكاني مساعدتها هي وأبي. أردت أن أشتري لهما شيئًا يُحسِّن من حياتهما. قد يكون سيارة صغيرة، أو توفير مبلغ التأمين ومقدم إيجار لبضعة أشهر في شقة لائقة، أو حتى تقديم دفعة أولى لشراء منزل في حي متواضع التكلفة.

قالت أمي: "لا نحتاج إلى شيء، نحن بخير". ثم وضعت كوب الشاي برفق على الطاولة، وأردفت: "بل أنتِ من يقلقني أمرها".

"أنتِ تقلقين عليّ؟".

"نعم، قلقة عليكِ جدًا".

قلتُ: "يا أمي، أنا بخير تمامًا. أعيش في رغد".

علقت أمي بحيرة: "وهذا تحديدًا ما يُقلقني". ثم هزت رأسها بأسى وأردفت: "تأملي فحسب طريقة عيشكِ هذه! لقد تخليتِ عن مبادئكِ التي نشأتِ عليها. لا أستغرب أن أجدكِ المرة القادمة قد تحولتِ إلى جمهورية! فأين تلك القيم التي ربيتكِ عليها؟".

تزايد قلق أمي عليّ بشأن مستقبلي المهني عندما عرض عليّ المحرر وظيفة كتابة عمود أسبوعي يتناول ما أسماه "الكواليس السرية لأصحاب النفوذ". كانت أمي ترى أنه من الأجدر بي أن أُكرّس قلمي لكتابة تحقيقات صحفية حول جشع أصحاب الأملاك، والظلم الاجتماعي، والصراع الطبقي في الأحياء الفقيرة. لكني اغتنمتُ هذه الفرصة دون تردد، لأنها كانت تعني أنني سأصبح في عداد الأشخاص الذين يعرفون حقيقة ما يدور خلف الكواليس. فمعظم سكان بلدتنا "ويلش" كانوا على علم بالوضع البائس الذي آلت إليه عائلة "وولز"، إلا أن الحقيقة كانت أن الجميع كانوا يعانون مشكلاتهم الخاصة أيضًا، لكنهم تفوقوا في إخفائها وإضفاء مسحة من المثالية الزائفة على حياتهم. لطالما رغبتُ في أن أُظهر للعالم أجمع أنه لا توجد حياة مثالية على الإطلاق، وأن حتى من ينعمون بظاهر الثراء والكمال يخفون وراءهم أسرارًا دفينة.

أما والدي، فقد غمره السرور حين علم أنني سأكتب عمودًا أسبوعيًا عن "النساء الأنيقات وصاحبات الثروات الطائلة"، كما كان يحلو له أن يسميهم. وأصبح من أشد قرائي إخلاصًا، فكان يتردد على المكتبة باحثًا عن معلومات تخص الشخصيات التي أتناولها في مقالاتي، ثم يعاود الاتصال بي ليقدم لي النصائح والتوجيهات. أتذكر قوله لي ذات مرة: "تلك السيدة "أستور" لديها تاريخ ثري بالأحداث والقصص. ربما يجدر بنا أن نتقصى خفايا هذا الجانب قليلًا". وفي نهاية المطاف، اعترفت أمي نفسها بأنني قد أنجزتُ عملًا جيدًا. قالت لي: "لم يكن أحد ينتظر منكِ أن تنجزي أي شيء يُذكر. كانت ‹لوري› هي الذكية، و›مورين› هي الجميلة، و›براين› هو الشجاع. أما أنتِ، فلم يكن لديكِ ما يميزكِ سوى مثابرتكِ الدائمة".

لقد أضحت وظيفتي الجديدة محببة إليّ، بل تفوقت في مكانتها حتى على عنوان سكني الفاخر في بارك أفينيو. غمرتني الدعوات لحضور عشرات الفاعليات أسبوعيًا، تنوعت بين: افتتاحيات المعارض الفنية، والأمسيات الخيرية، وعروض الأفلام، واحتفالات توقيع الكتب، وولائم العشاء الخاصة التي تُقام في قاعات طعام ذات أرضيات رخامية. عرفت نخبة من الشخصيات المرموقة، شملت مطوري العقارات، ووكلاء الأعمال، وورثة الثروات الطائلة، ومديري صناديق الاستثمار، والمحامين، ومصممي الأزياء، ولاعبي كرة السلة

المحترفين، والمصورين، ومنتجي الأفلام، ومراسلي القنوات التلفزيونية. لقد صادفتُ أفرادًا يمتلكون أساطيل من المنازل، وينفقون في وجبة عشاء واحدة ما يفوق المبلغ الذي دفعته أسرتي ثمنا لمنزلنا الكائن في 93 شارع ليتل هوبرت.

بصرف النظر عن مدى صحة هذا الاعتقاد، كنت على يقين بأنه لو انكشفت لهؤلاء القوم حقيقة أمي وأبي، وهويتي الحقيقية، لاستحال عليّ الاحتفاظ بمنصبي. لذا، كنتُ أتحاشى الخوض في الحديث عن والديّ قدر الإمكان. وعندما كان التهرب مستحيلًا، كنت ألجأ إلى الكذب.

بعد مرور عام على بدايتي بكتابة العمود، وجدت نفسي جالسة في مطعم صغير يعجّ بالزبائن، وجهًا لوجه أمام سيدة مسنة أنيقة المظهر، تعتمر عمامة من الحرير، وهي الشخصية المرموقة القيّمة على "قائمة أفضل الملابس العالمية".

قالت: "من أين أنتِ يا جانيت؟".

"من فرجينيا الغربية".

"من أي مدينة؟".

"ويلش".

"يا لها من بلدة جميلة! ما النشاط الصناعي الرئيسي في ويلش؟".

"تعدين الفحم".

كانت تطرح أسئلتها وهي تتفحص ملابسي، وتقدر خامة كل قطعة وتكلفتها، وتصدر حكمها على ذوقي العام.

قالت: "وهل تمتلك عائلتكِ مناجم فحم؟".

"لا".

"وماذا يعمل والداكِ؟".

"أمي فنانة".

"ووالدكِ؟".

"إنه رجل أعمال".

"في أي مجال؟".

أخذت نفسًا عميقًا وقلت: "إنه يعمل على تطوير تقنية لإحراق الفحم الحجري المنخفض الجودة بكفاءة أعلى".

سألت: "وهل ما زالا يقيمان في فرجينيا الغربية؟".

عزمت أن أُمعن في الكذب وقلت: "إنهما يعشقان الحياة هناك، ولديهما بيت قديم ورائع يقع على تلة تطل على نهر بديع، وقد كرّسا سنوات طويلة لترميمه".

كانت حياتي مع إيريك تتسم بالهدوء والاستقرار الذي اعتدته. لطالما أحببت ذلك، وبعد مرور أربع سنوات على انتقالي للعيش معه في شقته، قررنا الزواج. لم يمضِ وقت طويل على زفافنا، حتى تلقينا نبأ وفاة خالي جيم، شقيق أمي، في ولاية أريزونا. حضرت أمي إلى شقتي لتخبرني بهذا الخبر المؤلم، وطلبت مني خدمة. قالت: "يجب علينا شراء أرض جيم".

فقد ورثت أمي وشقيقها معًا نصف الأراضي التي يملكها والدهما في غرب ولاية تكساس. طوال فترة طفولتنا، كانت أمي تتكتم بشكل ملحوظ على حجم وقيمة هذه الأرض، وكنت أتخيل أنها مجرد بضع مئات من الأفدنة من الأراضي الصحراوية القاحلة، والنائية جدًا.

قالت: "علينا أن نحافظ على هذه الأرض ضمن نطاق العائلة". ثم أردفتِ: "هذا مهم لأسباب عاطفية".

قلت: "لنرَ إن كان بإمكاننا تدبير الأمر وشراؤها. لكن كم ستكلف؟".

قالت أمي: "يمكنكِ اقتراض المال من إيريك الآن بعد أن أصبح زوجكِ".

قلت: "لديّ بعض المال. لكن كم ستكلف تحديدًا؟". كنت قد قرأت في مكان ما أن الأراضي القاحلة في غرب تكساس تُباع أحيانًا بمئة دولار فقط للفدان الواحد.

كررت أمي قولها: "يمكنكِ الاقتراض من إيريك".

"حسنًا، كم ستكلف؟".

"مليون دولار".

"ماذا؟".

"مليون دولار".

قلت: "لكن أرض خالي جيم مثل حجم أرضكِ تمامًا". كنت أتحدث ببطء وتأنٍّ، لأنني أردتُ أن أتأكد من أنني استوعبتُ تمامًا ما كانت أمي تحاول قوله لي. "لقد ورث كل منكما نصف أرض الجد سميث".

قالت: "أكثر من ذلك أو أقل".

"إذًا، إذا كانت أرض عمي جيم تساوي مليون دولار، فهذا يعني أن أرضكِ تساوي مليون دولار أيضًا".

"لا أعرف".

"ماذا تعنين بأنكِ لا تعرفين؟ إن حجمها مثل حجم أرضه".

"أنا لا أعرف قيمتها بالتحديد، لأنني لم أقيّمها أبدًا. لم يخطر ببالي يومًا أن أبيعها. لقد وصاني والدي ألّا أبيع الأرض مطلقًا. ولهذا السبب تحديدًا يجب علينا شراء أرض جيم. يجب أن نحافظ عليها ضمن نطاق العائلة".

قلت: "أتقصدين أنكِ تمتلكين قطعة أرض تساوي مليون دولار؟". حينها، انتابتني صدمة عنيفة. طوال تلك السنوات العجاف التي قاسيناها في "ويلش"، محرومين من الطعام والوقود والمياه الجارية، كانت أمي تمتلك أرضًا تُقدر قيمتها بمليون دولار؟ أكانت كل تلك المحنة، بما في ذلك حياة أمي وأبي المشردة في الشوارع، وحياتهما البائسة الآن في مبنى مهجور، مجرد معاناة فرضتها علينا أمي؟ ألم يكن بوسعها أن تحل أزمتنا المالية ببيع تلك الأرض التي لم تطأها قدماها قط؟ لكنها استمرت في التهرب من إجاباتي، لأدرك أن تمسك أمي بتلك الأرض لم يكن مجرد حسابات استثمارية، بل كان ضربًا من ضروب الإيمان، حقيقة مقدسة تستقر في أعماق وجدانها، ولا تقبل النقاش، شأنها شأن العقيدة الكاثوليكية الراسخة. لم أفلح إطلاقًا في انتزاع معلومة منها عن قيمة تلك الأرض.

قالت: "أخبرتكِ أنني لا أعرف".

"حسنًا، أخبريني إذًا عن مساحة الأرض بالفدان، وموقعها بالتحديد، وسأتقصى بنفسي سعر الفدان في تلك المنطقة". لم يكن المال غايتي، كل ما أردته -بل احتجت إليه بشدة- هو معرفة إجابة لسؤالي الملح: كم تساوي تلك الأرض الملعونة؟ ربما كانت تجهل القيمة فعلًا. أو ربما كانت تخشى مواجهة الحقيقة. أو ربما كانت تخشى ردة فعلنا جميعًا إذا علمنا. لكن بدلًا من أن تجيبني مباشرة، ظلت تردد بإصرار أن الأهم هو الحفاظ على أرض "العم جيم" -الأرض التي توارثها الأب عن الجد- ضمن نطاق العائلة.

"أمي، لا يمكنني أن أطلب من إيريك مليون دولار".

"يا جانيت، أنا لم أطلب منكِ كثيرًا من الخدمات طوال حياتي، لكنني أطلب منكِ خدمة واحدة الآن. وما كنت لأطلبها لو لم تكن ذات أهمية قصوى. لكنها بالفعل كذلك".

أخبرتُ أمي أنني لا أظن أن إيريك سيوافق على إقراضي مليون دولار لشراء أرض في تكساس، وحتى لو وافق، فلن أطلب منه هذا المبلغ الطائل. وأضفت قائلة: "إنه مبلغ ضخم للغاية. وما الذي ستفعلينه بتلك الأرض؟".

"أبقيها ضمن نطاق العائلة".

قلت: "لا أصدق أنكِ تطلبين مني هذا الأمر! أنا لم أرَ تلك الأرض قط".

وحين استشعرت أمي أنني لن ألبي طلبها، اختتمت حديثها قائلة: "يا جانيت، أنا أشعر بخيبة أمل كبيرة تجاهكِ".

كانت لوري فنانة مستقلة متخصصة في رسم الفانتازيا، كانت تصمم رسومات توضيحية للتقاويم ولوحات الألعاب وأغلفة الكتب. أما براين، فقد انضم إلى سلك الشرطة بمجرد أن بلغ العشرين من عمره. لم يستطِع والدي استيعاب كيف انتهى به الأمر بتربية ابن أصبح في نظره كأنه أحد أفراد الشرطة السرية. لكنني شخصيًا شعرت بفخر كبير بأخي يوم أدائه اليمين، وهو يقف بين صفوف الضباط الجدد، شامخًا بزيه الأزرق الداكن ذي الأزرار النحاسية اللامعة.

أما مورين، فقد أنهت المرحلة الثانوية، والتحقت بإحدى الكليات المحلية، لكنها لم تكن جادة في دراستها، وفي نهاية المطاف استقرت مع أمي وأبي. عملت مورين بوظائف متقطعة كنادلة أو ساقية، لكن لم تكن أي من هذه الوظائف تدوم طويلًا. منذ طفولتها، كانت مورين تبحث دائمًا عن شخص يرعاها ويهتم بها. ففي بلدة ويلش، كان الجيران من الطائفة الخمسينية يقومون بهذا الدور، والآن في نيويورك، بجمال شعرها الأشقر الطويل وعينيها الزرقاوين الواسعتين، وجدت رجالًا آخرين مستعدين لتقديم المساعدة لها.

لكن علاقات مورين بهؤلاء الرجال لم تكن أطول عمرًا من وظائفها. كانت تتحدث باستمرار عن إكمال دراستها الجامعية ثم الالتحاق بكلية الحقوق، لكن كانت دائمًا ما تظهر عقبات في طريقها. مع مرور الوقت الذي قضته مع والديها، ازدادت عزلتها وشعورها بالضياع، وأصبحت تمضي معظم أيامها في الشقة، تدخن وتقرأ الروايات، وتمارس أحيانًا الرسم الذاتي بطريقة فنية. كان ذلك المسكن المكون من غرفتين ضيقًا للغاية، وكثيرًا ما كان الخلاف يشتد بين مورين وأبي، ويتحول إلى معارك كلامية حادة. كانت مورين تصفه بأنه سكير عديم القيمة، بينما كان هو يرد عليها قائلًا إنها الابنة الأضعف بين إخوتها، وجرو مريض كان من الأجدر إغراقه عند ولادته.

لقد وصلت مورين إلى حالة من الانحدار جعلتها تنقطع حتى عن القراءة. أصبحت ملازمة الفراش طوال النهار تقريبًا، بالكاد تغادر شقتها إلا من أجل شراء السجائر. اتصلت بها هاتفيًا، وتمكنت من إقناعها بزيارتي لنتحدث معًا عن مستقبلها. وعندما حضرت، كدت لا أعرفها. لقد غيرت مظهرها جذريًا بصبغ شعرها وحاجبيها باللون البلاتيني، ووضعت مساحيق تجميل داكنة وغليظة بطريقة تذكر بمكياج راقصات الكابوكي. أخذت تدخن سيجارة تلو أخرى، وتلتفت حول الغرفة بعصبية بادية. وعندما عرضت عليها بعض الخيارات المهنية المتاحة، أجابت قائلة: "الشيء الوحيد الذي يشغل بالي الآن هو محاربة طوائف المورمونية الضالة التي اختطفت آلاف الأفراد في ولاية يوتا".

استفسرت منها: "أي طوائف تحديدًا تقصدين؟".

فردت قائلة: "لا تتظاهري بالجهل. عدم معرفتكِ بهذه الطوائف يعني أنكِ ببساطة واحدة منهم".

عقب ذلك، تواصلت مع براين هاتفيًا وسألته: "هل تظن أن مورين تتعاطى مواد مخدرة؟".

فأجابني: "إذا لم تكن تتعاطى المخدرات، فربما عليها أن تفعل. لقد فقدت صوابها تمامًا".

أبلغتُ أمي بأن مورين في أمسّ الحاجة إلى تلقي مساعدة من اختصاصي، لكنها أصرت على أن كل ما ينقصها هو استنشاق بعض الهواء الطلق والتعرض لأشعة الشمس. تحدثتُ مع عدد من الأطباء المختصين، وأفادوني بأنه ما دامت مورين تستمر في رفض الخضوع للعلاج طواعية، فإن السبيل الوحيد لإخضاعها للعلاج هو الحصول على أمر قضائي بذلك، وذلك رهن إثبات أنها تمثل خطرًا على نفسها، أو على غيرها.

بعد مرور ستة أشهر، أقدمت مورين على طعن والدتي. وقع ذلك الحادث المؤسف إثر قرار والدتي بأن الوقت قد حان لكي تعتمد مورين على نفسها، وتصبح أكثر استقلالية، وذلك عن طريق الانتقال من المنزل والبحث عن مسكن مستقل. أخبرتها والدتي بمقولة "الله في عون العبد ما دام العبد في عون نفسه"، وأردفت قائلة إن هذا لتحقيق مصلحتها الفضلى، ينبغي لها مغادرة كنف الأسرة والانطلاق لبناء مستقبلها في معترك الحياة. لم تستطِع مورين استيعاب فكرة أن والدتها بصدد طردها إلى الشارع، فانهارت قواها. ومع ذلك، أصرت والدتي على أن مورين لم تكن تسعى إلى إزهاق روحها عمدًا -وإنما كانت في حالة من التشوش والاضطراب فحسب، على حد تعبيرها- لكن الجروح كانت عميقة وتطلبت خياطة، وعلى إثر ذلك، ألقت الشرطة القبض على مورين.

بعد انقضاء بضعة أيام، حان موعد مثولها أمام المحكمة. كنا جميعًا حاضرين: أمي وأبي ولوري وبراين وأنا. كان الغضب باديًا على براين بشكل ملحوظ، بينما بدت لوري كأن قلبها قد تحطم. أما أبي، فكان في حالة سكر جزئي، محاولًا إثارة المشكلات مع حراس الأمن. بدت أمي، كعادتها، غير مبالية بهذه المحنة، وبينما كنا نجلس على مقاعد قاعة المحكمة، أخذت تتمتم بترانيم غير مفهومة، وترسم صورًا للحاضرين.

عند دخول مورين إلى القاعة، كانت مقيدة بالأصفاد، وترتدي الزي البرتقالي الخاص بالسجن. بدا وجهها منتفخًا وعليها علامات الذهول، لكن ما إن وقعت عيناها علينا، ابتسمت ولوحت لنا بحنان. طلب محاميها من القاضية إطلاق سراحها بكفالة. كنت قد اقترضت مبلغًا يقارب بضعة آلاف من الدولارات من إيريك، وكان المال بحوزتي في الحقيبة. لكن

القاضية، بعد استماعها إلى سرد النيابة العامة للأحداث، هزت رأسها بصرامة وأعلنت قائلة: "الكفالة مرفوضة".

في الردهة، نشب جدال صاخب بين لوري وأبي حول المسئولية عن وصول مورين إلى هذا الوضع البائس. ألقت لوري باللوم على أبي لتسببه في خلق بيئة أسرية مريضة، بينما أصر أبي على أن مورين تعاني "مشكلة نفسية متأصلة". تدخلت أمي قائلة إن الإفراط في تناول الوجبات السريعة قد أحدث "خللًا كيميائيًا" في جسم مورين. عند هذه النقطة، انفجر براين غاضبًا، صائحًا فيهم جميعًا بأن يصمتوا وإلا فسيعتقلهم هو شخصيًا. أما أنا، فقد وقفت صامتة، أنظر إلى الوجوه المتشنجة بالغضب، وأستمع إلى ضجيج الخلافات المتصاعدة، بينما كانت عائلة وولز تفرغ سنوات من الألم والغضب المكبوت، ويلقي كل فرد منهم بأعباء جراحه على الآخر، ويلومه في انهيار أضعفنا.

قررت القاضية إرسال مورين إلى مصحة نفسية في شمال الولاية. وبعد عام كامل من العلاج، أُطلِق سراحها، وما كان منها إلا أن سارعت بشراء تذكرة حافلة باتجاه واحد إلى كاليفورنيا. قلت لبراين: "يجب أن نوقفها. إنها لا تعرف أحدًا هناك. كيف ستتدبر أمورها؟". لكن براين رد بأنه يعتقد أن هذا أفضل شيء يمكن أن تفعله من أجل نفسها. وأوضح أنها بحاجة إلى الابتعاد قدر الإمكان عن أمي وأبي، وربما عنا جميعًا.

أدركت أن براين كان على حق. لكن جزءًا مني كان يأمل أيضًا أن تكون مورين قد اختارت كاليفورنيا لأنها اعتقدت أنها موطنها الحقيقي، المكان الذي تنتمي إليه حقًا، حيث الطقس دافئ على نحو دائم، وحيث يمكن للمرء أن يرقص تحت المطر، ويقطف العنب الطازج من الأغصان مباشرة، وينام في العراء تحت النجوم المتلألئة.

لم ترغب مورين في أن يودعها أحد. استيقظت قبل الفجر في اليوم الذي كان مقررًا لسفرها. كانت رحلتها في الصباح الباكر، وأردت أن أكون مستيقظة، وأن أفكر بها في اللحظة التي تبدأ فيها الحافلة بالتحرك، حتى أتمكن من توديعها في خيالي. اقتربت من النافذة، وأطللت على السماء الباردة الملبدة بالغيوم الماطرة. تساءلت إذا كانت تفكر فينا،

وإذا كانت ستشتاق إلينا. لطالما انتابتني مشاعر مختلطة بشأن إحضارها إلى نيويورك، لكنني وافقت في نهاية المطاف على مجيئها. وعندما وصلت، كنت مشغولة جدًا بالاعتناء بشئوني الخاصة لدرجة أنني لم أستطِع الاعتناء بها على النحو الأمثل. لذا، قلت لها بصدق عندما حان الوداع: "أنا آسفة يا مورين، آسفة على كل شيء".

لاحقًا، أصبحت رؤيتي لأمي وأبي أقل تكرارًا. أما براين، فقد تزوج واشترى منزلًا فيكتوريًا قديمًا في لونج آيلاند كان بحاجة إلى ترميم، فقام بذلك وأنجب ابنة صغيرة هو وزوجته. وصارت هذه هي عائلته. أما لوري، التي كانت لا تزال تسكن شقتها بالقرب من محطة بورت أوثوريتي، فكانت تحافظ على تواصل أوثق مع أمي وأبي، لكنها هي الأخرى مضت في سبيلها الخاص. لم نلتقِ منذ محاكمة مورين. في ذلك اليوم، انكسر شيء ما بداخل كل منا، ومنذ ذلك الحين، فقدنا تلك الروح التي كانت تجمع شمل العائلة.

بعد حوالي عام من سفر مورين إلى كاليفورنيا، تلقيت اتصالًا من أبي، بينما كنت في العمل. أخبرني أنه يحتاج إلى رؤيتي ليحدثني في أمر هام.

"ألا يمكننا التحدث بالهاتف؟".

"أحتاج أن أراكِ وجهًا لوجه يا عزيزتي".

طلب مني أن آتي إلى الجانب الشرقي السفلي في تلك الليلة. ثم أردف قائلًا، كأن الأمر عرضي: "وإذا لم يكن في الأمر مشقة كبيرة، فهل يمكنكِ أن تشتري وأنتِ في طريقكِ بعض المشروبات؟".

"آه، إذًا هذا هو الدافع الحقيقي من وراء اتصالك".

"لا يا عزيزي. أنا بحاجة إلى التحدث معكِ فعلًا. لكنني سأكون مُمتنًا لو أحضرتِ معكِ بعضًا من المشروب. لا أريد شيئًا فاخرًا، فقط أرخص ما لديهم. نصف لتر يكفي، وثلاثة أرباع اللتر سيكون أفضل".

استأتُ من طلب أبي غير المباشر، فقد ذكره في ختام المكالمة كأنه مجرد إضافة عابرة، بينما كنت أظن أنه الدافع الأساسي من وراء اتصاله. في تلك الظهيرة، اتصلت بأمي، التي لم تكن تحتسي أي شيء أقوى من الشاي، واستشرتها في ما إذا كان عليّ أن ألبي طلب أبي.

قالت: "أبوكِ هو كما هو، لقد تأخر الوقت على محاولة تغييره الآن. جامليه".

في تلك الليلة، توقفت عند محل لبيع المشروبات، واشتريت نصف جالون من نوع من الشراب غير المكلف، تمامًا كما طلب أبي، ثم استأجرت سيارة أجرة إلى الجانب الشرقي السفلي. صعدت الدرج المظلم، ودفعت الباب الذي لم يكن مغلقًا بإحكام. كانت أمي وأبي مستلقيين على فراشهما تحت كومة من البطانيات الخفيفة. بدا لي أنهما كانا هناك طوال اليوم. فوجئت أمي برؤيتي، وأطلقت صوت دهشة، وبدأ أبي يعتذر عن الفوضى، قائلًا إنه إذا سمحت له أمي بتنظيف بعض أغراضها غير الضرورية، فقد يكون بمقدورهما على الأقل تحسين وضع المكان، مما جعل أمي تتهم أبي بأنه كسول.

"سُررتُ برؤيتكما"، ثم انحنيتُ لتقبيلهما، وأضفتُ: "لم نلتقِ منذ مدة طويلة".

حاول والداي النهوض من الفراش بصعوبة، فرأيتُ أبي يرمقُ الكيس الورقي البني بنظرات مُترقبة، فناولته إياه على الفور.

ما إن رأى الزجاجة، حتى هتف بصوت مُتهدج، يملؤه الامتنان: "يا لها من زجاجة كبيرة!"، ثم أخرجها ببطء من الكيس، ونزع غطاءها، وارتشف منها رشفة طويلة وعميقة. أردف قائلًا: "شكرًا لكِ يا ابنتي، أنتِ حقًا لطيفة بأبيكِ العجوز".

كانت أمي ترتدي سترة صوفية سميكة منسوجة بنمط الضفائر. وكانت يداها خَشِنَتين ومتشققتين، وشعرها مُلبدًا، لكن وجهها كان مُوردًا يشعُّ بصحة جيدة، وعيناها صافيتين ومُضيئتين. بالمقارنة، بدا والدي شاحبًا وهزيلًا. شعره الذي لا يزال أسود حالكًا، باستثناء

بعض الشعيرات الرمادية عند الصدغين، كان مُصففًا إلى الخلف، لكن وجنتيه كانتا غائرتين، ووجهه مُغطى بلحية خفيفة غير مُهذبة. لطالما عهدته حليق الذقن، حتى في أسوأ أيامه التي قضاها مشردًا في الشوارع.

تساءلتُ قائلة: "لماذا تُطلق لحيتك يا أبي؟".

"ينبغي لكل رجل أن يُطلق لحيته مرة واحدة على الأقل في حياته".

"لكن، لماذا الآن تحديدًا؟".

أجاب أبي: "إما الآن، وإما لا. الحقيقة أنني أحتضر".

ضحكتُ بتوتر، ثم ألقيتُ نظرة خاطفة على أمي، التي كانت قد أخذت دفتر الرسم الخاص بها، دون أن تنبس ببنت شفة.

كان أبي يُراقبني بشكل يقظ. ناولني زجاجة من الشراب. على الرغم من أنني نادرًا ما أشرب، ارتشفتُ قليلًا وشعرتُ بحرارة المشروب، وهو يهبط في حلقي.

علقتُ قائلة: "قد أُدمن هذا المشروب".

رد أبي: "إياكِ أن تسمحي لذلك بالحدوث".

ثم استطرد أبي في قص تفاصيلَ إصابته بمرض استوائي نادر عليّ، زعم أنه التقطه إثرَ تورطه في عراكٍ دامٍ مع بعض تجار المخدرات النيجيريين. وذكر أن الأطباء بعد فحصه، قد بتّوا بأن مرضه عضال لا شفاء منه، وأخبروه بأن أيامه باتت معدودة، ولا تتجاوز أسابيع أو بضعة أشهر على أقصى تقدير.

في الواقع، بدت لي القصة محض هراء لا يُصدّق. فالحقيقة التي لا مراء فيها هي أن أبي، على الرغم من كونه لم يتجاوز التاسعة والخمسين من عمره آنذاك، كان مدخنًا شرِهًا لأربع

علب سجائر يوميًا منذ نعومة أظفاره في الثالثة عشرة، وبحلول تلك المرحلة المتأخرة من حياته، كان قد بلغ من الإفراط في احتساء الشراب حدًا يقارب اللترين يوميًا. لقد كان، كما يصف نفسه على نحو دائم، "غارقًا في الإدمان إلى حدّ التخليل".

ومع ذلك، ورغم كل ما ألحقه بحياتنا من فوضى وخراب ودمار، عجزتُ عن تصور حياتي -أو العالم بأسره- من دونه. قد يبدو بغيضًا في بعض الأحيان، إلا أنه كان يمنحني من الحبّ ما لم أعهده من أي شخص آخر سواه. أدرتُ وجهي شطرَ النافذة.

بينما استأنف أبي قائلًا: "اسمعي، لا أريد أن أرى دمعة واحدة، أو أسمع نحيبًا وعويلًا على ريكس المسكين. مفهوم؟ لا أريد شيئًا من هذا القبيل إطلاقًا، لا الآن ولا حين أفارق هذه الدنيا".

أومأتُ برأسي إقرارًا.

"لكنكِ كنتِ تكنّين لوالدكِ العجوز محبةً، أليس كذلك؟".

أجبتُ: "أجل يا أبي. وأنتَ بادلتني الحب".

قال: "هذه هي الحقيقة الصادقة". ثم أردف ضاحكًا: "لقد عشنا أوقاتًا لا تُنسى، أليس كذلك؟".

"بلى، بالتأكيد".

"غير أننا لم نُشيِّدَ تلك القلعة الزجاجية قط".

"صحيح، لكننا استمتعنا بالتخطيط لتشييدها".

"يا لها من مخططات بديعة حقًا!".

ظلّت أمي نائية بنفسها عن الحديث، مُواصلةً الرسمَ في صمت وسكون.

توجّهتُ إلى أبي بالقول: "أبي، يؤسفني أنني لم أتمكّن من دعوتك لحضور حفل تخرّجي".

قال متهكمًا: "تبًا لهذا". ثم قهقه. "لم تكن تلك المراسيم تعني لي أدنى شيء". ثم احتسى رشفة طويلة أخرى من زجاجته الكبيرة. قال: "هناك الكثير في حياتي مما يبعث على الأسف"، ثم استدرك قائلًا: "إلا أنني فخور بكِ يا عنزة الجبل، بالوضع الذي صرتِ عليه. كلما خطرتِ ببالي، حدثتُ نفسي قائلًا لا بد أنني قد أصبتُ في أمر ما".

"بالتأكيد فعلتَ".

"حسنًا، إذًا هذا يكفيني".

تبادلنا أطراف الحديث قليلًا عن أيام الصبا، وأخيرًا، حان موعد الانصراف. طبعتُ قبلة على وجنتيهما معًا، وعند الباب، التفتُّ لألقي نظرة أخيرة على أبي.

قال: "مهلًا". ثم غمز لي بعينه ولوّح بإصبعه. "هل خذلتكِ قط؟".

ثم انفجر ضاحكًا لعلمه بأنه ليست ثمة إجابة أخرى يمكنني أن أنبس بها. فاكتفيتُ بابتسامة صامتة. ثم أغلقتُ الباب خلفي.

بعد أسبوعين، داهمت أبي أزمة قلبية. عندما وصلتُ إلى المستشفى، كان يرقد على سرير في قسم الطوارئ، وعيناه مطبقتان. كانت أمي ولوري تقفان بجواره. قالت أمي: "الآن لم يعد يبقيه على قيد الحياة إلا الأجهزة".

كنتُ على يقين بأن أبي كان سيكره ذلك أشد الكره، أن يقضي ساعاته الأخيرة حبيس مستشفى، معتمدًا على الآلات. لطالما تاقت نفسه إلى الفضاء الرحب والبرية الطليقة. دائمًا ما كان يردد أنه حين توافيه المنية، يجب أن يُوضع جثمانه على قمة جبل شامخ، لتنال

منه النسور والذئاب وتقتات عليه. انتابتني رغبة جامحة أن أحمله بين ذراعي، وأندفع به خارج أسوار المستشفى ليُودع الحياة على طريقة ريكس وولز، وداعًا أخيرًا يليق به.

لكن بدلًا من ذلك، آثرتُ أن أقبض على يده. كانت دافئة ووطيدة. وبعد مضي ساعة، فُصِلت الأجهزة.

في غضون الأشهر اللاحقة، صرتُ أجدني تواقةً على نحو دائم إلى أن أكون في أي بقعة أخرى، عدا تلك التي أجدني فيها. إن كنتُ في معمعة العمل، تمنيتُ لو أنني في رحاب المنزل. وإن آويتُ إلى المنزل، لا أحتمل المكوث فيه. إذا أبطأت سيارة الأجرة التي تقلني من سيرها في غمرة الزحام لدقيقة أو تزيد، كنتُ أهجرها على الفور وأمضي سيرًا على قدمي. كنتُ أستشعر ضربًا من السلوى والراحة كلما كنتُ في طور التنقل والترحال، سائرةً نحو وجهة ما، لا عند بلوغها والحلول فيها. انكفأتُ على ممارسة التزلج على الجليد، كنتُ أنتفض من مضجعي قبيل انبلاج الفجر، وأذرع الشوارع الوادعة المخضبة بضوء الفجر، قاصدةً حلبة التزلج، حيث أُحكم رباط حذائي حتى تكاد تؤلمني قدماي. كنتُ أستقبل بصدرٍ رحب برودة الطقس القارسة، بل وحتى صوت ارتطامي بالجليد الصلد الندي. تلك الحركات المتواترة السريعة كانت كفيلة بأن تُذهب عني شتات الذهن، وأحيانًا كنتُ أعود في المساء لأعاود التزلج مرة أخرى، ولا أءوب إلى المنزل إلا مع هجوع الليل، وقد استنفدتُ قواي عن آخرها. استغرق الأمر مني برهة لأدرك أن مجرد الانكباب على الحركة لم يكن كافيًا، بل كنتُ في أمسّ الحاجة إلى أن أعيد النظر في كل شيء من جذوره.

بعد مرور عام على وفاة والدي، انفصلتُ عن إيريك. كان رجلًا طيبًا بكل المقاييس، إلا أنه لم يكن الشريك الذي أصبو إليه حقًا. كما أنني لم أجد نفسي منسجمة مع نمط الحياة في بارك أفينيو.

انتقلتُ إلى شقة صغيرة في الجانب الغربي من المدينة. كانت تفتقر إلى وجود بواب أو مدفأة، لكن نوافذها العريضة كانت تفيض على الغرف بضوء النهار الطبيعي، وكانت أرضياتها مكسوة بالخشب المصقول الأنيق، ذكرني مدخلها الضيق بالشقة المتواضعة

الأولى التي تقاسمتها مع لوري في حي برونكس. لقد شعرتُ بأن هذا المكان هو الأنسب لي في تلك المرحلة.

تدريجيًا، بدأتُ أتردد على حلبة التزلج على نحو أقل انتظامًا، وعندما سُرقت زلاجتي، لم أعد أفكر في شراء أخرى. بدأت رغبتي الملحة في الحركة الدائمة تخفت وتتلاشى. مع ذلك، كنتُ أجد متعة كبيرة في الخروج في نزهات مسائية طويلة. غالبًا ما كنتُ أميل إلى السير في اتجاه النهر. كانت أضواء المدينة المتلألئة تحجب رؤية النجوم، لكن في الليالي الصافية، كنتُ أستطيع أن ألمح كوكب الزهرة شامخًا في الأفق، فوق المياه المعتمة، يتوهج بضوء ثابت ومستمر.

5

عيد الشكر

كنتُ أقف على رصيف المحطة بصحبة زوجي الثاني، جون. دوى صفير بعيد، وبدأت أضواء حمراء بالوميض، وقُرع جرس بينما أُغلقت الحواجز على الطريق. انطلق الصفير مرة أخرى، ثم لاح القطار من خلف الأشجار، وهو يتقدم نحو المحطة، وكانت مصابيحُه الأمامية الضخمة باهتةً في ضوء ظهيرة نوفمبر الساطع.

توقف القطار بسلاسة. اهتزت المحركات الكهربائية، وأصدرت حفيفًا خافتًا، وبعد وقفة مطولة، انفتحت الأبواب. بدأ الركاب يخرجون بتدفق، يحملون صحفهم المطوية وحقائب قماشية لعطلة نهاية الأسبوع ومعاطفهم ذات الألوان الزاهية. لمحتُ أمي ولوري بين الجموع، وهما تنزلان من العربة الأخيرة، فلوّحتُ لهما بالإشارة.

مضت خمسة أعوام على رحيل أبي. لم أكد أرى أمي منذ ذلك الحين إلا لمامًا، ولم يسبق لها أن التقت بجون من قبل، كما أنها لم تطأ قدمها مزرعتنا الريفية القديمة التي اقتنيناها في العام المنصرم. كانت فكرة جون أن يدعوها مع لوري وبراين إلى المنزل لقضاء عيد الشكر، في أول تجمع لعائلة وولز منذ مراسم جنازة الأب.

تبسمت أمي ابتسامة عريضة، واندفعت نحونا بخطوات متسارعة. وبدلًا من معطف، كانت ترتدي ما يشبه أربع سترات متراكمة بعضها فوق بعض وشالًا، مع سروال من المخمل المضلع وحذاء رياضي عتيق. كانت تحمل حقائب تسوق كبيرة في كلتا يديها. أما لوري فكانت تتبعها، مرتديةً معطفًا أسود وقبعة فيدورا سوداء. لقد شكّلتا معًا هيئة لافتة للنظر حقًا.

استقبلتني أمي بأحضانها. كان الشيب قد بدأ يغزو شعرها الطويل، لكن وجنتيها ظلتا ورديتين، وعيناها تشتعلان بالحيوية كما عهدتهما دائمًا. ثم عانقتني لوري، وقدمتُ لهما جون.

اعتذرت أمي قائلة: "اعذريني على هذه الملابس، لكنني أعتزم أن أستعيض عن حذائي المريح بآخر أكثر رسمية للعشاء". ثم مدّت يدها في إحدى حقائبها، وأخرجت زوجًا من أحذية "البيني لوفر" البالية.

كان الطريق المتعرج إلى المنزل يمر تحت قناطر حجرية عتيقة، ويخترق غابات وقرى وادعة، ويمر بمحاذاة برك آسنة حيث تسبح البجعات برشاقة فوق سطح الماء الذي يعكس السماء كمرآة مصقولة. كانت معظم أوراق الأشجار قد تساقطت بالفعل، والرياح تعصف بها، فتثيرها في دوامات مرحة على جنبات الطريق. ومن خلال الفروع العارية المتشابكة، بدأت المنازل التي كانت متوارية خلال فصل الصيف تظهر مجددًا.

في أثناء القيادة، انهمك جون في الحديث مع أمي ولوري عن المنطقة، وعن مزارع البط والزهور المنتشرة فيها، وعن الأصل الهندي لاسم مدينتنا. جلستُ بجانبه أتأمل تقاسيم وجهه الجانبية، ولم أستطِع منع ابتسامة رقيقة من الانبثاق على شفتي. كان جون كاتبًا مبدعًا يؤلف الكتب والمقالات الصحفية ببراعة. ومثل حالي، تنقل كثيرًا في صغره، لكن والدته نشأت في قرية جبلية بولاية تينيسي، على بعد حوالي مئة ميل جنوب غرب ويلش، لذا يمكن القول إن جذور عائلتينا تعود إلى المنطقة نفسها. لم أصادف في حياتي رجلًا أود قضاء وقتي معه أكثر من جون. لقد أحببته لأسباب لا تُحصى: كان يتقن الطبخ إلى حد الإبداع دون الحاجة إلى وصفات، ويُبدع قصائد هزلية لبنات أخواته تثير الضحك، وعائلته الكبيرة الدافئة استقبلتني بحفاوة كأنني فرد منهم. وعندما أريته ندبتي للمرة الأولى، قال إنها "مُثيرة للاهتمام". استخدم هذه الكلمة تحديدًا. وأضاف جون: "النعومة مُملة، لكن الملمس المميز فريد"، وأوضح أن الندبة دليل على أنني أقوى من الشيء الذي حاول إيذائي.

عندما وصلنا إلى المنزل، خرجت جيسيكا، ابنة جون البالغة من العمر خمسة عشر عامًا من زواجه الأول، لاستقبالنا، وبرفقتها براين وابنته فيرونيكا ذات الثماني سنوات، وكلبهم الضخم البنية من نوع "بول ماستيف"، تشارلي. لم يكن براين قد رأى أمي منذ وقت طويل، منذ جنازة والدي في الواقع. فاحتضنها بحرارة على الفور، وبدأ يمازحها بشأن "الهدايا" التي اعتادت التقاطها من القمامة وإحضارها للجميع في أكياس التسوق: أدوات مائدة صدئة، وكتب ومجلات قديمة، وبعض قطع الخزف الأنيقة من عشرينيات القرن الماضي التي لم يكن بها سوى بعض الشقوق الطفيفة.

لقد أصبح براين الآن رقيبًا محققًا مرموقًا، يشرف على وحدة خاصة تتولى التحقيق في الجريمة المنظمة. كان قد انفصل عن زوجته في الفترة الزمنية نفسها تقريبًا التي انفصلت فيها عن إيريك، لكنه وجد عزاءه في شراء وتجديد منزل قديم مُتهالك في بروكلين. أوصل الكهرباء والسباكة فيه من جديد، وركب نظام تدفئة عصريًا، ودعم أساسات الأرضيات، وأعاد بناء الشرفة بنفسه. كانت هذه المرة الثانية التي ينتشل فيها منزلًا مُتهدمًا، ويعيده إلى رونقه. وإلى جانب كل ذلك، كانت هناك امرأتان على الأقل تتنافسان للفوز بقلبه والزواج به. لقد كان يبلي بلاءً حسنًا حقًا في حياته.

أخذنا أمي ولوري في جولة في الحدائق، التي كانت قد أصبحت مهيأة لاستقبال فصل الشتاء. كنت أنا وجون قد قمنا بكل أعمال تجهيز الحديقة بأنفسنا: جمعنا أوراق الشجر المتساقطة وفرمناها في آلة التقطيع، وقلمنا النباتات المعمرة الذابلة، وغطينا التربة بالسماد العضوي، وحفرنا حديقة الخضراوات، ونثرنا السماد الطبيعي، واقتلعنا أبصال الداليا، وخزّناها في دلو مملوء بالرمل في القبو. وقطع جون أيضًا الحطب من شجرة القيقب الميتة التي قطعناها وخزنه، وصعد إلى السطح لاستبدال بعض ألواح الأرز التالفة.

أومأت أمي برأسها إعجابًا بكل استعداداتنا، فقد كانت دائمًا تقدر قيمة الاعتماد على النفس. وتأملت بنظرات مُعجبة نبات الوستارية المُتسلق حول سقيفة الأدوات، وكرمة البوق التي تُزين المعرش، وبستان الخيزران الشاهق في الخلف. وما إن وقع بصرها على

المسبح، حتى انتابتها رغبة مُفاجئة، فعَدَت مسرعة فوق الغطاء المطاطي الأخضر لتختبر مدى متانته، بينما كان الكلب تشارلي يركض خلفها. غطس الغطاء تحت وطأة قدميها، فتهاوت وهي تطلق ضحكات عالية. سارع جون وبراين لمساعدتها على الوقوف، بينما كانت فيرونيكا، ابنة براين، تُراقب الموقف بعينين واسعتين، فقد كان هذا اللقاء الأول لها بجدتها منذ أن كانت طفلة صغيرة.

قلت لفيرونيكا: "جدتكِ وولز مختلفة عن جدتكِ الأخرى".

فأجابت فيرونيكا: "مختلفة تمامًا".

التفتت جيسيكا، ابنة جون، نحوي قائلة: "لكن ضحكتها تشبه ضحكتكِ تمامًا".

ثم اصطحبت أمي ولوري في جولة داخل أرجاء المنزل. على الرغم من أنني ما زلت أذهب إلى المكتب في المدينة مرة واحدة في الأسبوع، فإن هذا المكان قد أصبح منزلنا ومقر عملنا، أنا وجون، وهو أول منزل أمتلكه في حياتي. أبدت أمي ولوري استحسانهما للأرضيات الخشبية العريضة المصنوعة من ألواح الخشب الصلب، والمدافئ الرحبة، وعوارض السقف المصنوعة من خشب شجر الجراد، التي لا تزال تحمل آثار ضربات الفأس التي قطعتها. استقر نظر أمي على أريكة مِصرية اشتريناها من سوق للتحف والأثاث المستعمل. كانت الأريكة ذات أرجل خشبية منحوتة ومسند ظهر مُزين بمثلثات من صدف اللؤلؤ. أومأت أمي برأسها علامة الرضا وقالت: "كل منزل يحتاج على الأقل إلى قطعة أثاث واحدة قبيحة تبعث على السخرية".

انتشرت في أرجاء المطبخ رائحة شهية للديك الرومي المشوي الذي أعده جون، وكانت حشوته غنية بالسجق والفطر والجوز والتفاح وفتات الخبز المتبل. وإلى جانب ذلك، أعدّ جون البصل بالكريمة والأرز البري وصلصة التوت البري وطاجن القرع. أما أنا، فقد أعددتُ ثلاث فطائر لذيذة باستخدام تفاح طازج من بستان قريب.

هتف براين قائلًا: "يا لها من وليمة!".

فأجبته: "أجل، لقد حان وقت الوليمة!".

ألقى نظرة على الأطباق، وكنت أعرف تمامًا ما يختلج في صدره وما يدور في خلده كلما رأى مائدة كهذه. هز رأسه ثم قال: "أتعلمين؟ ليس من العسير حقًا إعداد مائدة زاخرة بالطعام إذا ما عقدتِ العزم على ذلك".

علقت لوري قائلة: "الآن ليس هناك مُتّسع للانتقاد".

بعد أن جلسنا لتناول العشاء، زفّت إلينا والدتي خبرًا سعيدًا. فقد أفادت أنها تقيم في مسكن غير مُرخّص منذ ما يقرب من خمسة عشر عامًا، وأن المدينة قررت أخيرًا بيع هذه الشقق لها ولسكان آخرين مقابل دولار واحد للشقة. وأوضحت أنها لن تتمكن من قبول دعوتنا للإقامة لفترة أطول، لأنها مُلزمة بالعودة لحضور اجتماع مجلس إدارة شاغلي المساكن غير النظامية. وأضافت أنها ما زالت على تواصل مع مورين، التي لا تزال تقيم في كاليفورنيا، وأن أختنا الصغرى، التي لم أتحدث إليها منذ مغادرتها نيويورك، تُفكر في العودة لزيارة قصيرة.

استرجعنا بعضًا من مغامرات أبي الرائعة: أتذكر كيف سمح لي بمداعبة الفهد، وكيف اصطحبنا في رحلات لصيد الشياطين، وكيف أهدانا النجوم في عيد الميلاد.

قال جون: "يجب أن نشرب نخب ريكس".

رفعت أمي عينيها نحو السقف، كأنها تفكر بعمق. ثم رفعت كأسها وقالت: "الحياة مع والدكم لم تكن يومًا مملة، أو خالية من الإثارة".

رفعنا كئوسنا، وكأنني أستعيد ضحكة أبي في أذني، تلك الضحكة الصادرة من القلب عندما يبتهج بشيء ما. في الخارج، كان الليل قد أرخى سدوله. هبت الرياح فأخذت النوافذ

ترتجف، وألسنة الشموع تتراقص، تتمايل على حافة الفوضى والانتظام.

عن المؤلفة

جانيت وولز تعيش في مدينة نيويورك، وفي لونج آيلاند، وهي متزوجة من الكاتب جون تايلور. تُسهم بكتابة مقالات منتظمة في موقع MSNBC.com.

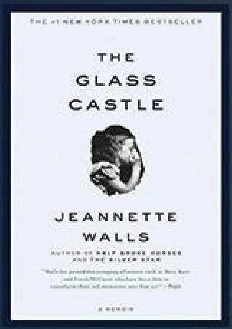

القلعة الزجاجية هو أكثر من مجرد كتاب باهر".
- إنترتينمنت ويكلي Entertainment Weekly

"المذكـرات هي قصصنا الخياليـة في عالمنا الحديث... يواجـه مؤلـف السـيرة الذاتيـة التحـدي المهيب لمحاولـة فهم السـاحرة الشريـرة والتغـاضي عن أخطائهـا، بـل ويحـاول أن يحبها... سـوف يندهش القـراء مـن ذكاء أطفـال وولـز وقدرتهـم عـلى التعافي".
-فرانسين بروز،
مجلة The New York Times Book Review،
الصفحة الأولى

القلعـة الزجاجيـة مذكرات بارزة عـن القدرة عـلى التعـافي والتكفير عن الأخطاء، وكتاب يكشـف السـتار عن عائلة مضطربة ونشـيطة بشـكل فريد. عندما كان والـد جينيت الألمعي صاحب الشـخصية الآسرة يكـف عن الشرب، كان يتملك زمـام خيال أطفاله، ويعلمهـم الفيزيـاء، والجيولوجيا، وكيفية اعتنـاق الحياة بلا خـوف. لكن عندما كان يستسـلم للـشرب، كان يفتقر إلى الصـدق ويسـبب الأذى. كانت أمهـا لا تتقيـد بالتقاليد ناقمـة على فكرة الحياة الأسرية وكانت في غنى عن مسئولية تنشئة أسرة.

تعلـم الأطفـال في عائلـة وولـز الاعتنـاء بأنفسـهم. كانـوا يطعمون ويكسـون، ويحمون بعضهم بعضـا، وفي النهاية وجـدوا طريقا يأخذ بهم لنيويـورك. تبعهـم والداهم، واختـاروا التشرد حتـى بعدمـا ازدهر حال أبنائهم.

القلعــة الزجاجيــة مذكرات مذهلــة بحق يتغلغــل فيها حب شــديد لأسرة غريبـة، لكنها مخلصـة. جينيت وولـز لديها قصـة لترويها، وهـي ترويها ببراعة، دون أقل قدر من الشفقة على ذاتها.

تعيش جينيـت وولز في فيرجينيـا وهي متزوجـة من الكاتب جـون تايلور. هي مساهمة منتظمة في محطة MSNBC وعملت في مطبوعات متعددة بما فيها Esquire، و USA Today، و النيويورك.

ISBN 628-1072-17-123-0
6 281072 171230
282210457

امسـح الكود للنسـخـة الإلكترونيـة

مكتبة جرير
JARIR BOOKSTORE
...not just a Bookstore ...ليست مجرد مكتبة

1. الغلاف
2. 2
3. أمي روز ماري، وأبي ريكس وولز، في يوم زفافهما، عام 1956
4. إلى جون، لإقناعي بأن كل شخص مثير للاهتمام له تاريخ
5. شكر وتقدير
6. "الظلام سبيلنا، والنور مسعانا، والجنة، التي لم تكن لنا من قبل ولن تكون أبدًا، هي الحقيقة الدائمة".
7. امرأة في الشارع
8. الصحراء
9. كان صراخ أمي وأبي عاليًا لدرجة أنك تستطي...
10. ويلش
11. قلت: "لم نأكل شيئًا سوى الفشار لثلاثة أي...
12. نيويورك
13. عيد الشكر
14. عن المؤلفة
15. 15